
سيد القمنى
أهل الدين..
والديمقراطية

أى نسخة غير موقعة خطيا بيدالمؤلف
تعتبر نسخة مزورة وتعرض البائع والمشترى
للمسألة القانونية
توقيع المؤلف / ....

أهل الدين ... والديمقراطية

الكتاب	أهل الدين والديمقراطية
المؤلف	د.سيد القمنى
الطبعة الأولى :	القاهرة ٢٠٠٥
الناشر:	دار مصر المحروسة
المدير العام:	خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع	يحيى إسماعيل
الغلاف	علاء قابيل
رقم الإيداع بدار الكتب	٢٢٠٥ / ٢٠٠٥

١٣ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة

تليفون - فاكس : ٣٩٦٠٥٠٠

d_misr _ elmahrosa @ hotmail . com

أهل الدين... والديمقراطية

د. سيد القمنى

القاهرة ٢٠٠٥

الإهداء

إلى عراقنا الآتى
قاطرة للمستقبل

مقدمة

المقدمة في سطور

هذا الكتاب هو رد وتفنيد لكثير من المسلمات القومية الإسلامية، هو نقد للثابت وخروج على المألوف بل وعلى الخطوط الحمراء، هو مناقشة لما تصورناه حقيقة مطلقة بينما كان هو الباطل المطلق، هو فى الفكر نقد للثوابت، وهو فى السياسة معارضة للسائد، هو فى الفكر احترام للعقل ودفع للبحث والتعلم الذى أغلقوا أبوابه منذ أكثر من ألف عام.

هو رد الناس على تدخل السلطان المشيخى فى تفاصيل حياتهم، هو ضد أن تكون هناك فرقة واحدة ناجية، هو احترام لكل الفرق، هو دعوة لاتحاد الناس لمواجهة من احتكروا الدين والدنيا، هو إعادة قراءة لمأثورنا كى لايقف عائقا فى وجه الحداثة، هو تأكيد أن للنص الدينى تفاسير تتعدد بتعدد الظروف والبشر والبيئات ومتغيرات الزمن، وإنه ليس هناك إسلام وحيد أحد مطلق الصحة ومطلق السلطان، هو مع كشف العورات لا التغطية عليها، وهتك الأسرار لا التستر عليها، هو محاولة ملء فراغ تركه سادتنا أهل الدين بلقعا.

هو مع الإنسان وحقوق الإنسان الكاملة أيا كان جنسه أو لونه أو عقيدته على التساوى، هو مع الوطن الأرض والتاريخ والجغرافيا وليس مع وطن هلامى اسمه الإسلام، هو حوار فى الدين والتاريخ والسياسة والمستقبل، هو محاولة من أجل الإصلاح المرتقب، هو رحلة منوعة عبر عام انقضى تفاعلت مع ماطرحته الأيام خلال هذا العام من أحداث،

والبحث عن دور لنا، وتأكيد هذا الدور فيما يجرى اليوم على أرضنا وفى بلادنا ومحيطنا، حتى لاتفعل القوى الكبرى وقوى السلاطين وأهل الدين فى بلادنا وحدها هذه المرة، لتحدد لنا مصائرنا.. هذه المرة نحن هنا، ولن نسكت، ولن نتراجع، وسنفرض وجودنا وشروطنا على خريطة مستقبل سنشارك فى رسمه وتخطيطه بأيدينا، ولن يرسمه لنا بعد ذلك أحد كان فى الأرض أو فى السماء.

سيد القمنى

القاهرة يناير ٢٠٠٥

أهل الدين... والديمقراطية

معالجة: كيف نفكر؟

قبل أن نفكر

بعد لقاء لى مع أحد مفكرى التيار الإسلامى المتشدد، وهو عضو بل ضلع كبير فى الجماعة الإسلامية، التى أنهكت قلب مصر ومزقت كبدها لردح طويل ذبحا وتقتيلا، وذلك فى برنامج الاتجاه المعاكس بقناة الجزيرة بتاريخ الثلاثاء ٢٠٠٤/٢/١٧ حول مناهجنا الدراسية وضرورة تغييرها، فى حوار لم يكتمل لضيق الوقت. قرر مشايخ المساجد فى مصر استكمال الحوار لكن دون وجودى كطرف محاور، فى خطب منبرية تحريضية من النوع القاتل، مصحوبة بالدعاء مع «آمين» طويلة صارمة مجلجلة غاضبة تستمطر اللعنات من رب السماء، على شخصى الواهن الضعيف. ولان هذا النوع من التحريض المخيف ليس لونا من الحوار إنما هو نوع من الجرائم التى يعاقب عليها القانون، فإنى أحيل هذا الموضوع إلى السيد وزير الداخلية كبلاغ له ولكل من يهمه الأمر، لأنى لاشك أحب أن أعيش فترة أطول لمواجهة أمثال هؤلاء ذوداً عن وطنى ومستقبل أبنائى.

ومع توارد الخواطر استدعى الدعاء المبتهل على شخصى المسكين استفساراً ساذجا يتساءل عن الموعد المحتمل للتدخل الالهى لصالح أمتنا التقية ليكسر لنا أمريكا يقضى لنا على إسرائيل، بعد طول دعاء تجاوز الخمسين عاما. وهنا تبرز ملحوظة تفرض نفسها بشدة وهو أنه كلما طال أمد ركوعنا ندعو، وكلما ارتفعت مكبرات الصوت بالدعاء لمزيد من التوصيل والاسماع والإعلان والإعلام وكلما ازداد عدد المحجبات فى بلادنا، ازداد تخلفنا وضعفنا وهواننا، وكلما ازدادت إسرائيل قوة، وكلما تضخمت قوة أمريكا وأعداء الإسلام «كما يرونهم» فى مشارق الأرض ومغاربها،

ومع توارد الخواطر لابد أن نتذكر فوراً ذلك الأسبوع القومى الذى خصصه السودانيون للقنوت، للدعاء على الأمريكان بعد ضرب مصنع الشفاء بدعوة من حسن الترابى. هذا فى وقت كان حكام السودان من مؤمنى الإسلام، قد تبنوا نظرية غزو العالم بالمشروع الإسلامى، وضموا فى معسكراتهم من حاولوا اغتيال السيد رئيس الجمهورية، وضموا أيضا ابن لادن ورجاله، والغريب أنهم ضموا أيضا الشيوعى كارلوس، وكل آفات الأرض وواغشها.

ولم يأت أسبوع الدعاء على الأمريكان فى السودان سوى بسلام أمريكى فرضته أمريكا لإيقاف نزيف الدم. ورضى به أشاوس السودان رضا مهينا، وقبلوا تقسيم بلادهم وثرواتهم بديلا عن نظام علمانى يحفظ

للوطن وحدته وللمواطن كرامته. قبلوا الانفصال ولم يقبلوا التخلى عن الحكم باسم الله. وهو الحكم المشكوك فى نسبته إلى سيد الأكوان مع ما نراه من مهانة أمام سيد الأرض. لقد رضوا ببيع الوطن حتى لا يتخلوا عن السلطان.

ومع مزيد من الدعاء انهارت ليبيا تقبيلا على أيدى سادة الأرض فى انحناء مذل، «فسبحان المعز المذل» هذا ناهيك عن جلوس الحاكم الأمريكى فى عاصمة الخلافة ليسمح للشعب العراقى بكل ما سبق وأن حرمه منه نظام صدام حسين الوطنى...!!

«فسبحان صاحب الحول والطول والقدرة.. فهو مغير الأحوال!!!» وعن حال الفلسطينيين والعرب أمام إسرائيل فحدث ولا حرج عن كم الامتهان والنكبات والخسائر المصبوغة بالدم.

كلا لم يدرك مشايخنا حتى الآن أن العالم كله قد انتقل فى تغير أحواله عبر الزمن من عصر الدعاء إلى عصر المنطق والبرهان وإنجاز الإنسان لما يريد بيديه وبعقله بالمنهج العلمى فى مجتمع مدنى. وأن استمطار السماء بصلاة الاستسقاء التى قد يأتى بعدها المطر أو لا يأتى، قد تم استبداله بتحديد دقيق لكمية المياه المطلوبة من السحاب دون عشوائية، وكمية العناصر المطلوب إضافتها لغذاء التربة وأنواع هذه العناصر، وموقع الأرض المطلوب ريها ومساحتها وإسقاط المطر المطلوب بالضبط، بالعلم وحده.

كلا لم يدرك مشايخنا أن العلم ليس فقط فى القرآن أو فى كتب الحديث والفقه، إنما فى علوم انجزها عباقرة من بين البشر، وأن علينا التعرف على هذه العلوم واحترامها حتى نعرف أن العلماء ليسوا هم رجال الدين، وأن العالم اليوم هو من ينجز وينتج ويبتكر ويكتشف ويخترع بما يؤدى إلى سعادة البشرية وتيسير معاشها وارتقائها درجة جديدة على سلم الحضارة. وأنه ليس من الضرورة أن يكون إديسون أو داروين أو آينشتين مسلمين، كى نعترف لهم بأفضال عادت علينا وعلى البشرية بتقدم عظيم، أوكى نعترف بأنهم شرف الإنسانية وفخر البشرية الحقيقى. وأنه ليس من الضرورى أن يكون آدم سميث أو فرويد أو هيجل من الصحابة حتى نقدم لهم إجلالا يليق بالعلماء، حتى نتمكن من اعتياد قيمة احترام العلم التى هى فى زماننا البديل الصالح عن الدعاء الصالح، وأن هؤلاء هم الأمثلة النموذجية المعاصرة البديلة لنماذج الرجل الصالح.. هذا إذا كان فينا بعد رغبة فى الاستمرار بالوجود بعد أن خرجنا من التاريخ.

لكن يبقى السؤال: ما الذى يدفع إمام مسجد للتحريض واستمطار اللعنات؟.. قال للمصلين إنه كان يحاول الاتصال بالبرنامج الخبيث ليفحمنى لكنه كان لا يرد عليه «كما لو كانوا يعلمون من هو وماذا سيقول» لذلك قرر أخذ المبادرة بالرد فى صلاة الجمعة. لأن هناك طبخة ما قد تمت بين قناة الجزيرة وبينى للإتيان بمناظر ضعيف. لذلك قرر الإمام أخذ دور المناظر القوى.. أمام شخص غير موجود؟!

بينما يعلم القاصى والدانى أن قناة الجزيرة معروفة بعدائها لأنصار الحريات وبخاصة العلمانيين منهم، وأنها بالباع والدراع مع كل ما له روائح إسلامية أو عروبية، وأصبح معلوما عنها تدبير هزيمة المناظر العلمانى بأى شكل من باب تهوين شأنهم فى نظر الناس. كما أن مناظرى فى الحلقة رجل معروف الشأن فى التيار الإسلامى المتطرف، وأنه كما اهتم بتسليح نفسه بالسلاح، قد اهتم بتسليح نفسه بالمعرفة فأنجز الليسانس وهو يقضى عشر سنوات سجنا فى قضية مقتل السادات، ثم حصل على ماجستير الاقتصاد والعلوم السياسية وانجز كتابة الدكتوراه فى ذات التخصص، وله أعمال منشورة ومواقف معلومة، وهو مقاتل فكرى كما هو مقاتل دموى.. لقد كان الرجل «ملو هدومه» يا شيخ المسجد.

إن هذا الموقف من حضرة الشيخ يشير إلى لغة لم تعد تصلح للعصر، لأنها لغة ثقافة أمست ضعيفة لعدم قدرتها على التكيف مع التطور، وبسبب تناقضاتها الداخلية، وبسبب تناقضها مع الواقع، وإن لهذا الضعف قوانين تاريخية مجتمعة، وله أعراض واضحة علينا وجلية، تلك الأعراض التى تبدو على الأمم وهى تزول وعلى البشر وهم فى سبيل الانقراض والاختفاء التاريخى، كما حدث فى حقب تاريخية عديدة من قبل. لأننا ثابتون عند تاريخ لا يتغير فى لغته ومفاهيمه وقوانينه، بينما العالم تحرك من حولنا وابتعد حتى لم نعد نراه. لذلك نحن أمة مهزومة تحارب طواحين الهواء، أو ترد فى صلاة الجمعة على الغائبين فقط!! لاختراع القتال اختراعا. لكنه القتال غير الشريف. أن حضرة الشيخ لا يدرك أن منهجهم يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأن ما يقدمونه اليوم من مناقشات لإثبات أنهم على استعداد للنقاش العقلى لا يجعلنا ننسى أنهم كانوا يقدمونه من قبل بالسنجة والرشاش، وأنهم فى حال الهزائم الفكرية عادة ما تأكلهم أيديهم على الخنجر والمسدس، لأنهم لا يرون أن هناك شيئاً اسمه حق الاختلاف وكذلك كان تاريخنا الأسود الطويل، لم يكتب فيه للرأى المخالف بقاء طوال عصور الخلافة المجيدة، لأنه إما انتهى بقسوة سيف مسرور، أو اختفى فى المعتقلات، أو اختفى لأن أصحابه اختفوا ببساطة.

كلا لم يدرك شيخ المسجد أنه كأحد سكان الكهف، وأن العملة التى بيده قد أصبحت غير صالحة للاستخدام لطول نومه والتاريخ يجرى من حوله. لقد استنزل على شخصى اللعنات- سامحه الله- لزعمه أنى قد وصل بى الأمر إلى حد مقارنة عمرو بن العاص الفاتح ببول بريمر الرئيس الأمريكى لعاصمة الرشيد.

كان موضوعى هو إصلاح ثقافتنا بأيدينا قبل أن تصلحها لنا يد العم سام. وضمن ذلك وقبله وبعده الصدق مع تاريخنا وتدقيق مفاهيمنا وإصلاح طرائقنا فى التفكير، فإذا تحدثنا عن الاحتلال عبر التاريخ لا يصلح أن نبكى على الاندلس التى تحررت من احتلالنا ونجأر بالشكوى من احتلال أراضينا، وندعو الله ليل نهار ليمكننا من البلاد الأخرى ننهب الأموال ونسبى الزرارى والنساء وندخلها تحت رايتنا. وأنه إذا ما تحدثنا عن الاحتلال فعلينا أن نعترف ببساطة بأن خروج العرب من جزيرتهم إلى دول الحضارات المحيطة بهم كان احتلالا لتلك البلاد وغزوا استيطانيا بكل معنى الكلمة، بل وفاق ألوان الاحتلال الاستيطانى الأخرى بمسحه لغة تلك الشعوب، وكانت وعاء تاريخها وثقافتها وعلمها. وهذا القول ليس وزرا لا فى حق الوطن ولا حق الإسلام، إنما هو تقرير لأحداث سجلها العرب بأيديهم وما ارتكبت تلك الأيدى، لكن تحت شعور الزهو والفخار. فهو ليس بكلام مختلف ولا رغبة فى الانسحاب عن اللغة العربية وثقافتها، إنما هو فقط إقرار بالحقائق حتى لا نظل أصحاب المنهج الأحول الذى يرفض أن يرى عيوبه وخطأه فى حق نفسه. حتى يمكنا على الأقل أن نتمكن من الكيل بمعيار واحد «وهو ديدننا فى اتهام الغير دوما»، وحتى لا تختل لدينا الرؤية فنرى القشة فى عيون الآخرين ولا نرى الخشبة فى عيوننا.

ولماذا نذهب بعيداً لنقارن بين ما فعل بن العاص فى مصر وما فعل بريمر فى العراق؟ لماذا لا نقرب المسافات والأمكنة ونختار حدثا واحداً من مئات الأحداث التى جرت للعراقيين عند فتح بلادهم؟ وتاريخنا يكتظ والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه بأمثلة تنوء بها المكتبة العربية وتفجع العين ويتلظى منها الحس الإنسانى وينفر.

والحادثة المقصودة هى من حدثان خالد بن الوليد إبان فتحه بلاد العراق وسنعمد إلى قراءتها من أشد الكتب تحيزا للسنة ولقريش وللصحابة، من ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية طبعة دار الكتب العلمية مج ع ص ٣٥٠، إذ يقول حاكيا: «ثم كانت وقعة أليس فى صفر أيضا، وذلك أن خالداً كان قد قتل يوم الولجة طائفة من بكر بن وائل من نصارى

العرب.. فاجتمعوا بمكان يدعى اليس.. وقال خالد: اللهم لك علىّ إن منحتنا اكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً.. حتى أجرى نهرهم بدمائهم. ثم أن الله منح المسلمين أكتافهم فنادى منادى خالد: الأسرى الأسرى.. فأقبلت الخيول بهم أفواجا يساقون سوقا، ووكل بهم رجالا يضربون أعناقهم فى النهر. ففعل ذلك بهم يوما وليلة، ثم يطلبهم فى الغد، ومن بعد الغد، وكلما حضر منهم أحد ضرب عنقه فى النهر. وكان قد صرف ماء النهر إلى موضع آخر. فقال بعض الأمراء: إن النهر لا يجرى بدمائهم حتى ترسل الماء فيجرى بها فتبر بيمينك فأرسله فسال النهر دما عبيطا فسمى نهر الدم إلى اليوم فدارت الطواحين بذلك الماء المختلط بالدم العبيط ماكفى المعسكر بكماله ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى السبعين ألفا».

فقط ذبح سيف الله المسلول سبعين ألف عربى عراقى لافارسى لأنهم لما انهزموا قبل ذلك جمعوا جيشهم فى اليس ليدافعوا عن بلادهم من الاحتلال وعلى أعراضهم وشرفهم من النهش والبيع فى أسواق النخاسة، وهو ما أهاج بن الوليد فأقسم أن يجعل النهر يجرى بدمائهم إذا مكنه الله من أسرهم «منحهم أكتافهم» وقام بسد مجرى النهر ليجرى النهر الفارغ بدم الأضاحى البشرية العربية بيد العربى. وظل يقتل ويقتل ليجرى الدم نهراً وهو لا يجرى لثقله، حتى جاء من همس له أن الدم لن يجرى إلا إذا فتح عليه المياه، ولولا هذا الهمس التاريخى لكان خالد قد ذبح أهل العراق جميعا حتى يبر بقسمه لربه، وما كان لشخص كابن الوليد أن يحنث بيمين كهذه!!

إن وجهة النظر الإسلامية تعرض هذا فيما كتبته للتاريخ كلون من الزهو والفخار، ولا ترى فى فعل خالد سوى شيمة إسلامية عظيمة هى عدم الحنث باليمين، لكن أى وجهة نظر أخرى مهما وليت النظر باحثا عن قول، فلن تجد سوى الدم يلطخ وجدانك ويشعرك بمحاولة البحث عن أى لون ممكن تقديمه من ألوان الاعتذار التاريخى لهؤلاء السبعين ألفا الذين ذبحهم خالد بدم بارد حتى تهدأ نفسه وتستريح.

إن أصحاب هذا اللون من الفخار، هم بالضبط وحدهم من يستطيعون أن يفجروا أنفسهم ليقتلوا الشيعة فى يومهم الاقدسى فى العراق، ليلوثوا شرف العراق ويزيدون فى عسر ولادة العراق الجديد.

إن من يفكر بهذا الشكل وينظر إلى كل ما حدث فى تاريخ الإسلام نظرة تبجيلية لا ترى فيه أى نقص، تدفع العوام وأشباه المثقفين إلى

محاولة استعادة هذا النموذج اليوم بكليته ولا يرون فيه سوى الكمال كله، تقوم قوى الإسلام السياسى بتجنيدهم بشديد البساطة وهنا مكمن المشكلة مطلوب إعادة تشكيل الوعى حتى نعرف كيف نفكر لا أن نحب أو نكره أو نبجل أو نلعن ولا أن نقوم بتجميل تاريخ يصعب تجميله، وأن نعترف بالأخطاء أينما كانت ماضيا أو حاضرا لنعى ذاتنا ونراها، لأننا لن نتمكن من اللحاق بآخر عربات فى قطار الحداثة إلا إذا تخلصنا من أوهامنا ومعالجة طريقتنا فى التفكير

ولو فكر شيخ المسجد المقصود هنا من داخل عقل بول بريمر لاعتبر مقارنته بخالد بن الوليد أو بعمرو بن العاص إهانة لا تغتفر. فعلينا ألا نتصور أن معايير ذلك الزمن صالحة لكل زمان ومكان فهذا كلام خارج العلم أصلا، لأن المتغير الزمنى والتطورى لا يحدث إلا ويحدث معه تبدل فى المعايير، بل أن تبدل المعايير نفسه هو ما كان دفعات للتقدم والتحضر، لذلك يجب التخلى عن فكرة الصلاحية الدائمة لأى شىء له رائحة إسلامية، وأن إيمان بعض المسلمين بأن الصحابة أسياد لنا وهم نموذج وكواكب تقتدى بها البشرية لا يلزم بريمر بقبول قاعدتنا المعيارية. وضمن تلك الحالة المتشابكة أننا لا نرى حركة الزمن أبدا، ربما لأنه زمن أمريكى وما قبله كان زمنا أنجلو فرنسيا وهكذا وحين نتأمل شيئا فى الزمن لا نرى سوى زمن الصحابة بحسبانه النموذج الأمثل الأكمل الأكثر تحضرا وعلما، وهى نظرة لا تجعلنا نرى ما بأيدى الآخرين من أسباب التقدم لنستفيد بها، رفضا للاعتراف بتفوقهم علينا وبسبيل نفى هذا التفوق يتقدم أصحاب حكايات العلم والإيمان الساحة لإثبات معرفتنا الربانية المسبقة لكل ما تم اكتشافه ومالم يتم اكتشافه بعد ووصل الأمر بأحدهم إلى أنه قد أباح لنا أخيراً أكل الذباب لنحصل على المصل المضاد من أحد الجناحين.. فلله درك يا زغلول؟!!

إن طريقتنا فى التفكير المصاغة فى لغة محنطة لامكان لها سوى أكفان التاريخ، ولا حل معها سوى «قتلها» بحثا ونقداً ثم أخيراً وليس آخراً علينا أن نتواضع ونعرف قدر أنفسنا الحقيقى إزاء الأمم الأخرى، فنتحدث بلغة الحال لا بلغة المنتصر التاريخى بطل كل الأزمنة فنكون كالملك المخلوع المجنون الذى يلعب بنياشين الماضى متصوراً أنه لايزال ملكا.

لقد أفلت شمسكم بلظاها... فارحلوا عنا

أحيانا لا يفهم المرء ماذا يريد الحزب الوطنى، خاصة مع ما تنشره صحفه وأخص منها بالذكر صحيفة (اللواء الإسلامى) التى تختط منهجا يتضارب بالكلية مع ما نعلمه عن فكر رئيس الحزب وتصريحاته السيد رئيس الجمهورية. وقياسا على فكر رئيس الحزب فإن اللواء الإسلامى لا يمكن أن تكون بمواقفها معبرة عن توجه رسمى، وإنما يصبح القول بشأنها بين عدة احتمالات: أنها تنفذ سياسات خاصة تكاد تكون انشقاقا تاما عن الحزب، لفريق يعادى أفكار الرئيس ومنهجه ويشكل جبهة قوية تريد ذلك وتحميه، أو أن لرجالها من السلطان ما يفوق قدرة النظام على ضبط هذا الفريق وفق ولاءات الحزب وما يصدر عن زعيم الحزب، وهو الأمر الذى سيتضارب مع صدورها أسبوعيا تحمل ذات الفكر وذات اللغة المناقضة للمعلن عن الحزب ورئيسه، ولا يمكن قبول فكرة أنها تصدر أسبوعيا فى غفلة من النظام، لأنها فى هذه الحال ستكون طابورا خامسا منظما بدقة داخل النظام والحزب.

وتعالوا ندرس معا هذه الواقعة التى شنت فيها الصحيفة على شخصى المتواضع حملة تحريض عبر عددين من أعدادها، لا يشغلنى هنا فيها شخصى الضعيف لكن فيها ما يشغلنا جميعا وهو منهج الصحيفة فى تلويث شرف الشرفاء الأطهار قياسا على من تصفهم بمفكريها وعلمائها، لأنها لا تجد ما ترد به غير التلويث وصب السخائم. هذا جانب، أما الجانب الأهم والذى استحق هنا عناء مناقشة تلك التوافه الهينات هو كشف زيف منهجهم الذى ملكوا به عقول الناس، وأداروا فيه ظهرهم للوطن وقيم المواطنة عبر تاريخ طويل لأسلافهم من سدنة بيع كل شىء حتى لو كان هو الوطن. ناهيك عما هو أنكى وأمر فيما تسوقه من اتهامات، حيث سنكشف بعد قليل مدى مصداقية هذه الاتهامات العلنية الفاجرة من كذبها.

فى عدد اللواء الصادر الخميس ٢٠٠٤/٣/٤ أفردت صدر صفحتها الأولى لموضوع عنوانه: «كتيبة العداء لعروبة مصر تواصل نشاطها، د. سيد القمنى: عروبة مصر عبودية لاحتلال طال أمده» وفى عددها التالى الصادر فى الخميس ٢٠٠٤/٣/١١ أفردت صحفة كاملة لمن سموهم المفكرين والعلماء ليردوا على «أفكار سيد القمنى المشبوهة لإرضاء أعداء الإسلام ووقائع التاريخ تشهد ببطلانها/ عنوان ص٥».

وفى مدخل دارماتيكى مسرحى تقدم اللواء أوراق اعتماد الموت المجانى بقولها: «تجارة رابحة تشهدها الساحة الفكرية والثقافية: سباقا قويا بين

أعضاء. منظمة العداء للإسلام والعروبة لتقديم أوراق الاعتماد لقادة هذا العالم. وفى ظل المؤامرة المستمرة خرج علينا د. سيد القمنى ليواصل ثورته ضد عروبة مصر عبر حوار أجراه معه موقع إيلاف أحد المواقع المشبوهة بشبكة المعلومات الدولية الإنترنت. زاعما أن عروبة مصر عبودية لاحتلال طال أمده، وأن طرح سؤال الهوية الآن يدل على أن المريض- بالعروبة طبعا- يرغب فى العثور على إجابة شافية، اعترافا منه بالهزيمة الحضارية التى أصابتنا منذ دخول الغزاة العرب مصر. وأشار إلى أن عروبة مصر تعنى أن نلقى بتاريخ مصر قبل الغزو العربى وكل ما له من ثقافات فى المجهول، بينما هوية مصر المصرية تعنى تضافر كل ما فى تاريخ مصر المصرية من ثقافات وحضارات فى بوتقة واحدة».

أول ما يلفت النظر هنا هو حديث المؤامرة الخارجية وعملائها فى الداخل ممن هم مثلى. وهو حديث تكرر حتى الملل، ولم يفسر شيئا يوما، ولم يحل مشكلة يوما، سوى محاولة تبرير تخلفنا وانهزامنا الحضارى على كل المستويات، دون أى بحث جاد لأسباب مشاكلنا وعلاجها، لأن هناك من يسترزق دوما من حكاية المؤامرة، ويجعل الأمة وأدعياء فكرة المؤامرة فى حالة غباء مطبق، فرغم كل المؤامرات التى تمت عبر التاريخ (فيما يقولون) فإنهم لم يستفيدوا مرة واحدة من المؤامرة السابقة ليجنبوا أنفسهم «الضرب على القفا» فى المؤامرة التالية، حتى استطابوا الضرب من الخلف واستعذبوه، حتى ولو فى عالم الوهم المريض، وصورونا دوما مفعولا بنا عبر التاريخ دون أن نفعل نحن ولو مرة، ولو بمؤامرات نحن أربابها الحقيقيون بلا منازع ينازعنا.

أما وصفهم لشبكة إيلاف بالمشبوهة (لأنها أجرت معى حوارا)؟! فإن إطلاق مثل هذه الصفات فى العلن أصبح اليوم بحاجة إلى دعم القول بالوثائق، لكن اللواء مازالت تعيش عصور الماضى عندما كان يكفى أن تشير لفلان بأنه عميل أو مشبوه ليقتله العوام أو يعتقله النظام أو لقتله مدنيا فى نظر الناس وكفى، اعتمادا على ارتدائها الزى الإسلامى المبرر الكافى لتشويه الآخرين وعلى الناس التصديق، وترفع فى وجهنا إسلاميتها لتنقل المعارك الأيديولوجية أو السياسية أو الثقافية إلى ساحة الدين، ليتحول الاختلاف إلى إيمان أو كفر، ولأنها هى اللواء «الإسلامى» فلاشك أن المختلف سيكون غير إسلامى.. سيكون هو الكافر.

ولأنه لا يشغلنى هنا الدفاع عن الشبكة المذكورة، حيث لا ناقة لى فيها ولا جمل، ولأنها قادرة على قول كلمتها، فإنى أعلن أنى لم أتقاض عن حوارى مع إيلاف مالا، حيث المال هنا هو شرط ربط المشبوه بالمشبوه، بينما سادتنا من

علماء هذا اللون من الفكر هم من كانوا يتسابقون على مكافآت الـ CIA الأمريكية إبان إقامتها ندوات ومؤتمرات الصحوة الإسلامية، وصرفها الباذخ على أكثر من مائتى ندوة سنويا خلال عقد الثمانينيات كله، هذا غير الندوات الفرعية والبحوث التى يتم التكليف بها والسفر بالطائرات بالدرجة الأولى وملء البطون بمال الأمريكان حلالا زلالا بفتاوى تزكم الأنوف. أيام كانت أمريكا هى العشق المباح. وهم أيضا مع العروبيين المخلصين الأعلى صوتا ونفيرا من بدأت فضائحهم تتكشف بالوثائق بعد نشر فخرى كريم بالمدى العراقية لوثائق كوبونات البراميل النفطية، حتى إنه أطلق على أحدهم لكثرة ما تقاضى (عبدالحليم برميل)، وهو البرميل الذى عرف بأنه كان الأعلى صوتا دفاعا عن صدام ونظامه، وأكثرهم شراسة واتهاما للمختلف، ومن هؤلاء المختلفين كان شخصى الضعيف الذى نال من سفاهات هذا البرميل المرتشى وصحيفته المرتشية الكثير.

هؤلاء أخذوا قوت أطفال العراق وثمن الأدوية والحليب رشوة، بينما العراق كانت تحت الحصار، فى وقت كانوا يقومون فيه بحملة دفاع شعارها «أطفال العراق يموتون» يجمعون فيها جنيهات فقراء مصر تبرعا ليشتروا بها عربة أدوية فى مظاهرة تحشد لها عدسات التليفزيونات متجهة إلى عراق صدام وجيوبهم محشوة بدولارات شعب العراق المعدم ولم نجد فيما نشر فخرى كريم مفاجأة، وإن كنا نتمنى عليه أن يستمر فى فضح وتعرية تجار دم الأطفال، الذين باعوا كل شىء بالمال حتى لو كان ثمنه نصف مليون طفل عراقى، ثم قاموا يسيرون فى الجنازة لقد أكلوا لحم أخيهم ميتا.. فما أبشعكم أولاد القحب.....!!

هذا بينما صاحب هذا القلم الذى تتهمه اللواء بالتجارة والعمالة ويتهمه المكفرون والعلماء الذين حشدتهم بكل رخيص ومبتذل، يعلن وكله شرف يتيه به ويزهو ويتباهى أنه عاش ولم يزل يعيش عيشة لا يحتملها سادتنا المشايخ والعلماء من إسلاميين وعروبيين، وأنه يوم يريد توسيع رزقه على حساب الوطن كما فعلوا أو على حساب دم الأطفال وآلام الثكالى فلن يجد خيرا منهم دليلا إلى العمالة ودروبها فهم الأدرى بشعابها.

السادة الدكاترة العلماء لم يشغلهم مدى صدق ما قدمته لهم الصحيفة الإسلامية من عدمه فهى إسلامية وكفى بذلك سبيلا للصدق، ولم يشغلهم ما يصيب الآخرين بسبب حبهم للكلام حبا تظهر بجواره صورهم البهية، ذلك الكلام الذى ربما كانت تتحرز فى قوله محاكم التفتيش، فقاموا بالرد والتسفيه والسب العلنى والتحريض والتخوين الوطنى والتكفير الدينى.. رتل من حملة الدكتوراه أسفارا سمعوا فقالوا، وحملة الأسفار هؤلاء هم

السادة المحترمون: د. أحمد علم الدين الجندى، والأستاذ أبوالعلا ماضى الذى تصفه المجلة بالمفكر الإسلامى (ولا تعلم لماذا هو مفكر، ربما لأنه عنده زعل شاغل فكره؟!)

ود. محمد أبوليلة، ود. محمد عبدالحليم عمر مدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى بالأزهر، وبالطبع معروف صالح كامل كالنجم بمحطاته الفضائية وهو رجل سخى ويده فرطة إلى حد تسمية مركز فى الأزهر باسمه هذا إضافة إلى الدكتور عبدالشافى عبداللطيف ود. عبدالصبور شاهين والدكتور عاصم الدسوقى.

بإيجاز نسمع سريعا لصحابة اللواء: الدكتور أحمد الجندى يرانى صاحب دعوة مدعومة من الغرب مصيرها الفشل. والدكتور أبوليلة رآنى صاحب دعوة شعوبية هدفها إثارة النعرات العرقية والفتنة الطائفية. وأن القول بفرعونية مصر وضرورة عودتها إلى الوراء تمهيد للاستعمار ودعوة له لكى يحتل البلاد بعد أن جند لها المأجورين مثلى من متسولى الثقافة.

والمدهش فى أبى ليلة ورفاقه أنهم يعتبروننى صاحب دعوة لأنهم لا يرون ما هو أبعد من وظيفة الدعوة، بينما أصنف نفسى ضمن الباحثين فى العلم لا أصحاب الدعوات، والمصيبة قولهم إنى صاحب دعوة فرعونية مما يشير إلى أن هؤلاء السادة لا يقرأون ما يكتب الناس قبل أن يخونوهم ويسبوهم ويهجمون عليهم هجمة وحيد القرن الأعمى، لأن الدعوة إلى الفرعونية عندى دعوة سلفية مرفوضة كالدعوة السلفية الإسلامية ولا تقل عنها غباء.

أما الحاج أبوالعلا فقد تعامل مع الموضوع باعتباره مظاهرة شوارعية يجرى فيها ويزعق ويشجب وبكبرياء غريب أن يصدر عن مثله فى زمننا هذا!!

إلا أن مفاجأة الموسم الميلودرامية حقا فكانت الدكتور عاصم الدسوقى الذى قال كلاما بائسا حقا ومنفرا صدقا على عكس المفترض أن نسمع منه، لكن لله فى خلقه شئونا وهو مقلب القلوب من اليسار إلى اليمين وبالعكس.

ولأن ما قاله الدسوقى يحتاج إلى وقفة تاريخية واضحة وهو أستاذ تاريخ فيما هو معلن عنه، كذلك الدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور عبدالشافى عبداللطيف، فإننا سنؤجل الحديث بشأنها إلى العدد المقبل لتناول أحداث التاريخ ليبين لنا الخط الأبيض من الخط الأسود فى مسألة فتح مصر.

وتبقى المفاجأة الأكثر ظرفا ولطافة وإبهارا، والتى تبين لنا كيف يعمل اللواء ورجاله، ألا وهى أن الحوار الذى أجراه معى الصحفى النابه أشرف عبدالفتاح لشبكة إيلاف لم ترد به كلمة واحدة مما ساقته اللواء ورد عليه المفكرون الدكاترة العلماء الدعاة.. إلخ إلخ إلخ.

«ملحوظة: نص الحوار المشار إليه مدرج بهذا الكتاب»

القضية بهذا الشكل تبدو منتهية، وأن اللواء مدانة بكل المقاييس الصحفية والقانونية والإنسانية، ومعها مفكروها الذين شهروا ألسنتهم دوون أن يراجعوا مما يسلبهم صفة العلمية وما يحملون من درجات كمتاع من الأثقال فقط.

بقى أن نعلم أن الكلام الذى ساقته اللواء كلام مشوه ومجزوء لكلام سبق أن قلته فى مناظرة تم بها افتتاح محاضرات معرض القاهرة الدولى للكتاب هذا العام وكانت بتاريخ ٢٠٠٤/١/٢١، كان مناظرى أستاذ تاريخ وعروبى معروف هو الدكتور إسحق عبيد، وكان للحق الغلبة والحمد لله. مع العلم أن الدعوة وجهها لى المعرض، وأهله هم من حددوا موضوعها «هوية مصر عربية أم مصرية»، فإذا كانت إيلاف مشبوهة لأنى قلت لها مثل هذا الكلام «وهو ما لم يحدث» فلاشك أن معرض الكتاب سيكون هو المشبوه الأكبر، هو ما لا يتفق وقيمة هذه الاحتفالية السنوية المحترمة بأى حال.

وحتى نستفيد من اللواء نتمنى عليها أن تؤكد لنا مدى تورط المعرض فى شبهة المؤامرة، حتى نعلن تبرؤنا منه أو المطالبة بنصيبنا من المال إذا كان هناك مال وتجارة لنجرب حظنا مرة فى قبض المال ولو من مؤسسة وطنية.

الواضح الآن أن اللواء سمعت ببلاغ كالمباحث فى الأزمنة الخوالى، ولم تتأكد مما سمعت ولا المصدر الحقيقى ولا عنعنة الحديث ولا إسناده، سمعت وخلاص، فتوكلت على الله وقامت تصب سخائمها واتهاماتها وتحريضها.. قاتلها الله بما جنت يداها ومن ثم سنأتى العدد القادم بحديثنا فى المعرض مع ما ساقه الدكاترة الدسوقى وشاهين وعبدالشافى لتعلق ما ساقوه بالتاريخ وتزييف هذا التاريخ علينا.

ويبقى أن نقول للواء الإسلامى وأشباهها من بقايا كائنات الماضى: أيها السادة لقد تاجرتم بتاريخنا طويلا وبوطننا طويلا بينما فضائحكم أكثر من أن تحصى.. أيها السادة لا منهجكم ولا كيف تفكرون أصلا قد أمسى صالحا لزماننا.. أيها السادة لقد أفلت شمسكم بلظاها.. فأرحلوا عنا.

هوية مصر.. مصرية أم عربية؟

كان ذلك العنوان موضوع المناظرة تم بها افتتاح موسم محاضرات معرض القاهرة فى ٢٠٠٤/١/٢١ وكنت أحد أطراف تلك المناظرة الهامة.

وكان طرح مثل هذا السؤال اليوم علامة صحية فارقة، لأنه كان أحد المحرمات فى بلادنا إزاء خط سائد سيد يمنح صكوك الغفران ويحرم ويجرم ويمنع ويصادر ويحاكم ويدين ويخون وطنيا ويكفر دينيا كل ما لا يوافق خطه النظرى.. وهو ما كان يصل فى أحيان كثيرة إلى سفك دم المخالف تخلصا من اختلاف يعسر عليهم حله بالمنطق والعقل والشهادات الموثقة.

قيمة أن تطرح سؤالا جديداً لتفتح أفقا ظل مغلقا من ملف محرم ألفا وأربعمائة عام، هو علامة على أن إعادة قراءة تاريخنا وإعادة النظر فى أبنيتنا الفكرية وفى مصطلحاتنا ومفاهيمنا قد أصبحت قيد البحث المسموح به فى سلسلة المراجعات التصحيحية، فى نهج الإصلاح الجديد الذى اختطته الدولة لإصلاح البيت وشئونه بيد أهله وأصحابه. بما يفى بوجود هذا الوطن فى ساحة الفعل التاريخى وإثبات أنه لم يعدم بعد حركية الحياة فى داخله، لصالح هذا الوطن ومستقبله، وتحاشيا لأى مماحكات خارجية، وخلافات مع دول كبرى نحن فى غنى عنها. وهو ما يعنى منهجا جديداً موضوعيا فى التفكير يتجاوز القراءات التبجيلية والتقديسية التى كثيرا ما أخفت عنا حقائق تاريخنا، حتى كاد أن يكون قرآنا آخر فى توسيع مساحة التقديس فى حياتنا لكل ماله رائحة إسلامية، وأصبحنا نعيش تاريخا مزورا يغطى عيوننا برهبة القداسة عن رؤية حقائق ماضية يرتبط فهمها فهما صادقا بفهم حقائق الحاضر وما نريد مستقبلا، وعليه فإن البداية الصواب هى طرح كل الأسئلة المحرمة فى ثقافتنا السائدة لنكشف مكامن الأخطاء التى بنينا عليها نظرتنا لأنفسنا وللعالم من حولنا كى نبدأ بإصلاح مناهجنا فى التفكير ومفاهيمنا ومصطلحاتنا قبل أن نبدأ فى التفكير بالتحديث والإصلاح المأمول، أن نصلح أدوات البحث قبل البحث، وأدوات التفكير قبل التفكير، وأدوات الإصلاح قبل الإصلاح، ولعل أبسط الأمثلة هنا هو أن طريقتنا فى التفكير التقديسى التبجيلى جعلتنا لا نراعى أبسط قوانين التفكير كقانون عدم التناقض الأرسطى المرتبط بقانون الهوية، وهى أبسط قوانين لعمل العقل لكى يكون عقلا، وهو الا تصدر حكما ثم تناقضه بأحكام ونتائج لاتترتب عليه وأن يكون معيارك هو هو فى كل المواقف، ولكننا نخالف هذه

البدايات البسيطة، فنشجب كل ألوان الاحتلال لأراضى الغير بالقوة ، ونصرخ بالصوت الحيانى مما يفعله الإسرائيليون واحتلالهم الاستيطانى البغيض، ونحتج كل الاحتجاج على الاحتلال الأمريكى بالعراق، لكننا نجتمع كل عام لنحتفل بذكرى الاحتلال العربى لمصر وحلاوته وجماله وكيف نقل المصريين الجهلاء بكل ما أنجزوه من الظلام إلى النور.

(والمصيبة أن هذا ليس فقط كلام مشايخ وعاظ، بل كلام أساتذة علماء ومؤرخين «فيمانعلم عنهما)، أليست تلك كارثة تامة المواصفات؟ أن يزور أستاذ التاريخ هذا التاريخ على بنى وطنه وعلى طلابه وعلى نفسه تحيزا لفكرة أيديولوجية مهما يكن مقدار صحتها، فما بالنا والفكرة مزورة وخاطئة بالتمام والكمال؟ فى مثل هذه الحال لابد أن نقف مع أنفسنا وقفة صريحة واضحة لا تخشى الملامة ولا حتى الفضيحة، لأنه إذا كان الدكاترة الأساتذة قد أصاب فيروس التقديس مركز التفكير لديهم فلابد من تنظيف جهاز التفكير لدينا قبل أن نفكر. وأن تلك هى المهمة الأولى والأصعب فى طريق الاصلاح الطويل.

ولمزيد من الايضاح يبدو أننا كلما كتبنا احتجنا إلى إيقاظ الشعور الوطنى بمصر، وهى معاناة مستمرة للكاتب عندما يكرر ويزيد للمواطنين حول معنى المواطنة، ومن ثم نكرر ونزيد لنقول إن لمصر ثقافات كثيرة منها الفرعية كالرومانية واليونانية والإفريقية ومنها الكبرى الثلاث : المصرية القديمة والقبطية والعربية، وأنه لايصح أن تطغى أى منهما على الأخرى لأسباب سلطوية أو طائفية أو عنصرية، أو تستبعد بعضها بعضا، لأن الحقب الثلاث حقب مصرية عاشها أجدادنا هنا فى مصر ولم تكن فى المريخ ، وأن أنصار الطغيان الثقافى العربى الإسلامى العنصرى الطائفى هم من يصرون على بدء تاريخ مصر مع غزو عمرو بن العاص، ونفى كل ما كان قبل هذا الغزو الميمون وتكفيره وإلقاءه فى سلة مهملات التاريخ لأنه لم يكن عربيا ولا إسلاميا، «وأين مصر فى هذا التقييم؟ لا تجدها، فالمعيار هو العروبة والإسلام لا الوطن» !!

إ ن هذه الرؤية التى هى لائقة بالمحتل العربى الغازى المستوطن وحده لاتعامل مصر بالطبع بمواطنة مصرية، ولا بحسبان مصر هى الوطن وهى المحيا وهى الممات وهى الأول وهى الآخر وهى النيل وهى رائحة الريف التى يمتد فيها عبق الزمن الفرعونى حتى اليوم، وهى مصر الزمن القبطى بكل ثوراته وفنونه وإبداعاته وجديده الذى أضافة لتاريخ مصر، وهى مصر العربية التى ترتبط بوشائج مصر الدول العربية هى الأهم بين

علاقاتها بدول العالم الأخرى، فهى مع التى أصبحت عربية اللسان لكنه اللسان الخاص الذى مصر العربية ولازال يستخدم فى الريف ٢٠٪ من مفرداته اليومية باللغة المصرية القديمة، ويزرع بالطريقة المصرية القديمة، ويحدد تقويمه الزراعى للبذور والحصاد والرى بالتقويم المصرى القديم، ومازالت احتفالات الميلاد والممات وما بينها مصرية قديمة، إن مصر هى تلك الثقافات المتشابكة. والمصرى المواطن هو من يستطيع أن يفى ثقافاتها الثلاث احتراما يليق بمصريتها، وغير ذلك هو عقل الغازى المستوطن الذى يريد أن يلغى من تاريخ مصر كل ما سبق غزوه لمصر، وأن هذه الطريقة فى التفكير استمرار لعقلية احتلال عربى طال أمدها أطول مماينبغى.

وأن علينا بسبيل ترتيب دماغنا قبل التفكير أن نسمى الأشياء بأسمائها وأن الاحتلال حسب قانون الهويةوعدم التناقض هو الاحتلال، وأنه ليس هناك احتلال مشكور حلال واحتلال مذموم حرام، ولاهناك احتلال خيرى يفتح البلدان ليوزع عليها الطعام وهدايا بابانويل، وهنا احتلال يريد الأرض والمال.

الكارثة الأعظم عند علمائنا ومؤرخينا أن كتب التاريخ التى كتبها العرب بأيديهم عن الفتوحات زهوا وفخارا هى على النقيض تماما مما يقولون، مما يشير إلى تزوير علنى لتاريخ واضح، وأن هناك إئتلافا عصابيا قد اجتمع على إخفاء الحقائق وإعلان التزوير وهو ما لاتفسير له إلا العمالة لمن هم خارج الوطن وخارج التاريخ، العمالة حتى ولو لفكرة وعادة ما يكون أصحابها هم الأكثر تعصبا.

بل إن بعضهم كان شديد الاحتجاج لعدم الاحتفال بشكل لائق بذكرى الاحتلال، كما قال د. محيى الدين عبدالحليم يوما فى الأهرام «على الرغم من المبادرة التى أخذها الأزهر على عاتقه للاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على دخول الإسلام مصر. فإن المؤسسات الثقافية والإعلامية والتعليمية الأخرى لم تكن على مستوى الحدث.. ليس لأن مصر هى أكثر البلدان التى ورد اسمها فى القرآن فقط.. وليس لأن مصر كانت نقطة الانطلاق التى خرجت منها قوافل الدعوة إلى شمال أفريقيا ثم جنوب ووسط أوروبا ولكن أهمية الحدث فى مجموعة من النقاط أبرزها أولا: أن دخول الإسلام مصر جاء استجابة لنبوءة النبى الأمى الذى أكد هذه الحقيقة عندما قال: إن الله عز وجل سيفتح عليكم مصر من بعدى فاستوصوا بقبطها خيراً.. فهذا الفتح يؤكد كمال النبى فكرا وقولا وسلوكا

فلم يعرف عنه أنه نطق عن الهوى.. ولا يتكلم إلا وحيا، ثانيا جاء الفتح الإسلامى لمصر.. إيذانا بعهد جديد لتحرير الإرادة الإنسانية وترسيخ معانى العدالة والإخاء والحرية والشورى والكرامة .. مستهدفا استئصال شأفة الذل والفساد والطغيان والتسلط الذى مارسة الرومان ضد المصريين، معلنا المساواة بين الناس، دون تمييز بسبب اللون أو العرق أو الدين إيمانا بوحدة الأصل البشرى فلا سادة ولا أرقاء ولا أسياد ولا عبيد».

وهكذا لم يلحظ سيادة الدكتور إطلاقا أن مصر هى فعلا وحقا أول نور شق ظلام الليل التاريخى الإنسانى. بحقوق إنسانية راقية ونظام اجتماعى شديد الدقة وبعلوم وفنون وروائع معمارية وسياسات وتنظيمات اقتصادية و.. و.. كلا لم تكن تلك أهمية مصر إطلاقا إنما تعود أهميتها لإنها أكثر أسماء البلدان التى وردت فى القرآن؟!! ولأنها كانت نقطة ارتكاز الجيوش العرب فى فتوح إفريقيا، كما أن فتح مصر ذاته يدل على صدق نبوة ونبوءة الصادق الأمين الذى لاينطق عن الهوى.. هذه يا سادة قيمة مصر وأهميتها فى التاريخ !!...؟؟ هذا ناهيك عن ظروف مصر السلبية التى جاءها الفتح بغيرها من ايجابيات فقد حرر ارادتها الانسانية وأقام فيها العدلوالإخاء والمساواة والشورى والكرامة مع حقوق متساوية للجميع دون تمييز بسبب العرق أو اللون أو الدين.. يعنى مصر كانت ظلاما دامسا لايعيش فيها بشر بل كائنات مع المذلة والمسكنة حتى قيض الله العرب فحملوا إليها الخير والطعام والكرامة والعلم والإيمان وارتقوا بها الرقى الذى نراه بعد فتحها مقارنا بأحوالها من قبل هذا الفتح».

أما ثالثة الأثافى فهى عندما تحدد المفاهيم وفق القوانين البسيطة للعقل وتحدد موقفك من كل ألوان الاحتلال وفق رؤية واحدة واضحة فيتم اتهامك بالعمالة وهذا ما قاله الدكتور عبدالصبور شاهين : «إن الإسلام جاء إلى مصر ليحرر المصريين من الاستبداد البيزنطى ولم يأت مستعمرا أو محتلا كما يزعم المغرضون لمرض خبيث فى نفوسهم اللواء الإسلامى ٢٠٠٤/٣/١٠ : وعضده أستاذ التاريخ الدكتور عاصم الدسوقى وكيف اكتشف تلك المؤامرة الخبيثة لأن «أفكار سيد القمنى ومن على شاكلته حول عروبة مصر ليست إلا مجرد ترتيب لأفكارهم وفقا للاتجاهات السياسية الأمريكية.. ومن هنا تأتى إثارة النعرات القومية أو العرقية كوسيلة من وسائل التفكيك التى تتبعهاالسياسة الأمريكية اللواء الإسلامى ٢٠٠٤/٣/١٠ . هل هذا كلام فى العلم أم فى الايديولوجيا؟ أم

هو هتاف فى مظاهرة لاتعرف ماذا تريد؟ هل هذا عقل يريد مراجعة مفاهيمه وأساليبه وقراءة تاريخه قراءة صحيحة؟أنظر معى أستاذ التاريخ مستطردا شارحا مؤكدا أن شرحه مستمد من حقائق التاريخ قائلا: «لم يكن الفتح الإسلامى لمصر غزوا أو احتلالا فقد سجلت الحقائق التاريخية احترام العرب المسلمين لهوية المصريين الدينية. استنادا للمبدأ الإسلامى لا إكراه فى الدين.. كما سجل التاريخ صيانة الفتح الإسلامى لثروات الشعب المصرى وعدم استغلالها لصالحه.. وأنه لم يكتب أحد المؤرخين الغربيين مصطلح الغزو .. بل كانوا يستخدمون المصطلح المتعارف عليه بالفتح الإسلامى».

أما الدكتور عبدالشافى عبداللطيف فيزيدنا علما نافعا بقوله: «بعد أن استقر الأمر للفاتحين العرب قام عمرو بن العاص بعملية إعمار شاملة لمصر شملت إعادة بناء وترميم الكنائس والأديرة .. وكذلك شق الترع ورقامة الجسور لزيادة الرقعة الزراعية، وقد تحمل بيت مال المسلمين نفقة هذه المشروعات العمرانية التى كانت تتم بتعليمات من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.. كما احترم الفاتحون الشعائر الدينية لأهل مصر وأعطوا لهم حرية اعتناق العقيدة والاحتفال بالمناسبات الدينية دون قيود.. وقد عين عمرو بن العاص الأب بنيامين اسقفا لكنيسة الإسكندرية وجعله مقربا منه».

ولا يلحظ السيد الدكتور أن قرار تعيين بنيامين لم يكن صادرا من سلطة مصرية بل من سلطة الاحتلال، وأن معاهدة الخيانة بين بنيامين والغزاةضد بنى وطنه للحصول على كرسى الكرازة ، لاتخفى على أحد والكل متفق عليها، لكن جديد الدكتور هنا أن مصر عندما دخلها العرب كانت كوم تراب فصرفوا عليها دم قلبهم بعملية إعمار شاملة خاصة الكنائس (تأمل يا مؤمن!!) واحترموا دين المصريين وشعائرهم، ولا نفهم لماذا جاءوا إذن واستوطنوا مصر وحكموها، ولماذا كانوا دوما هم السادة وبقية المصريين إماأهل ذمة أو موالى (لقب المسلم غير العربى)، لماذا جاءوا وتركوا حرية الاعتقاد وتركوا المال، يعنى لا فلوس ولا إسلام فلماذا جاءوا؟ لتجميلها وتحسين أحوالها تبرعا على الكفار من بيت مال المسلمين؟ هذا ما يقوله أخونا عبدالشافى دام علمه. لكنه لم يشرح لنا لماذا جاءت القبائل العربية بنسائها وأطفالها وكلابها وماعزها لتستقر فى مصر. وأين استقرت؟ومن كان صاحب تلك الأرض التى كانوا يستقرون عليها؟ ولم يشرح لنا لماذا لم يتم تعيين مصرى واحد واليا على مصر من

قبل الخلافة ،وأن ما كان يحدث دوما هو إرسال وال عربى من عاصمة الخلافة ليحكم البلاد؟

أما كون الاحتلال العربى قد طرد الاحتلال الرومانى فهو مالا خلاف عليه أبداً، الخلاف البسيط الهين السهل هو أن العربى طرد الرومانى وقعد مكانه بل واستوطن وغير لغة البلاد التى هى وعاء حضارتها وما فيها لتنقطع عن منابع رقيها الحضارى الذى سبق وراكمته. مع تكفيرتاريخ البلاد المفتوحة من نبوخذ نصر البابلى رمزا لبلاد العراق، وجوليات أوجالوت رمزا لفلسطين وبلاد الشام. وفرعون موسى رمزا لمصر كلهم كانوا كفارا وعلى احفادهم أن يستغفروا عن تلك الوصمة التاريخية ويتطهروا من عار أجدادهم بتاريخ جديد يبدأ مع لحظة الغزو، تاريخ عربى وهوية إسلامية لكن بدون وطن.

وأصبح علينا أن نعترف بالدين للاحتلال، فنحن مديونون ياخلق لمن احتلوا بلادنا!! هل هناك مصيبة يمكن أن تصيب قوانين العقل بل والمواطنة فى مقتل مثل هذه المصيبة؟! ألا ترون الدكتور الدسوقى أستاذ التاريخ المعلوم بشأن يستدل على حلاوة الاحتلال العربى وطلاوته على اختلاف لفظى، ويستشهد على صحة لفظ الفتح وبطلان لفظ الغزو، بأن الباحثين الأجانب يستخدمون لفظ «فتح» ؟!

ماذا يعنى أستاذ التاريخ بهذا؟ هل أصبح المعيار لمعرفة إن كان الأمر احتلالا من عدمه بالرجوع إلى استخدام الغربيين لكلمة فتح؟! أم أن التاريخ وقائع وأحداث مدونة تنطق بذاتها لاتحتاج إلى مفسرين ولا شهداء غربيين؟ ثم ألا يعلم الدكتور أن الغزو تعبير يشير إلى هجمات المسلمين المتفرقة زمن الدعوة، بعد الهجرة إلى يثرب لسلب القوافل أو المضارب والعودة بالغنائم، أما الفتح فهو الغزو مع الاحتلال الاستيطانى لذلك يقال غزوة بدر وغزوة بنى المصطلق وغزوة هوازن ولا يقال فتح. ويقال فتوح الشام وفتوح مصر وفتوح إفريقية ولا يقال غزو، هذا هو الفرق اللغوى الاصطلاحى. فالفتح أسوأ من الغزو، وتاريخيا يا سيدى المؤرخ إنه الاحتلال الاستيطانى وهو أسوأ أنواع الاحتلال قاطبة عبر حياة الإنسان على الأرض، أعود فأؤكد أن سادتنا الدكاترة يزورون التاريخ لصالح الايديولوجيا وهى أبعد أيديولوجيا عن صدق المواطنة، وأن ما حدث فى تاريخ ذلك الفتح على العكس تماما من كل ما قال أساتذتنا وهو ما سنتناوله مع العدد القادم.. بحقائق مرة بلا مريرة.

لقد فتحوا مصر..
فهل استوصوا بأهل مصر خيراً؟

بداية يجب أن نفرق بين البشر الفاتحين القادمين من بلاد قحط إلى بلاد وفرة وبين دين الإسلام. وألا نتصور أن الإفراط فى التقديس هو لون فى الزلفى إلى الإله، فنقدس الفاتحين كما لو كانوا من الملائكة لا من بنى البشر، لأن الإفراط فى التقديس وتوسيع مساحته هو لون من الإيمان البدائى الذى يتعارض مع روح الإسلام الذى لم يجعل لأحد ولا لشىء قدسية إلا لذات الله وحده.

ومن جانب آخر يجب ألا نتصور أن تزييف التاريخ هو لصالح العروبة والإسلام قدر ما هو تزوير فاضح لصالح الأيديولوجيا ضد الحقيقة، وألا نتصور أن كشف الحقائق هو تفكيك لعرى العروبة، لأن هذه الرؤية فى ظل ما نراه من أحوال العرب أصبحت تثير الضحك والغم معا. وأن قراءة حقائق التاريخ دون تزييفها على الناس يعلمنا فى أبسط المكاسب قيمة الصدق العلمى والصدق مع التاريخ والصدق مع الذات ومعرفة مكاننا الواضح بين الأمم لنبنى رؤية المستقبل على أسس سليمة. لأن التزييف الأيديولوجى لم ينتج إزاء ما نرى أمامنا فى الواقع غير التبعثر والتمزق والفشل.

وأن الاعتراف أن لكل قطر عربى خصائصه التاريخية والاجتماعية والبيئية وسماته الانتاجية وقدراته المحددة بتلك الخصائص ليس مصيبة ولا رغبة فى تمزيق أمة ممزقة أصلا. وأنه ليس شرطا للقوة أن يتماثل الجميع بعد أن انتهى العلم إلى أن التنوع هو شرط البقاء فى الوجود، حيث لو أصبح الكل نسخا كربونية متطابقة أصبح سهلا على أى فيروس القضاء على كل النسخ. ولعل الشاهد على هذا الصدق العلمى ما نراه من تمكن فيروس الإرهاب من كل العقول المتطابقة فى العالم الإسلامى. ومن ثم علينا أن نسأل أنفسنا من أين نبدأ : من فكرة وهمية عن وحدة قومية مسمطة نتجرع ثمارها المرة غدوا وعشيا؟ أم من الاعتراف بالاختلاف والتمايز والتنوع الذى ينتهى إلى توحد مصلحى ضرورى؟

والواضح أن تخوين أى محاولات لإعادة النظر فى ثوابت الماضى بحثا عن وراء هذه الثوابت من صدقية، إنما يبدأ من مقدمة أيديولوجية باطلة مفادها أن عالمنا العربى كان فى الأصل كيانا واحدا.. وأن ما يظهر فيه اليوم من اختلاف يعود إلى الاستعمار الغربى والحكام الخونة.. وهو مجرد تصور لأن هذا العالم كان كتلا حضارية متفرقة لكل منها إنجازها الخاص، حتى زمن الامبراطورية الإسلامية العربية التى حكمت هذه الدول بعصبية عربية

حاكمة منها كان الحكام والولاة والأشراف والسادة، والبقية فى تلك الدول إما أهل ذمة يعيشون فى بلادهم ضيوفا بشروط بموجب ذلك العهد التاريخى، أو مسلمون هم الموالى التابعون للسادة الحكام العرب. فهو تصور يفرغ المواطنة فى وحدة قهرية، وهو أقرب إلى الاعتقاد منه إلى الحقيقة.

فالدول العربية (مجازا) لم تملك يوما تاريخا مشتركا بحسبما يروجون قفزا على الحقائق، حتى التراث الإسلامى الجامع نفسه، لم يكن جامعا بقدر ما قسم اتباعه منذ البدء إلى طوائف دينية متصارعة شتى تند عن الحصر، كل فيها كانت تنفى بقية الطوائف وتستبعدها وتكفرها وطنيا ودينيا. هو اعتقاد عاطفى أقرب إلى حب المواساة أثبت ظهور النفط بطلانه بعد أن تضخمت ثروات عرب إلى جوار عرب يعانون الفاقة على مرمى حجر منهم، مع ادعاءات قومية وإسلامية لا وجود لها فى الواقع. بل إن الأمر الشرعى بزكاة الركاز على المعادن هو الأمر الشرعى الوحيد الذى تم استبعاده بجدارة.

وقد أسهم الفكر القومى ذاته فى دفع الفكرة إلى ساحة الوهم عندما استبعد فكرة الدولة الوطنية وهى الوعاء والإطار السياسى الأساسى الواقعى لتجمع الأفراد فى جماعة وطنية.. وعندما اتخذ من القطرية موقف العداء وعلق فى رقبتها وصمة الشعوبية العميلة باعتبار الدولة الوطنية تجزئة وتآمرا.. ومن ثم قام يمحو من الذاكرة الوطنية الخلفية التاريخية التى أفرزت هذه المواطن قبل أن تتوحد قمعيا فى إمبراطورية العرب الإسلامية، التى انتهت إلى تخلف عظيم تحت سيادة الرجل العثمانى المريض. وكان طبيعيا أن تعود إلى أصولها التاريخية وتتشظى مرة أخرى مع الاستعمار الحديث.

ولذلك فإن الخطوة التأسيسية والمنطقية الأولى التى يجب أن نبدأ بها هى الوطن القوى الحر المتنامى والتعرف على هذا الوطن وتاريخه قبل التفكير فى توحد لم يحدث إلا قسرا، اقتداء بالتجربة الحديثة لأوروبا واتحادها حتى يكون اجتماعنا المقبل مؤديا إلى رقم ناتج لا إلى صفر هو ناتج جمع الأصفار.

لقد كانت الكيانات الوطنية قائمة قبل الإسلام، وظلت على حالها تحت راية الحكم العربى، بل وظلت صراعاتها التاريخية القديمة قائمة فى ظل الإمبراطورية، كما كان الحال ولم يزل بين بلاد العراق وبلاد الشام منذ الزمن الأول للخلافة. وظلت مصر بطابعها الخاص طوال ذلك الزمن، ولم تدخل دول كثيرة عمليا تحت ظل الإمبراطورية كما كان الحال مع عمان واليمن والمغرب.

مع ملحوظة لابد أن نأخذها اليوم بالحسبان وهى أنه كلما اهتز كيان

الدولة الوطنية ابتعدت قضايا التنمية والحريات وحقوق الإنسان وهى السبيل الوحيد للالتقاء بدول عربية يمكنها أن تختط الطريق نحو التنمية والديمقراطية. ولهذا فإن من حق مصر أن تعيد النظر فى كل المقولات الثوابت وهى بسبيل إصلاح الذات، ومن حقنا أن نطرح كل الأسئلة المحرمة، والتى كان تحريمها من أجل سيادة خط ثابت لا يريد أن يتزحزح عن قلبها وكاهلها، وحرمانا لنا من أن نرى ماضينا بوضوح لبناء طريق سليم نحو المستقبل، وإعادة النظر فى كل المسلمات التى مازال أصحاب العلاقات المصلحية يرفعون راياتها فوق هزيمتنا التاريخية.. إننا بحاجة إلى التصالح مع ذاتنا أولا وبعدها يكون لكل مقام مقال.

كذلك لم تكن العروبة والإسلام هما ضمان تضامن العرب مع القضية الفلسطينية، بل إن كوارث العروبة انعكست سلبا بكل هزائمها على هذه القضية تحديدا. وسببت لها من الخسائر ما لم تحظ به أى قضية عربية أخرى. وأنه رغم رفع الشعارات الأزلية بالأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة، فإن الواقع الماثل أمامنا يشهد أن هذا التضامن فى أدنى مستوياته بل هو فى مستوى معيب مشين جارح. وهى الشعارات التى حولت الكفاح الوطنى لتحرير الأرض المحتلة إلى مفهوم الجهاد الذى يجاهد فى سبيل الله ونصرة الدين وليس إخلاصا للوطن وعشقا لترابه، فاستبعدت مفهوم المواطنة ثم شقت الصف الوطنى الذى يعيش فيه المسلم والمسيحى، فأخرجت من معادلة النضال كل المسيحيين العرب وليس المسيحيين الفلسطينيين وحدهم، وكل من ليس مسلما فى العالم أصبح غير مشغول بقضية طائفية عنصرية. ومن ثم تم دفع قضية فلسطين إلى أحضان الفاشية الطائفية والعنصرية، وأصبح الشاغل هو مساحات الدم المطلوبة وليس الكفاح الوطنى من أجل الاستقلال. وهو ما خلط الكفاح الوطنى بالجهاد الدينى ليدخل الكفاح الوطنى تحت مصطلح الارهاب فى نظر العالم المتحضر بيدنا وبسببنا ولطريقتنا فى التفكير مع أشد قضايانا حساسية وأهمية.. بينما كان بالإمكان بالوقوف تحت راية التحرر الوطنى من الاحتلال كفيلا بدمج كل المواطنين من كل ملة ولون تحت تلك الراية الشريفة، وعاملا فى تماثل الوطن الفلسطينى والأوطان العربية الأخرى، وتحويل القضية إلى القيم والمبادئ الأساسية العليا المحترمة عند كل البشر، وهى القيم التى يفهمها الضمير العالمى وتتعاطف معها الدنيا.

هذه تقريبا كل المؤاخذات الممكنة إزاء طرح السؤال المحرم حول الفتح العربى لبلادنا وما حدث فيه حقا دون تزييف، وكلها كما نرى تنطلق من مواقف أيديولوجية عاطفية وهمية ضد مصالحنا وضد القضايا العربية فى أى مكان.

والآن نذهب إلى مصادر التاريخ الإسلامى نستمع إلى الشهادات البينات إزاء ما يزعمه الأساتذة الدكاترة العلماء الدعاة المؤرخون بشأن دخول العرب مصر، وكيف صان الفاتحون ثروات مصر ولم يستغلوها لصالح أنفسهم وكيف قاموا فيها بعملية إعمار شامل مع شق الترع وبناء الجسور وترميم الكنائس وإعادة بنائها من بيت مال المسلمين. وهو الأمر الذى يلقون به فى نبوءة النبى محمد صلى الله عليه وسلم : «إن الله سيفتح عليكم مصر من بعدى فاستوصوا بقطبها خيرا فإن لنا فيهم نسبا وصهرا». نعم إن هذا الحديث لاشك يشعر كل مصرى بحب نبوى لمصر لاشك فيه، ولكن هل التزم الفاتحون هذا النصح حقا؟ وهل التزاموا أمر النبى ومحبته لأصهاره أهل ماريا أم ولده إبراهيم، ولنسب الجد إبراهيم الخليل فيهم من هاجر جدة العرب؟

عندما تطالع كتب التأريخ والسير الإسلامية لن يصيبك العجب أو الدهشة مما لاقته فنون مصر المعمارية من تشويه وتدمير مع الفتح العربى لأنها كانت بنظرهم تماثيل أى أصنام. ومع العجلة فى إقامة المنشآت العربية والمساجد فى مصر لم يجدوا أمامهم جاهزا لمواد البناء غير أحجار المعابد المصرية، حتى وصل الأمر إلى قلع كسوة الأهرام الحجرية لاستخدامها لذات الأغراض. وكان طبيعيا أيضا أن ينخفض الإنتاج المصرى نتيجة عدم إدراك البدوى لطرق الرى ونظام التحقيل المصرى وضرورة الاهتمام بأنظمة الصرف. لكن هناك مشروعا شديد الأهمية تم بعثه مرة أخرى بعد أن سفت عليه الرمال هو إعادة حفر المصريين لقناة سيزوستريس الواصلة بين البحر الأحمر وبين النيل، لهدف يتضح فى أمر الخليفة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص: «احفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد حمله من الطعام إلى مكة والمدينة/ ص١٠٣/ ابن عبدالحكم». وكان الطعام بالنسبة لبدو الجزيرة القاحلة سيد المطاليب وهو أمر طبيعى فى بيئة شحيحة، وهو ما يتضح فى خبر خالد بن الوليد قبل هنيهات من وقعة أليس التى ذبح فيها سبعين ألف عربى عراقى من قبائل بكر بن وائل «وقام خالد فى الناس خطيبا.. ألا ترون إلى الطعام كرمغ التراب؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى سبيل الله.. لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به/ الطبرى ج٢ ص٣١٢ ط دار الكتب العلمية».

ويحيطنا الطبرى علما بأن مصر قد فتحت فى عام ٢٠ هـ، وفتحت الاسكندرية فى عام ٢٥ هـ أى أن الوصول إلى الاسكندرية قد استغرق خمس سنوات مقاومة مصرية مانعة، خاصة معركة عين شمس التى تحصن فيها المصريون، ومع سقوط كل مدينة كان المصريون يرحلون إلى المدينة التى تليها

ليتابعوا الدفاع عن وطنهم حتى الاسكندرية التى اكتظت بهم وكانت آخر معقل مقاومة، حتى بلغت السبايا من جداتنا المصريات لكثرتهن ليس فقط مكة والمدينة بل وحتى اليمن «الطبرى ج٢ ص٥١٢: ٥١٥»، وتدفقت الأموال والطعام على عرب الجزيرة حتى قال الخليفة عمر «والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه/٢/ ٥٧١» بينما كانت المذابح الجماعية والبلاد المشتعلة بالنار من الدلتا حتى الفيوم تشرد آلاف المصرييم، وبعد أن استتب الأمر للفاتحين فى مصر جلس عمرو بن العاص على منبره يقول: «لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد، إن شئت قتلت، وإن شئت بعت، وإن شئت خمست، إلا أهل أنطابلس فإن لهم عهداً أفى به/ الذهبى/ سيرة أعلام النبلاء/ المكتبة التوفيقية/ القاهرة/ ج٢/ ص٤٩٣». أما الإسكندرية/ معقل المقاومة الأخير فكان نصيبها أسوأ الجزاء، وكانت عروس المتوسط، والتى قال فيها عوف بن مالك لأهلها «ما أحسن مدينتكم يا أهل الاسكندرية الطبرى ٢/ ٥١٤»، فقد تركها عمرو لجنوده بتعبير بن عبدالحكم «أخائذ»، فكان العربى يضرب رمحه فى أى بيت يعجبه فيصير له (ابن عبدالحكم/ طبعة مدبولى ص١٣٠).

وسأل ابن العاص عن طريقة الجباية الرومانية ومقدارها بعد طرد الرومان، ثم أقرها على أساليبها لكن بعد أن ضاعفها، ثم قام يقسم الأرض فسطاطا وقطائعا أقطعه للعرب النازحين من الجزيرة، ووضع قانونا لضيافة العربى فى أى دار مصرية يشاء مدة ثلاثة أيام، حتى بقى هذا القانون مثلا حتى اليوم و«أحصى المسلمين وألزم جميع أهل مصر لكل منهم جبة صوفا وبرنسا وعمامة وسراويل وخفين وثوبا قباطيا كل عام/ البلاذرى/ فتوح البلدان ٢٥٣، المقريزى، المواعظ ج١ ص٢٩٣، ابن عبدالحكم ص٦٠».

ومع كل الأموال التى وزعت على الجند أنصبة وما تم إرساله إلى الجزيرة فإن عمرا حاز ثروة عظيمة بلغ نبؤها الخليفة عمر بن الخطاب فأرسل إليه: «بلغنى أنه قد فشت لك فاشية من خيل وإبل فاكتب إلى من أين لك هذا/ القلقشندى/ صبح الأعشى/ ص٣٨٦» ثم أرسل إليه محمدا بن مسلمة فصادر نصف ما معه من مال مع رسالة عنيفة تقول: «إنكم معشر العمال جبيتم الحرام وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام»، لكن هذا النصف المصادر لم يعد للمصريين بل حمله/ بن مسلمة إلى الخليفة فى يثرب/ ابن عبدالحكم»!!

وكانت مصر محل تنازع الولاة عليها، فعندما حكم الخليفة عثمان عزل ابن العاص عن خراج مصر ووضعه بيد ابن خالته وأخيه من الرضاعة عبدالله بن أبى سرح، وجعل ابن العاص على الحرب وإقامة الصلاة، فقال

عمرو بن العاص قولته الشهيرة: «أأكون كماسك البقرة وغيرى يحلبها/ ابن عبدالحكم ص١٧٨».

واشتد ابن أبى سرح على المصريين فى الجباية وأرسل أموالا عظيمة إلى يثرب، ولما رأى الخليفة عثمان كل هذا الخير المتدفق قال لابن العاص: «لقد درت هذه اللقحة بعدك يا عمرو» أى أن هذه البقرة الحلوب «مصر» قد درت حليبا كثيرا بعد نزعك عن خراجها، فكان رده المعبر عن واقع حال المصريين: «وقد هلكت فصالها» أى وقد مات أطفالها جوعا.

وفى زمن معاوية الخليفة الأموى رغب عمرو بن العاص فى ولاية مصر مرة أخرى لأنها فى نظره كانت تعادل الخلافة جميعا، فتعلل معاوية بأحاديث دينية فرد عليه عمرو قائلا: ساخرا «أحرقت قلبى بقصصك.. لا والله إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها، أما والله لتقطعن لى من دنياك أو لأنابذنك، فأعطاه مصر/ الذهبى ٢٣١/٤» وعندما ضج المصريون بالشكوى، قال بنو أمية: «إنما هم عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا/ ابن عبدالحكم ٨٠».

ويقول الذهبى إن عبدالله بن عمرو بن العاص «ورث عن أبيه قناطير مقنطرة من الذهب المصرى ٢٤٤/٤» ، «وخلف أموالا كثيرة وعبيدا وعقارات، ويقال خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهبا/ الذهبى ٢٣٦/٤».

وظلت مصر فى ثورات دائمة متقطعة، كان أبرزها ثورة ١٠٧ هـ زمن الوالى عبيد الله بن الحجاب، وبدأها أهل قربيط وطرابين وعامة الحوف الشرقى، وثورة ١٢١ هـ وثورة ١٣٢ هـ وثورة ١٥٠ هـ وثورة ١٥٦ هـ والثورة الكبرى فى ٢١٦ هـ والتى لم تتوقف حتى ركب الخليفة المأمون بنفسه على رأس جيش جرار لإخمادها بعنف عظيم تم فيه قتل الرجال واغتنام الأطفال وسبى النساء ونهب الأموال وإحراق الدور السكنية والحقول.

وهكذا لم تكن مصر سهلة ولا طيعة ولا كما قال بشأنها بن العاص (أمة محقورة رجالها خشب، ونساءها لعب، والحكم فيها لمن غلب» وظلت فى ثورة مستمرة لا تهدأ حتى أنهكت وفقدت اتصالها بمصدر طاقتها وإرثها الثقافى القديم بفقدانها لغتها وعاء حضارتها. ولم يكن أمامها من بعد إلا الاندماج بالثقافة الجديدة وتمصيرها وتمصير الوافدين لتعود لأخذ دورها القيادى من داخل المنظومة الوافدة، ومازال أهل الأيديولوجيا يزيفون علينا تاريخنا ويجعلوننا بين الأمم العار الوحيد الذى يحتفى بذكرى احتلاله فى حالة نادرة يتيمة بين الأمم.

معنى الولاء للوطن

خلال أقل من شهرين سمعت حديث الجزية يتكرر مرتين من مشايخنا الأفاضل، المرة الأولى كانت لفضيلة المفتى الدكتور على جمعة عندما أكد على وجود دفع المسيحيين المصريين غير الأرثوذكس للجزية، مقيما فتواه بإسقاط الجزية عن الأرثوذكس على أنهم مواطنون مصريون وعقيدتهم عقيدة مصرية، ولأن الجزية مبدأ إسلامى لا يسقط، أو كما قال. والمرة الثانية فى أمسية ثقافية رمضانية كنت أحد المحاضرين فيها إلى جوار الشيخ الدكتور منصور الرفاعى عبيد وكيل جامعة الأزهر التى كرر التأكيد على مبدأ الجزية لأنه كما قال هو المعادل الموضوعى للزكاة التى يدفعها المسلمون.

غير هذا كثير ينساب على ألسنة مشايخنا طوال الوقت، ولا يترك للمرء فرصة الابتعاد عن المناطق الملغومة فى زمن لا يسمح بأى مغامرات داخل نسيج الأمة الذى يجب أن يعلو اليوم وفورا فوق أى أمر آخر وكل عقيدة وكل مبدأ وكل دين ولا يعلى عليه، ومن لا يعجبه فليشرب وحده من مائه الأسن ولا ينشر ريحه السقيم العقيم علينا.

وقد حاولت عدم الخوض فى هذا الأمر الشائك قدر ما استطعت، لكن عودة هذه اللغة الطائفية على ألسنة بعض مشايخنا تحتاج إلى وقفة حاسمة، لأنه بقدر ما نحترمهم بقدر ما نحب وطننا حبا لا يوازيه احترام أشخاص، ولأن الأمر ليس كتابا يصادرونه هنا أو مفكر يهدرون دمه هناك، فالأمر هو أمن هذا الوطن وأمانه واستقراره، أنه مصرنا جميعا ومستقبلنا جميعا مسلمين ومسيحيين.

وعادة ما يقابل الحفر وراء ألغام الفتنة فى بلادنا، والتى لم يزرعها أحد بل نحن الزارعون، لإزالة فتيلها وتعطيل خطرها، بقيامة المتاجرين بنا بتهم تزعم التكفير والتخوين وهى إليه أقرب، لذلك سأحاول هنا بكل لطف أن أمسك بأيديكم معى لنقترب بهدوء لنحاول معا نزع فتيل لغم واحد لا علاقة له بصلب العقيدة الإسلامية ولا غيرها من عقائد، ولا هو من ملحقات التقديس والتعبد، بل هو خطأ تاريخى نصر عليه، لو أمكن لنا نزع فتيله فبالإمكان أن يؤدى إلى متتالية من الحلول لكثير من مشاكلنا المدفونة فى أرضنا ألغاما. لتأكيد سلامة هذا الوطن وتماسكه تحتنا ونحن فى مرحلة مأزومة من التاريخ، وحتى يكون موقفنا جميعا تأكيدا علنيا ودليلا على أصالة شعبنا المصرى، الذى عهد عنه بشكل مأثور هيامه بمصره وولهه بها حتى زمن قريب توارى فيه هذا الحب عند البعض، وتحول عن، فخره بمصر التى لا مصر سواها إلى الولاء لطائفة دينية

متناثرة فى شتى بلاد الدنيا فى زمن حلمنا به زمان، عندما كنا نحلم فى شبابنا الماضى بالجيل الآتى المنقذ، لأننا نعلم أن مصر قد تم استنزاف ثرواتها عبر التاريخ ومغامرات القادة بأقدارنا، وأنها لا تملك من ثروة غير أهلها وناسها، الذين هم ثروتها الحقيقية، التى مثلها من قبل: مشرفة، وطه حسين، وطلعت حرب، والعقاد، وعلى عبدالرازق، ومحمد عبده، وسلسلة من الأسماء العظيمة، ناهيك عن فعل البشر الجماعى الذى عادة ما يغفله التاريخ، فبدأنا نهضة شرقنا برجالنا، وهو ما انعكس على كل شأن فارتفع اسمنا وصح اقتصادنا ونحن تحت الاستعمار، فما بالنا وقد تحررنا تطيح بدماغنا رياح الصحوة الإسلامية فيتحول واقعنا إلى حزن وكرب عظيم أمام ما نراه من أحوال شبابنا الذين عولنا عليهم كل الأمل، فإذا به قد مسخ وعيه وولاؤه وقدرته على العطاء، إذ به كما ترون سادتى وتعلمون. يدكم معى نحفر على لغم تاريخى مضى وذهب، لكنه يظل لغما لإصرارنا على تزوير تاريخ بلا معنى حقيقى سوى إحداث الشرخ بين المواطنين وما قد يستتبعه من كراهية متبادلة نحن فى غنى عنها، تزوير مشغول بعدم الاعتراف بالأخطاء التاريخية تجميلا لبشر وليس لدين، وتحسينا لمسألة فتح مصر مقابل تشويه وجهها الحضارى القديم، ولاشك أن اللغة التى يستخدمها مشايخنا عند التعرض لهذا الشأن التاريخى الذى ليس دينا بحال، هى لعب بأعواد ثقاب مشتعلة فوق لغم متفجر.

إنه اللغم الموجود على كل تقاطعات طرق التفاهم منذ فتح مصر منذ ما ينيف على ألف وأربعمائة عام على يد بدو الجزيرة العرب المسلمين، وهو اللغم الذى يهز الأرض من تحتنا كلما عبث عابث، وقد اشتعلت بعض أطرافه فى وجه الكاتب المبدع الأستاذ أسامة أنور عكاشة، عندما رفع عليه محترفو المتفجرات قضية حسبة، بينما المعلوم أنه عندما يكون الاختيار بين الوطن وبين غيره، فلاشك أننا نعلم أن عكاشة سيختار الوطن، ومن ثم ليس هناك أى جديد سوى أن عكاشة كان شديد المباشرة والوضوح والجرأة فأطلق على الغازى مصطلحات نستخدمها جميعا عندما نتحدث عن الغزاة.

دعونا نضيف إلى كرم هذا الشهر الفضيل وإلى التعبد والتهجد والاعتكاف، فضيلة هى الأجدى، أن نضيف إلى العبادة عما يليق بمسلمين يحبون وطنهم حقا كما يحبون دينهم أيضا، عملا يكرمون به أنفسهم لأن الله كرمهم وعلمهم فعل الكرامة «ولقد كرمنا بنى آدم».

دعونى أدخل بكم إلى صدمة المباشرة الواضحة بكلمات للشيخ المرحوم خليل عبدالكريم إذ يقول: «إن احتلال مصر أم الدنيا من بدو الجزيرة،

وما فعلوه فيها، يجدر بكل مصرى أن يتذكره بالأسى الدفين، والحزن العميق».. لكننا الشعب الوحيد بين شعوب الدنيا الذى يحتفى بذكرى احتلاله لبلاده وياليتها كانت بلادا عادية حينذاك أو حتى اليوم، لأنها كانت هرم العالم الحضارى، وكان المحتل هو البدائية والبداوة بفارق عظيم بين الطرفين.

إن قول الشيخ خليل قول واضح يقف إلى جوار الوطن بغض النظر عن تمجيد وتقديس بشر غير مقدسين، لأن مواطنتنا قد تعرضت لعملية غش تاريخية، تم بموجبها إعطاء الولاء المصرى للغازى البدوى دون الوطن، وهو قول لا يحمل تجريحا لأحد دينا أو أشخاصا، بل نحن المجروحين نتحدث وجعا من الألم لمصرنا وحيدة غريبة وفوق أرضها شعب يدين بالولاء لغزاتها، نتحدث حتى لا تضيع البوصلة من المواطن فيبحث عن الوطن فى الفكرة، بينما يتسرب من بين يديه الوطن الأرض والتاريخ.

فى المقابل تتكرر عبارة: «إن الفتح الإسلامى لمصر جاء حاملا لها نور الهداية وبركات الإسلام» ولا بأس من تمرير العبارة المتكررة تتفضل علينا بالفتح والاحتلال، إزاء الجانب الإيجابى لهذا الفتح، وهو دخول كثير من المصريين فى دين الإسلام، لكن ما يغفله الجميع وهم يزورون التاريخ على المواطنين ويزيفون عليهم مواطنتهم لا يقولون للناس أن هذا النور وتلك البركة قد تحولت وبسرعة قياسية مذهلة إلى ظلم وطغيان واستبداد، ظلت مصر محتلة لكل غاز يحمل مفتاح النور والبركة، ولم يحكمها مصرى منذ ألفى عام حتى جاء عبدالناصر، وهى العبارة المتواترة فى أدبيات الناصريين، والغريب أنه كان مصريا لكنه أعاد الفتح العربى لمصر مرة أخرى، وتبعه المصرى أنور السادات ليعيد الفتح الإسلامى مرة أخرى. وكل واحد وحسب ظروفه والمفتاح المطلوب لدعم تلك الظروف. وحتى نوقف قفلنا عن قبول هذه المفاتيح والفتوحات المتتالية، علينا أن نحسم الموقف فى علاقة الإسلام بالوطن بمسألة الفتح العربى بوجود مصريين أصلاء فى هذا الوطن هم شركاؤنا فيه بنصيب وافر وتاريخى لا يجادل فيه إلا الغازى، وأيضا حتى لا تكون مصر ولاية ضمن حكومة خلافة خفية تصدر الفتاوى والقوانين بما هو ضد الوطن ومصالحه.

وحتى يشعر المصرى بأنه مصرى أولا وقبل أى اعتبار، وثانى بقية الاعتبارات بعد الوطن، أن يكون مسيحيا أو أن يكون مسلما، أو أن يكون وثنيا، أو أن تكون مقدساته فى الحجاز أو فى فلسطين أو فى بلاد تركب الأفيال لأن هنا حرم قدسنا الأول ودونه تنتهك كل الحرمات، وبعده تأتى أى مقدسات.

يدكم معى أهلى وأحبائى بالبحث الهادئ وراء هذا اللغم بادئين بما طرحه سيدى المفتى مع كل احترامى وتقديرى لمنصبه الرسمى، لأن ما قاله أصبح ملك الجميع يتحاورون بشأنه ويبدون فيه الرأى. ما قاله سيدى المفتى يستحق كلاما قاسيا ونكيرا لن استخدمه هنا سعيا لنجاح الفكرة المطروحة ومنعا لفتح أبواب جدل عقيم يضر ولا ينفع. لأن النكاية فيما قال لا تثمر أكثر مما قال: لقد أعفى فضيلته الأرثوذكس من دفع الجزية، رغم أنه كان لابد منها مادمنا سنطبق هذا المبدأ الإسلامى، لكنه هنا إنحاز إلى المواطنة وهى نقطة بيضاء وسط فتواه، إلا أنه لكى يؤكد استمرار القاعدة وعدم التنازل عنها، فقد طلب من المسيحيين المصريين من أتباع المذاهب الأخرى دفع الجزية؟!

الكلام هنا يختلط علينا فلا نعرف من هو المواطن بشكل دقيق، لأن المسيحيين المصريين من غير الأرثوذكس ليسوا شعبا وافدا بل إن مذاهبهم هى الوافدة، فهل يدفع المصرى الجزية عندما يعتنق مذهبا غير وطنى؟ وماذا نعنى بالمذهب الوطنى؟ وهل يمكن القول بإسلام وطنى وإسلام مستورد؟ وماذا عن كون الإسلام كله وافدا كعقيدة وجحافل مستوطنين عرب جاءوا ينشرون الإسلام ولم يخرجوا مرة أخرى؟ ولمن سيتم دفع الجزية؟ هل سيدفع غير الأرثوذكسى للأرثوذكسى والشيعى للسنى؟ أم سيتم الدفع للدولة؟ وفى هذه الحال ما هو موقف الدولة؟ أم سيتم الدفع لدولة الخلافة الخفية التى تصدر طوال الوقت فتاوى هى قوانين تشريعية مع وجود تشريع قانونى تمثله تشريعات دولتنا العلنية الشرعية، مع ملاحظة تغافل أصحاب الفتاوى عن هذه القوانين، بل وعن مصلحة مصر كما كان فى حرب الفتاوى بين الأزهر ضد الوطن وبين دار الإفتاء مع الوطن، أيام كان الدكتور طنطاوى مفتيا وأيام كان الشيخ جاد الحق إماما للأزهر. وأيضا مع ملاحظة أن فتاوى كثيرة من هذا اللون تخالف اتفاقات مصر الدولية وما وقعته من وثائق عالمية، ومن ثم فإن مثل هذه الفتاوى تحرض المسلم على عصيان مبادئ عالمية وهو ما لن يسمح به العالم فى حال تفعيله وتطبيقه، ثم الأهم أننا لم نوافق على تلك التشريعات الفتوية ولم تعرض على برلماننا ولم تأخذ الموافقة الشعبية عليها. مما يصيب المواطن بحالة ارتجاج فى المبادئ واختلاط فى الفهم وعمى بصيرة فى السلوك، ثم يسأل البعض سؤالا ساذجا: من أين يأتى التعصب الدينى؟ ومن أين تأتى الاستهانة بالقانون وبهيبة الدولة؟ أم أن المقصود من التأكيد على مبدأ الجزية هو مجرد عملية (up date) لمبدأ الجزية دون استخدامه بالضرورة؟ وإذا كان ذلك المقصود فنحن لا نفهم لماذا؟

سيدى وكيل جامعة الأزهر، خالص احترامى لتأكيدك على قيم تدعيم الثقافة الوطنية فى محاضرتك؟ ولا أقول الوحدة الوطنية، لأنه عار علينا عظيم عندما نبحث عن وحدة مفقودة بين المواطنين سببها انتماءات ثقافية، غير مصرية، غير وطنية لكنك سيدى التبس عليك الأمر وأنت تفرض الجزية على المسيحيين مقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون، لأن الزكاة فرض تعبدى على المسلم وحده، كما أن تطبيق هذا القانون يصبح واجب التنفيذ لو كنا نحن المرتحلين إلى بلاد أخرى لها ظروفها وقانونها المختلف، كما فى هجرة المسلمين إلى بلاد الغرب، لكن سيدى الحال هنا مختلف فالمهاجر هو الذى جاء وفتح واحتل وقعد وفرض قوانينه هو. وعند كليهما سيدى المفتى وسيدى وكيل الأزهر حرص على تبرير هذا المبدأ الإسلامى القديم بدفع الجزية للمحتل الذى استباح دارنا وسكن فى وسط عيالنا وطالبنا بعد طعامه وشرابه بإعطائه مصروفه وملبسه وزينته، وهو ما تدرج إلى نزح مصر نزحا من فجر الاحتلال مع عام الرمادة، وإجابة عمرو بن العاص لسيده الخليفة عمر بن الخطاب على استغاثته «واغوثاه» بقافلة من الخير وصفها بن العاص صادقا: «تصلك قافلة أولها عندك وآخرها عندى».. وبعدها لم تتوقف القوافل الخارجة من مصر إلى عواصم الخلافة المختلفة، أولها عندهم، وآخرها وأولها من عندنا.

إن ما لا يراه أغلبنا دون وعى فى الأغلب، أن أحداث الفتح قد تركت فى نفوس الإخوة الأقباط جرحا غائرا لا يندمل، لأن كثيرا من إخوانهم المسلمين فى بلدهم مازالوا يفكرون بعقلية الغازى وليس بعقلية المواطن المصرى، فيدافعون عن الغزو ويبررونه بالهدى والنور تكرما منه وفضلا على المفتوحين، وهو مبدأ إذا اعترفنا به فيجب أن نعطيه حقا مفتوحا للآخرين، فأمريكا أيضا جاءت بنور الحضارة والديمقراطية والعلم مفتاحا تفتح به، لأن المفتاح مادام قد أخذ الشرعية، فقد أصبح صالحا لكل من يستطيع الفتح.

إن الجرح الغائر فى النفس القبطية لا يندمل لأن بعضنا لا يذكر لمصر تاريخا قبل الفتح، وإن تذكروه فمن باب التندر على المشركين والكافرين والوثنيين.

إن الجرح لا يندمل لأن بعضنا مازال يفكر بعقلية الولاء للمسلم والبراء من غير المسلم، دون أن يلحظوا متغيرات الزمن، وأن الولاء الوفى الطاهر حقا اليوم هو لأهل الوطن وناس الوطن وشركاء الفرح والغم الذين يصيبهم مما يصيبنا من فرح أو قرح.



إننا كمسلمين مصريين عندما نعترف بصحيح الألفاظ والمفاهيم والمصطلحات لا نعتدى لا على ديننا ولا على العروبة المأسوف على شبابها ،ولن نخسر كثيرا بل سنكسب أنفسنا ووطننا عندما نسمى الأشياء بأسمائها ونعترف باحتلال عربى شديد الوطأة انتهى زمنه إلى الأبد وذهب بحسناته وسيئاته، لأن ما حدث قد حدث، ولن يجدى الندب بجواره شيئا، فقط نعترف لنؤكد أيضا أن مصر لن تعود ولاية لأحد سواء كانت باسم الله أو كانت باسم الشيطان ومن هنا نصحح أنفسنا ونحترم وطننا وأنفسنا أيضا، ونعلم أبناءنا التاريخ صدقا دون تزييف أدى إلى التباس المواطنة وخللها، والأهم أننا سنعود جميعا متشابكى القلوب إلى حضن مصر الدافئ، فى حضن أهلنا المصريين المسيحيين الذين سيكونون قد أطمأنوا إلى أننا مصريون لاغزاة، ولن يتم الربط مرة أخرى بين مصرى اليوم المسلم وبين مسلم الأمس الغازى، وأعتقد أن هذا فى مصلحة إخواننا العرب، لأنه عندما تنصهر مصر داخليا فى قالب قوى ستكون أكثر نفعا من تمزقها لأسباب لا يسيغ لعاقل أن تظل قائمة.

تعالوا بنى وطنى وأهلى نتخيل معا مشهدا حدث ويتكرر، مشهد وطن يعيش فيه أهله مسلمون ومسيحيون يفترض أن ولاءهم جميعا له حتى يستحقوه وطنا، الحدث قيام بعض المواطنين وعلى رأسهم رموز الدين الإسلامى الكبرى بالاحتفال بذكرى غزو الوطن العظيم على يد بدو الجزيرة، ويتم الاحتفال إمعانا فى الواقعية فى مدينة العريش رمزا على إعادة استقبال الفاتحين عند أول مدينة مصرية فتحها الغازى القديم.

ترى ماذا يحدث هنا للإخوة المسيحيين؟ وهل يمكنكم يا سادة مجرد التخيل؟ ألا يجد المسيحى المصرى نفسه فى هذا الاحتفال فى انتظار الفاتح مرة أخرى وأبدا؟ ألا يجد نفسه مقصيا منسيا مستبعدا من حفل أهله المسلمين، لأنه ليس احتفالا دينيا يتبادلون فيه الهدايا والزيارات كعاداتهم النبيلة الرفيعة الأصيلة، ولأنه ليس احتفالا وطنيا يجتمع فيه أبناء الوطن على ذكرى نصر أو إنجاز كبير، إنما هو احتفال غريب عن الوطن وغريب عن الدين وما يتطلبه من حب الوطن، هو احتفال نيابة عن الغزاة لتأكيد وجودهم كغزاة لم ينصهروا بعد فى الجسد المصرى، يجدد فى دورته الاحتفالية كل مرة فتح الجرح الغائر فى جسد الوطن، إنها احتفالية ضد الوطن بكل ما تعنى كلمة «ضد».

علينا الاعتراف بحقيقة ما حدث وتسميته باسمه، والاعتذار لوطننا فيما فعل بعضنا به، وساعتها سيغفر لنا طين الأرض الطاهر، وعلى الجانب الآخر سيقبل المواطنون كل منهم الآخر مواطنا فى وطن هو مصر

وليس أى دين أو مذهب، لكن على الجانب المسيحى أيضا أن يتذكر وهو يحاسب الغزو، أن الأنبا «بنيامين» الذى اشترى كرسى الكرازة بوطنه مازال رقما فى تاريخ باباوات الأسقفية المرقسية، فإذا كنا سنحاسب أنفسنا على تزوير التاريخ، فمن الأولى أن نحاسب أيضا من باع وخان، والوثائق بهذا الشأن متوافرة والحمد لله تدين كل من أخطأ فى حق مصر، لا أن نلوم الغازى ولا نلوم خير معاونيه فى الداخل. فى مكاشفة ومصارحة شفافة تصب فى خانة المواطنة وحدها، بعيدا عن عواطفنا الدينية التى كثيرا ما لا يكون لها علاقة بالدين بل تكون غبية وحمقاء، كثيرا ما آذت هذا الوطن الجميل الكبير الذى يستحق منا أفضل من ذلك لأنه شرفنا بالمواطنة فيه.

إن نزع هذا الفتيل الآن ليس بعسير..

فهل من مجيب يا وطنى؟

وللمشايخ حق الفيتو!!

ليست هذه هى المرة الأولى التى أتعرض فيها لمحنة التفكير رسميا فقد سبق وحوكمت على كتابى «رب الزمان » أمام نيابة أمن الدولة العليا وأمام محاكم الدولة «شمال القاهرة» وبسببها تعرضت لهجمة شرسة استمرت ستة أشهر من صحف الجنس والإثارة والفضائح التى تحولت فجأة إلى حامى حمى الإسلام، وبالطبع من الصحف الإسلامية جميعا. دون أن يقوم صحفى واحد بحسبانه مثقفا يحمل قلما بمراجعة ما قال الأزهر على الكتاب واليقين من صدق القول. كل ما حدث أنه تم توزيع نوتة التكفير التى أصدرها مجمع البحوث الازهرى،لتعيد توزيعها وإعادة أنتاجها صحف الإثارة هذا رغم صدور حكم تاريخى أصدره القاضى سلامة سليم دخل به تاريخ الشرف القضائى كنموذج للنبالة والصدق وتحرى الدقة قبل إصدار الأحكام فبرأنى وأفرج عن كتابى وأعاده إلى سوق الكتاب مرة أخرى.

كانت المحنة شديدة هزت كل أركان الحياة من حولى هزا،و كان موقف المثقفين المؤدلجين شديد الأثر على نفسى مقارنا بمواقف آخرى لأناس لا أعرفهم ،محامين أساتذة أجلاء متطوعين لقضيتى بالعشرات، ومنهم من

جاء من خارج مصر وقضى المدة فى الفنادق تطوعا.أو بموقف أقاربى البسطاء الذين دفعتهم الحمية الأسرية لخوض المعارك أحيانا فى القرية الهادئة إزاء وصمى بالكفر عبر ازدرائى للأديان حسب التعبير القانونى. ومازالت أذكر موقف روزاليوسف الشريف قبل أن أداوم الكتابة لها، وكانت علاقتى بها علاقة قارئ لمجلة أنشر فيها موضوعا أو اثنين فى العام. وبقدر ما كان هناك مواقف محترمة بقدر ما كان وقع كلمة الكفر على أذن المصرى المتدين بطبعه دافعا له لإنكارى وحصارى بعيون الاتهام من جيرانى ومخاطبتى بما يكنى عن الكراهية. وبعد التجربة المحنة بشهور وجدتنى أفقد شهوة الكتابة مع رغبة فى الانسحاب من الحياة الثقافية بعد أن شعرت بامتهان لست أهلا له، فى وقت كنت أزهو فيه بأنى قد أنجزت ما أنجزت كبيرا كان أم صغيرا فى ظروف كانت هى المحال بعينه لأى آنجاز، فلا المرض يهدأ ليترك الجسد قليلا بغير ألم، ولا الظروف الاقتصادية القاسية كانت تسمح حتى بالتزود بالمصادر، فكان البحث عنها وتحويلها إلى مادة للعمل العلمى من دار الكتب إلى بقية المكتبات الممكنة،كل هذا كان دافعا لفخرى بانجازى فى وقت كان البعض فيه يتقاضى ويأخذ راتبه كوبونات نفطية من دم أطفال العراق، و وكان هذا البعض تحديدا من قام بمهاجمتى فى صحفة باعتبارى عميلا خائنا.. وإلا لماذا التكفير الأزهرى؟ وليس بعد الكفر ذنب.. وتجوز كل الذنوب وتجوز كل الاتهامات الممكنة. هل يدرى سادتنا المشايخ فى مجمع البحوث الأزهرى وهم يصدرون قراراتهم القابلة للخطأ والصواب- فكلهم من بنى آدم- ما تحدثه تقاريرهم بحق المفكرين فى مجتمع كمجتمنا ؟المسألة ليست مصادرة لورق وحبر وخط فقط لأن الفكرة لها أجنحة، المأساة هى ما تحدثه تقارير الأزهر فى حياة أسرة الكاتب وعائلته وحياته الاجتماعية. ومازلت أذكر موقفا شديدا السادية والبشاعة فى التليفزيون المصرى بعد سجن كاتب مبتدئ على مجموعة خواطر بعد اتهامه بالكفر عبر ازدراء الاديان عندما كان المذيع يسأل أبناء الكاتب الأطفال هل هم موافقون على ما كتبه أبوهم وما هو رأيهم فى هذا الأب الكافر؟!

هل هذا هو الطريق التى تأخذنا إليه الكلمة ؟وهل سيظل الوطن بهذه القسوة على عشاقه الذين يكتبون ويعانون حبا فيه وولها عليه؟

يوم ٢٩ يونيو اتصلت بى إحدى الصحف لتفاجئنى بورود خبر من الأزهر بمصادرة كتابى «شكرا..ابن لادن » ومنعه من التداول، وبعدها تتالت الاتصالات مما أكد لى الخبر،وقمت بفصل الهاتف لأعطى نفسى فرصة للتفكير فيما أنا فيه على مضض ومرارة شديدين وألم نفسى

لتكرار المأساة الملهاة مع سؤال ملح يقف وراء دماغى يهتف : ماذا أخذت من كل هذا؟..

لو حاولت الإجابة فلا شك أنى قد آخذت الكثير، فبقدر ما أصبحت غريبا فى مجتمع يعانى من وعى مأزوم ، بقدر ما تشكل لى المجتمع الحلم، المجتمع الأمل ممثلا فى قرائى الذين أصبحوا هم الأهل والعشيرة وبينهم أشعر بدفء الانسانية والمحبة النقية. ولست أرتكب بطولة مزيفة بما أكتب كما وصفنى أحد باحثى مركز ابن خلدون، كل ما فى أمرى أنى مواطن يحب بلاده ويهيم بها وجدا ويسعى إلى ما يعتقد أنه خير لها، وشاء حظى لا أعرف إن كان جيدا أو عاثرا أن أهتم بشئون التراث الإسلامى، مع هم وكرب عظيم لما آلت إليه أحوال الوطن دفعتنى للبحث عن جذور أخطائنا التى نرتكبها فى حق أنفسنا فى الثقافة المحركة للمجتمع أى فى التراث الاسلامى. وقمت أقدم هذا للناس يقبله من يقبله ويرفضه من يرفضه لأن ما أكتبه يفترض أفراز الموقفين . أنا مواطن «نفر» بسيط يعتقد بصواب ما يفعل وإذا كان فى هذا الصواب ما حاد عن الجادة فى نظر البعض فلماذا لا نسمع نقاشا لطيفا وردا مهذبا يقوم بتوضيح الصواب من الخطأ دون تكفير ودون محاكمات ودون مشهدنا الفضيحة أمام العالم، لماذا لا يدافع الأزاهرة عن الاسلام دفاعا مقنعا عقلانيا موثقا إزاء ما يرونه من وجهة نظرهم أنه ضد الاسلام؟ أننا ندفع لهم عيش البلهنية وسعادة الدنيا الفاخرة ومن بعدها سعادة الآخرة من جيوبنا ضرائب ليقوموا بمهمة تخلوا عنها منذ زمن الفقهاء الأربعة، وجلسوا بعدها على صدورنا ألف عام يؤكدون لنا أنهم حراس الدين والدنيا، فإذا الدين تكفير وإرهاب، وإذا الدنيا تلف وتخلف عظيم ، فإذا تطوع أحدنا بالنيابة عنهم لدفع الموقف وتحريكه من مياهه الأسنة قاموا عليه قومة رجل واحد دون أن يبدوا رأيا واضحا ناقدا مفندا للجديد المطروح.أنه يهز غفوتهم اللذيذة ويزعجهم والحل هو إسكاته بتهمة المروق على الدين، غير مدركين أنى قدمت وجهة نظر ربما خالفت وجهة نظرهم، لكن هذا لا يعنى أن وجهة نظر احدنا هى الصواب المطلق والاخرى هى الباطل المطلق، ففى البحث العلمى يقدم كل باحث وجهة نظره التى آنتهى اليها بفعل ذلك القانونى وعالم الإجتماع والمؤرخ والفليسوف ورجل الدين ويصبح موقف رجل الدين رأيا لا حرما مقدسا ، يقف على قدم وساق مع بقية الاطراف الاخرى مع ترك المتلقى ليفهم ويقبل عن بينة ويرفض ما يرفض عن بينة، لكن يبدو أن فى بلادنا يحق لرجل الدين (حق الفيتو) فى زمن نتحدث فيه عن الاصلاح وعن الحريات وعن الديمقراطية وعن

المستقبل) فى هذا الزمن يتصور بعضنا أنه ممثل الرب فى الأرض وأنه الوحيد الذى أطلع على المقصد الإلهى من كل نصوصه دون غيره من البشر ، ومن ثم ينفى ويصادر ويكفر رأيا يخالفه لأن رآيه هو الصواب المطلق ورأى أى مختلف معه هوالكفر المطلق.

وفكر الانسان اليوم لم يعد كذلك فقد أصبح بإمكانه قبول الفكر الاخر بمعاييرالآخر، قبول المختلف بمقاييسه وقيمه ونظرته للأشياء وحقه فى التعبير عما يعتقد، ولا يرتبط قبول المختلف بمدى تطابق أفكاره مع أفكارنا التى نؤمن بها فللاخر المختلف مايؤمن به، وقد نختلف على معنى نص أو على قراءة تاريخية فلا يزعم أحدنا أنه الصواب والاخر كافر، لأنه يلبس عمامة ويعمل كاهنا فى الأزهر لأن هذه هى الكهانة حقا وصدقا وفعلا بل هى الكهانة فى أعتى مظاهرها التى تمثلت فى محاكم التفتيش فى التاريخ البائس .

على الأزهر أن يصلح شأن نفسه أولا

فى زمن خاطئ اتخذ الأزهر الموقف الخاطئ على عادتنا فى اتخاذ القرارات.

العالم كله يرقبنا، ينتظر ما تؤول إليه شئون الإصلاح فى بلادنا، وأولها حرية الرأى والكلمة وهى أدنى المطالب، حتى لو كنا فى بلاد واق الواق، والدول الكبرى تفتش ملفاتنا وترصد وتترصد، وتتهم الأزهر بوضوح أنه أحد مصادر الإرهاب الكبرى، وفى هذا الوقت الشديد الحساسية وفى زمن أزمة دولية تعيشها بلاد المسلمين، وليس قبل ذلك وليس بعد ذلك يتخذ الأزهر قرارات المصادرة وحرق الكلمة وسجن الرأى ولن أناقش هنا مسألة مصادرة كتابى «شكرا .. بن لادن» لكنى فقط أود كتابة ما يعتبر مصداقا للقول من كان بيته من زجاج فلايقذف الناس بالاحجار، والأزهر فكرا هو مبنى زجاجى بالكامل، وكنا نسكت عليه على أمل الاصلاح الداخلى وإن كان بطيئا فلنا الصبر وأن الشأن سينصلح دون كشف المستور فى ملفاته ومناهجه وتقاريره ومواقفه، برجال قد يدركون حجم الأزمة وقد يقدرون نتائج ما ارتكبت أيدى السفهاء منا فى حق الدنيا وفى حق أوطانهم، لكن أزهرنا يصر دوما على اشعال الحرائق التى ستنال منه قبل غيره، وربما كان قرار الأزهر بمصادرة كتابى ناتج عن عدم ادراك واضح

للظرف المحلى وتشابكه مع الظرف العالمى، الذى هو بدوره ناتج عن مناهج عتيقة للفهم والتفكير تعود إلى القرون الخوالى. لكن ذلك قطع علينا الصبر الذى كان يؤجل مناقشته على الأقل فيما يدرسه لأبنائنا فى معاهده، ومع انقطاع حبل الصبر لنناقش بعضامما يقدمه الأزهر لبناتنا وأولادنا وذلك قبل أن يعزينا العالم فى أنفسنا وفى بلادنا وفى شعبنا طالبين لنا السلوان بعد الصبر. وهنا سأضرب فقط بعض الأمثلة حتى نستطيع التمييز بين من يؤدى دوره فى سبيل الوطن ومن يؤديه فى سبيل المنافع دون اعتبار للوطن، ومطالبه وللظرف وحساسيته ومن الذين يستحق المصادرة الفورية.. الأن وليس غداً. لكن العبد الفقير ضد منطق المصادرة أيا كان ولأى سبب إذن لنطل معا على مناهج الفقه التى يتم تدريسها فى المراحل الثانوية الأزهرية لا لنطلب مصادرتها بقدر ما سنكشف معا أن استبعادها من المناهج هو أول خطوات الأزهر المطلوبة للاصلاح. مع بقائها بالطبع فى المكتبة الإسلامية مرجعا لمن أراد معرفة كيف كان يفكر المسلمون الفقهاء زمن الفقه الذهبى وحتى ندرك أيضا كيف يفكر أزاهرتناوماذا يريدون من شبابنا الذين هم أمانة عندهم ووديعة فى مكان شبه مقدس فى نظر المسلمين.

ينكشف الآن أن مبدأ قتال غيرالمسلم وقتله وفق ما تسميه الوهابية والقاعدة «عقيدة الولاء والبراء» ليس بدعة من ابن عبدالوهاب أو من الظواهرى لأن كتاب الفقه «الاختيار فى تعليل المحتار» يعلم أبناء الجيل الآتى أن «قتال الكفار واجب على كل رجل عاقل صحيح حر قادر.. وإذا حاصر المسلمون أهل حرب فى مدينة أو حصن دعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا كفوا عن قتالهم، فإن لم يسلموادعوهم إلى الجزية. فإن أبوا استعانوا الله عليهم وحاربوهم ونصبواعليهم المنجنيق وأفسدوا زروعهم وأشجارهم وحرقوهم ورموهم وإن تترسوا بالمسلمين».

وللمسلمين أن يفتحوا أرضا فيجلو أهلها عنها فيسكنوا مكانهم أو تصبح وقفا على المسلمين إذا هرب أهلها فزعا - كتاب الفقه: روض المربع ١٩٧، ويصرف عائد «الأرض التى أجلى أهلها عنها فى مصالح المسلمين الاختيار شرح ج ٣ ص ٣٣٥» وفى باب البيع بروض المربع «ولا يباع غير المساكن مما فتح عنوة كأرض الشام ومصر والعراق. وكارض العنوة ما أجلوا عنه فزعا/٢٠٤».

ولعل أحدنا يسائل نفسه هنا همسا: لماذا نلوم اليهود؟ وماذا عن

ذكريات دير ياسين؟ ثم يبقى تساؤل آخر فى مسألة الحرب بالمنجنيق وقدر ما يعلمه أبناء الأزهر عن أنواع الأسلحة المطلوبة لقتال العالم، ناهيك عن هذا التدريب الملح لأرواحهم على قبول فكرة النهب الحلال والقتل المشروع. ثم يبدى الكتاب سماحة مأمور بها فى هذا القتال «وينبغى للمسلمين ألا يغدروا ولا يغلوا ولا يمثلوا، ولا يقتلوا مجنونا ولا امرأة ولا صبيا ولا أعمى ولا مقعدا ولا مقطوع اليمين ولا شيخا فانيا إلا أن يكون أحد هؤلاء ملكا أو من يقدر على القتال أو يحرض عليه أو له رأى فى الحرب أو مال يحث به»، وشرط العفو عن النساء وكبار السن والمعوقين جسديا بعدم التحريض على القتال، يضع الجميع تحت طائلة القتل لأنه لايوجد مواطن يعيش فى وطن يهاجمه أغراب لن يحرض على القتال وهو أضعف الإيمان.

ونتابع ونقرأ ما يتعلمه الشباب المعول عليه فى مستقبل الوطن فى ذات المصدر :«وإذافتح الإمام بلدا عنوة إن شاء قسمها بين الغانمين وإن شاء أقر أهلها عليها، وإن شاء قتل الأسرى أو استرقهم أو تركهم فى ذمة المسلمين.. وإذا أراد الإمام العودة ومعه مواش يعجز عن نقلها ذبحها وحرقها / الاختيار ج٣ ص ٣١٠ ـ٣٣٥».

أى فكر هذا الذى يعلمه أزهرنا لجيلنا الصاعد؟! أن من حقه شن الحرب عندما يستطيع على الدول الأخرى حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية أو نستبيحهم على كل لون؟ مع نهب البلاد والعودة بالمنهوبات وإذا عجزنا عن نقل هذه المنهوبات احرقناها؟ وهل يتصور أحد أن المخالف سيدفع الجزية وهو صاغر لشعب لا يعرفه لمجرد أنه قادر على المهاجمة والقتل والذبح؟ وهل سيسلم الناس بلدانهم دون مقاومة؟ ومع المقاومة لابد من أنهار دم تناسب خضوع البلد للاحتلال وبعد الاحتلال تصبح دارهم دارناويصبح أهلها ضيوفا عندنا لأن «الجزية التى تؤخذ من أهل الكتاب هى مقابل عدم قتلهم **وإقامتهم فى دارنا** / روض المريخ/ فى المذهب الحنفى ١٩٩» خاصة أن لدفع الجزية طريقة وأسلوبا فالدنيا ليست فوضى بل لها أصول وشروط وقواعد :«ويطال وقوفهم وتجر أيديهم وجوبا لقوله تعالى وهم صاغرون، ولا يقبل ارسالها / نفس الصفحة»

وماذا بعد الفتح والهجرة والاستقرار فى البلد المفتوح إلى جوار أهله غير المسلمين الذين يدفعون الجزية؟ هناك توجيهات أتمنى أن يرى قارئ معى كيف سيكون موقف خريج الأزهر من أخيه فى الوطن بعد أن يدرسها فى

أزهرنا: «لايدفنون فى مقابرنا.. يحذف مقدم رؤوسهم لاكعادة الاشراف، وشد زنار.. وخاتم رصاص برقابهم، لهم ركوب غير الخيل كالحمير بغير سرج.. لايجوز تصديرهم فى المجالس ولا القيام لهم ولا بدؤهم بالسلام أو بكيف أصبحت أو أمسيت أو كيف حالك. ولا تهنئتهم وتعزيتهم وعيادتهم وشهادة أعيادهم.. ويمنعون من إحداث كنائس..ومن بناء ما تهدم منها ولو ظلما.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتبنى كنيسةفى الإسلام ولا يجدد ما خرب منها.. ويمنعون أيضا من تعلية بنيان على مسلم.. ويمنعون من رفع صوت على ميت «روض المربع / ٢٠٠ : ٢٠٠١» ولو دعا الذمى مسلما إلى وليمة عرس لايذهب «لأن المطلوب إذلال أهل الذمة / الروض ٣٥١» وتحرم تعزية الكافر فى ميت لديه الروض ١٢٣».

وعندما شنت روزاليوسف حملتها على الشيخ عمر عبد الكافى وشرائطه كان عبدالكافى يستمد مواقفه من هذه الكتب الأزهرية ولم يرفعها الأزهر من مناهجه.

وماذا بعد فى جعبة المناهج الأزهرية؟

فإن أبى الذمى بذل الجزية مع الصغار «أى الذل».. حل دمه.. فيخير فيه الإمام كأسير حرب بين قتل ورق وفداء ويحل ماله.»..وفى باب الجنايات من روض المربع تشترط المكافأة بين القاتل والمقتول بأن يساويه فى الدين والحرية والرق فلايقتل مسلم حر أو مسلم عبد بكافر أو كتابى أو مجوسى أو ذمى أو معاهد لقوله عليه السلام «لا يقتل مسلم بكافر رواه البخارى وأبو داود / روض المربع /٤٠٩».

وفى باب مقادير الديان على القتلى دية الحر الكتابى الذمى.. نصف دية المسلم،(٤١٦). وهنا نجد المسألة الحقوقية للذمى مقابل المسلم هى كالآتى: إذاامتنع الكتابى الذمى عن دفع الجزية استبيح ماله ودمه وإذاقتل مسلما فلابد من قتله لكن لو قتله مسلم فلا يقتل المسلم بل يدفع الدية ودية الذمى نصف دية المسلم.. منتهى العدل!!

لكن اضافة إلى كل هذه القتامة والجهامة والتسلطن البشع هناك طرائف لطرائف فتجد مثلا فى كتاب الوقف بروض المربع ص ٢٩٤ أنه يمكن الوقف بل ويصح على كافر غير حربى كما يصح على المرتد.. لماذا؟ أنظر يا مؤمن وتلذذ فالسبب «لانتفاء الدوام، لأنهما مقتولان عن قرب»!!؟

ويجب منع نجس الفم من قراءة القرآن ويمنع الكافر من قراءته ولوزجي إسلامه/ روض المربع ٣٥.. والسؤال هنا هو كيف يدعو أهل

الدعوة غير المسلمين للإسلام؟ أم أنهم اكتفوا بدعوتنا نحن مرة أخرى بعد أن حرموا على غير المسلم قراءة القرآن ولو رُجى إسلامه؟! وفى باب القطع على السرقة يشترط للقطع أن يكون المسروق مالا محترما، لذلك يجوز سرقة الصليب وآلات اللهو «روض المربع / ٤٣٠» وفى باب الغضب تحريض على كسر آلات الطرب «كسر مزمار أو غيره من آلات اللهو وصليب وآنية فضة وذهب وآنية خمر / الروض /٢٧٩».

هذا ما يدرسونه فى الأزهر بينما كنا نتساءل عن سبب الغلو والتشدد فى مهاجمة الحفلات الموسيقية والأفراح من قبل من نطلق عليهم متطرفين.. فماذا نطلق على هذا الذى نقرأه؟

لم يزل هناك بعد ما هو مقزز للنفس وجارح كما فى شروط الاستنجاء «تنظيف المؤخرة بعد التغوط».. فإذاكانت الأداة المستخدمة حجرا فله شروطه: أن يكون جامدا طاهرا قالعا، ولايجوز استخدام الورق المحترم وهو ما كتب عليه اسم معظم أو علم كحديث وفقه، لكن يجوز استخدام الورق غيرالمحترم مثل ما كتب فيه علوم الفلسفة أو المنطق، أو بورق التوراة والإنجيل شرط فحصها أولا والتأكد أن اسم الله غير مذكور فيها «الاقناع فى حل الفاظ أبى شجاع /شرح ج ١ ص ٧٣».

ونتساءل من أين يأتى الإرهاب؟!

هذه فقط عينة مما يمكن قوله بشأن الأزهر ومناهجه نتوجه له بها مع رجاء وتمن بإعادة النظر فى هذه المناهج وأن يهتم الأزهر بشأنه الداخلى أولا، وأن يضع مصالح الوطن فى مقام قبل كل المقامات. وأن يعلم هناك اصلاحا مطلوبا الآن يمكن أن نقوم به بأيدينا إذا كنا فى غنى عن يدى عمرو، وأن المعركة يجب أن تتجه إلى كل ما يمكن أن يمس المواطنة المتماسكة المترابطة بأى رذاذ طائش، لأنها هى الوطن والمواطنون، هى أرضنا وناسنا التى يبنى عليها بعدذلك كل شأن. أما القرارات الطائشة والاهتمام بعمليات ثأرية ضد مفكرى الوطن فهو إثبات جديد بإرهاب الأزهر الفكرى الذى هو الباب الشرعى للإرهاب الدموى فى وقت لم يعد يحتمل حماقات أعيت من يداويها.

ويمكن أن تكون هذه المقالةإشارةهامة للأزهر ليقوم بواجبه المفترض فى دعم الوطن ومصالحه وينتهى الأمر ويمكن أن تكون بداية لسلسلة لا أرى الآن نهايتها من درس شأن الأزهر على الملأ.

نادى الوطن الجماعة هو الضياع

لم يمر العالم الحديث بفترة حرجة فى تاريخه كتلك التى نعيشها هذه الأيام، وأن الدول الإسلامية جميعا تمر بدورها فى هذه الفترة الزمنية الحرجة بل إنها فى بؤرة الأحداث منها، وأنها جميعا مرشحة لرياح عاتية وتغيير عظيم آت لتشكيل خريطة بل الشرق الأوسط الكبير، ولاشك أن من بين بلاد الدنيا فإن الدول العربية قد أصبحت فى بطن الاعصار الدولى، وفى مركز دوامة الاعصار وما تدور فيه من أحداث تتلاحق بتسارع يتخذ كل لحظة شكلا جديداً بحكم المتغيرات المتلاحقة فى الظروف ما بين الفكرة التأسيسية للشرق الأوسط الكبير كمجموعة أهداف، وبين ما يحدث فى الواقع من حركة معطلة أحيانا وعامل تسريع أحيانا أخرى، وربما اتخذت صراعات مركز الدوامة منعطفا أكثر حدة مع تعالى صوت الإرهاب المتأسلم فى العالم، وشكل الرد المقابل وحجمه وما ينتج عنه من كوارث فى بلادنا أو فى بلاد العالم أينما كان.

ومن ثم عاد العرب المسلمون مرة أخرى ينبعثون من قبور التاريخ بعد أن هالت عليهم رياح الزمن وسفى رمال التخلف النسيان، لكن ليتعاملوا مع أحداث اليوم بعقلية القرون الماضية فى طقس سحرى مؤداه أن الشبيه ينتج الشبيه، فإن عشنا ذات الأساليب الماضية فإنها ستؤدى إلى النتائج التى أدت إليها فى الماضى من انتصار للمسلمين وإقامة إمبراطورية عربية عالمية، وهو ما يعنى أننا قد تراجعنا إلى مرحلة ما قبل الأديان مرحلة السحر البدائى.. ولأنه سحر بدائى، ولأنه منطق القرون الخوالى، ولأنه المنطق الثابت الماضى الذى أدى لانهيار إمبراطورية العرب، فإننا لا نستطيع أن نتصور حالنا اليوم لو انهرنا إلى مزيد فإلى أين سيكون المستقر؟ إذا كان حالنا اليوم يضعنا فى حقبة تطورية دون مرحلة الإنسان فى الدنيا لأن إنسان اليوم لم تعد تصلح معه أنماط التعريفات الفلسفية المعتادةعلى تطورها من كونه حيوانا ناطقا إلى كونه حيوانا عاقلا إلى مفكر إلى صانع إلى مبتكر إلى مخترع إلى كونه يجيد لغة الكمبيوتر.. إلخ.. بينما تقف أمتنا تحمل تعريفها بالخط العربى الخالد عند مستوى الإنسان الناطق، لتشكل حفرية حية إزاءإنسان آخر تباعد عنا تماما واختلف بالكلية، يعيش حياة وزمانا متصلا بالنسبة لنا، هذا إذا أمكننا النجاح فى معركة البقاء فى الوجود، فهناك لون آخر من البشر حقق تطوره النوعى

فافترق عن الماضى القريب افتراقا هائلا، نوع يعيش حياة اجتماعية وانظمة قانونية ونظريات معرفية تختلف بالكلية عما نعيشه هنا حتى يكاد يكون نوعا جديدا من الطفرات البيولوجية ، هؤلاء الجدد يتصورون أن نظام القبيلة الذى نعيشه نحن حتى الأن لونا سحيق البدائية فى الحياة الإنسانية، وأن بخس حقوق الإنسان لأسباب طائفية أو عنصرية نعانيها فى بلاد العرب هو حقبة تطور من الماضى ولت مع إنهيار نظام الرق أمام تطور النظام الحقوقى الإنسانى، وبينماأصبحت الأمية عندهم هى عدم القدرةالتمامية على التعامل مع أجهزة التواصل الحديثة «الكمبيوتر» فإن ٧٠٪ أوأكثر من شعوبنا التى تطلب القتال وتقفز طوال الوقت قفزا إلى الجهاد لايفكون الخط.،

أما المشكلة الحقيقية التى نعانى منها والتى هى أم المشكلات، أنه بينما أصبح العالم يتحول فى تواصله إلى قرية كونية، تختلف فيها الأعراق والأديان والأجناس لكنها متوحدة إنسانيا ومصلحيا، فإننا مازلنا فى بلادنا نصارع من أجل تأسيس مفهوم الوطن الكلاسيكى إزاء رياح الوطن الجماعة التى تكفأنا كلما حاولنا النهوض بالطائفية والعنصرية والقبلية. وكل ما فى سلة مهملات التاريخ من فكر بائس، يشكل منظومة التخلف الكبرى لبلادنا. ونخوض معارك يرفعون فيها فى وجهنا المقدسات، بينما نرفع فيها راية البدء بالتوحد والانصهار الوطنى وتأسيس المعنى البسيط الابتدائى، ومعنى المواطنة الذى هو أساس التماسك الاجتماعى المؤدى لبدء خطوات الاصلاح المطلوب، ودونه يظل الاصلاح سرابا نطارده دوما دون أن نصله أبداً. والمعركة هنا يمثل الطرف الآخر فيها نظرية الوطن الدين أو الوطن الطائفة أو الوطن العنصر، وهى ما يمكن أن نطلق عليه موجزا «الوطن الجماعة»، ويصل الأمر إلى تكفير فكرة الوطن الأرض لأنه تقسيم لبلاد المسلمين كما لو كانت هذه البلاد متحدة بالفعل، أو بإمكانها اتخاذ قرار واحد مشترك ينفذ بالفعل. إضافة لمغالطة شديدة تجعل الوطن الجماعة هو وطن الاسلام، ووطن الاسلام هو أى بلد يعيش فيه مسلمون سواء كان أكثرية أو أقلية، لأن النظرية الإسلامية تقول هنا إن الأرض لله ويرثهاعباده الأتقياء أى المسلمون، وأنهم القيمون عليها اليوم أو غداً إن شاء الله، وبهذا المعنى تعتبر كل أرض يعيش فيها مسلمون هى جزءا من أرض الإسلام ودولته وستتأسلم جميعا إن

قريبا أو بعيداً أو يسودها الإسلام حتى يدفع غير المسلمين الجزية عن يد وهم صاغرون.

وهكذانجد الجماعة الوطن فكرة نظرية، ليس فيها حدود أو معالم لهذا الوطن لأنه قابل للانكماش أو الاتساع حسب انتشار المسلمين فى العالم. وهو وطن فضاء يتسيد فيه المسلمون.

ويقوم الوطن الجماعة أساسا على فكرة القبيلة البدوية التى كانت تخشى التبدد أو التفكك أو الضياع فى الصحراء، لذلك كان رد الفعل هو التشدد التشديد على تماسك الأفراد وتغليظ العقوبة على المختلف لأنه يهدد الجماعة كلها فى ظرف جغرافى شديد القسوة، حتى تشابه الأفراد تشابها تاما فى الزى والسلوك والطقوس وطريقة التحية وطريقة دخول الغائط وطريقة النكاح ومناهج التفكير وقواعده الواحدية الصارمة، حتى تظل القبيلة متماسكة لمواجهة الطوارئ.

وقد تجاوزت الإنسانية هذه المرحلة البدائية المجتمعية بعد أن أمكن للإنسان تحقيق الأمان لنفسه وللمجتمع بالقوانين الحقوقية المتطورة، وسمح بالاختلاف كحق مطلق للمواطن، فحقق ليس فقط الأمان بل والسعادة، لأن الأمان والحرية اطلقا ملكات الإبداع والكشف والابتكار والانتاج فتحقق أيضا التفوق العظيم، ولأننا لاننتج ولا نبدع ولا نبتكر ولا نكتشف ولا نعتقد أن تلك مهمتنا، فنحن خير أمة أخرجت للناس لاتقع عليها مثل هذه الأعباء الدنيوية الفانية. لم نجد بأيدينا ما نفعله لضمان التماسك وسط طوفان التغيير سوى التماثل والتشابه بالإسلام وحده، لأنه ليس لدينا قيم الآخرين المؤدية للتماسك، بل ونرفضها كقيمة التسامح وقيمة الإنسان لذاته لا للونه ولا لعقيدته بل وترفض بشدة عقيدتنا فى الولاء والبراء، تلك القيم الساقطة كما يسميها «الزرقاوى»، فلم نجد بأيدينا للتماسك سوى منطق التماسك القبلى القديم، الوطن القبيلة المتحركة التى لا تعرف الوطن الأرض، بتوحد المسلمين جميعا بمعايير واحدة وتشابه فى السلوك والمواقف حتى لو لم يتمكنوا بهذا المنهج أن يتوحدوا مع بعضهم البعض. المهم مواجهة التيار الجارف نحو العولمة بتيار جارف نحو القبيلة الوطن الوهم، بينما يضيع من بين أيدينا الوطن الأرض وتتمزق فيه عرى المواطنة لأسباب طائفية أو دينية أو عنصرية.. وربنا يستر على العراق. فنظرية الوطن الجماعة تعم البلاد الاسلامية بشدة

وهى وحدها الكفيل بتمزيق الوطن الأرض دون تدخل خارجى ولا مؤامرات.. ولولا تاريخ عريق للمصريين أقباطا ومسلمين فى إدراك معنى الوطن الأرض، لطول ما ضربت جذورهم فيه عبر الزمان، ولولا تسامح قديم قبل دخول فكرة الوطن الجماعة مصر، ولولا الريف المصرى بقيمه الما قبل عربية، لحدث ما لايتمناه مصرى، وقد أثبت الشعب المصرى تحديداً أو اقباطه بالذات قدرة تجاوز المناطق الحرجة بحكمة وصبر وجلد مشهود، بعد أن دخلت مصر فى الزمن الناصرى صراعا على قيادة المنطقة بمنافسة مع السعودية استخدمت فيها كلتاهما اللغة الدينية الطائفية، وكان طبيعيا أن تحقق السعودية تفوقها على الأقل على المستوى النظرى والثقافى أولا: لأن جغرافية الاسلام فى بلادها، وثانيا: أنها بلاد لا يسكنها غير المسلمين مواطنين، بينما مصر فيها مواطنون غير مسلمين، ومن ثم انتصرت الوهابية على سماحة مصر و«مذهبها» الحنفى، وعمت على البلاد موجة من الارهاب كانت كفيلة بتمزيق الوطن لولا أن مصر المحروسة محروسة بأهلها، لا بعقيدة هذا ولا بفكر ذاك ولا بمذهب من المذاهب.

وبينما الوطن الأرض هو أرض الجميع وأب الجميع على اختلاف مللهم ونحلهم، فإن الوطن الجماعة يقصى من البلاد التى سيطر عليها واصبحت اسلامية كل من كان غير مسلم ويهمشه وينفيه معنويا، والأهم أنه يعتبره ناقص المواطنة لأنه ليس عضوا فى الوطن الجماعة، ومنذ قرر «سيد قطب»: أنه لا وطن لمسلم ولا جنسية/ المعالم ١٥١.. ولا اعتزاز بوطن ولا أرض /٣٥.. ولا براية قومية /٤١» وفكرة الوطن الجماعة، تتصاعد وتنتشر ويعلو صوتها، حتى تبنتها أجهزة الإعلام العربية على مختلف فعاليتها إخبارية أو درامية، حتى غاب معنى الوطن الأرض وبقى معنى الوطن الجماعة. بل وأصبح سيد قطب المصدر الفكرى لزاد التعليم الدينى، حتى إن المناهج السعودية مثلا ترى «أن الفكرة الوطنية هى عقوبة لبعض الشعوب الاسلامية / التوحيد / ثالث ثانوى» ومن هنا نفقد الرؤية فنقتل الحاكم حتى لو خرج من الحرب منتصرا « السادات» لأنه ذم شيخا واعظا فتم إخراجه من الملة ووجب قتله، ونعطى المشروعية للحاكم حتى لو خرج من الحرب مهزوما مع موت وخراب ديار لأنه عضو فى الوطن الجماعة العربية أو الإسلامية «عبدالناصر مثلا»، بينما فى بلاد الإنسان

الراقى يستطيع المواطنون عزل الحاكم بمزاجهم حتى لو خرج من الحرب منتصرا «بوش الأب مثلا».

وفى الوطن الأرض الذى استولت عليه الطائفة يتحول المواطن غير العضو فى نادى الجماعة إلى ضيف غير مرغوب فيه وهو وحظه فى المعاملة من إخوانه أعضاء الوطن الجماعة، فهناك الطيب المتسامح الذى يثبت عظمة الإسلام بسلوك السيد النبيل تأكيدا لـ «المسامح كريم» ومبدأ «العفو عند المقدرة» و «المعاملة بالمعروف»، تحبيبا للآخرين فى الاسلام.. وهى كلها علامات شموخ طائفى تهين أخاه فى المواطنة لأنها تتفضل عليه بالمواطنة فى وطنه وترثى له وتشفق عليه لكفره ولا تضطهده.

وهناك الأكثر طيبة الذى يفهم معنى «أهل الذمة» بمعنى راق وهو أن غير المسلم فى ذمة المسلمين وخفارتهم ورعايتهم، وهناك المتعصب الذى يرى معنى «أهل الذمة» هو وجوب دفعهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولأن الوطن الجماعة يفرض شروطا لحيازة الوطن الأرض، فإنه وفق هذه الشروط يصبح من غير حق مواطن مسيحى أن يكون مسيحيا أو مواطن بوذى أن يكون بوذيا أو مواطن شيعى أن يختار المذهب الشيعى، لأنه فى قيم نادى الجماعة تختفى فكرة أن هناك بشرا يختلفون عنا وأن لهم الحق فى هذا الاختلاف، وأن لهم مع ذلك كامل الحق فى حقوق المواطنة ولهم كامل الحق فى الأرض.

إن الوطن الأرض هو ما ينبغى أن تتجه إلى ترسيخه وسائل الإعلام والتعليم فى بلادنا الآن وبسرعة ودون تراخ ودون لجان واجتماعات لأنه الأساس الذى يبنى عليه مشروع أى وطن متقدم أو متخلف، إنه مشروع الأرض أولا التى تجمعنا كمواطنين على حبها وتمنحنا دفء بعضنا ببعض بغض النظر عن الفرق بين الهلال على المئذنة والصليب على الكنيسة، فهذه مجرد رموز ويبقى المشترك بين الجميع هو الإنسان المواطن، إن الوطن الأرض يعنى أن الجميع على ذات المستوى والدرجة من الأهلية والمسئولية باعترافهم بديانات بعضهم البعض، وحق المواطن فى اعتقاد ما شاء مادام مواطنا صالحا، وعندما لايصبح الاختيار بين الوطن الأرض والوطن الجماعة، إنما بين الوجود فى كوكب الأرض وبين الوطن الجماعة، فلابد أن نختار الوطن الأرض.

ثقافة «وامعتصماه»

«اذهبى حيث شئت فسوف يأتينى خراجك» العبارة الفاخرة الباعثة للاعتزاز عند كل مسلم، والتى قالها هارون الرشيد لسحابة مارة، كناية عن اتساع امبراطوريته، وكيف سيعود على الخليفة الإمبراطور العائد المالى أو الخير العينى أينماأمطرت تلك السحابة وهو الخليفة المتهتك الذى بلغت الامبراطورية الاسلامية فى زمنه أوج اتساعها، لكن الفقهاء كعادتهم كانوا يردون على انغماس هذا الخليفة فى الملذات الدنيوية، بأنه يجب ألا ننسى أنه «كان يحج عاما ويغزو عاما»؟!

وتاريخ الملذات فى قصور الخلافة الإسلامية تاريخ وسيع حافل، يشير إلى النعمة العظيمة، التى عاش فيها الخلفاء المسلمون وأهلوهم وبطانتهم من الحروب والفتوحات الميمونة، مما يسبب للمسلم المهان اليوم فخرا تنتفخ له الأوداج، بهذا التاريخ المشرف العظيم، بعد أن علمونا فى المدارس وفى الدروس الواعظة بالمساجد وبالتلفاز وبالصفحات الدنيية بالصحف اليومية، وعبر سيل الصحف الدينية والكتب الإسلامية، كيف كانت امتنا أعظم الأمم، وكيف احتلت الإمبراطورية العربية القرشية الإسلامية جانبا كبيراً من المعمورة المعروفة حينذاك، فكانت قوة مرهوبة الجانب عظيمة البأس، وأن هذه الأمة هى ماضينا السعيد وزماننا الذهبى، الذى يشكل اليوم فى ظل انهيار المسلمين البائس فى قاع تراتب الأمم حلما وخيالا وأملا فى استعادة هذا الزمان البديع، خاصة مع احتلال أراض عربية من جانب أشد الناس كراهية عند المسلمين بل وأشدهم هوانا على الله وعلى المسلمين وأنهم من ضربت عليهم الذلة والمسكنة، ورغم ذلك فهم اليوم الأقدر على إذلال خير أمة أخرجت للناس، وأنهم من ضربوا عليها الذلة والمسكنة والهوان.

ثم ماذا لو تذكرنا أسطورة فتح عمورية المليئة بالمعانى العربية العالية من قيم النخوة والشهامة والعرض الرفيع الذى لا يسلم من الأذى إلا إذا أرقنا على جوانبه الدم، وكيف صرخت المرأة العربية المجهولة عندما اعتدى عليها بعض الروم، على حدود الدولة الإسلامية ونادت التاريخ ليسجل صيحتها المدوية «وامعتصماه» وكيف أن الصيحة بلغت المعتصم فقام ينتقم لها باحتلال عمورية والولوغ فى دماء أهلها، وفروج نسائها ليضمها إلى بلاد المسلمين درسا وعبرة لمن يفكر بالاعتداء على الشرف

العربى الرفيع من الماجدات المسلمات، لقد أراد الخليفة وهو فى مجده الاستيلاء على عمورية فاستولى عليها، والإسلام ليس بحاجة لمبررات لضم البلاد للدولة، فهى مهمة إسلامية أبدية، طالما كانت مستطاعة ومع ذلك قام المؤرخون يحكون لنا عن امرأة مجهولة استصرخت الخليفة شخصيا على عرضها فقال لها لبيك، أى فخر وأى اعتزاز وأى شرف وأى كبرياء ضاع من أمة المسلمين؟! ثم أى اهتمام ليس بمواطن بل بمواطنة منكورة تثأر لشرفها الدولة جميعا، فأى كرامة كان يتمتع بها المواطن فى دولة الإسلام العظمى؟

ومن ثم يبيت يقين المسلم اليوم، أنه لاحل إلا باستعادة تلك المملكة الواحدة التى ما يغلبهاغلاب، وأن هناك أسبابا قدتخلينا عنها فتخلى عنا ربنا، فتحولنا عن الماضى السعيد إلى الحاضر الكئيب، ولاشك عند المؤمن الطيب أن أهم هذه الأسباب عدم الالتزام بأوامر ونواهى ديننا،وأهمها فى ميدان السياسة هو الحكم الإسلامى الملتزم دينيا، وساعتهاستتكفل أيدى العناية الربانية بتحقيق المراد من رب العباد.

وهكذا لاينصرف المسلم إلى البحث عن أساليب تناسب هذا الزمان ليجد لنفسه مكانا فى هذاالزمان، فهو لايريد مكانا بل يريد كل شىء أو لا شىء!! هو لاينشغل بالمشاركة فى الحضارة العالمية ليلحق بها خروجا من أزمته، ولو بسهم يبدأ متواضعا ثم يكبر مع الأيام، بقدر ما ينشغل بحكايات الماضى المجيد، ويتعلق به تعلقا عصابيا مرضيا، لايسمح للعقل بالتفكير فى الحاضر وأدواته، ولا فى المستقبل وسبل التخطيط له، بل يصل الأمر به إلى رفض هذا الحاضر وتهوين شأنه والحط من إنجازاته رغم أنها الأعظم فى كل تاريخ الإنسانية، قياسا على أى ماض ورفض المستقبل ضمنيا لصالح ماضى مهما أنتج حتى لو استعدنا فسيظل قياسا على المنجز السياسى والاقتصادى والعلمى اليوم متخلفا بفارق القرون التى تفصلنا عنه سواء فى وسائل عمله أو مناهجه فى التفكير أو أساليب التمدين ومفارقتها لزمننا بما لا يقارن.

والملحوظات التى تفرض نفسها إزاء هذا الموقف عديدة، تعالوا نتابعها معا علنا نظفر بطائل من ورائها:

الملحوظة الأولى: هى استثمار رجال الدين وحملة ألويته من إخوان وجماعات لمأساة المسلمين اليوم من أجل الحصول على مزيد من مساحات

السلطة والسيطرة بالدين، بإعادة كل شيء إلى الدين وأن هزيمتنا الحضارية الماحقة هى نتيجة تخلى مسلمى بلادنا البسطاء عن شروط دينهم التى اشترطها ربهم لنجدتهم عند اللزوم، قياسا على دولتنا العظيمة الماضية، بخلط وتزوير تاريخى على المؤمنين، يصور للناس أن دولة الإسلام كانت دولة الشريعة والعدل والمساواة، لذلك نصرها ربها بينما ما حدث لم يكن كذلك أبداً فإقامة الشريعة وحمل الرسالة السماوية إلى الناس لم يمنع الناس من دس السم لحامل الرسالة ونبى الأمة ومؤسس وحدتها ودولتها، فأكرمه الله بالشهادة بالموت مسموما إلى جوار ما أكرمه به من النبوة، ولم تشفع للنبى نبوته وعدله وإحسانه ورفقه وإقامته لكرامة عربية جديدة، ومات مسموما، ولايشك المسلمون السنة أن خير القرون بعد النبى كان زمن الخلافة الراشدة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، وأنهم أقاموا الدولة المثالية عدلا وشريعة وكانوا أكثر الأمناء على الإسلام بعد نبيه، ومع ذلك مات أبوبكر مسموما فى كثير من الروايات ومات عمر مطعونا بخنجر، وتبعه عثمان ممزقا بسيوف الصحابة وأبناء الصحابة، ولحقه على مطعونا بالسيف وهو ما يعنى أن إقامة الشرع فى الأرض المبشرين بالجنة ولم تحم كبار رؤوس الدولة وأهم الشخصيات فى تاريخنا الدينى بعد النبى، بل ولا النبى نفسه،وهو مايعنى أن الالتزام الدقيق بشروط الإسلام النموذجية لم يحقق الأمان للخلفاء أنفسهم، فكيف كان شأن المواطنين؟!

وهو أيضا ما يعنى أنه ليس هنا نتائج سحرية تترتب على تطبيق الشروط الدينية، فهذه كانت الخلافة الراشدة حيث الشريعة مطبقة أحسن التطبيق، وعلى الجانب الآخر ومع بداية الخلافة الأموية مورست كل ألوان العربدة فى قصور السادة والأثرياء والحكام، وحدث عن ألوان الجنس والعشق الشاذ والمثلى دون حرج، والتغنى بالغلمان المرد وصنوف الخمر وكل ألوان المجون والخلاعة، بل وارسال الشعر فى مجالس الخلفاء تسخر من رسالة محمد وتعلن الكفر بها، ومع ذلك كله فإن الدولة قد حققت أقصى فتوحاتها وحققت كرامتهاوعزتها الدولية دون تطبيق شرع ولا حكم بدين ولم تكن يوما دولة إسلامية «حتى لانظلم الإسلام»،والمعنى المقصود أن ما يحدث على الأرض من وقائع فى ظل شروط ظروفية بعينها هو ما يحدد نتائجه وليس أى دين من الأديان.

الملحوظة الثانية

هى أن مبدأ الفكرة برمته يقوم على خطأ واضح وظلم بين لأهلنا وناسنا من المسلمين البسطاء الطيبين الصالحين، وتصويرهم كأحط الشعوب، فى تخليهم عن ربهم حتى أنزل بهم هذه المهانات وتلك المذلة، رغم أن الواقع يفصح لنا بغير ذلك بالمرة، ومعلوم أن أكثر شعوب الأرض تدينا هم المسلمون،وليس أدل على ذلك - كما قلت مرة - أنه ليس فى الدنياااليوم من يقدم طائعا على الموت، إخلاصا لدينه وحبا فيه سوى المسلم وحده.

ثم من الظلم الفادح تعميم الفساد على كل العباد فهذا اجتراء على الفتوى، وتعميم هو الفاسد وفى غير مكانه، ولا ظل له من موثق فى شريعتنا، وأن تعداد الصائمين الركع السجود اليوم هو أكبر وأعظم عددا وأخلص للدين من زمن هارون الرشيد بمسافات واسعة، ومن ثم فهم ليسوا الأبعد عن دينهم، بل هم الأسوأ فى علاقتهم بزمنهم وظروفه ومتغيراته والتطور العلمى والحضارى الهائل فيه وأن ذلك هو السبب الأساسى فى تخلفهم وليس تخليهم عن دينهم ولا نبيهم ولا ربهم.

الملحوظة الثالثة:

إن كل هذا الغم وكل هذا الهم، مشغول فقط بالأمة وكرامة الأمة وبالدين الذى له رب يحميه، ولا تجد انشغالا بالفرد المواطن ولا أين هو من كل هذا، ولا مجرد الاهتمام بمعرفة وضع المواطنين فى الإمبراطورية الإسلامية الراحلة، فكر لم تشغله سوى الكلية القبلية، لأن ذلك كان حال زمنه وطبيعة وضعه المجتمعى حيث كانت تشكل القبيلة المنظومة الاجتماعية الأساسية، وحتى اليوم ستجد المواطن الفقير المدقع المظلوم الذى لا يجد قوت يومه شديد الانشغال بما يحدث فى البوسنة وفلسطين وبلاد الأفغان والشيشان وكشمير، أكثر مما ينشغل بأوضاعه المتدنية وبحقوقه الضائعة، بل أحيانا يكون ضد تلك الحقوق، لأن ثقافة الكلية القبلية ضد هذه الحقوق الفردانية فليس له حق الخروج من هذه الكلية وليس له الاعتراض على قواعدها وأن تلك أسس عقيدية إيمانية يرضخ لها طائعا، ثم ينشغل بالأمة الضائعة لابحريته المسلوبة لأن الربوبية القلبية تتماهى مع القبلية، التى كانت فى بدايتها تتحرك دوما فى حماية ربها الذى هو رمز القبيلة أو هو القبيلة نفسها، لذلك أبدا لم تعرف القبيلة الوطن والمواطنة وكرامة المواطن إنما تعرف حياة القبيلة كلها وكرامة

القبيلة كلها وأن كل فرد فيها هو فرد شغال كالشغالة فى خليةالنحل تعمل منذ وعيها حتى موتها دون هدف ذاتى واحد، وعادة ما يطرب المحترفون من أهل الدين بهذاالمثال تحديدا ويطلبونه نموذجا للخلية الإسلامية فى أمثلتهم الشارحة للدولة النموذجية المتأسلمة، المهم هو القبيلة وثقافة القبيلة الجمعية وسيادتها على القبائل الأخرى وكماكان البدوى فى جاهليته يموت طائعا من أجل الجماعة صراعا على خيرات البيئة الشحيحة فإن المسلم يفعل ذات الفعل اليوم دون تحقيق أى كرامة حقيقية للفرد المواطن المسحوق بقدر ما يتصور أن ذلك من أجل الله، ومن أجل القبيلة الأمة ولهذا يموت طائعا سعيدا، لكن فى زمن اختلفت فيه القيم والمعايير وتحول فعله بمفاهيم اليوم إلى إجرام إرهابى ولا يختلف على ذلك إثنان.

وحتى يستعيد المسلمون عصرهم السعى،د قاموا يعيدون تخليق العوامل والأسباب القديمة بأساليبها القديمة التى نصرت المسلمين فى تلك الأزمنة القديمة وهم قلة أذلة، واستيلاد طرائق ذلك الزمان الغابر مرة أخرى فى طرائق السلوك والتفكير والشرائع والمظاهر فى كل دقيقة وكبيرة من تفاصيل تلك الأزمان تأكيدا للمبدأ السحرى، أن الشبيه ينتج الشبيه مما يلزم عنه بالضرورة عند التزام ذلك الزمان بكامله أن يولد لنا اليوم النتيجة الشبيهة بتدخل سماوى إعجازى سحرى مفاجئ انقلابى، ليعيد إفراز النتائج القديمة بغض النظر عن تغير حال الدنيا منذ ذلك الزمان وبين زماننا إلى حال لاعلاقة له بالحال القديم لا من قريب ولا من بعيد.

ورغم أن نبى المسلمين لم يلجأ يوما إلى السحر أو السحرة، بل إن دين الإسلام أعلن محاربته للسحر وأهله ومناهجه وطرقه، وحرم حتى التمائم للتبرك وهى المنتشرة فى كل الأديان بل حرم التطير والتنبؤ والاعتقاد فى الفأل،ومع ذلك تحول أتباع هذا النبى والمؤمنون بهذا الدين فى زمن العلم إلى العقلية السحرية فى انتكاسة مروعة، تتحقق الرغبات بموجبها فى الواقع بممارسة بعض الطقوس وتلاوة بعض التلاوات، متصورين أن بإمكان بعض التصورات الذهنية عن عالم ذهب وولى بالفعل فى الواقع اليوم، رافعين لذلك شعارات واهية لاعلاقة لها بأى واقع مثل: الإسلام هو الحل، أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.. الخ، وهى كما نرى أمامنا سيل من التمنيات النفسية الموسعة توسعا عظيما، قياسا على القدرات

المحدودة والحقائق المانعة لتحقيق هذه التمنيات، لتصبح أحلام يقظة تتسم بها الشعوب التى تعيش مراحل طفولة عقلية بدائية، أو تلك التى أصابها العجز والشيخوخة وخرفها.

ولكن لا يمكن أبدا أن يختلف أحد على أن العرب المسلمين قد أقاموا إمبراطورية قوية مرهوبة الجانب، وأنها حققت انتصارات وفتوحات عظمى، لذلك كانت عبارة الرشيد للسحابة المارة «اذهبى حيث شئت فسوف يأتينى خراجك» وهو ما ينقلنا إلى النظام الاقتصادى الذى قامت عليه الدولة، حيث كان من تمتعوا بالثروة والجاه والسلطة هم غير المنتجين والذين لاعلاقة لهم بالسعى الإنسانى من أجل إنسان كريم يمكنه أن ينتج وينجز، فالسحابة أينما أسقطت مطرها ستجد أقنان الأرض وفلاحى البلاد المفتوحة يزرعون ويحصدون ثم يجمع الحصاد جزية وخراجا ليرسل للسادة العرب الولاة الذين يرسلونه بدورهم إلى عاصمة الخلافة بعد أن يأخذوا منه نصيبهم.

ويفخر تاريخنا أنه فى زمن مبكر بعد الفتوحات فى مصر والشام والعراق، زمن عثمان بن عفان، قد بيعت الجارية بوزنها ذهبا، فهنا جارية مجلوبة من البلاد المفتوحة سبية أو مختطفة من تجار الرقيق، وهناك مشتر كان حتى الأمس يقتل الآخرين للحصول على رداء لا يستر العورة أو بعض التمر واللبن، وأن هذا المشترى قد أصبحت ثروته بعد الفتوحات قابلة لفعل متهتك سفيه دفعته لشراء جارية بوزنها ذهبا؟!

هنا لابد أن نسأل عن الإنسان فى دولتنا الإسلامية العربية طوال تاريخها المجيد الذى نريد أن نستعيده، وماذا وقع وحدث للبشر فى البلاد المفتوحة، وللمسلمين من غير السادة العرب المعروفين بالموالى، ناهيك عما جرى لأهل الذمة بشروط العقد العمرى، لنفهم من تمتع بالثروة ومن أين جاءت، وماذا كان مفهوم العدل فى تلك الدولة وكيف كان يطبق باختصار سنبحث عن الإنسان المواطن العادى من تلك الدولة الجبارة المنتصرة التى نفخر بها ويريد بعضنا استعادتها مرة أخرى وهو حديث ذو شجون يحتاج منا أن نتابعه معا فى العدد المقبل لأن له شئون تطول لنبدأه من الآن بالسؤال: هل كان للدولة والجيش والسلطان أن يغيث استغاثة مواطن يجأر من الظلم فى بلاد المسلمين على يد المسلمين «وامعتصماه»؟

لماذا تخلف المسلمون؟

الإسلام دين شامل يمكن أن تجد فيه عندما تريد وتقصد، ما تريده وما تقصده، ستجد فيه السياسة والاقتصاد والفن وعلوم الإنسان من النفس إلى المجتمع إلى التاريخ، لأنه كان دينا متفاعلا مع واقع زمنه ومع إنسان الحجاز وواقع الجزيرة، فكان يصنع للعرب دولة هى السياسة بعينها، وكان يقيم اقتصادا مركزيا لقبائل متشرذمة، وكانت له فنونه وعلاقته بالنوازع النفسية للمؤمن والكافر والمنافق والغنى والفقير والمبصر والأعمى، وجاء إلى بيئة تجرى فيها حكايات الأولين وتاريخ الغابرين وتموج بمختلف ألوان الأديان وأطيافها من الوثنية إلى الشركية إلى التوحيدية إلى اليهودية إلى المسيحية إلى المجوسية إلى المانوية إلى الزرداشية، فقال كلمته بشأنها وتحاور معها ورد على ما اختلف معه وأيد ما كان مطلوبا تأييده حسب ظروف الواقع ومتطلباته لانجاح الدعوة وإقامة دولة مركزية لعرب الجزيرة لأول مرة فى تاريخ البداوة القبلية. وهذا كله صحيح، لكن غير الصحيح ليس فى الدين ولكن فى موقفنا الذى يذهب مع تقديس الدين إلى تقديس الحلول والمواقف التى قدمها الدين فى زمانه ومكانه وظروفه التاريخية المحددة بواقعها وزمانها، بحسبانها حلولا ومواقف صالحة لكل مكان وكل زمان، رغم يقيننا أن الزمان غير الزمان وأن المكان غير المكان، وأن التطور الهائل اليوم فى العالم بفضل العلم ومكتشفاته قد غادر مكاننا وزماننا إلى مساحات جديدة وفصل جديد من تاريخ الإنسانية يحتاج عقلا وفهما ومواقف وقرارات وحلولا غير ما كان يحدث فى جزيرة العرب عند إنسان بسيط فطرى، ومواقف أقل تعقيداً من اليوم بما لا يمكن أن يقارن أصلا إلى دنيا شديدة التعقيد. ،ولا يخفى أن أصحاب الأديان الأخرى يرون أديانهم كذلك وبذات القدسية والاحترام، لكن معظم هؤلاء اليوم قد اعترفوا بتجاوز الزمن لكثير من أفكارهم الدينية القديمة، بعد أن أثبت منهج التفكير العلمى المبنى على المشاهدة والتجربة والاستنتاج أنه السبيل الأقوم للوصول إلى نتائج صحيحة تفيد الإنسان فى الواقع على كل مستويات وصنوف المعرفة، وهو ما دفع بتلك الأديان حرصا على الاستمرار والبقاء أن تحدد لنفسها أهدافا لاتتصادم مع الواقع ولاتتعالى عليه بنظريات غير قابلة للتطبيق، فاتجهت إلى دورها الأساسى الذى تأسست من أجله وهو الجانب الروحى والمعنوى والاجتماعى وتغذيته ليظل وجودا متميزا أمام تضخم الآلة

التقنية وسيطرتها، وتوجهت الأديان نحو تكريس الأسس التراحمية للمجتمع وتكريس الأسرة المتماسكة إزاء ما يجترفها فى خضم تيار التطور المادى الهائل.

ومن ثم اتجه أصحاب الأديان على اختلافها حفظا لجوانب الدين الراقية نحو الجوانب الاجتماعية والروحية، وتركوا العلوم بأصنافها من السياسة إلى التاريخ إلى علوم الطبيعة على أصنافها، وكانت البداية الصحيحة عندما أخذوا أديانهم بعيدا عن السياسة وآلاعيبها وخداعها ومعانى المصلحة وحدها فيها بغض النظر عن الوفاء بالعهود أو الحب أو الكراهية أو الحلال أو الحرام، بعد أن علمتهم التجربة أن لعب الدين بالسياسة يهين الدين ويدخله مدخل كذب وخداع لايليق به وينتقص من مهابته، وأن لعب السياسة بالدين وقيمه العالية السامية هو فى ميدان السياسة مدخلا إلى خسارة أكيدة فى السياسة وفى الحرب، وكان الابتعاد بالدين عن العلوم ضرورة لصالح الدين بعد أن أصبحت للعلوم فروع وتخصصات وأصول معقدة، وذلك منعا لوقوع صدام أكيد بين أفكار قديمة بحقائق علمية حديثة. لذلك عندما يقول العلم قولا فى شأن من الشئون، فإن أهل الدين فى العالم يبصمون عليه بالعشرة ولا يبحثون له عن سابق دينى تنبأ به أو تخيله أو يشبهه بل يسملون للكشف العلمى تسليما، بعد أن أثبت أنه الوسيلة الوحيدة لكشف غوامض الكون، والوسيلة الوحيدة لتحقيق السعادة والرفاهية لبنى الإنسان ، فإن قال العلم أن الأرض كروية فليس لقس أو بابا أو شيخ أو إمام أو ابن باز أن يقول بخلاف ذلك وإلا كان أضحوكة العالمين، وإن أقر العلم أن الفيروس هو سبب المرض وليس الابتلاء أو العقاب، وأن الأنسولين هو علاج السكر وليس عسل النحل، فلايجوز لأى أحد أن يقدم علاجا للناس خارج علم الطب وإلا كان أفاقا يستحق فورا توقيع العقوبة القانونية عليه بالنصب والاحتيال والشعوذة مهما قال إنه يستخدم: سواء كان يستخدم شعر ملك الجن أو قراءات شمهورس أو بول الجمل أو آيات إنجيلية أو علاجا بالقرآن، لأن هذا كله فى علم الطب لا ينفع مريضا ولا يشفع لمعالج بل هو السبيل إلى مزيد من المرض واستفحاله وأذى الناس والتجارة بأمراضهم وعلتهم، وهى أسوأ تجارة ممكنة وأكثرها نكارة وبشاعة.

كل هذا فى جانب والمسلمون فى جانب آخر مباين مفارق يرفضون الاعتراف بفعل الزمن وانقلاباته الحادة، ويرفضون استخدام المنهج العلمى

إزاء ثوابت الأمة الحمراء التى تتسع أو تضيق حسب نوع المذهب الدينى، ويبتعدون كل يوم عن الجانب الروحى التراحمى فى الدين إلى مظاهر شكلية لاتطرق الضمير ولا تنمى الحس الإنسانى الرفيع، فشغلهم الحقد وامتلأواكراهية على كل من تجرأ وأثبت تقدما ورقيا عن خير أمة أخرجت للناس، والعمل على تعطيل هذا الرقى وإعاقة هذا التفوق مادام بيد غير المسلمين، ومن ثم اهتموا أكثر بما يظهر اختلافهم الشكلى المظهرى عن بقية الناس فى الدنيا وانغمسوا فى حياة مادية كاملة المواصفات تغطيها مظاهر الحج والعمرة وصلاة الجماعة واللباس الباكستانى واللحية والحجاب، دون عمق الروح الإنسانية التى لايختلف بشأنها دين من الأديان ولا يختلف على قيمها الأرقى ديان.

ويصر المسلمون على عدم مشاركة العالم إنجازه العظيم لأنهم يعتقدون أن ما بيدهم من مقدسات فيها كل علم تم كشفه، إضافة إلى مالم يكتشف بعد حتى لو تضارب هذا الذى بيدهم تضاربا صارخا لاسبيل إلى تلافيه مع حقائق العلم ومكتشفاته، وإذا اكتشفوا تناقضا فإن الخطأ سيكون فى العلم لأنه الجانب الإنسانى الذى يجب أن يتفق بالتبعية مع الخبر الإلهى بل وبالضرورة وإلا كان علما باطلا بغض النظر عن نفعه للإنسانية، أو كونه حقيقة أكيدة بالبراهين الواضحة للعيان، بينما يظل الخبر الإلهى هو الصدق المطلق لأنه خبر صانع الأشياء كلها والعارف بقوانينها وأصولها هذا رغم أن التاريخ الفكرى الإسلامى يشهد للمسلمين المعتزلة شهادة صدق واحترام أنهم أول من قال وأكد وأعلن وعمل بقراره وإعلانه: إنه إذا اختلف القول الدينى النصى مع ما يصل إليه العقل من نتائج وأحكام، فإننا لابد أن نأخذ بحكم العقل لا بنص النقل، بينما مسلمو اليوم ومن يشعوذون العلم بالدين ويسيئون للطرفين ويرتكبون جريمة إبعاد الشباب المسلم عن البحث العلمى استسلاما لوجود العلم كله فى قرآنهم، لم يصلوا بعدإلى ما وصل إليه المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى، بل يرفضون نظريات علمية تقررت وانتهى شأن صدقها العلمى باليقين مثل نظرية التطور التى تقوم عليها كل علوم البيولوجيا وعلوم الطب وفروعها جميعا بلا استثناء، وهو ما يرفضه الشيخ زغلول النجار حتى اليوم، رغم ما يدعيه من علمية لاتقنع العلماء وتدين لايقنع أهل الدين، وهم فى موقفهم هذا إنما يقفون على أرض الخرافة مفضلين لهاعن العلم، وعلى أرض زمن مضى لايريدون له أن يمضى، ويستولدونه كلما مضى، يستشهدون فيه

على صحة موقفهم من قضية الصدق السماوى المطلق أمام أى خلاف علمى بأحداث أيضا من الماضى (!؟) كما حدث فى الزمن النبوى عندما شكا مسلم للنبى أن بطن أخيه قد استطلقت (أى أصابه الإسهال) فقال له: اذهب فاسقه عسلا، فذهب الأخ وعاد ثلاث مرات يشكو من زيادة الاستطلاق وكل مرة يقول النبى له اسقه عسلا، وفى الرابعة حسم النبى الموقف بقوله: «صدق الله وكذبت بطن أخيك» والمقصود بصدق الله هنا :(وفيه شفاء للناس).

وللمسلمين مع الحداثة مشاكل مستعصية ربما تعود فى معظمها إلى أن المسلم لايرى أن من حق الإنسان أن ينجز، و إنما عليه أن يستقبل الإنجاز جاهزا كاملا متكاملا كما جاء فى دين الإسلام، وهو أمر يعود إلى طبيعة الحياة البدوية البسيطة فى الأساس، حيث لايعمل البدوى بقدر ما يجلس ينتظر مطرا تجود به السماء أو مصادفة يعتبرها معجزة فى عين ماء، أو أن تتلاقح قطعانه فتنجب أو لا تنجب، فلادخل له بالفعل بل عليه دوما أن ينتظر فعل الطبيعة دون مشقة، أو أى فعل موجب بينما الحداثة بكليتهاهى منجز الإنسان وكده وعقله وعمل يديه، بل هى رفض كل منجز جاهز ونقده، ومن الطبيعى أن تقوم ثقافة العربى بكليتها على مرجعية مقدسة جاهزة لا حل معها ولا اختلاف ولا مخالفة لأنها كمطر السماء ونبات الأرض لا دخل له فيها، ومن الطبيعى أيضا أن يتصادم مع الحداثة بكل قيمها.

والمشكلة الثانية مع الحداثة هى متضمنة فى المشكلة الأولى، فالحداثة منجز بشرى وفى ذات الوقت هى منجز غربى فى معظمها إن لم يكن فى كلها، وللغرب مع العرب والمسلمين تاريخ يمتلئ بالمآسى منذ الاستعمار التقليدى وحتى الآن، ومن ثم التبست كراهية الغرب بكراهية حداثه من أساليب ومناهج أنجز بها تفوقه، لكنا لا نجد بأسا أبدا من استخدام كل منتجه التقنى فى حياتنا اليومية.

والمسلم التقى لو ألقينا على حياته نظرة سريعة فى نموذج يوم واحد فى حياته «وأيامه كلها متشابهة لذلك فأى يوم كأى يوم آخر».

سنجده يصحو فجراً ليؤدى الصلاة لربه فيضغط أولا على مفتاح الإنارة ليضيئ مصباح الكهرباء الذى اخترعه الكافر إديسون، ثم يذهب إلى الخلاء (دورةالمياه) ليستخدم صنبور المغوط (الكومبنشن) بدلا من الاستنجاء بالحجر المشروط فقهيا بأن يكون (جامداً قالعا محترما) بعد

أن ظل المسلمون يرفضون استخدام الصنبور باعتباره بدعة استعمارية شيطانية لم يرد لها ذكر فى قرآن ولا حديث، حتى أفتى أهل المذهب الحنفى فرع مصر بحلالية استخدام الصنبور فاطلقنا عليه من يومها اسم (الحنفية) نسبة للمذهب الحنفى، ثم يقف صاحبنا التقى تحت (دش) المياه الساخنة بفعل سخان صممه أحد الملاعين فى بلاد الملاعين، ثم يلبس ملابس الخروج التى نسجتها آلات اخترعها وطورها ملاعين آخرون من بلاد الكفرة، وبخاصة لو كان من لابسى العقال والشماخ المصنوع فى سويسرا، هذا رغم أن ليالى الأنس فى فيينا تعتبر فجورا وانحلالا وتفسخا خلقيا، ثم يقود سيارته مفضلا إياها على البعير والبغال والحمير لتركبوها وزينة رغم النص القرآنى عن وصف الركوبة واسمها المحدد ورغم أن من اخترع السيارة وطورها ملعون آخر لايشغلنا من هو. وقبل القيادة يقوم بتعديل وضع المصحف على تابلوه سيارته للتأكد أنه سيعمل عند اللزوم بطاقة سحرية خاصة كامنة فيه مهمتها رعاية المؤمنين به وتأمينهم، ويدخل أخونا التقى محل عمله ليجلس أمام كمبيوتر اجتهد عليه مجانين من المغضوب عليهم أو من الضالين فليس فى الموضوع ما يشغلنا، ثم يعود إلى بيته بعد العمل ليشاهد التلفاز الذى ابتدعه المبتدعون أصدقاء الشيطان، لكنه قد يفضل قنوات كالمجد وأقرأ (رغم أن هذه التسميات لاعلاقة لها بنا فلا نحن أهل للمجد ولا نحن أهل قراءة) لما يجده من راحة نفسية يرتاح بعدها بعد أن يؤكد له المشايخ أنه المتفوق وأنه ابن أمة ليست ككل الأمم لأنها خير أمة أخرجت للناس، خاصة بعدما يستعرضون له مدى المعاناة وانعدام السعادةفى بلاد الكفرة إلى حد أن أكثر نسبة انتحار فى أكثر هذه البلاد راحة وترفا، ويتم اختيار أحدها فلتكن السويد أو الدانمارك أو هولندا (هوه فيه حد هايدور)، ثم لاينسى قبل النوم أن يقرأ المعوذتين ثم يصب اللعنات دعوات على أعداء الإسلام، ويمد أخونا التقى المسلم يده ليطفئ مصباح إديسون عليه لعنة الله والملائكة ليعلو شخيره معلنا للعالم أنه موجود فى هذه الدنيا لمن لا يعلم!!

ليحلم بالماضى السعيد عندما كنا سادة الأمم نفتح ونغزو ونسبى وننهب ونستعبد الآخرين فى زماننا الذهبى.. فهل كان زماننا ذاك ذهبيا حقا؟ لنواصل الحديث معا حول الإجابة فى العدد المقبل.

هل كان ماضينا سعيدا؟

هل كان ممكنا أن ترتج أجهزة الدولة كلها مستجيبة لاستغاثة مواطن يعانى القهر والظلم فى بلاد المسلمين على يد المسلمين، فى الإمبراطورية الإسلامية العظمى الغابرة، كما ارتجت وتحركت بعدتها وجيوشها فى القصة الأسطورية استجابة لصرخة امرأة مجهولة منكورة لا نعرف من هى، وهى تنادى الخليفة من على الحدود عندما اعتدى عليها بعض الروم.. «وامعتصماه»؟

إن هذا النموذج من القص يريد أن يعلن مدى اهتمام الدولة جميعا بمواطن فرد يعانى أزمة، وهو ما يستثير الخيال العربى المقموع ويدفعه إلى محاولة استعادة هذه الدولة الأبية التى كانت تردع الأعادى بكل فخر ومجد، كما كانت تنشغل بالمواطن الفرد كل الانشغال، حتى بات عزيزا كريما مرهوب الجانب أينما كان. لكن بين القص الأسطورى وبين ما كان يحدث فى الواقع مفارقات لا تلتئم أبدا، ولا تلتقى أبدا والنماذج على ذلك أكثر من أن تحصيها مقالة كتلك بل تحتاج إلى مجلدات من الكتب، لكن يكفينا هنا اليسير منها لنكتشف هل كانت ثقافة «وامعتصماه» أمرا حقيقيا فاعلا فى الواقع أم أنها مجرد قصة لرفع الشعارات دون الفعل وليس أكثر كالعادة العربية المعلومة؟ خاصة أن هذه الدولة العزيزة بمواطنها الكريم هى الدولة النموذج التى يطلبها اليوم المتأسلمون على جميع فصائلهم وأطيافهم، ويزينونها للناظرين بقص كهذا عادة ما يبدأ بمسئولية الخليفة الراشد وهو فى يثرب عن دابة لو عثرت بالعراق، وينتهى بالحفل البانورامى حول احتلال عمورية انتقاما للفرد العربى الأبى حتى لو كان امرأة؟! مع علمنا بحال المرأة قياسا على الرجل فى تراثنا.

لقد صرخت القبائل العربية فى الجزيرة منذ فجر الخلافة «وإسلاماه» تستغيث بالمسلمين لرد جيوش الدولة عن ذبحها وسبى حريمها وأطفالها لبيعهم فى أسواق النخاسة، تلك القبائل التى تمسكت بحقها الذى أعطاه لها ربها بالقرآن فى الشورى والمشاركة الفاعلة فى العمل السياسى، فرفضت خلافة أبى بكر (الفلتة بتعبير عمر بن الخطاب) لأنها تمت بدون مشورتهم ولا ترشيح أحد منهم ولا أخذ رأيهم فامتنعوا عن أداء ضريبة المال للعاصمة تعبيرا عن موقفهم، لكنهم عملوا برأى الإسلام فجمعوا الزكاة ووزعوها على فقرائهم فى مضاربهم التزاما بهذا الركن الإسلامى بجوار صلاتهم وصيامهم وقيامهم ببقية الأركان المطلوبة. كلا لم يعفها ذلك من جز الرقاب والحصد بالسيف والإذلال بالسبى لنساء وأطفال مسلمين ومسلمات.

والصراع هنا لم يكن حول الإيمان والكفر، بل كان الشأن شأن سياسة دنيوية لا علاقة لها بالدين بل لا علاقة لها بالعدل.

ورغم الجميع فقد تواطأ السدنة مع السلطان ضد تلك القبائل ليؤسسوا فى التاريخ المذهب السنى الذى وجد فرصته فى مكان سيادى بجوار الحاكم فقام بتحويل الخلاف السياسى إلى خلاف دينى، واعتبر أن محاربة هؤلاء واجب دينى لأنهم قد كفروا وارتدوا عن الإسلام لا لشىء إلا لأن هكذا كان قرار الخليفة، ولأن هذا الخليفة كان الصديق صاحب رسول الله وصهره ووزيره الأول، فألبسوا الخليفة أولا ثوب القدسية ولو ضد منطق الاسلام الذى لا يقدس بشرا، ثم ألبسوا القرار قدسية الخليفة، ثم أصدروا قرارهم بتكفير هذه القبائل بتهمة الردة عن الإسلام، لأنها حسب القرار البكرى قد «فرقت بين الصلاة وبين الزكاة»، وهو أمر فيه نظر من وجهة نظر الشرع لا تبيح قتالهم ولا قتلهم، لذلك تم تدعيم القرار بأن تلك القبائل قد خرجت على رأى الجماعة وخالفته وهو اختراع آخر كان كفيلا بوصمها بالارتداد منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم. وبذات الاختراع «الخروج على الجماعة» تم اغتيال الصحابى الجليل سعد بن عبادة الأنصارى وهو من هو، لأنه رفض بيعة أبى بكر ومن بعده عمر، وقد تم قتله بأمر شخصى من عمر بن الخطاب فى روايات واضحة سبق ونشرناها بمصادرها فى صفحات هذه المجلة. لكن تاريخنا المزيف وهو يجلس بجوار السلطان قرر تبرئة الخليفة رغم النصوص فسجل أن الجن قد قتلته لأنه بال قائما؟!

وهكذا، ومنذ فجر الخلافة جلس الفقيه فى معية السلطان يصوغون لنا إسلامنا، إسلام يؤسلم ويكفر حسب مدى التزام المواطن بالمذهب السيد الذى هو مذهب السدنة والسلطان وأولى الأمر وطاعتهم أمر ربانى وفرض سماوى. ومنذ خرجت جيوش أبى بكر تحارب المعترضين على خلافته تحت اسم الدين والصواب الدينى، أصبح معنى أن تخرج جيوش المسلمين لتحارب الكفار (غير حروب الفتوحات) أنها خارجة للقضاء على المعترضين أو المخالفين فى الرأى السياسى الذى تتم إحالته إلى الدين، حتى يتم الذبح والحرق والسبى باسم الله وليس لخلاف سياسى.

ونظرة عجلى على تاريخ العرب المسلمين ستكتشف أن مقابل «وامعتصماه» الأسطورية، ألف «وامعتصماه» وألف «وإسلاماه» كان جوابها مختلفا، وبلغ الأمر غاية وضوحه فى زمن عثمان بن عفان الذى أحرق ما أحرق من قرآن، وفتق بطن عمار بن ياسر ضربا وركلا، وكسر أضلاع ابن مسعود حب رسول الله، ونفى أباذر إلى الربذة، فقتل المسلمون خليفتهم، وتم قتله بيد صحابة وأبناء صحابة. ومن بعدها خرجت الفرق الإسلامية تحارب بعضها بعضا وتكفر

بعضها بعضا، حتى مات حول جمل عائشة خمسة عشر ألف مسلم، ومن بعدهم مائة ألف وعشرة من المسلمين فى صفين لا تعلم من فيهم من يمكن أن نصفه بالشهيد ومن فيهم من يمكن أن نصفه بالظالم المفترى.

أما عن زمن معاوية وولده يزيد فحدث ولا حرج عما جرى لآل بيت الرسول وكيف تم جز رأس الحسين لترسل إلى العاصمة، وكيف تم غرس رأس زيد بن على فى رمح تم غرسه بدوره فوق قبر جده رسول الله. وإن ينسى المسلمون السنة فإن بقية الفرق لا تنسى هذه الأحداث الجسام التى فرقت المسلمين فرقا وشيعا كلها تمسحت بالدين وكأن الشأن شأن سياسة ودنيا وسلطان.

وإن ينسى المسلمون أو يتناسوا فإن التاريخ يقرع أسماعنا بحملة مسلم بن عقبة المرى لتأديب مدينة رسول الله (يثرب) ومن فيها من الصحابة والتابعين بأمر الخليفة القرشى يزيد بن معاوية، فقتل من قتل فى وقعة الحرة التى هى من كبرى مخازينا التاريخية، إذ استباح الجيش نساء المدينة أياما ثلاثة حبلت فيها ألف عذراء من سفاح، واغتصاب علنى وهن المسلمات الصحابيات وبنات الصحابة والصحابيات. (فكم بالحرى أغتصبوا من نساء البلاد المفتوحة؟).

أما زياد بن أبيه والى الأمويين على إقليم العراق، فقد شرع القتل بالظن والشبهة حتى لو مات الأبرياء إضافة للمذنب، وشرع قتل النساء ،أما نائبه الصحابى (سمرة بن جندب) فإن يديه قد تلوثت فقط بدماء ثمانية آلاف من أهل العراق على الظن والشبهة. بل واتخذ تطبيق الحدود الإسلامية شكلا ساخرا يعبر عن تحكم القوة لا حكم الدين، كما فى حال (المسور بن مخرمة) الذى ندد بشرب الخليفة للخمر، فأمر الخليفة بإقامة ا لحد إحقاقا للشرع لكن على المسور بن مخرمة.

ثم لا تندهش لأفاعيل السلطة وشهوتها فى التقوى والأتقياء فهذا الملقب بحمامة المسجد عبدالملك بن مروان لكثرة مكوثه فى المسجد وطول قراءته للقرآن وتهجده ليل نهار، يأتيه خبر أنه قد أصبح الخليفة فيغلق !القرآن ويقول له: «هذا آخر العهد بك»، ثم يقف فى الناس خطيبا ليقول: «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه».

ولابد أن يجد الحجاج بن يوسف الثقفى هنا ولو إشارة، لأنه كان المشير على الخليفة، ولأنه من قام على إصدار النسخة الأخيرة من القرآن بعد أن عكف مع علماء الأمة على تصويب الإصدار العثمانى وتشكيله وتنقيطه بإشراف شخصى دائم منه. ولم يثبت عليه حب الخمر أو اللهو، لكنه كان أيضا هو الرجل الذى ولغ فى دماء المسلمين، وكانت مخالفته فى أهون الشئون تعنى قص الرقبة، فهو الذى قال: «والله لا آمر أحدا أن يخرج من باب من أبواب

المسجد فيخرج من الذى يليه إلا ضربت عنقه». وهوأحد خمسة ذكرهم عمر بن عبدالعزيز قبل خلافته فى قوله: «الحجاج بالعراق والوليد بالشام وقره بمصر وعثمان بالمدينة وخالد بمكة، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا».

وقد سار الحجاج على سنة سلفه زياد فى إعدام النساء والقبض على أهل المطلوب حتى يسلم نفسه، ومنع التجمهر، وإنزل الجنود فى بيوت الناس ووسط العائلات يلغون فى الشرف كيفما شاءوا إذلالا للناس وكسرا لإنسانيتهم، حتى أنه أعدم من العراقيين فى عشرين سنة هى مدة ولايته مائة وعشرين ألفا من الناس بقطع الرأس بالسيف أو بالذبح من القفا أو الرقبة، دون أن نعرف من هؤلاء الناس ولماذا ذبحوا اللهم إلا لمجرد الاحتجاج على ضياع كرامة الإنسان الذى قال فيه تعالى: «ولقد كرمنا بنى آدم» أو لمجرد الشبهة والظن.

وقد وجد هؤلاء السادة فى الذبح والحرق لذة وسعادة بل وفكاهة دموية، ففى فتوح جرجان سأل أهل مدينة طميسة قائد المسلمين سعيد بن العاص ابن عم الخليفة القائم عثمان بن عفان الأمان، مقابل استسلامهم على ألا يقتل منهم رجلا واحدا. ووافق القائد سعيد ففتحوا له حصونهم فقرر الرجل أن يمزح ويلهو ويضحك، فقتلهم جميعا إلا رجلا واحدا؟! لأن المترجم اخطأ؟! أترون أين النكتة؟!

وعندما وصل العباسيون إلى السلطة بدأوا حملة تطهير واسعة شملت من مواطنى دمشق خمسين ألفا تم ذبحهم، وجعلوا من المسجد الأموى اصطبلا لخيولهم. ولما استقام لهم الأمر استمروا على النهج الأموى فى ظلم العباد وقهر آدمية الإنسان، وهو ما كان يدفع إلى ثورات، تنتهى بشى الثوار على نيران هادئة، أو بمواجهتهم للضوارى فى احتفالات رومانية الطابع، لكن روح الفكاهة لم تغادرهم أبدا، فعندما ثارت الموصل ضد عبدالله السفاح، أرسل أخاه «يحيى» ليخمد الثورة. وعندما وصل بجيشه وقف أمام مسجدهم مقلدا النبى معلنا «من دخل المسجد فهو آمن». فهرع الناس من كل حدب آملين فى رحمة كالرحمة النبوية مطمئنين للنداء الذى له فى وعيهم معنى إسلامى عظيم، ولما اجتمع إلى المسجد ومحيطه أحد عشر ألفا قرر «يحيى» تفعيل النكتة، فأمر بذبحهم جميعا.

وعندما أقبل الليل لم يستطع «يحيى» النوم من أصوات الثكالى من أطفال وأرامل على قتلاهم. فأمر بإقامة مجزرة تاريخية استمرت ثلاثة أيام حتى سكتت جميع الأصوات وهدأ ليل يحيى لينام، لكن لتعكر عليه نعاسه امرأة من أصول عربية هاشمية وقفت له تعيره بالزنج فى جيشه الذين هتكوا أعراض

نسوة الموصل وكان فيهن عربيات قرشيات مثل يحيى، فغلى دم يحيى وتملكته الغيرة على الهاشميات فدعا جنوده الزنج وكانوا أربعة آلاف ليكافأهم بالإنعامات لانتصارهم العسكرى، فلما اجتمعوا إليه أمر بذبحهم جميعا، وهكذا نام يحيى.

وهكذا كان الإنسان سواء مواطنا عاديا كان، أم كان فى جيوش السلطان، فى مقتطفات سريعة موجزة مكثفة من تاريخنا السعيد وزماننا الذهبى التى يريد الدكتور محمد عمارة ا ستعادته، لماذا؟ يقول لنا تحت عنوان: «مميزات الدولة الإسلامية: أن الشريعة فيها تفوقت على غيرها من كل الشرائع والحضارات والقوانين الدولية، فى أنها جعلت القتال والحرب استثناء مكروها لا يلجأ إليه المسلمون إلا للضرورة القصوى». لذلك يرى الدكتور عمارة «أن الدولة الإسلامية لم تخرج عن هذا المنهاج السلمى.. حتى تضمن الدولة للمؤمنين حرية العيش الآمن فى الأوطان التى يعيشون فيها/ مقالاته الحروب الدينية والأديان السماوية ٧، ٨».

لكن ماذا عند سيادة الدكتور ليقوله بشأن تلك الجسام الجلل فى تاريخ ما يسميه الدولة الإسلامية؟

هكذا كان الإنسان يا سادة وليس كما يصوره دعاة الدولة الإسلامية فى خطابهم المخاتل المخادع، وهذه هى حقيقة ماضينا العظيم الذى يريدون إقامته من مرقده بالبخور أحيانا والتلاوات أحيانا وبالبارود أحيانا وبالسنج أحيانا وبالإيمان بالديمقراطية أحيانا ، وبأمثال محمد عمارة أحيانا، لا أقامه الله ولا رده.

هذه دولتهم الإسلامية التى يريدون استعادتها لإقامة الخلافة مرة أخرى لتحرير فلسطين والعراق وإعادة الإمبراطورية القوية مرة أخرى. هذه دولتهم ضربنا منها النذر اليسير من الأمثلة اللطائف، ولم نفتح ملف الفتوحات بعد، لما فيه من ملمات وأهوال تعرض لها أبناء البلاد المفتوحة، فهو أطول من أن يحويه مقال، وأبشع من أن يعرض عرضا سريعا بروائح الدم والحرق والتمزيق ولثم الشرف بفكاهات عربية سوداء، استمرت منذ الفتح المبروك وحتى سقوط إمبراطورية آل عثمان. فمتى كان ماضينا سعيدا؟

لقد كان ذهبيا، نعم كان ذهبيا بلاشك لكنه لم يكن بالنسبة للناس سعيدا بأى معنى.

لقد كان ذهبيا فتحلى بأسواق الرقيق الأبيض، وعرض النساء عرايا فى الشوارع بعد جلبهن من بلادنا المفتوحة إلى بلادهم الفاتحة، وكانت السعادة الجنسية تغمر القصور الوافرة بهذه الأجساد القادمة من بلاد الحضارات

القديمة بعد أن وطأتها سنابك الفتح العربى الميمون، وعاش أو لو الأمر الترف واتخذوا الأسرة الذهبية المغشاة بالجوهر، وجلسوا على البسط المنسوجة من خيوط الذهب والمكللة بالدر واليواقيت، بعد أن كان غاية أمل البدوى العربى أن يجلس يوما ما على كنبه فى الجنة وليس فى الدنيا بوعد من الله «متكئين فيها على الآرائك»!!

وأكلوا أمخاخ الطيور وألسنة المغردة منها ليصنعوا منها «شوربة لسان العصفور» التى نقلدها اليوم بلسان من عجين، وأكلوا ألسنة السمك، وأكرموا «ليس الإنسان» إنما كلابهم ودوابهم مأكلا ومشربا ومسكنا وطبا، فأطعموا كلابهم الدجاج المسمن الآتى من مصر والجداء القادمة من فلسطين، وعلفوا حميرهم السمسم القادم من أى مكان فى الإمبراطورية، لا يهم المهم أنهم أخذوه من البشر ليعلفوه للحمير.

نعم كان عصرا ذهبيا بالضرورة، مع النزف الهائل لثروات البلاد المفتوحة جباية من فقراء فلاحيها وصناعها بالجزية أو الخراج أو التعذيب الوحشى، حتى تشكى أصحاب كتب الخراج وأشهرهم أبويوسف مما كانوا يشهدونه من وقائع تعذيب الناس الذين لا يجدون سوى القول: «إننا لا نجد» أى ليس عندنا ما تطلبون.

حتى المسلم الذى أسلم وحسن إسلامه لم يرتق به ذلك يوما إلى درجة أفضل بل ظل من الموالى فى دولة تقوم على التفرقة العنصرية بين الجنس السيد الحاكم، والجنس الأدنى المحكوم. ولذلك لم تكن الخلافة التى يصفونها بالإسلامية منذ فجرها مع أبى بكر وحتى انتهائها، سوى خلافة عنصرية لعنصر سيد أضفى على سيادته ثوب الدين كمظلة شرعية لفساده السياسى والدينى والإنسانى والأخلاقى.

لقد كان زمنا ذهبيا بكل المعانى الذهبية بالنسبة للسادة الفاتحين الغزاة الحاكمين وحواشيهم من سدنة الدين وتجار البشرية، لكنه كان زمانا تعسا بائسا دمويا بالنسبة للمحكومين المغزوين المفتوحين.

وإذا قيل هنا إن ذلك كان منطق ذلك العصر، فلا خلاف أبدا حول قول القائل، وإذا قيل إنه لا يصح محاكمة ذلك الزمان بذوق زماننا الأخلاقى، أيضا ليس ثمة خلاف، لكن الخلاف ينشأ فور القول باستعادة هذا الشكل من الحكم والأنظمة بحسبانها الأمل والمرتجى، هنا لابد أن نحاكمها بذوق أيامنا لنرى إن كانت هى الحلم المنشود والأمل المفقود، أم ستكون هى أسوأ الختام لخير أمة أخرجت للأنام!!!

ثأر الدرعية أو إعادة فتح مصر!!

المصرى بطبعه شخص مسالم يميل إلى الدعة والطمأنينة ويحب السعادة والمرح، وكانت لديه فى مصر القديمة مناسبات احتفالية سنوية يتحول فيها الشعب كله إلى كتلة مهرجانية تمارس السعادة والمحبة، وقد بلغت أعياد المرح هذه حدا جعل المؤرخين التقليديين يتساءلون بدهشة كيف أمكن لهذا الشعب اللاهى أن ينجز كل إنجازاته العبقرية، بينما نصف وقته موزع فى المتع والخمر والنكتة والرقص والمرح؟. بينما تساءل آخرون من أصحاب الرؤى الوحدوية: كيف أمكن لشعب تتعدد آلهته بالمئات أن يشكل أول شعب موحد فى دولة مركزية كبرى فى التاريخ لم تتفكك حتى اليوم؟

وأن يكون هذا التعدد هو ميزته وأن يكون كل هذا الاختلاف الحر هو سر إبداعه وقوته؟ أما ما بقى من بقايا هذا الزمن الماضى فى روح متناثرة أشلاء بين بعض المصريين الظرفاء، فهم من تفضح نكاتهم اليوم تلك الإبداعات مجهولة المؤلف والمنسوبة للشعب كله تحمل حكمته وسخريته ومرارته وانتقامه أيضا، تفضح عن يقين أن ذلك السواد والاكتئاب العام والتهجم والنكد والخوف من الحرية ومن محبة الحياة والتفكير فى الموت هما السر فى خسارة هذا الشعب بعض طبائعه الأصيلة المرحة المتسامحة التى كانت سر إبداعه التاريخى الكونى، رغم أن المصرى القديم هو من ابتدع عالم الموت والحساب والخلود، ولم يتصور يوما أن العبور إليه يكون بالكآبة والتباكى حول النصوص المقدسة، إنما بحسب عمله لناسه ولوطنه، لأن نصوصه المقدسة القديمة كانت معزوفات شعرية موسيقية حكمية روائع تدفع الآلهة لنزول أرض مصر للعمل فى الحقول، والاشتراك فى حفلات الزرع والحصد والرى والاشتراك فى كرنفالاتهم السعيدة، وهى النصوص أيضا التى كانت تؤكد أن العبور إلى الخلود إنما يكون بقدر ما قدم الإنسان فى حياته لوطنه وجيرانه وأولاده وأرضه من سعادة. قبل أن نتحول إلى المحفل البكائى المتجهم الذى لا يدخل فيه الإنسان جنة ربه بعمله إنما بحسن أدائه الطقوس والتزامه عادات ونظما بدوية غير مألوفة لديه ولا أليفة، آتية من بيئة مغايرة ومجتمع مختلف بالكلية، يؤكد له «لا يدخل ابن آدم الجنة بعمله». فتراجعت قيمة العمل المنتج المتكاتف المتآزر، وتراجعت قيمة الكلمة الطيبة والفعل الصالح والعمل من أجل السعادة فى الأرض، ولم يبق على السطح سوى تمتمات وتعاويذ وطقوس هى قشور ظاهرة للب خاو من حقيقة التدين يمكنه أن يدمر الوطن ويسحق العباد، ثم يذهب فى عمرة وحجة تعطيه صك غفران ممتدا حتى موسم الحج التالى، ليعيد الكرة من جديد.

لذلك ظلت مصر طوال تاريخها حتى قيام دولتها المركزية الأولى فى الدولة القديمة ثم الدولة الثانية قرونا متطاولة، دولة مسالمة، لا تعتدى على جيرانها ولا تفكر فى تجاوز حدودها الدولية التى صنعتها الطبيعية أسوارا آمنة، البحر الأحمر وسيناء شرقا والصحراء الكبرى غربا والبحر الأبيض شمالا وجنادل النيل على حدود المجاهل الإفريقية جنوبا، واكتفى المصريون بأرضهم وأمنهم ونيلهم وجهدهم وعرقهم فى دولة وفرة ورخاء ومرح وسعادة، حتى فاجأهم غزو الهكسوس البدوى قادما من بلاد البدو عبر سيناء ليدمر ويهلك بل ويحكم بل ويستوطن.

وهنا يسكت التاريخ ويصمت، لا كتابة، لا فن، لا إبداع، لا سعادة، لا أى إنجاز يمكن حتى الإشارة إليه، كما لو أن ساترا أسود قد نزل فجأة ليقطع خط سير تاريخ الحضارة المصرية فسكتت عن الكلام، بل وعن الكتابة أو حتى تدوين ما كان يحدث ليرتفع الستار مرة أخرى عن مصر محررة تدون وتكتب وتبدع وتنتج لكن أيضا لتغزو أو تخرج خارج حدودها، وتحديدا تلك الحدود التى جاءها منها الغزاة المستوطنون، بادئة ما يعرفه التاريخ باسم الدولة الثالثة أو الدولة الحديثة أو دولة الإمبراطورية، التى وضعت فى اعتبارها أن عزلتها لم تكن كافية لتحقيق أمنها، ومن ثم كان لابد من تأمين مصر من خارج حدودها التاريخية، بخلق مساحات من الدول المحيطة التى تتبع الولاء المصرى.

أبدا لم يحتل المصرى بلدا آخر ليستقر فيه ويسكن ويستوطن، لأنه كان عاشقا لوطنه لا يحب التنقل والهجرة بل يفضل الاستقرار والبناء، لذلك كانت سياسة مصر الاستعمارية تقوم بعد الاحتلال على إقامة حكام يدنيون لها بالولاء فى حماية حامية مصرية عادة ما تكون محدودة العدد، ليعود الفرعون وجيشه إلى مصرهم، ومعهم أبناء هؤلاء الملوك الخاضعين، ليتربوا فى قصور الفرعون ويتعلموا بعلم مصر وفنونها، ليعودوا ويرتقوا بشعوبهم البدوية بعد أن تعلموا فن التحضر فيقل خطرهم ويصبحون أصدقاء لمصر. هكذا كانت الامبراطورية المصرية التى امتد سلطانها حتى الحدود التركية شمالا والفرات شرقا والسودان جنوبا. امبراطورية ليس فيها فرض ولا قهر لدين أو لمبدأ أو لفكرة، بقدر ما كانت محاولة إعادة تجانس حدودى وإنسانى يؤمن الداخل المصرى. إنه فعل الامبراطوريات الحضارية منذ دولة مصر الثالثة. أنها التجربة المصرية الفريدة والسياسة التى تتبعها كبرى دول العالم اليوم «أمريكا».

حتى جاء الغزو العربى لمصر بالاحتلال الاستيطانى. جاء بشرا ورجالا ونساء وأطفالا بقبائل كاملة بعاداتها بتقاليدها بنظمها البدوية تريد وطنا

وافرا تستقر فيه. ليصبحوا سادة مصر. وحتى اليوم ستجد فى قاع الريف المصرى أن العربى أى صاحب الأصول العربية دوما هو السيد وهو المرجع وهو الحكم وهو صاحب الحق فى النهب دون أن يتضارب مع سيادته كونه شيخ منسر فهكذا التاريخ وهكذا الواقع حتى اليوم. وحتى يجد الفلاح المصرى مكانا ويرقى بنفسه يبحث لنفسه عن شجرة عربية مخترعة ينسب نفسه إليها حتى لا يكون درجة ثانية فى وطنه.

العربى جاء لا يحمل أى لون من الثقافة ولا حظ من علم ولا قيم فكرية ولا حريات ولا رأى آخر، لأنه هكذا كان يعيش فى القبيلة، والقبيلة حتى تتماسك فى فضاء بدوى قاس صراعى كان لابد أن تمسك بقواعد حديدية صارمة تمنعها من التفكك والضياع، وحمل عرب الغزو ذات القيم الجاهلية فى حكم البلاد المفتوحة، ليدخلوها إليها مع الإسلام ويجعلونها من الإسلام.

ومع شعور الغازى بالدونية إزاء حضارات المغزوين وعلومهم وتاريخهم وطريقتهم فى الحياة، كان قراره بإزالة ثقافة تلك البلدان بالقضاء على لغاتها الأصلية التى هى حامل ووعاء ثقافتها وحضارتها، ليبقى المواطن المفتوح بلا هوية واضحة، ولا يجد أمامه من بعد سوى الوضع القائم ملاذا يلوذ به.

وتروى لنا فصول أفضال العرب فى كتب التراث العربى فصولا فى تلك الميزات التى اختص بها الفاتح نفسه، فيروى يحيى بن عبدالعزيز أن الرسول قال: «إذا سألتم الحوائج فاسألوا العرب، فإنها تعطى لثلاث خصال: كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله. ومن أبغض العرب أبغضه الله».

إنه حديث مخترع أو رواية تناسب واقع الفاتح الجديد فى بلاد الخير المفتوحة الذين أسلم بعض أهلها، لتعطى العرب حوائجهم وهم بها أحق لحسبهم الكريم وهو أمر لا تعرفه مصر حينذاك، إنما كانت تعرف قيمة الفرد المنتج المبدع ولا تعرف علم الانساب ولا أصول الأشراف، لأن الشرف لم يكن عندها موروثا جينيا ساميا دون اسباب واضحة، إنما كان الشرف هو طهارة القلب والروح والخضوع لقواعد «ماعت» العادلة المسنونة للجميع دون تفرقة.

وتعطى العرب أيضا لأن العرب يستحون طلب العطاء من بعضهم، لذلك علينا أن نعطيهم لأنهم لا يستحون منا، وأما الثالثة فإن إعطاءهم هو إعطاء لله، فينتهى الموقف إلى التعبير المصرى الساخر «إدينى حسنة وأنا سيدك».

هذا ما كان واجبا على المفتوح أن يعمل مع فاتحه بالحسنى وبالإيمان، لكن ما حدث فى واقع الحدث، وما جاشت به مشاعر الفاتحين، عبرت عنه أقوالهم بصدد البلاد المفتوحة التى أسلم أهلها طمعا فى المساواة مع العرب حيث لن يكون هناك فرق بينهما إلا بالتقوى، لكن إسلامهم لم يرتق بهم إلى رتبة السادة فى بلادهم بل حولهم إلى موالى للعربى، العربى الذى يقول عن مواليه المفتوحين الضائعين بلا هوية وبلا وطن بعد أن أخذوا منه الوطن: «لو لم يكن لنا على الموالى عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا له من الكفر وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الإيمان».

فالسيد العربى جاءنا فاتحا، ونهب ثرواتنا دون أن يكد أو يتعب، وأن المولى بإسلامه قد عتقه العرب من الاستعباد وهذا فضل، وأيضا فإن السيد العربى يأخذ ثروات البلاد ثم يجود ببعضها فى بعض الأوقات إحسانا على الموالى الكادحين، وهذا أيضا فضل، لكن هناك الفضل الأعظم الذى يجب أن نعرفه لهم وهو أنهم قد أنقذونا من حالنا الحضارى ومن كفرنا وأخرجونا من الظلمات إلى النور؟!!

ثم يوجه العربى خطابه لنا، لمواليه المفتوحين: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل! على أننا نحن العرب تعرضنا للقتل فيهم، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك؟ فالله أمرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم «انظر ابن عبدربه/ العقد/ باب فضل العرب».

العربى المدهوش من أحوال مواليه الأغبياء كيف لا يتحولون إلى الإسلام إلا بالقوة:« يقادون إلى الجنة بالسلاسل» بعد أن احتل وطنهم واغتصب صباياهم وسبى نساءهم وأخذ بيوتهم وأراضيهم، كيف لهذا الغبى لا يفهم؟ كيف له لا يفهم أن هزيمته ودمار حضارته وانتهائها للأبد من الاستمرار فى التاريخ دليل قوة الإسلام؟ إن هؤلاء الأغبياء اضطروا الفاتح العربى للتعرض بالقتل فيهم كى يدخلوا الإسلام، وأن تلك نعمة عظيمة اضطر معها العربى الفاتح إلى قتل نفسه فى معارك الفتوح من أجل حياة الموالى؟!

ويستمر العقد الفريد شارحا كيف تم إنقاذنا بأسلمتنا بعد ذبح بعضنا وقبلوا بنا فى النهاية بعد أن أسلمنا أن نصبح موالى لهم وتابعين بعد أن أسلمنا أن نصبح مواليا لهم وتابعين فقدنا هويتنا الوطنية وأسلوبنا فى حياتنا الحضارية السالفة. لكن كان لابد من إذلال حتى من اسلم لإشعاره بالدونية بجوار سادته:« فكانوا كذلك لا يكنوهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء، ولا يمشون فى الصف معهم، ولا يقدمونهم فى المواكب، وإن

أطمعوا المولى لسنه وفضله وعلمه، أجلسوه فى طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب».

وهكذا حولت الخلافة العربية الشعوب المفتوحة إلى عرب، لكن عربا أدنياء لإحكام السيطرة عليهم بعد سلخهم من هويتهم، فلا يجد المواطن سوى فيئ العربان يعيش فى حماهم خوفا من بطشهم. بينما السادة سادة ليسوا بما أنجزوا للبلاد وللعباد إنما هم سادة شرعيون بإرادة الله، ولأنهم من عائلات شريفة وأصول مقدسة، فهم ليسوا كبقية خلق الله لأنهم خير أمة أخرجت للناس، ويتم التركيع والإذلال والهوان بحق الميراث القدسى للبذرة الشريفة، وليس بحق ما تم إنجازه فى البلاد ولا للسيرة بالعدل بين العباد.

ولدعم الشكل الجديد للحياة فى الشرق الأوسط جمعيه بعد أن تم ضرب لغاته جميعا وسلبه من ماضيه وعراقته، قام الخلفاء العرب يشجعون الأدباء والشعراء والمؤرخين للسمو بالشخصية العربية إلى مراتب لا تصلها شعوبهم الخاضعة لهم، ولترسيخ المبدأ التراتبى على أساس العنصر المقدس فى عقل الرعية.

وبمجئ السلطنة العثمانية واكتسابها الحق المقدس كى تكون بدورها عنصرا مقدسا، أصبح التركى هو بدوره السيد بحكم إدارته لشئون الدولة الإسلامية، بينما ما بقى من العرب كان هو الجانب المقدس الإسلامى، الذى تكفل رجال الدين برعايته وحمايته سرا وعلنا، ليصبح المشايخ هم السادة الحقيقيون الذين كانوا يتمتعون بتقبيل العامة لأياديهم وأرجلهم على عادة الموالى القديمة مع العربى، لقد تعهد المشايخ الإسلام العربى تحديدا وقاموا على حمايته حتى يعود يوما لأهله.. بينما دخل العالم الإسلامى كله فى غيبوبة دينية لم توقظه منها إلا جيوش بونابرته فى وادى النيل. ليفاجأ المسلمون بأن هناك دنيا أخرى وعالما آخر لبشر أكثر تحضرا وعلما ورقيا، ليكتشف الشرق المسلم مكانه فى هوة التخلف الرهيبة، بينما كان طول الوقت يعتقد أنه خير أمة أخرجت للناس.

وتبدأ المتغيرات فى التلاحق بعد اصطدام مصر بالحضارة الغربية المبهرة، لتأخذ قرارها مع زمن محمد على فى بناء دولة مصرية حديثة على غرار الدول الأوروبية المتقدمة، بالالتقاء المعرفى والثقافى المباشر بإرسال البعثات التعليمية واستحضار الخبراء فى كل فنون العلم والمعرفة، لتبدأ حياة المصرى الأصيلة المدفونة فى تراب أرضه الطاهر ترتوى

الحضارة فتنبت بذرتها وتنمو وتورق وتثمر فى سرعة قياسية، وصلت بالمصريين المفتوحين إلى فاتحهم بالحجاز فاتحين غزاة، لتأديب الحركة الوهابية المتصاعدة وكسرها كسرا عظيما أثر فيها لسنوات تالية، وتمكن الموالى من اقتحام عاصمة التمرد الوهابى وإخضاعها فى عملية عسكرية لا ينساها أبدا أهل الحجاز، ويشيرون إليها بعار «الدرعية» التى فتحها المصريون واستباحوها على ذات العادة العربيةفى الفتح، مما ترك فى الدرعية وفى تاريخ الحركة الوهابية جرحا من مصر لا يندمل، بينما تحولت جيوش مصر بعد إخضاع الحجاز نحو أراضى البلاد العربية المحتلة من العثمانيين تحررها حتى وقفت عند أبواب العاصمة العثمانية بينما أسطولها يحتل جزر البحر المتوسط فى سرعة فائقة وغير منتظرة من شعب تم الاعتقاد أنه من موتى التاريخ، ليجد الغرب نفسه إزاء قوة طالعة منافسة تقوم على أنظمة الدولة الحديثة، فتم الحلف الاستعمارى الأول لضرب الأسطول المصرى فى نفارين وإعادة مصر داخل حدودها مرة أخرى، لكن الدرس كان مفيدا واستفاد الكثيرون من التجربة، لكن أكثر من اهتم واستفاد مما حدث هم رجال الدين الذين أدركوا خطورة الدولة الحديثة على وجودهم وعلى حلمهم التاريخى بإقامة دولة ثيوقراطية عربية قرشية، ومن ثم كان حلفهم بتحالف الإخوان المسلمين مع السعودية بشكل مكشوف مباشر، لأن الدرس على الطرف الأخر كان يحمل أمرا آخر، كان يحمل ثأر الدرعية فعندما سقطت الخلافة العثمانية صريعة تخلفها القياسى، وسقطت معها كل السلطات الخليفية، بقى جانبها الرمزى الروحى الذى لم يسقط ممثلا فى سلطة دينية تتدحرج تنتظر من يتلقفها.

وتحت ضعف الحكومة الحديثة التى تولاها العسكر بالهزائم والخيبات العربية، ولفقد عرب الجزيرة القوة العسكرية اللازمة لإعادة فتح مصر، كان الحل هو إعادة فتح مصر من الداخل، ولديهم عملاؤهم الإخوان الذين سموا أنفسهم كذلك تيمنا باسم الإخوان الدال على الوهابيين، ومن ثم وبإخضاع مصر تأتى متتالية السقوط من الأكبر إلى الأصغر تحت السيادة العربية مرة أخرى فى ثوبها الوهابى، بالأسلحة الكاملة لكل مظاهر الحياة والسلوك والاجتماع وطريقة الحديث على الطريقة العربية، وتصبح الأسماء (أبو قتادة وأبوفصادة والشيماء والخنساء). الملبس، شكل المسكن، آداب الطعام، الأطعمة المقدسة من تمر وعسل وزبد وحبة سوداء وضب وجراد، عقيقة وأعراس جنائزية تتقدمها الدفوف والبراقع السوداء، بينما أهل هذه العادات قد تركوها إلى الكافيار وفنادق النجوم الخمس،

مع تمرير معيار واحد للتفكير لا معيار سواه هو الصائب الذى لا يخطئ ولا يعرف الباطل، معيار تقاس به كل الشئون من السياسة إلى الجنس، هو الكمال التام لأنه المعيار العربى، والعرب هم أمة القرآن، هم خير أمة أخرجت للناس، وأن تلك الخيرية فيما يبدو موروثة جينيا ويكفى أهلها أن أسلافهم كانوا صحابة النبى.

لذلك نجد نفس القوالب العربية فى فهم دلالات المعانى، هو ذات الفكر المشيخى اليوم أتباع غازى الأمس وعلماء وعملاء غازى اليوم، فيعتبرون التحرر تمردا والكرامة الإنسانية عصيانا والمساواة خروجا على الحدود والفن خروجا على آداب الإسلام، لأن لدينا فى معجم أدبيات المشايخ لونا آخر من الفهم لكل هذه المصطلحات والمعانى حيث تصبح المذلة فضيلة، والحرية رذيلة. تمت إعادة الفتح ولكن هذه المرة تحت أسوأ ألوان الإسلام طرا، تحت راية الوهابية التى لا لقاء بينها وبين نظام الدولة الحديثة مطلقا. ومن ثم تمت إعادة الأسلمة فى مصر من الحنفية الهادئة والصوفية السمحة إلى الحنبلية فى أقصى صورها وأقصى يمينها، ثأرا للدرعية، وإعادة احتلال، للإيهام بقرب قيام حضارة إسلامية جديدة قادرة على منافسة الحضارة الغربية. وتمت أثناء ذلك كثير من التحالفات التحتية التى لم تخش أبدا الفضح عندما كان يتم استقبال الإرهابيين المصريين فى بلادهم استقبال رؤساء الدول فيما كانت أيديهم ملوثة بدماء المصريين الآمنيين.

وهكذا بدت الصورة قاتمة، تبشر بخلافة ناشئة، تمكنت من استلاب سلطات الوطن جميعا سياسية وقانونية وكل ما هو سيادى بالفتوى كتشريع سيد بديل لا بديل له، مما أدى مع تراخى الدولة الحديثة إزاء ما يحدث إلى انتقاص سيادة الدولة علنا يشاركنا فيها الخليفة المخفى ينتظر يوم التمكين.

وبدأت الدنيا سوداء حالكة فى ظروف لا تسمح بأى أمل فى النجاة، مما كان عاملا فى ترك صاحب هذا القلم قلمه لثلاث سنوات تقريبا يأسا من أى حلول ممكنة، حتى قام بن لادن بضربة الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.. ومع تتالى الأحداث آن لنا أن نتداول البحث حول موعد قيام الدولة المصرية الرابعة دون أن نخشى على إسلامنا لأن الإسلام من عند الله وليس من عند العرب، وجاء للبشرية كافة وليس مشروطا بسيادة العرب.

فتاوى مهمة لعموم الأمة

العنوان عاليه هو عنوان كتاب صادر عن وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف السعودية، ويوزع فى مصر مجانا، وينصح غلافه بأن يعطيه القارئ لغيره طلبا للثواب. وهو مجموعة فتاوى للشيخين: عبدالعزيز بن باز ومحمد العثيمين معرفة بالكتاب بأنهافتاوى فى صلب عقيدة المسلمين دونها الكفر، ومن لا يؤمن بها فقد خرج وارتد عن دين المسلمين. وتبدأ الفتاوى بتعريف التوحيد الإسلامى كأساس اعتقادى أول بتأكيد أسماء وصفات الله كما وردت بالقرآن، وبأنها حقيقة لامجاز «فلابد من الإيمان بما سمى الله به نفسه ووصفه به نفسه على وجه الحقيقة لا المجاز «ص١٠»، وإذا «سمى الله نفسه بالسميع فعلينا أن نؤمن بالسميع اسما من أسماء الله سبحانه وتعالى وبالسمع صفة من صفاته وبأنه يسمع «ص١١» وعندما يقول تعالى : «بل يداه مبسوطتان» فهو يثبت لنفسه يدين موصوفتين بالبسط وهو العطاء الواسع فيجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى يدين اثنتين مبسوطتين بالعطاء والنعم /ص١٢ وأثبت لنفسه أنه استوى على العرش فى سبعة مواضع / ص١٣».

وهكذا تقرر وزارة الإسلام السعودى مذهبها دينا لكل المسلمين ورأيهاعقيدة من خالفها كفر وارتد، لأن اثبات الصفات والاسماء دون مجاز وتأويل لايقول به سوى أهل السنة وأيضا الاشاعرة مع بعض الاجتهاد، لكن هذا الاجتهاد الاشعرى السنى القح وحتى النخاع تنكره عليهم السنة الحنبلية الوهابية، وتضعهم ضمن بقية الفرق الإسلامية التى رأت فى الاسماء والصفات مساحة للتفلسف الراقى والوصول العقلى إلى معنى الكمال الإلهى المنزه عن النقص وعن الجسد وعن الشبيه كما عند المعتزلة أو مساحة للحب والذوبان فى ذات الله وصفاته كماعند «الصوفيه»، وهو الرأى المقرر بكتاب الوحيد المقرر على ثانى ثانوى بالسعودية حتى ٣٧ إذ يقول: «إن الفرق المخالفة من جهمية ومعتزلة وأشاعرة وصوفية قلدوا من قبلهم من أئمة الضلال فضلوا وانحرفوا وهى فرق ضالة منها الأشاعرة والماتريدية».

أما الفلاسفة وعلماء الكلام الذين درسوا قرآنهم من باب العقل فهم مبتدعون، إذ يقول كتاب التوحيد المقرر على أول ثانوى بالسعودية ص ١٥ ، ١٦» ما من بدعة إلاويقيض الله لها من يردها ويكشف عوارها وينصر السنة.. عمر بدرته المشهوة..وعلى بحرقهم فى النار.. وهشام بن عبدالملك الذى قتل غيلان الدمشقى، وخالد القسرى الذى ضحى بالجعد بن درهم (صبيحة عيد الأضحى).

ثم المتصوفة الذين اعتقدوا فى الوصول بالحب الإلهى إلى درجات راقية تتطهر فيها النفس من مطالب الدنيا وجسدها، وكذلك من اعتقدوا فى التصوف وأقاموا الأضرحة والمزارات لشيوخهم، ودانوا بالمحبة لكل الناس وأبرزهم مكانا محيى الدين بن عربى الذى أعلن أنه يدين بدين الحب لمن يطوف بالكعبة أو يضرب جرس الكنيسة أو حتى من يعبد الأوثان ،لأنهم جميعا خلق الله وليس لأحد منا القرار بشأنهم فالأمر معلق بمشيئة الله. يقول هنا كتاب التوحيد ثالث ثانوى سعودى «بنو الأضرحة على القبور.. والله أباح دماء هؤلاء ومالهم وأهلم لأهل التوحيد (أى للسنة الوهابية) وأن يتخذوهم عبيدا لهم» وترى وزارة التعليم السعودى أن نهب هؤلاء وسبيهم واستبعادهم شريعة إسلامية وعقيدة مؤكدة، وأن هؤلاء كثيرون بما يفى بحاجات المسلم الوهابى الموحد من سبايا وأموال، «وعباد القبور فى كثير من الأمصار /كتاب التوحيد ٣ ث من ص ١٠ : ١٨» مع مالا يخفى من استخدام الكتاب لمصطلح الأمصار جمع مصر، وما ينصرف الذهن معه إلى مصر الوطن وعباد القبور فيها كما يزعمون. ومن ثم لا يأمنن أحدنا من فتح جديد مع الدعوة التجديدية الوهابية لبلادنا، ليذبحونا وينهبوا أموالنا ويركبوا نساءنا ويستعبدوا أولادنا!!؟ خاصة بعد تبنى كل حركات الإسلام السياسى فى بلادنا للوهابية دينا بديلا عن الإسلام. وهكذا الرباط واضح سافر بين فتاوى المفتيين ومناهج المعلمين على المستوى الرسمى، والموقف موقف حقائق مدونة تنشر وتوزع بين المسلمين وتدرس فى مدارسهم وليست اتهامات أمريكية باطلة.

ونعود للفتاوى المهمة لعموم الأمة نتابع ديننا الجديد الذى قرره على المسلمين السادة الوهابية فى تجديدهم البديع للمذهب الحنبلى، وأن سألنامشايخ الفتوى عن حديث الفرقة الناجية أكدوه فورا أنهم هم الفرقة الناجيةوحدهم، وهى التى تتميز كما يقول بن عثيمين فى المجموع الثمين ٢/٥٤ : «وفى العبادات تجد هذه الفرقة متميزة بتمسكها التام وتطبيقها لما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم.. فلاتجد عندهم ابتداعا فى دين الله..» لكن الطريف حقا ما اعطته هذه الفرقة الناجية لنفسها من حقوق، حيث يقول ابن عثيمين إنه فى مجال «الأخلاق والمعاملات فلا يخرج الإخلال بها من هذه الفرقة، وإن كان ينقص مرتبته»!؟

وهكذا فالمسلم حسب التجديد الوهابى مأمور بالطاعة التامة للأوامروالنواهى فيما يخص الاعتقاد على الطريقة الوهابية، أن ترى لله يدا وعينا واذنا وأنه على كرسى يحمله ثمانية، وأن يتمسك بالحديث النبوى وسنة رسوله كماوردت فى أكثركتب الحديث اتساعا للموضوعات

والملفقات من أحاديث، مسند بن حنبل، فعليه أن يأكل بيمينه ويدخل بيمينه ويردد دوماأدعية وتشكرات وحمد، ويبسمل ويحوقل مع كل حركة وسكنة، ويطلق اللحية ويقصر الجلباب. فمثلا يشرح لنا الدكتور محمد وهدان بجريدة المساء آداب شرب ماء زمزم، فعليه أولا أن يتجه نحو القبلة ثم عليه أن يذكر الله مع أول شربه، ثم عليه أن يتنفس ثلاثا بين كل شربة وشربة، وعقب كل نفس عليه أن يسمى الله، ثم لابد أن يتضلع من شرب الماء أى يملأ به اضلاعه، وبعد الشراب عليه أن يحمد الله، ثم يدعو بما يحفظ / ٢٠٠٣/١/٣١» ومن ثم تصبح حياة المسلم محكومة بالأدعية وإبراز العبادة لله طوال الوقت وإثبات النبوة لنبيه طوال الوقت، لكن ماليس مهما عند الفرقة الناجية أن يكون المسلم عنده أخلاق أو حسن معاملة صادقة، فهذا مما لايخرج المسلم من هذه الفرقة، بتأكيدهم لحديث نبوى لاتعرف كيف يصدر عن نبى يقول فيما يزعمون: «لا يدخل ابن آدم الجنة بعمله» أفلا يفسر لناهذا مستوى الأخلاق فى بلاد المسلمين بعد انتشار التجديد الوهابى؟ ألا يفسر لنا هذا سر ظلام الروح البشرية التى تقبل الامساك بالسكين وذبح البشر كالنعاج والهتاف الله أكبر لفعل مثل هذاالفعل ليلطخوا النداء الكريم بدم برىء؟ ألا يفسر هذا اهازيج شارعنا وعرس فرحنا الشامت بنصر الله والفتح يوم ضربت القاعدة فى أمريكا المدنيين الذين لا يدرون عنا أو عن بلادنا شيئا. ألا يفسر لناهذا سر الفساد المنتشر على كل المستويات وارتشاء كل الضمائر. فنحيا المدنية بروح جاهلية ونرتدى الحجاب على البنطلون الاسترتش ونقود المرسيدس بأسلوب قيادة العربة الكارو، ونصلى ونصوم فرضا وسنة ونخسر الميزان، ونسرق أراضى الدولة أو نهرب بأموال المودعين فى الاستثمار الإسلامى ونستورد اللحوم الفاسدة ونكفر بعضنا بعضا ولا نقدم للدنيا سوى العداء والكراهية والقتل؟! ألا يعنى أن تمسك الناس بدينهم (على الطريقةالوهابية) هو ما وصل بالشارع الإسلامى إلى ما هو عليه الآن؟ يرد هنا ابن عثيمين فى مجموعه الثمين «ولا تعلم لماذا هو ثمين؟» فيقول: «هذا الكلام لا يصدر إلا من ضعيف الإيمان أو مفقود الايمان جاهل بالتاريخ غير عالم باسباب النصر، فالأمة الاسلامية لما كانت متمسكة بدينها فى صدر الاسلام كان لها العزة والتمكين.لكن الأمة الإسلامية تخلفت كثيرا عن دينهاعندما ابتدعت فى دين الله ماليس منه /٣/ ١٠».

من المبتدع هنا؟ ومن أدخل فى دين الله ماليس فيه؟ ومن قال إن طاعة العبادات وفساد الأخلاق من شيم أى دين كان؟ وألا يعنى الاصرار على الطاعات العقيدية وحدها دون المعاملات، اصرارا على تعويد روح

المسلم على الطاعة مقابل إطلاقه شرسا على إخوانه المسلمين أو على غير المسلمين بلا ضمير وبلا حظ من مبادئ أخلاقية راقية كرشوة مقدمة من حلفاء السلطان المطلوب طاعته، للمؤمنين الطيعين لأولى الأمر الكاسرين على بعضهم وعلى غيرهم؟ خاصة مع ما نعلمه من حلف بين بن عبدالوهاب السادن المؤسس وبين ابن سعود السياسى المؤسس.

ونأتى إلى الأهم عند فضيلة الشيخ بن باز وهو يفتى بشأن علاقة المسلم بغير المسلمين فيقول تجاوز الله عن سيئاته: «نشرت بعض الصحف المحلية عن بعض الناس أنه قال : إننا لا نكن العداء لليهود واليهودية وإننانحترم جميع الأديان» وكما هو واضح كلام جميل ومحترم وراق يقدم الإسلام للدنيا كروح حضارية، لكن ابن باز له رأى آخر وهو مفتى المملكة فيقول« وهذا الكلام يخالف صريح الكتاب العزيز والسنة المطهرة ويخالف العقيدة الإسلامية، فقد دل الكتاب والسنة واجماع المسلمين أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود و النصارى وسائر المشركين وأن يحذروا مودتهم واتخاذهم أولياء، والآيات فى هذا المعنى كثيرة وتدل دلالة صريحة على وجوب بغض الكفار من اليهود والنصارى وسائر المشركين وعلى وجوب معاداتهم وتدل أيضا على تحريم مودتهم/ مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز ٢ , ١٧٨»

ومن جانبه يرى قرضاوى الديمقراطى أن العلمانيين هم من يتسامحون مع غير المسلمين وهذا من كفرهم، ثم يؤكد «أن المسلم إذا فرضت عليه العلمانية فقد فرض عليه أن يتحلل من دينه.. لأنه لا يستطيع أن يوالى أو يعادى على أساس العقيدة، لأن العلمانية ترفض العقيدة اساسا للولاء والانتماء / الإسلام والعلمانية ص ٧٦ ، ٧٧».

وهو ما يعنى أتفاق كهنة الاسلام و الاخوان والجماعات الارهابية على تكفير العلمانى لأنه يوالى أو يعادى على أساس المواطنة، بينما موالاة غير المسلمين حتى لو كانوا مواطنين وجيرانا وزملاء فى العمل والدراسة والحرب والسلم والخير والشر، وهو كفر بواح والعياذ بالله. هذا كلام كبار السدنة فى بلاد المسلمين، ثم ينزعج المسلمون من اتهامهم بالكراهية و الإرهاب؟.. لماذا؟!

ولكن لأننا أصبحنا بحاجة إلى التواصل على الأقل مع بلاد غير المسلمين حيث العلم والدرس والطب والسياحة والسعادة فى البلاد السعيدة، ولأننا لم ننجز أو ننتج أو نكتشف أو نخترع تظل الحاجة إلى هؤلاء الكبار ماسة، وتصبح الحاجة إلى الفتوى ماسة أيضا. فيقول ابن

عثيمين: «إن الإقامة فى بلاد الكفار خطر عظيم على دين المسلمين وأخلاقه » (لاحظ هنا : أخلاقه) وسلوكه وآدابه «التى هى كيف تشرب ماء زمزم أو تمص غيره مصا» فالإقامة فى بلاد الكفر لابد فيها من شرطين أساسيين: الشرط الأول أمن المقيم على دينه.. وأن يكون مضمرا العداوة للكافرين وبغضهم مبتعدا عن موالاتهم ومحبتهم، لأن موالاتهم ومحبتهم، مما ينافى الإيمان.. ومحبة أعداء الله من أعظم ما يكون خطرا على المسلم.. والشرط الثانى أن يتمكن من إظهار دينه.. وتنقسم الإقامة فى دار الكفر إلى أقسام: القسم الأول أن يقيم للدعوة الإسلامية وهذا جهاد.. والثانى: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ماهم فيه من فساد العقيدة وانحلال الأخلاق؟! وهذا أيضا جهاد، وأن يكون عينا للمسلمين يعرف ما يدبره للمسلمين من المكايد وهذا ايضا جهاد، أو أن يقيم للدراسة.. وهذه أشد فتكا بدين المقيم وأخلاقه.. بالاقتناع بآرائهم وأفكارهم.. أو أن يقيم للسكن وهذاأخطر مما قبله .. فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم .. أنابرىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين.. وكيف يسكن فيها بأولاده ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين مع ما فى ذلك من الخطر العظيم / المجموع الثمين ١/٥٠: ٥٥».

ولا تعرف أى أخلاق يقصد هذا الوهابى هنا وماذا تعنى لديه الكلمة، فى بلاد قال عنها محمد عبده مسجلا احترامه للسلوك والأخلاق هناك: «رأيت هناك إسلاما بلا مسلمين ورأيت هنا مسلمين بلا إسلام»، والمبكى هنا ذلك الكذب على الذات عندما ينعى على المهاجرين هجرتهم لأنهم فى بلاد غير مسلمة وهومالن يوفر لهم الأمان، بينما معظمهم قد هاجر هربا من بطش المسلمين باحثا عن الأمان فى البلاد التى تحترم الإنسان لأنه فقط إنسان.

هذه مقتطفات بدائع من فتاوى فقهاء الكراهية والغم الذين حولوا حياتنا إلى غم متصل منذ وردت آراؤهم مع العائدين من الخليج، فاختفى من بلادنا التسامح والفرح والكرنفالات والموالد الموسمية التى كانت تحشد الناس على حب يوم أو مناسبة أو شيخ يسعدون فيه بالألفة والمشاركة الوجدانية، وتحولت إلى بلاد للكآبة والبكاء والتباكى وإسلام المظهر وخراب القلب وحزن الروح واكتئاب النفس، ولم يحرموا الوطن من كرنفالاته الموسمية، فقط بل يريدون أن يحرموه من آخرهاتواجدا فى بلادنا وهو المولد النبوى، فيؤكد ابن عثيمين أنها بدعة محدثة فى الدين، وهى من الغلو المؤدى إلى الشرك الأكبر، وأن النبى استباح دماء أمثالهم وأموالهم وأولادهم / المجموع الثمين ١٢٦/١» ومثله الاحتفال بليلة النصف من شعبان ومثله الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج

«مجموع فتاوى بن باز ١/ من ١٩٠» يتبقى فقط الجائز والمستحب وهو البكاء أثناء قراءة القرآن أو سماعه أو التباكى إن لم تستطع البكاء. وفى ضوء التبارك بصوت القرآن فى كل شارع ودرب وحارة. واتباعا لهذا الأمر فإن بلادنا ستتحول إلى قوم يبكون ليل نهار لسماع القرآن وخشية من الله، أما أى لون من الفرح أو السعادة أو لقاءالناس بعضهم بعضا بالمحبة، فهو بدع وتقليد للناس السعيدة فى بلاد الكافرين، وهو ما يخرج الأمة من عموم الملة.

إنها مصرنا يا كلاب جهنم

كدت أهنئ نفسى وأهنيكم قرائى الموافقين والمعارضين بشهر رمضان الكريم، لولا غصة فى الحلق ومرارة فى الروح تصبغ التهانى بالكآبة والوجع، بعد أن هدمت أفراحنا بنصرنا الأكتوبرى العظيم كلاب جهنم فى طابا الغالية.

طالما سادتى حذرنا، وكثيرا ما نبهنا وقلنا فى هذه المجلة قولا طويلا بشأن ما سيجره علينا خطابنا المشيخى والقومجى، وأن كراهيتنا المبررة أو غير المبررة لأمريكا لا تبرر تأييدنا للسفاحين من مجرمى القاعدة فى العراق بحسبانهم مقاومة وجهادا فى سبيل الله، وأن ما تفعله القاعدة فى العراق بعد تسلل عناصر غير عراقية إلى داخل العراق هو بدوره وجود أجنبى يقود حملة مجازر تعادل فى وجودها هناك الوجود الأمريكى، إن لم تكن أسوأ لأن وجود التحالف فى العراق قد اكتسب مشروعية دولية بأهداف علنية واضحة للعالم، وأن وجود أجانب من القاعدة فى العراق قد حول المعركة من معركة تحرير إلى ساحة لتخليص الثأر، ليدفع العراقيون ثمن الزمن الصدامى الدامى الرهيب، ويدفعوا أيضا ثمن حرب القاعدة وأمريكا دون مستحقات عليهم لأى من الجانبين ويا لفهى عليك يا عراق.

أبدا لا يبرر موقفنا كراهيتنا لمعاوية لا حب على أبدا لا يبرر موقفنا كراهية أمريكا كى نحب القاعدة.،

أبدا لا يبرر للزوج كراهية زوجته عندما يعاقبها فيقطع قضيبه بيده.

من موقف الكراهية وحده قامت مبادئنا إزاء ما يحدث فى العراق فأجمع الخطاب الاسلامجى مع الخطاب العربجى القومجى على تسمية ما يرتكبه الإرهابيون فى العراق بالجهاد، ونسبوه للإسلام رغم أن هذه النسبة بينها وبين الإسلام مسافات لم تملأها حتى الآن أى دلائل مشيخية بينات مقنعات أللهم سوى الكراهية وحدها.

قلنا على صفحات هذه المجلة إن تشجيع الفريق السنى (القاعدة فرع العراق) من جانبنا وتبرير أفعاله المجرمة فى حق الإنسانية من قبل مشايخ العرب وتشجيع الميليشيات الشيعية الصدرية من قبل إيران وصدور فتاوى مشايخنا مثل (قرضاوى الديمقراطى) لصالح الذبح والدم للأبرياء سيؤدى إلى تفجر العراق، والعراق قنبلة هائلة غير ذكية، وإن تفجر العراق فإن شظاياه ستمتد من فاس إلى بغدان وإلى كل بلاد العرب أو طانى، وسيتحول شرق أوسطنا الكبير إلى بؤرة التهاب مزمنة فى كوكب الأرض، ونحن من سيكون فى قلب البؤرة وعدنا وزدنا ورجعنا للأصول فى أمهات علومنا الإسلامية نستمد منها المواقف التى لا تخرج عن الإسلام، وفى الوقت نفسه تراعى مصالحنا فهل نحن ننادى فى موتى؟

ليتهم كانوا موتى لأراحوا واستراحوا، لكنهم أحياء من قوتنا يرزقون وعلينا يتسلطون وضد مصالحنا... يفتون، وبكل جهل يتفننون بغض النظر عما يحدث للناس وللأوطان، فهم فى كل وقت وزمان سدنة الدين طالعين واكلين نازلين واكلين، ومن هنا لا يشغلهم أبدا ما يحدث لبلادنا ولا

لنا سنا لأنهم بنار ما يحدث لا يكتوون، لذلك ظلوا يسمون ما يحدث فى العراق مقاومة، تساندهم صحفنا بغباء منقطع النظير تصور كل ما يحدث فى العراق على أنه مجازر أمريكية لمزيد من تجييش الناس تحت راية الجهاد والكراهية.

وكان أهم ما نبهنا عليه أن تشجيع القاعدة فرع العراق وتبريرها هو تشريع للفعل مجردا، تشريع لها لكى تضرب فى أى مكان، فى روسيا، فى فرنسا، فى السعودية، فى مصر لا فرق.

والآن.. وبعد مؤآمرة السابع من أكتوبر بتعبير الأستاذ محمد عبدالمنعم ، ترى ما هو موقف أبنائنا من أدباء الأقاليم الذين عقدوا مؤتمرهم فى الأقصر وتبنوا تحويل العراق إلى فيتنام ثانية لأمريكا؟ بغض النظر عما حدث للفيتناميين، وبغض النظر عما يحدث للعراقيين، لقد أكلوا وشربوا وانبسطوا وناموا فى الفنادق الفاخرة وألقوا شعرهم وقصصهم على بعضهم ثم ذهبوا ليناموا فى بيوتهم يحلمون بمساحات الدم العراقية فى يتنام العراقية المأمولة .. المهم هو إغراق أمر يكا فى وحل فيتنام أخرى رغم أن الفيتناميين لا يتمنون أبدا عودة ما حدث حتى لو كان فيه (ولو خيالا) القضاء على أمريكا نفسها.

الآن بعد طابا ما هو رأى صحفنا القومية وتلفازنا العبقرى ومشايخنا المناضلين أمام صوانى الثريد واللحم الطرى يجلسون على أكتافنا آرائك

وعلى ظهورنا طنافس، ومن لحم أكتفانا يأكلون كما يشاؤون، ثم ما رأى القومجية من جماعات الكوبونات النفطية والفضائح التاريخية والذين وإن تأجلت فضائح بعضهم فهو إلى حين.

الآن بعد طابا ما هو رأى شارعنا المجنى على دماغه بخط إعلامى ساخن لا يضخ فيه إلا الجهاد بالقنابل والرصاص فى خط واحد أحد لا يعرف المواطن غيره، نصفه كذب على الحقائق وتزوير الخبر الذى يُعطى للمواطن مبتسرا أو مكذوبا أو مزورا لمزيد من الشحن ضد أمريكا ونصفه شحن لآليات الكراهية والدمار بطلب من رب السماء.

الآن يواجهكم جميعا حضرات السادة المناضلين السؤال: بماذا نسمى كلاب جهنم الذين ذبحوا فرحنا يوم السابع من أكتوبر، ولطخوا وجه مصر الحضارى بالدم ووجهوا إلى كرامتها طعنة خسيسة أمام الدنيا، بعد أن كان فخرنا أننا قد طهرنا أرضنا من الإرهاب.

كم أجهضت كلاب جهنم أفراحنا، فهم لا يسعدون إلا بالدم والبكاء فانتقوا أيامنا الخالدة وأفراحنا الوطنية لتحويل اعراسنا إلى مآتم، لأنهم ضد الفرح الوطنى بل هم ضد الاعياد الوطنية، بل يعادون فكرة الوطن أصلا، كما فى سخرية قرضاوى منها إذ يسميها تصغيرا وتحقيرا :« رابطة التراب والطين التى تناقض توجيه القرآن الذى يلغى كل رابطة إذا تعارضت مع رابطة الإيمان والإسلام والعلمانية٩٨ ، ٩٩» وهى ذات الرابطة التى تعتبرها مناهج التعليم السعودى مثلا «لونا من الفسوق الذى عاقب الله به بعض الشعوب الإسلامية/ منهج التوحيد ٣/ث/ص ٧٤».

الآن لعل السؤال المطروح على ضمائركم سادتى قد أصبح واضحا : ترى بم تصفون كلاب جهنم الذين نهشوا كرامة بلادنا واعتدوا على أمننا؟ هل هم مجاهدون؟ أم هم إرهابيون يستحقون أن نطاردهم حتى أقصى الكون ثأرا لمصر ولأنفسنا أو أن نطاردهم إلى أقصى فكرة مجنونة داخل أدمغتهم المسعورة بشهوة الدم والهدم؟

ترى ماذا يقول لنا سيدنا قرضاوى وسيدنا هويدى بالذات وبالخصوص بعد سلسلة الفتاوى من الأول وسلسلة مقالات السم الناقع المملوءة كراهية وتحريضا من الثانى، أحدهم يفتى بالدم، والثانى يتقدم بالشرح والتحليل والاقناع، والثالث يقوم بالضرب فى أى مكان.

لكنكم سادتى فى موقف الاجابة الاضطرارية الآن على أكثر من سؤال وليس سؤالا واحدا.

دعونى أسألكم: من هو الوطنى ومن هو الخائن ما دمتم مغرمين

بتحديد المصطلحات ؟ أم لعلكم مازالتم عند السؤال الإرهابى من هو المؤمن ومن هو الكافر ؟ أى السؤالين عندكم صحيح يا سدنة التاريخ العربى الإسلامى الأسود؟

هل نحن وطن واحد له حكومة معروفة وحدود اقليمية كل ذرة فيها هى كبد الوطن، أم نحن ولاية ضمن أمة لها خليفة متنكر فى صورة قرضاوى أو فى شكل هويدى يصدر الفتاوى ويشرح ويبرر القتل فى فتوى عابرة للقارات تتدخل فى شئون كل دولة يعيش فيها مسلم بالكراهية والفساد والدمار، ويؤكد وجوده كسلطة لأمة خفية نحن ضمنها، وأن هذه السلطة تصدر تشريعات باعتبار الفتوى تشريعا، لم يوافق عليها البرلمان ولم تعرض علينا لنوافق عليها، فأصبح لدينا سلطتان: سلطة الدولة المعروفة، وسلطة الدولة الخفية الظلامية.

وهو ما يستدعى السؤال لسادتنا سدنة الكراهية وأفراح الدم: هل قوانينا دستورية وضعية، أم قوانينا هى فتاواكم التى تقولون عنها شرعية وتسلبون الشرعية عن الدستورية التى هى أكثر شرعية من أى شرع آخر حتى لو دعوتم له السماء نصيرا.

وهل تراكم بما اصبحتهم تملكون من محطات فضائية وصحف دينية واختراق علنى لأكبر مساحات فى إعلام الدول الإسلامية.. تراكم ظننتم أنكم الناطق الرسمى باسمنا والمعبر عن شعوبنا؟

السؤال ذاته نطرحه على حكومتنا، فى محنة الكرامة وبلادنا تتعرض للإرهاب الدولى المخطط له عن سبق إصرار وترصد، بينما يدعم هذا الإرهاب ثقافة اخترقت حياتنا وخرقت عقول شبابنا، حتى أصبح فى بلادنا صوتان لسلطتين :صوت شرعى سياسى يعترف به العالم، وصوت دينى شعبوى يمارس سلطانه بسيطرته على العقل والضمير.

مشكلتنا يا حكومة أن الصوت الدينى السلطوى وهو يمارس وجوده ثقافة وتشريعا وسياسة واقتصادا اسلاميا وإرهابا لا يتحمل مسئولية ما يفعل أمام العالم، ليتركنا نحن وأنت يا حكومة نتحمل المسئولية أمام العالم على ما لم نفعل.

وسؤال آخر للناس: هل المعارك التى تخوضها جماعات المسلمين اليوم ضد العالم هى باسمكم وهل وافقتم على إعلانها؟ إن إعلان الحرب يكون بقرار البرلمان ويعلنه رئيس الجمهورية وهو ما لا ناقة لنا فيه ولا جمل بل نحن مجنى عليه.

إذن من يبارك فعل أى جماعة منهم إنما يعطى الفعل مشروعية العمل

فى أى مكان، كما فعل قرضاوى الديمقراطى عندما شرع بالنيابة عنا جميعا وبالنيابة عن الله أيضا قطع الاعناق للمدنيين فى العراق، ومن ثم فقد شرع ضرب طابا أيضا.

سؤال آخر لعامة المسلمين: هل كل تلك المعارك التى تخوضها القاعدة فى العالم هى حروب ردة تحرير؟ إذن فلماذا قتل العراقيين على الهوية الدينية والمذهبية كقتل الشيعة والمسيحيين والصابئة الحرانيين والأشوريين والكلدانيين وغيرهم؟ هل هى حروب ضدنا باعتبار أن جميع المسلمين قد ارتدوا ولم يعد موجودا فى الأرض على هدى الإسلام سوى القاعدة وحدها؟

هل هى غزوات لإقامة الخلافة ؟ تصور بعضهم يقول هذا متصورا أن بلدا مثل مصر يمكن أن يعود ولاية لسيد قرشى، وأن نعود موالى للسيد العربى وهذا هو الخبل العظيم.

أم هى حروب فتوحات؟ وماذا تفتح تحديدا؟ وماذا تحقق بهذا الفتح المبين؟

الأسئلة كلها مطروحة علينا كلنا وبخاصة على مشايخنا الاجلاء الذى يعلن بعضهم إدانته لأعمال القاعدة البربرية حرجا ومن طرف اللسان مع التماس التبريرات والأعذار والبحث عنها فى فلسطين أو البوسنة أو الشيشان. لكنهم جميعا لم يعلنوا حتى الآن إدانة دينية شرعية مدعمة بالآى الحكيم والحديث الشريف وقول الفقهاء الأكابر- كما يفعلون عادة فى صغائر الأمور لم يعلنوا تلك الإدانة واضحة بمحفل إسلامى عظيم الشأن يجتمع فيه كل صنوف المسلمين على كل مللهم ونحلهم لإعلان تكفير القاعدة وكل إرهاب متأسلم وخروجه على الدين بالضرورة وإهدار دم أى منهم لأى مسلم كمدخل للجنة أكيد. حتى نبرئ أولا أنفسنا، وثانيا حتى نبرئ إسلامنا، وثالثا حتى نلقى العار على عاتق المسلمين، ورابعا حتى لا تبدوا أسودا على المثقفين الليبراليين فقط تحاكمونهم وتصادرونهم وتفتون بكفرهم وتقتلونهم من باب تحسين الصورة يعنى. هل تسمعنى يا كبير الأزهر؟ هل تسمعنى يا مفتينا ؟ هل تسمعى يا حكومة ؟ هل تسمعنى يا وزير الإعلام؟

عيلكم بإجابات واضحات ومواقف تناسب قيمة مصر فى هبة واحدة تثأر لكرامة مصر وتحق الحق فى مواطنه، وتردع أى عابث بأمننا ليفكر ألف مرة قبل أن يعبث . الأمر لا يلقى على عاتق وزارة الداخلية وحدها إنما هو ملقى عليكم جميعا.

أيها السادة أهلى وناسى مسلمين ومسيحيين وغيرهم : السؤال الأخطر الملقى علينا جميعا هو: هل سيتمكن النافخون فى أبواق الكراهية والدم من إسلامجية وعربجية أن يصدوا عنا الغضب الأمريكى الحقيقى؟ وليس الأمريكى فقط بل والروسى والفرنسى والإسبانى والألمانى باختصار غضب الأمم المتقدمة جميعا إزاء أمتنا المسكينة بنت السبيل؟ من سيدفع عنا الغضب عندما يبدأ؟ ومن سيدفع الثمن؟ أليس هم المسلمون الطيبون الذين لم تتلوث أيديهم بشىء مما يحدث بقدر ما هى معطرة بطين مصر وزيت مصانعها وصحائف موظفيها؟ والمسيحين المصريين لأنهم مصريون وكل ملة ولون أيضا، إن كل الخطط السليمة طويلة الأجل لمعالجة أحوال الشرق الأوسط وثقافاته لتعيش القرن الحادى والعشرين، يمكن أن تتحول عن حلم بغد مشرق إلى واقع بركانى تتحول فيه بلادنا إلى ساحات معارك لا نسعى إليها ولا رغبة لنا فيها، ودونما ذنب جنينا إن لم نأخذ فقط على يد المتطرفين بل أيضا على الفكر المتطرف بفتح مساحات الرد عليه وردعه فكرا بفكر ومحاصرته والقعود له كل مرصد، وأن نتحاكم كشعب متحضر إلى قاض سيرضى به الجميع هو شعب مصر.

هذا مستوى ندعو إليه بفتح باب الفرص المتكافئة لمناقشة الفهم الدينى المطروح على الساحة أمام الفكر الجديد.

ثم هناك مستوى آخر هو مستوى القانون الذى لابد من تفعيله لتكريس هيبة الدولة فلا نسمح لمن يكفر القوانين الوضعية بفتاواه وإعلانها وكتابتها لأنه اعتداء على نظام الدولة، ولانسمح لمن يدعو إلى تطبيق شريعة غير ما نشرع لأنفسنا وبمراعاة القوانين الدولية ومواثيقنا العالمية. فلن يمكنا مثلا تشريع بيع الجوارى ما دمنا قد شرعنا الجهاد وكلاهما من لزوم ما يلزم لبعضهما لوجود السبايا، ولا نسمح أيضا باتخاذ الدين وسيلة للاعتداء على الآخرين، كما لن نسمح بإقامة ساحات القطع والذبح وهى بدورها من لزوم ما يلزم عن المناداة بالشريعة وتكفير قوانين الدولة. ولأن المواثيق الدولية جميعا لم تعد تسمح بالعقوبات البدنية ولا باغتصاب النساء باسم السبى ولا بالاعتداء على الآخرين باسم الدين، فلا لقاء مع المواثيق العالمية إلا بقوانين إنسانية وضعية تناسبنا وتناسبها وفق مصالحنا وشروحنا.

هل آن لمشايخنا إذن أن يجتمعوا مرة اجتماعا ذا جدوى وأثر فيكونون قد قدموا شيئا مفيدا للإنسانية عبر تاريخهم الطويل.

قولوا لنا سادتى ما هو الوطن وما هى هويتنا ؟ هل الوطن هو الإسلام أم هو مصر ؟ وعلى الإجابة يمكن البناء أو يمكن الهدم والدم.

لن تدفع مصر فواتير الآخرين

هناك فى مصر شئ ثمين لاتعرف هل هو الهرم أم هو النيل أم هو التاريخ أم هو اسم مصر ، يلقى فى الروع مهابة التقديس والإجلال فى البلاد المتقدمة الحرة، لكنه لشديد الغرابة يلقى فى الروح الكآبة وربما الكراهية التى تنضح فى قنوات الخليج الذى لم يحسم أمره حتى الآن: هل هو عربى أم هو فارسى؟

متناسين فضل مصر وفى أحلك ظروفها وكيف قدمت بنيها شهداء على مذبح العروبة، فكانت حصننا كفّ إسرائيل عن التهام بلاد العرب جميعا رغم معاناتهاومعاناة شعبها عقودا تنوء بها الجبال الرواسى، وهو ذات القدر الذى اختارته للدفاع عن الأمة فدفعت فاتورة الغزو الصليبى، ودفعت فاتورة الغزو التترى وأعادته من حيث جاء كافة شره عن العالم أجمع، ثم كان لها فضل كتابة الفصول الأولى فى التنوير العربى، وفتح أول نوافذ النهضة الموؤدة بانقلاب ١٩٥٢ العروبى، ومنذ فتح مصر دفعت مصر فواتير غير مستحقة عليها للعربان وعواصم الخلافة المتعاقبة، ثم وفى التاريخ المعاصر دفعت من دماء أولادها عشرات الألوف ولاء للأخوة المغدورة، لأن هابيل ظل يثبت كل يوم أنه راع بدوى يكره قابيل لأنه ينتج ويعرق ويزرع ويبنى.

ثم دفعت مصر فواتير الفكر الإسلامى المراوغ المدمر القادم مع رياح العائدين من الخليج فى العباءة الوهابية، حتى خسرت مزيدا من الشهداء فى حربها مع الإرهاب، ومزيدا من الدمار الاقتصادى مع كل ضربة إرهابية، فخسرت مداخيلها التنموية التى كانت مرجوة بالسياحة، وهى المداخيل التى كان بإمكانهاكفالة الاستقرار والعيش الكريم لكل مواطن، لأن مصر تملك وحدها دون العالم أكبر منجم كنوز أثرى وأعظم مجمع للآثار فى العالم كله، تملك ثروة لاتنفذ، فقط تحتاج إلى الاستقرار والأمان لصناعة سياحة متقدمة تكفى أبناء الوطن ماهم فيه من عوز.

لماذا دفعنا كل هذه الفواتير؟ وماذا جنت مصر منها؟ ومع دفع الفواتير من دمنا كانت أسعار البترول ترتفع عند اخواننا فيتعالى البنيان بالثروات الخيالية على مرمى حجر منهم، ويحدثوننا عن العروبة والوحدة الإسلامية؟!

لقد دفعت مصر فواتير أدت إلى تخلفها، لأنهاعندمادفعت دفعت، أيضا من مساحة الهيبة المفترضة للدولة، فعاد الغازى الفاتح فى اشكال أمراء للجماعات ومرشدين ودعاة، ليفتحوا سلة علاء الدين ومافيها من

ماض اندثر ومات وتعفن، ليستولوا على ما يمكن الاستيلاء عليه من سيادة الدولة، مما أدى لردة ثقافية وطائفية انتكس فيها المصرى عن الولاء لوطنه الذى أعطاه مجده وكان هو صانعه على التبادل، إلى الولاء لوطن معنوى دينى لا علاقة له بأرضه الأم الجليلة، ومنذها ونحن من منحدر إلى منزلق.

لكن الصورة لايجب أن تكون شديدة القتامة لأن فى بلادنا مازال المصرى المرتبط بالأرض وإنتاجها يعلو عنده الحس الوطنى واضحا، فيرى ماحدث فى طابا جريمة كبرى فى حق الوطن، ويستهجن فعل الدمار والموت لأنه لايتفق وفطرته المصرية، لذلك يحاول أن يتبرأ من فعل كهذا، ولا يرى أبداً أن بإمكان أى مصرى أن يقوم بفعل كهذا، لأنه يثق فى اخلاص المصرى لوطنه، ولايتصور مصرياقادرا على الاقدام على هذه الجريمة المزدوجة، لأنها ضد الإنسانية، ولأنها ضد الوطن، ولأنه حتى لوفعل ذلك فإنه لايصبح مصريا. هكذا كان القانون منذ الفراعين.

وهذا المصرى البسيط الطيب، يجد لنفسه من يتبنى هذا الفكر البسيط ويعبر عنه فى كتابات بسيطة لها مدخل واحد ومخرج واحد، فهو أيضا يحب دينه، ويحب أبناء طائفته من مسلمين مصريين وغير مصريين، ومن ثم يقوم باسقاط الشر على رمز الشر المتفق عليه كحامل لتعليق كل المصائب: إسرائيل، وببساطة تتم تبرئة المحبوب الإسلامى، وتبرئة المصريين، وتبرئة النفس الطيبة المتطهرة من الشهر بلفظة عنها ولو اعتسافا.

هذا موقف متكرر ومعتاد لايحتاج تعقيبا لشدة وضوحه ووضوح أغراضه التى هى فى النهاية غسل اليد من فعل مشين، ولو لم تكن إسرائيل موجودة بالجوار لاخترعوها لتحمل الأوزار هذااللون هو غسل يد بغرض النظافة من فعل لم يشتركوا فيه. لكن هناك غسلا آخر لا يبغى النظافة بقدر ما هو مسح للخنجر من دماء اليوم وتلميعا، من أجل دماء الغد، هناك من يغسل والدماء تتقاطر من سطور مقالاته، وتلمح وراء كل سطر رشاشا وخلف كل فقرة الخناجر والسيوف.

هؤلاء يعرفون أن من ضرب طابا هو القاعدة أو فرخا من فروخها، وهم أيضا على يقين من ذلك، وهم أيضا يعلمون أن الضربة قصدت أحد أعمدة السياحة فى مصر، وهم أيضا يعرفون أن السياحة فى كل الدراسات هى الحل الأكيد كمدخل أول وعامل تنموى متصاعد لحل مشاكلنا الاقتصادية، ويعلمون أيضا أن السياحة صناعة تتطلب كل الأمان والراحة للزبون لتلبية كل طلباته لا خضوعه لطلباتنا وقيمنا ومعاييرنا.

المهم أنه موقف صريح أكثر تعقيدا من الموقف البسيط سالف الذكر، لأنه لايتبرأ من الفعل ولا يجزع من الحدث ولا ينسبه لإسرائيل لأنه منح حق الفخر لمن لايستحق، بل ولا يستنكر الفعل من باب إثبات إنسانيته، ولا يرفضه ولو من طرف اللسان، ولا يدينه ولو من باب الوطنية، بل إنه على العكس تماما، يدافع عن الجريمة فى كبرى صحفنا فى صفحته الأسبوعية، إنه الموقف الذى يمثله الشيخ فهمى هويدى إذ يقول: «إن جميع ملابسات الحادث تشير إلى أن الإسرائيليين هم المستهدفون وليس الاقتصاد المصرى»؟!

إذن يا أهلى وناسى يقول لناهويدى إن الهدف هو الإسرائيليون وعلينافى هذه الحالة أن نتخلى عن قيمنا فى تراثنا المصرى الإنسانى الرفيع لنرى فى قتل المدنيين الإسرائيليين هدفا نبيلا شريفا، كما لو كنا فى حالة حرب يقودها هويدى وإخوانه حتى ولو أخذ هذا الهدف النبيل فى طريقه الاقتصاد المصرى نحو الخراب، فسيكون الاقتصاد المصرى إن شاء الله شهيداً فى جنة الخلد، قياسا على فتوى قرضاوى الديمقراطى أنه لو حدث ومات فى العمليات الإرهابية مسلمون فإنهم سيدخلون الجنة شهداء، دون أن نستأذنهم إن كانوا يحبون أن يكونوا شهداء من عدمه ،ودون أن نسأل أسرهم وأطفالهم وأحلامهم المقبورة عن مدى رغبتهم فى إرسال ولدهم أو رجلهم إلى الجنة تزفه الحور العين من عدمه.

وهكذا عرف سيدنا هويدى نية الإرهاب وأنه لايقصد مصر بأذى ولا اقتصادها عمداً، إنما هو يقصد الإسرائيليين ولا بأس عند صديقه قرضاوى إن تمزقت أشلاء بنينا ليس بيد الإسرائيليين ولكن بيد المسلمين، ولا بأس إن ذهبت كرامة مصر وسيادتها على أرضها مع التفجير القذر التى انتهكها الإرهابيون دون استئذاننا على الأقل، لنبحث مدى ضرر الضربة على اقتصادنا، وأن نسأل من يريد الشهادة ممن لايريد حتى نضعه هناك على سبيل الاحتياط لوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب.

وهكذا يشرع الشيخ هويدى ضرب مصر مادام الهدف النهائى هو تمزيق أشلاء الشيوخ والأطفال والشباب اللاهى من إسرائيل، ويشرع قرضاوى أمام الموظفين المصريين والعمال أبواب الجنة بعد أن استشهدوا رغم أنوفهم، ولا نعلم مصير باقى الجنسيات الذين ماتوا فى الحادث، هل سيبقون فى الأعراف، أم سيذهبون إلى الجحيم فورا بحسبانهم غير مسلمين.. وقضاياعديدة تافهة يثيرها السدنة غباراً فى وجوهنا.

هل من الممكن أن يكتب مصرى شيئا كهذا رغم أنه يدين بمنصبه وعيشه وماهو فيه من بلهنية الجاه والنعمة والنعيم لوطنه مصر؟ يشرع ضرب وطنه انتقاما لطفلين فلسطينيين استدعاهما ليبكى عليهما فى مقاله ليبرر بهم ضرب مصر، دون أن يذرف دمعة واحدة بين كلماته تشير إلى وجيعته على مصرى مكافح من أجل لقمة العيش انتزعه الموت من أسرته وأولاده، مع تبرير آخر أكثر صدمة إذ يقول: (إن إسرائيل هى التى بادرت بانتهاك قواعد اللعبة حينما بادرت إلى اغتيال عضو حماس عز الدين خليل فى دمشق، الأمر الذى يثير سؤالا هو: إذا كانت إسرائيل قد فعلتها فى دمشق، فلماذا نستغرب أن يُرد عليهافى طابا)؟!!

إن الشيخ هويدى يريدنا أن ندفع فاتورة ما يحدث فى دمشق، وفاتورة ما يحدث فى فلسطين، بعد أن سددنا للمجموعة العربية القومية استحقاقات ستبقى عليها أبد الدهر، إن الشيخ هويدى يشرع حق ضرب طابا فى مصر رداً على اغتيال الشيخ خليل فى دمشق؟!! لأى انتماء يدين هذا الموقف بالولاء؟ هذا الموقف الذى لايرى بأسا فى فتح مصر ساحة معارك للهاب والداب وكلاب جهنم لتخليص ثاراتها على ردم من عمارنا وسيادتنا وكرامتنا ودمائنا وهيبتنا؟

يبدو لى أن الشيخ هويدى مصاب بما يمكن أن نسمية «الخلل فى الولاء»، وهو مرض معد بشدة بل يصيب مخترعيه ومكتشفه أول ما يصيب، فيبدو هويدى غير معنى إلا بالولاء لسلطة لايشغلها الوطن بقدر مايشغلها التبعية لهذه السلطة والعمالة لها وتكريسها فى الأذهان إزاء معنى السلطان المعلوم فى دولتناالحديثة، إنها سلطة تغطى المنطقة وتربط بين ما حدث فى دمشق وما يحدث فى مصر باعتبارها ساحة واحدة لتمارس فيها هذه السلطة العربدة كيفما شاءت، ألا ترونه يقول إن إسرائيل هى التى بادرت بقتل خليل، لذلك لا بأس وفق ثقافة هذه السلطة أن يأتوا ليقتلونا هنا، وهذه بتلك، لذلك من المفيد هنا إلقاء الضوء على هذه السلطة غير الخفية التى تسحب الولاء عن الوطن لنحاول تحديد ولاء الشيخ هويدى وأمثاله ، حتى يستبين لناالخيط الأسود من الخيط الأكثر سوادا.

كعادته فى الاستثمار يستغل هويدى حماقة إعلامنا التى أعيت من يداويها، وذلك الإعلام الذى بدلا من أن يبرز حجم الكارثة، ويجعل من المكان احتفالية دولية للحزن والعزاء، واحتفالية مصرية بإعادة التعمير والبناء بمشاركة وطنية ودولية بطوابع بريدية (مثلا) مدفوعة الثمن

للمساهمة تذكر الناس بالإرهاب وكوارثه وإصرار الشعوب على الحياة والبناء، وبدلا من أن يبرز للناس فى الداخل كم أثر هذا الحدث على مصادر رزقهم ودخل وطنهم، نجد أهرام ٢٠٠٤/١٠/١٠ تبشرنا بأن ضربة طابا قد انعشت السياحة والحمد لله، وأن السياح قادمون للموت أفواجا، وهنا يقتنص هويدى الفريسة الغبيةالسهلة ليبنى عليها تساؤله: «فلماذا إذن يصر البعض على أن الهدف هو ضرب مصر باستقرارها واعتدالها واقتصادها؟».

وهكذا فى حوار كاذب مع إعلام هو الأكذب نصبح نحن واقتصادنا وكرامتنا وسيادتنا على أرضنا بل وأرضنا نفسها معنا مجرد «رد البعض»، اعتماداعلى إعلام يصر على أن يعطى تمام الجندية اليومى: كله تمام يا فندم. لأن هويدى عالم خبير بسياسة إعلامنا فهو علم فيه، هذا الإعلام الذى نرجو له التعافى قريباعلى يد الوزير الجديد وتركته الثقيلة، ومع هذا العلم يستثمر الموقف بكل خبث طوية ليبرر تفجير البشر والوطن بجرة قلم.

وينقل لنا عن كاتب بوكالة نوفوستى الروسية أن الأعمال الإرهابية التى شهدتها طابا فى مصر مرتبطة بممارسات إسرائيل الأخيرة فى قطاع غزة وبأعمال أمريكا فى العراق».

هويدى يسافر بين الأقوال باحثا عن مرجعية فيجدهاعند ناعومكين المعلوم الشأن بحسبانه مصدرا معتمدا يركن إليه ليذهب إلى النتيجة وهى وجوب فتح بلادنابكل رضى ساحة لكلاب جهنم تدمر وتقتل وندفع نحن الفواتير.

وهناك رؤية أخرى تبز الجميع فى صدمتها، رؤية ترى أن ماحدث فى طابا يجب أن يجلب لنا السعادة والفرح لما حققناه، فهذاالشيخ مجدى أحمد حسين يهلل فى عدد ٢٠٠٤/١٠/٨ فى صحيفة الشعب الالكترونية معلنا بكل صراحة بدء الحرب على إسرائيل مناديا «الله أكبر، مصرتتحرك أخيرا وتنتقم لشهداء الانتفاضة».

لم أفهم الشيخ مجدى وكيف تم الانتقام؟ وهل الانتقام للفلسطينيين بموت العباد وخراب الديار؟ ولماذا ينتقم المصريون للفلسطينيين داخل بلادنا؟ ولماذا يموت المصريون انتقاما للفلسطينيين؟ وبحسبان الشيخ مجدى عضوا فى الخط النظرى للسلطة غير الخفية، فقد أصدر قرارا بإلغاء معاهدة كامب ديفيد التى عقدتها الحكومة الشرعية، فيقول: إن الفاعلين فى طابا «اختاروا ذكرى حرب أكتوبر ليؤكدوا أن حرب أكتوبر

ليست آخر الحروب»، ألا ترون هذا إعلان حرب صادر عن سلطة تسرى مع الفتوى بين المسلمين؟

والسؤال الذى عادة ما يتبادر إلى الذهن هو لماذا لا يلبس هويدى ومجدى وقرضاوى الديمقراطى وغيرهم من دعاة الشبق إلى الموت والحرب أحزمة ناسفة، ويذهبون إلى إسرائيل أو إلى العراق، أو إلى حيث ألقت، ليكونوا قدوة لشباب الأمة وتأكيدا لهم على أن فى الجنة ما هو أعظم من قصورهم التى يعيشون فيها فى الدنيا الفانية؟ لقد سأل سائل قرضاوى بالفعل الأسبوع الماضى مثل هذا السؤال فأجاب فضيلته قائلا: «يعنى علشان أمريكا تقتلنا كلنا دفعة واحدة، تقتل شيوخ وأئمة الأمة»!

إن قرضاوى الديمقراطى نفسه نوع أعلى درجة منا، فهو والسدنة من رفاقه فى الاشتغال بالدين على الناس، هم نوع مميز لأنهم قادة لايدخلون تلك المغامرات، إنما هم يديرونها عن بعد محافظة على أرواحهم، لأنهم يتعطفون علينا بقيادتهم لنا حتى لا تضيع أمتنا بدونهم، لذلك هم على قلوبنا قاعدين واكلين حاكمين مفتين، يركبهم وهم غريب أنهم هم سند الأمة، إنهم ممثلو السلطة الخفية، التى أصبحت موهما بأنها الحكومة اللاهوتية المشروعة دينيا، وأن قوانينهم غير قابلة للاستئناف ولاالنقض بل هى ملزمة لكل مسلم، وأن هذه القوانين تسرى فى شكل فتاوى تعارض قوانين الدولة وتنتقص منها وتعرض بها علنا، إنهم حكومة عينوا أنفسهم فيها بقرار يبدو فى الظاهر متسقا مع الدين ومطالبه حتى بدوا كما لوكانوا اختيارا إلهيا، أو موروثا ورثناه من الماضى مع تركة ذلك الماضى الثقيلة، أو أن الله اختارهم حكومة نقيضا للحكومة الشرعية، كما اختارهم للحياة فيها فى نعيم الدنيا وزخرفها، واختارنا نحن وأولادنا ومستقبلنا للموت شهداء رغم أنوفنا.

إن هؤلاء يا بنى وطنى لايغارون مثلنا على مصر ولا يحن كبدهم إليها ولا تنفطر قلوبهم لأوجاعها، ولايرون لمصر عليهم جميلا وفضلا لأنهم يحتقرون الوطن ودولته وحكومته، ويرون أنهم الحكومة البديلة الفعالة بين الناس فى شكل تفاسير وفتاوى وأدعية عابرة للقارات، وعلى الناس أن تدين بالولاء لدولة الخلافة الوهمية تلك التى بلا حدود، ولا معالم، التى تمتد إلى حيث يعيش آخر مسلم على البسيطة.. إنهم مازالوا يعيشون زمن الخلافة والحكومةالعالمية والدين العالمى، وهى أوهام زمن مضى وانتهى ليظهـــر مكانه الوطن والمواطنة، لذلك هم ينكرون علينا حب الوطن والإخلاص له لصالح وهم سبق وأن قضت عليه أوهامه.

والآن سادتى ما موقفكم، ما موقفك يا حكومة من تلك الحكومة الموازية التى تفشت فى أجهزتنا الإعلامية ومعها كل المساجد والزوايا والمدارس والجامعات والجمعيات لتشكل فى الوعى الجماعى سلطة مستقلة ذات نظام خاص يختلف بالمرة عن نظام الدولة، ولها قوانين تختلف بالمرة عن قوانين الدولة، مما أحدث شرخا فى الولاء مابين الولاء للوطن بدولته ودستوره وقانونه ونظمه وما بين الولاء لدولة السدنةالموازية ،وهو الشرخ الذى أدى إلى اختلال الولاءات وفقدان الهوية، إلى اختلال فى الوعى ما بين الوطن والدين والعنصر والجنسية، فيتأرجح المواطن بين أكثرها جذبا وتأثيرا مما كاد أن يقضى على الولاء للوطن لصالح الولاء للحكو،مة الإسلامية الموازية. حتى أمكن للمواطن أن يغدر بوطنه ويهاجمه لصالح الدفاع عن حكومته الخفية العالمية، وأن يقتل أهله وناسه انتقاما لما جرى فى أى بلادستان، لذلك لاحظت الدنيا كلها باستغراب شديد عدم انشغال المصريين بمخطوفيهم فى العراق، لأن ولاية الحكومة الخفية فى العراق هى من قرر ومن أدانهم بالتعاون مع الأمريكان.. ودون أن يلتبس الشبيه بالشبيه مرة فيسألون أنفسهم عن المسلمين المهاجرين إلى بلاد الغرب وهل ندينهم بالتعاون؟ وعن الفلسطينيين الذين يعملون فى إسرائيل طلبا للقوت، وهل ندينهم بدورهم.

إن الوطن يفر من أيدينا ليتحول إلى شىء كالظل، إنه يتحول إلى حمى قبلى تابع كولاية لحكومة إسلامية عالمية خفية لها هنا فرع واضح فى حكومة موازية تصدر التشريعات والقوانين وتعلن الحرب وتفك التحالفات والمواثيق الدولية، دون أى اعتبار لقانون أو دستور ولا لوجود مواطنين مصريون لا ينتمون إلى حكومتهم ولا إلى دينهم ولا إلى أفكارهم، وأن هؤلاء مصريون لحما ودما وقلبا وعقلا، وأن هؤلاء يفهمون أن الوطن ليس حكرا على طائفة دون طائفة ولا لفريق دون فريق، ولا للإسلام وللمسيحية ولا لأى ملة ولا أى رأى ولا أى مذهب، ولا (بالطبع) لسلطان الحكومة الموازية التابعة للحكومة العالمية الخفية.

إن هذا الوطن ملك كل مواطن مصرى، والمصرية هى مدى الولاء لمصر، وفى ضوء ذلك نتحاكم إلى قاضينا شعب مصر: هل قرضاوى وهويدى ومجدى وأمثالهم مصريون؟

جنون شارون وحلف الموت المجانى

كان من المفترض أن استكمل هنا ما بدأته من أسبوعين، فى حوار مع الناس ومع العقل، للارتفاع فوق الظروف القاهرة حولنا، فوق الجروح والآلام والارتقاء من حالة التفكير العاطفى المندفع إلى المناقشة العاقلة الهادئة، لدرس أخطائنا سواء كانت فى المفاهيم أم فى المصطلحات أم فى المعايير أم فى القرارات، وعموما فى مناهجنا فى التفكير لإصلاح الشأن من أجل إصلاح سليم لا يشوبه العرج والأخطاء، سعيا نحو مستقبل أفضل.

ومثل هذه الحوارات والدراسات، تحتاج إلى مناخ هادىء يسمح للعقل بالتعالى على العواطف، للتفهم بل وتجرع أحيانا ما هو ضد المشاعر العاطفية لكنه مع العقل وسلامة التقدير وحسن قياس الواقع بين ما هو بإمكاننا وبين ما هو مستحيل.

وقد أصبحت هذه المهمة على كاتب من الكتاب شديدة العوص والاستعصاء إزاء واقع من المشاعر الملتهبة التى لا تسمح للعقل بمساحة للعمل المناسب.

وبعد أن كتبت موضوعى الثالث؟ فاجأنا السيد شارون بجريمة جديدة مروعة تم فيها اغتيال الشيخ أحمد ياسين وبعض رفاقه.

وهو ما ألهب مشاعر الناس إلى حد لا يمكن لومهم عليه لأن الناس العاديين البسطاء لا يعملون وفق قوانين العقل الصارم البارد، وليس مطلوبا منهم ذلك إلا بقدر ما يمكن توفيره من مناخ يسمح بالفرز والفهم والتقييم البعيد عن العواطف.

ومن ثم كان قطعنا لسلسلة الحديث فى مسألة الهوية المصرية مؤقتا لنحاول قراءة الحدث الساخن والبشع، ولكن أيضا بعيداً عن العواطف الهوجاء والغضب الأعمى، الذى كثيراً ما أضاع منا فرصاً لم تعد أبداً، ولأن الأعداء يعلمون هذا عنا كخاصية عربية مستعصية فقد استخدموه بمهارة عالية لمعرفتهم المسبقة برد فعلنا، وترتيبهم لمكاسبهم على نتائج غضبنا الذى كثيراً ما أصابنا بالعمى وضلال الطريق. ومع بدء يقظة الاصلاح والحديث بشأنه سواء بضغط أمريكى على بعض الدول القريبة أو برغبة حقيقية فى إصلاح الذات عند دول أخرى، وأن ذلك الاصلاح المأمول لن يدع الساحة للاعب الإسرائيلى الأوحد فى المنطقة، خلال سنوات قصيرة آتية ما يمكنه من إحداث توازنات جديدة فى القوى فى المنطقة تؤثر سلبا على الاستراتيجية الإسرائيلية والاخلال بخريطة

التوازنات الحالية، فقد فعلت إسرائيل فعلتها الشنيعة، وفى المقابل فإن بعض الأنظمة العربية المتضررة من مشروع الاصلاح، قد لقيت فى حدث اغتيال الشيخ ياسين فرصة لرفع الألوية المعتادة القديمة والشعارات التى تدغدغ الغرائز وتدلك العواطف، لقيادة الجماهير الغاضبة ضد الإصلاح، ضد ذاتها ومستقبلها. وخرج علينا بعض القادة ونصف وزراء الخارجية العرب المعروفين بقدرتهم على الزئير فقط، دون أى فعل حقيقى لينادوا بإعادة النظر فى مشروع الإصلاح، وما تم الاتفاق عليه بين وزراء الخارجية، تمهيداً للقمة المقبلة لأن فى بقاء جماهيرنا فى حالة حمى الغضب وهستيريا الثأر، ضمانا.كافيا لبقاء قوى التطرف الإسرائيلية فى المقابل لاستمرار حالة اللا حرب واللا سلم الدائمة، لأنها هى الضامنة لبقائهم فى الكراسى والعروش، لأن هناك غلى الحدود يربض الذئب فارضا علينا الطوارىء طوال الوقت بما لا يسمح بأى نداء للإصلاح ناهيك عن الفعل الإصلاحى الذى لابد أن يتراجع أمام نداء الغضب.

وإزاء هذا الفعل الذى يبدو فى ظاهره جنونا إسرائيليا، لابد أن نفهم الرسالة الإسرائيلية، أن هناك جرافة فى الطريق لا تهتم إطلاقا لأى مشاعر عربية لأنها تعلم أنها مجرد مشاعر مجردة عن الفعل. وأن الرهان اليوم لم يعد على الحرب أو السلام، أو على هذا النظام الحاكم أم ذاك أم على الحمائم أو الصقور، لقد أصبح الرهان على وجودنا ذاته فى الأرض.

وكان واضحا أن الحزن العربى الهائل ليس بسبب المفاجأة، لأن الجريمة كانت متوقعة، وتم الإنذار بها عدة مرات من قبل، كان الحزن العظيم والمأتم العربى الكبير، هو اكتشاف مدى ضعفنا وصدمتنا فى ذاتنا التى تتأكد كل يوم لتجعلنا مع الغضب والرغبة فى الثأر، نسلك كل الطرق إلى الثأر دون أن نسلك مرة الطريق الصحيح، الذى لا يشغله الثأر وكم قتلوا منا فكم نقتل منهم؟ بل الذى يشغله كيف يمكن أن نعلو فوق جراحنا ونتفوق على ذاتنا وغضبنا لنحوله لطاقة فعل وعمل حضارى نثبت فيه أننا لسنا شعوبا ميتة بل نحن شعوب حية وقادرة على نقد ذاتها ومفاهيمها نقداً صحيحا للحضور فى ساحة الفعل التاريخى، لأن المعركة ليست فقط مساحات من الدم، بل هى معركة حضارية فى المقام الأول، معركة أن تكون نداً قويا قادراً، مخترعا مكتشفا مساهما فى الخلق والإنتاج الإنسانى، معركة أن نكون مجتمعا حراً يعيش فيه إنسان حر، معركة أن تكون إنسانا كريما فى وطن عزيز، معركة أن تتفوق علميا واقتصاديا، وعندها سيكون الأمر أمراً آخر والمعارك من لون آخر.

ليست المسألة إذن ثأرا صعيديا أو عربيا أو إسلاميا، يبشرنا به هذا

الزعيم أو ذاك المقاتل، فيستمر القتل والذبح بدون نتائج إلا المزيد من الخسائر على جانبنا ويظل الإسرائيلى هو الأقوى ونحن الأضعف، المسألة هى كيف تفكر هذه الأمة وتدفع عن نفسها الذل والضعة والمهانة. المسألة ليست إسرائيل وحدها وكيف نواجهها، وليست تفكك العرب وعدم توحدهم ،فهذا النداء فى حد ذاته علامة انحطاط مهين إزاء دولة صغيرة بنت خمسين عاما تمكنت من أن تكون القوة الإقليمية الكبرى. ولأن تجمع الضعاف كما قال يوما النحاس باشا، سيكون مجموع أصفار نتيجتها صفر كبير ليس أكثر، وليست الجدوى فى اتهام الحكام العرب بالخيانة والعمالة، لأنهم أضعف من الدخول فى حلف خيانة ضد شعوبهم أو أوطانهم، الحكومات والدول العربية ضعيفة، لأن الطرف الآخر أصبح قويا بما لا يسمح بمغامرات تأكل الحرث والنسل، وهذا ما تريده إسرائيل تحديداً، أن ترتكب المغامرة بما يسمح بتدخل كل من هب ودب صغيراً كان أم كبيراً فى بلادنا. حكوماتنا يا سادة ليست خائنة بل ضعيفة، وهى ليست ضعيفة لسبب خفى أو لأنها تريد ذلك، بل لأنها تحكم شعوبا هى الأضعف فى العالمين فضعفها من ضعف شعوبها، بعد أن اتفق الجميع على ترتيلة واحدة وخط نظرى واحد، هو خارج التاريخ منذ أزمان، ترتيلة ترتلها الشعوب، وتؤمن عليها الحكومات بكلمة «آمين» بكل سعادة، لأنها أيضا ضمان استمرارها ولأنها الضامنة للخط النظرى العزيز على الشعوب والحامية له.

إن حكوماتنا التى يخونونها عبر القنوات الفضائية أبداً ليست خائنة بل هى مخلصة لمصالحها، وأيضا مخلصة لما تريده ، الشعوب، فهى الحافظة لفكرها ومنهجها وخطها النظرى الأزلى الذى نرجو ألا يكون أبديا، ترفع بيدها والشعوب تهتف وتجزع وتتلو، سيفا مغلولا مفلولا تجاوزته الأمم منذ حقب وقرون، وأدعية وابتهالات لم تغن عنا شيئا ولم تفعل فى الواقع شيئا. ويوم تريد الشعوب غير ذلك حقا ستغير كل شىء، فلا تحزن إذن ولا تندب الحظوظ ولا تخون الحكومات، لأن الشعوب هى من يقرر، وهى من يريد، وحالها اليوم يطابق تماما مساحة إرادتها وقدرتها على الفعل والمصيبة المكنة أن تكون حركة الشعوب العربية نحو مزيد من جرعات البعد عن الحداثة والاستغراق فى أسفار الأولين ليلفظ وجودنا فى التاريخ آخر أنفاسه وهو فى خدر غيبوبة الدروشة وهلاوس خطه النظرى الذى هو أكبر خدمة نقدمها لإسرائيل...

أيها الناس أفيقوا.. يرحمكم الله... أيها الناس... هل من مدّكر؟!

لماذا لا تفيقنا الصدمات والكوارث؟!

هدد الإسرائيليون بقتل الشيخ أحمد ياسين، وأنذروا عدة مرات.. وقتلوه فماذا فعلنا؟ أعلنت الكتائب الإسلامية المسلحة على مختلف التسميات أنها ستثأر له بقتل أرييل شارون بإذن الله.

ولم يقتلوه بإذن الله، بل إن ما حدث كان على العكس تماما، فقد قتلت إسرائيل الرنتيسى خليفة ياسين بعد أن هددت وأنذرت مرات.. بإذن الله.

كان قتل ياسين صدمة للعرب جميعا لاكتشافهم مدى هوانهم وضعفهم أمام إسرائيل بعدد سكانها غير المعدود بين الأمم، وعمرها الذى تجاوز الخمسين بسنوات وهو فى إعمار الدول عمر الطفولة الأولى. وحولها حشد من ملايين المسلمين الأتقياء الركع السجود، ومعهم بلاشك الله ورسوله والملائكة، وألف وأربعمائة عام، وربع القرن بعد ذلك ظهيرا. ورغم التهديد بإذن الله بقتل شارون لم يقتلوا شارون، إنما لحق الرنتيسى بزعيمه إلى جنة الخلد شهيدا، تستقبله الملائكة تزفه زفا عريسا للحور العين فى قصور تجرى من تحته الأنهار خالدا فيها أبدا.

وإذا كان المسلمون على يقين من مصير شهيدهم فى النعيم الخالد، فإن ندبهم ولطمهم الخدود مع دمعهم الثخين وحزنهم الهائل لا يمكن تفسيره باستشهاد الشهيد، بقدر ما هو الحزن على الذات وما وصلت إليه أحوال العرب والمسلمين والإحساس العميق بالمذلة والهوان وحجم الانكسار.. إنه الشعور بالعار العلنى، وما أبشعه عند العرب.

وخرجت المظاهرات فى عواصم العرب العاربة والمستعربة، تحرق العلم الإسرائيلى، ولا بأس من حرق العلم، ولا بأس من التعبير عن الحزن والغضب بالتظاهر، لكن البأس كل البأس أن تكون هذه طريقتنا الوحيدة فى رفض الانكسار والشعور بالهزيمة الماحقة ورفع العار، لأنها تؤكد ما جرى مجرى المسلمات أن العرب مجرد ظاهرة صوتية، يجيدون الشعر والشعارات والكلام، مجرد الكلام والصراخ بالصوت الحيانى الذى لم يفعل شيئا يوما، ولم يغير فى الواقع شيئا، وعلى هذا الأساس تتصرف إسرائيل، وعلى هذا الأساس تتصرف أمريكا، لأنهم يعلمون عنا أكثر مما نعلم عن أنفسنا، لأننا نرفض مواجهة ذاتنا بحقيقتها.. أيضا خوف العار.. خوف أن نرى أنفسنا ونحن عرايا.

وأيضا.. البأس كل البأس بل والبؤس، أن نحرق العلم الأمريكى ونطلب مقاطعتها اقتصاديا «وهو كل ما نملك فى جعبتنا»، لأنه لا حرق العلم ولا المقاطعة مؤثرة فى أمريكا تأثير شوكة فى ديناصور إزاء اقتصاد يمثل لأول



مرة فى التاريخ لدولة من الدول ثلث اقتصاد العالم انتاجا داخليا يقوم به الإنسان وليس اعتمادا على ما تمنحه الطبيعة كالحيض الجيولوجى المسمى البترول فى بلادنا بل إن حيضنا ونيلنا وفراتنا وبشرنا لا يشكلون مجتمعين بإنتاجهم ما تنتجه شركة أمريكية واحدة.

وكل هذا الغضب على أمريكا، لأننا لا نجد فى عالم اليوم قوة غيرها بعد غياب نظيرها السوفيتى، وانتهاء معادلة الرعب النووى والحرب الباردة. نستجير بها فلا تجير، نرسل لها قبلات الوله فتتمنع ولا تجيب، نشرح لها حقوقنا التاريخية والدينية فلا تفهم ما نقول، تركع لها دول عربية تطلب السماح من أهل السماح، تقبل الأيدى فلا تشعر بسخونة القبلات.. إذن لنحرق العلم ونعلن الغضب ونضرب الأرض برؤوسنا، أو تجتمع حشود المؤمنين فى المساجد تركع.. تسجد.. تبكى لربها بحرقة.. ولا رد سوى أصوات قصف البلاد وموت العباد.. ومزيد من الدم المهدر بلا ثمن.. ولا نفتح أعيننا بعد كل دعاء إلا على ما يسؤنا بكرة وأصيلا.. ويهتف شبابنا المسلمون للإسلام رافعين المصاحف والرايات يطلبون الموت والشهادة، غير مدركين أنه المطلب الوحيد القابل للتحقيق بلا ريب، بلا تحرير للأرض، وبلا رفع للعار، فى ظل مناهجنا وثقافتنا وطريقتنا فى التفكير.

نكره أمريكا لأنها مع إسرائيل على طول الخط، وأنها لا تقف معنا ومع حقوقنا الواضحة وقضايانا العادلة، غير راغبين فى فهم أن ما بين الدول هو المصالح وحدها، وأن إسرائيل قد أثبتت لأمريكا أنها الساهر على حماية مصالحها فى منطقتنا، وأنها الدولة الوحيدة فى شرقنا البائس التى تبنت المنظومة الغربية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا بجدارة، وأنها الدولة الوحيدة التى تنتج علما ومعرفة وقدرة، لذلك من الطبيعى أن يتحالف الأشقاء، كما يتحالف الأشقاء العرب، أم أن هذا تحالف مشكور وذاك تحالف مذموم؟

وما يضخم شعورنا بالعداء هو أيضا مجرد شعور، شعورنا أننا أصحاب حق يجب أن يشعر به العالم.. وماذا بعد أن يشعر لو شعر؟ نحن أصحاب حق بلا جدال، لكن هل حدث فى تاريخ الإنسانية أن اهتم العالم يوما بالحق عبر تاريخه الطويل قدر ما اهتم بالاستحقاق والجدارة والقدرة؟ وهل حدث طوال تاريخ الانسانية على الأرض أن تبرعت دولة تطوعا للحق بحل مشكلة دولة أخرى؟ بينما نحن نطلب من أمريكا أن تتخلى عن إسرائيل لخاطر عيوننا وسوادها، من وهم سار مسرى الحقيقة منذ الزمن الناصرى المغفور له، إن أمريكا هى سر قوة إسرائيل؟ والغريب أن يلحق

بهذا وهم آخر نقيض هو أن إسرائيل قوة يهودية عالمية تسيطر على أمريكا من داخلها وتوجه سياساتها، ولا تعلم هنا أى الوهمين أكثر توهما من الآخر أو أيهما الأصدق، غير عابئين بفتح عيوننا فى دولة إسرائيل وهى تحقق قوتها بقدراتها وقدرتها على فهم الآخرين، وكيف تفض المصالح أو تعقدها، وكيف تخاطب العالم بسياسة هى الأكثر نجاحا وتفوقا، حتى أصبحت هى الحليف الاستراتيجى لأمريكا والعالم الحر كله. مع عدم ملاحظتنا أنه لو رفعت أمريكا يدها عن إسرائيل هى وبقية ذلك العالم الحر الذى نكرهه لعربدت إسرائيل وساحت فى المنطقة كيفما شاءت ودون رادع يردعها.. وهو أمر جدير بالنظر والاعتبار من جانبنا بشأن أمريكا وضمير العالم الحر.

أبدا لم تستغث روسيا بدولة أخرى تستنصرها ونابليون يغزو أرضها، وأبدا لم تطلب ألمانيا مساعدة من آخر لمساعدتها فى رفع الهزيمة عنها، بينما نحن مع العجز والشلل التام نطلب المساعدة ممن لا مصلحة له فيها، وإن لم يفعل صببنا عليه اللعنات صبا وملأنا القلوب كراهية له، فلم نحظ سوى بالكراهية، وفازت ألمانيا وروسيا واليابان وإسرائيل، وغيرها، وغيرها بالتفوق والكرامة.

وحتى فى حروبنا بينما كانت إسرائيل تصنع علمها وسلاحها، بل وتصدر هذا السلاح لدول العالم متفوقا على غيره، كنا نحن نستجير ونستغيث بالسوفييت، ليمدونا بالسلاح الذى لا نعرف كيف نصنعه ولا حتى كيف نصونه، ونشتمهم إذا تأخرت جسورهم الجوية فى الإمداد، ونكرههم فى الوقت نفسه لأنهم شيوعيون؟! وحتى زمن الانتصار الوحيد المعاصر الذى عرفناه فى ١٩٧٣ دخلنا المعركة بسلاح صنعه غيرنا، وهى معركة ونصر كان له ظروفه ولن يتكرر أبدا مع أحوالنا المرئية، ولا فى التوقعات المنظورة، فكان العالم زمنها أقطابا متوازنة، لها حساباتها ومصالحها للتدخل بقدر يسير أو كبير حسب هذه التوازنات، أما بعد السوفييت المكروهين قد أصبحنا يتامى، ولم يعد فى العالم سوى القطب الأوحد الأحد، الذى قررنا أن نكرهه ولا سند لنا.

ولا يبقى لنا من سند سوى أحد أمرين: الأول أن يكون سندنا ذاتنا بفهم جديد ورؤية حديثة وانغراس فورى فى الحداثة بكليتها دون انتقاء بعظها دون البعض، والثانى هو أن ننتظر العون كعادتنا المشلولة حتى تقوم الساعة حتى «ينطق الحجر والشجر يقول: ورائى يهودى يا مسلم تعال فاقتله، إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود» وهنا تؤكد كتب التعليم السعودية معرفتها بذكاء أريب ومهارة لا تخفى أن اليهود يكثرون هذه الأيام من

زراعة أشجار الفرقد فى بلادهم حتى لا يفتن عليهم للمسلمين يوم الملحمة الكبرى؟!

نحن مازلنا نعيش زمن السيف والرمح، مازلنا نعيش أياما كانت البشرية تعتمد القوة العسكرية المعتمدة على القدرة العددية والقوة العضلية. والمصيبة أنه رغم ما نراه أمامنا من متغيرات هائلة فى العالم، فإن شبابنا يعيشون هذا الوهم فيطلبون الحرب والشهادة وهم طلاب جامعات يفترض أنهم قد تعلموا وعلموا!! رغم أن عددنا والحمد لله كالعدد فى الليمون، وقدراتنا العضلية لا بأس بها، والسيوف والرماح يمكن لأى سمكرى على باب عمارة أن يصنعها لنا، أما عن الخيل والحمير والبغال فما أكثرها فى بلادنا.

كانت تلك هى القوة زمن «السيف والخيل والليل والرمح والبعير والبغال والبيداء تعرفنى» وكان ذلك منطق امبراطوريات ذلك الزمان البدائى، منطق القدرة العددية والعضلية، وكانت القوة تقاس بمدى القدرة على القتل والتدمير ومساحات الدم الممكن سفكه، لكن اليوم أصبحت القوة والقدرة هى بحجم إمكانات البناء لا الدمار، وإضافة الجديد لما أنجزته حضارة الانسان، وقدرة الانسان المنتج المبدع المكتشف المبتكر، ومدى مساحة الحرية المتاحة التى تسمح بالفعل المبدع دون تكفير وتحريم ليصبح المواطن هو مصدر الغنى والتفوق بإنجازه وإنتاجه.. وببساطة لأن أدوات التدمير نفسها قد أصبحت علما معقدا ودقيقا أشد الدقة، يحتاج إلى السعى والمشقة والجهد فى تحصيل المعرفة والعلم لا إلى العضلات، يحتاج إلى الدرس بجلد وصبر وراء العلم لا إلى المظاهرات الصاخبة البائسة، يحتاج إلى الإنسان المبتكر لا إلى ملايين أشباه المتعلمين من خريجى الجامعات فى دول الإسلام، ولا إلى الأميين.. لا فرق، بل ربما كان الأميون أرجح عقلا وأكثر حكمة من خريجى جامعاتنا وهو الثابت الواضح الظاهر فى ريف بلادنا حيث يتواجد الحكماء والعقلاء الباقون فى بلادنا، بعد أن سلبت آلة العلم التلقينى المحفوظاتى الموجه وآلة الإعلام الجهنمية، ما تبقى لشبابنا من قدرة على التمييز البسيط الذى لم يخسره الأميون.

نحن قوم عنصريون حتى النخاع، نرى عنصرنا هى الأنقى والأصفى والأرقى فى العالمين، والآخرون هم زبد البحر، أو هم بالقول الصريح الواضح فى مناهج التدريس بالعربية السعودية «مجتمعات حيوانية كتاب التوحيد/ أول ثانوى/ ص٩٩» و«مجتمعات بهيمية/ نفس المصدر ص١٣».

نحن قوم طائفيون حتى الثمالة، ننتمى فقط إلى طائفتنا الدينية،

نواليها ولا نوالى غيرها، ونتبرأ من كل من ليس مسلما ونتخذه عدوا، فيغيب عنا مفهوم الوطن وهو الأرض والعرض والبدء والمنتهى، ونشق صفنا شقا، حتى إننا نعلم أبناءنا وجوب «أن يكون المسلم مضمرا العدواة للكافرين مبغضا لهم حتى لو احتاج إليهم/ نفس المصدر ص٩٤».

أو كما قال الطبرى: «تظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداواة/ التفسير/ج٣/ص٢٢٧». أو كما قال ابن تيمية «لا يوجد مسلم مؤمن يواد كافرا فمن واد الكفار فليس بمؤمن.. فالمؤمن تجب موالاته وأن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك إقتضاء الصراط المستقيم جـ ١ ص٢٢١، ٢٢٢».

نحن قوم لا نحترم قيمة العمل ليصبح الإنسان فى بلادنا هو الثروة الانتاجية الحقيقية، ولا نحترم قيمة الوقت فننتظر مساعدة الحجر وشجر الفرقد فى خمول وتبلد لا يليق إلا بالحجر والشجر. نحن قوم لا نحترم العلم ولا العلماء (لأنه لا علم لنا إلا ما علمتنا) ولا نحترم قيمة علم لا يكيل إلا بالباذنجان، والعلماء عندنا فقط هم رجال الدين أو المتطفلون عليه أو كل من قال فيه قولا أو لبس زيا يضعه فى الزمرة المتحدثة باسم الدين، أو من اكتشف ذكاء الهدهد وحصافته علميا، ولباقة النملة الأريبة بالعلم أيضا أهرام ١٢/٤/ زغلول النجار.

نحن نعلم أولادنا فى المدارس احتقار العلم ورجاله واحترام كل من احترف الاشتغال علينا بالدين، انظر النص القائل: «إن علماء الحضارة المعاصرة وهم وإن كانوا أهل خبرة فى المخترعات والصناعات، فهم جهال لا يستحقون أن يوصفوا بالعلم، لأن علمهم لم يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا إنما يطلق لفظ العالم على أهل معرفة الله وخشيته/ التوحيد/ ٣ ثانوى/ ٧٧/ السعودية».

نحن قوم مازلنا نعيش زمن الأساطير بل وندرسها لأولادنا باعتبارها حقائق، انظر معى كتاب الروض المربع بشرح زاد المستنقع المقرر على ثانوى أزهرى فى مصر المحروسة، ينادى بضرورة «تكفير الساحر الذى يركب المنكسة فتسير به فى الهواء، أو نحوه/ ص٤٣٦، ٤٣٧». وهو ما يعنى أننا سنحارب صاروخ كروز وأخواته والقنبلة الذكية وربما الذرية إذا احتاجوا إليها بعقلية شجر الفرقد الذى لا يفتن على أصحابه والهدد اللبق والنملة الذكية والمكنسة الطائرة، نريد أن نواجه الحداثة بثقافة ألف ليلة وليلة.

نحن قوم- كما قال بن لادن لبوش «أحرص على الموت حرصكم على الحياة» لأن حياتنا بلا قيمة ولا هدف ولا أمل، لذلك تصبح الجنة بحورها

وولدانها وأنهارها وعسلها وخمرها هى الأمل الوحيد الباقى. أما هم فحياة كل مواطن لها القيمة العليا على كل القيم، وكرامة المواطن الواحد تعدل كرامة الدولة كلها، ولكل مواطن هدفه فى التحقق بالعلم أو النجاح العملى أو الانتاج أو الكشف والابتكار والأمل الدائم فى مزيد من تحقيق السعادة لمجتمعه، فحققوا جنتهم على أرضهم.

ومع كل هذه السمات والخصائص نحزن على الشيخ ياسين ونبكى على الرنتييسى ونهدد ونتوعد لأن الله ناصرنا؟!

بينما لم يبق لدينا سوى الإرهاب وهو سلاح الضعيف، والذى لن تملك معه بلاد الحريات والعلم سوى طرد كل مسلم فى بلادها، ووضع بلادنا فى معازل أسوة بما فعل شارون بجداره العازل الذى أعطاه أمنا وقدرة على الضرب الموجع دون انتظار رد مثيل، معازل تعزلهم ببلادهم عن بلادنا لنأكل بعضنا ونحارب بعضنا بعضا على تفسير آية أو إثبات حديث أو إنكاره أو على صحة مذهب دون مذهب أو دين دون دين، حتى نفنى أو يبقى منا بعضنا سيحافظون عليه من باب بقاء النوع للفرجة عليه والتسلى بمشاهدته، هذا طريق مازلنا نسلكه، وهناك طريق آخر واضح لكل ذى عينين إن أردنا مصيرا آخر.

عار علينا أن نكون همج القرن الحادى والعشرين

من الحق أن نقف مع المصطلحات المراوغة الملتبسة بمفاهيم تعطى تلك المصطلحات مشروعية زائفة، ويترتب على إعطاء الشرعية لتلك المصطلحات كوارث حقيقية، لأننا نهوى ضياع الحق بيننا رغم نص الحديث «لعن الله قوما ضيعوا الحق بينهم».

انظر معى إلى القنوات العربية الفضائية وقد ارتدت ملابس المارشاليه وتحولت إلى وزارات حرب، توالى إذاعة البيانات العسكرية، وإعلانات الحرب الواردة إليها، من مختلف جيوش المسلمين الملثمين، وهم يجزون الأعناق، ويرفعون الرؤوس المقطوعة أمام العالم بحسبانه شرعا إسلاميا وتنفيذا على الطريقة الإسلامية. ألا تشير الظاهرة إلى حالة خلل فاضح فى العقل العربى وفى سياسة الحكومات العربية؟

انظر إلى ما تقدمه هذه القنوات الفضائية عن العراق من العراق، فهى لا ترى إلا بعين واحدة لأن الأخرى عميت بصيرتها، وإلى مدى الانحياز السافر

إلى ارهاب القاعدة فرع العراق الفصيح ضد شعب العراق، وهو الارهاب نفسه الذى يمارس عمله فى أراضى المسلمين شرقا وغربا، وبخاصة فى أرض أصحاب تلك القنوات الفضائية. وتعجب هنا لما يمكن أن يجمع اللدودين، فلا تجد سوى الخطأ الأمريكى المبكر بإعلان الرغبة الأمريكية.. فى التدخل السافر عندما يتطلب الأمر وفى حينه فى أى دولة فى الشرق الأوسط، مما أثار توجسا لدى حكومات بعض هذه الدول كان أبرز تجلياته هو تأييد القاعدة فى العراق لإرباك الخطط الأمريكية أطول فترة ممكنة دون النظر إلى العواقب المترتبة على هذه المواقف وما تفعله من خسائر بشرية فى الجانب الأمريكى لن تنساه أمريكا أبدا ولا لحظة واحدة، وهو ما يقوله تاريخ أمريكا فى قدسية مواطنيها، وبسبيل تحقيق المطلوب جماهيريا لتصعيب الموقف على الأمريكان يتم تزييف الحق على المسلمين والخلط بين معنى الكفاح الوطنى من أجل تحرير الإرادة أو الأرض، وبين مفهوم الجهاد فى الإسلام، وهو الخلط الذى ننعيه على العالم الذى لا يريد التمييز بين الكفاح الوطنى ضد الاحتلال كما فى فلسطين المحتلة، وبين مفهوم الإرهاب.

والمصيبة أننا من يمارس هذا الخلط فى المفاهيم والاصطلاحات بامتياز لا يبارى. فنحن نؤكد للعالم أن حربنا فى فلسطين هى حرب لتحرير الأرض، بينما نمارس فعل الجهاد لا فعل التحرير وما أبعدهما عن بعضهما معنى ومبنى، فالجهاد لا ينشغل بتحرير الأرض بل ينشغل بحقه فى السماء بعد الشهادة حيث الحور العين وأنهار الخمر والنعيم الخالد، أما فعل تحرير الأرض فهدفه التحرير بغض النظر عن الذهاب إلى الجنة أم إلى الجحيم.

والجهاد لابد أن يزيح بالضرورة مفهوم المواطنة لأنه لا يحارب من أجل وطنه وناسه، إنما من أجل الله وطاعة لأمره، ومفهوم الكفاح الوطنى لا يشغله سوى إرادته ووطنه وينفتح لكل المواطنين ليشاركوا فيه من أى عنصر أو ملة كانوا، بينما يغلق الجهاد الأبواب على ذاته فى موقف طائفى عنصرى يقصى من العمل الوطنى كل أبناء الوطن من غير المسلمين، ويدافع عن الله ومقدساته قبل وطنه- ويؤدى إلى نفور الضمير الدولى الذى تجاوز الطائفية والعنصرية.. ويشق الصف الوطنى شقا ويمزق وحدته.

وعندما نعلن أن ما يحدث فى فلسطين هو جهاد فلابد أن يفهم الغرب أن ذلك هو الإرهاب عينه ولا نلومن إلا أنفسنا، لأن مفهوم الجهاد الإسلامى يقع اليوم موقع الهمجية المجرمة قانونا بفعل اختلاف الزمان عن الزمان.. فقد وضع مفهوم الجهاد فى زمن وظرف عالمى مختلف، زمن قوة عربية طالعة، وفراغ قوى ناشىء عن انهيار وسقوط دول كبرى. وضع على عاتق المسلمين فتح بلاد الدنيا وإخضاعها لعرب الإسلام، لذلك يحمل المفهوم

ضمنا العداء المسبق لشعوب العالم غير المسلم بسبب العقيدة وحدها، وهو ما لا يكفى اليوم مبررا، ويحتاج تفعيله إلى قوة عظمى لا نملك قدرة لمجرد تخيلها، خاصة أن مفهوم الجهاد على المستوى الأخلاقى يفترض ملاحق منها الإغارة والسلب والنهب والسبى وركوب نساء العدو وهو ما تجاوزته الدنيا، وأصبح للحروب قواعد أخلاقية مرعية. والجهاد عندما يقف أمام المستحيل يتحول إلى قوة تدمير منفلتة أينما كان ضرب بغض النظر عن النتائج وعن الأهداف، ولا يصبح له من هدف سوى التدمير لذاته ثأرا للهوان والمذلة، فيتحول إلى قدرة عاجزة هى إرهاب فصيح صريح. بعد إدراكه أنه مع ما يحمل من قوة دفع استعمارية لاحتلال العالم ونهب ثرواته وتغيير ثقافاته، لا يحمل ما يمكن أن يحققها فى واقعه، والسماء ترفض الالتفات إليه لتمده بمعجزات لا تحدث طوال الوقت.

وأيا كان تصنيف الجهاد فإنه فعل حرب، هو إعلان حرب، وإعلان الحرب مخول فقط لسلطة الدولة ورئيسها ، قياسا على كونه كان شأنا خاصا بالزعيم المؤسس للدولة الإسلامية النبى محمد صلى الله عليه وسلم، ومن بعده كان للخليفة وحده وهو ما يوضحه النموذج البكرى فى حرب الردة التى رفض فيها مشورة الصحابة، وكان كلهم صحابة، وكان كبارهم على ذات الدرجة من السابقة فى الإسلام والجهاد، ولم يكن لأحد هؤلاء الكبار أن يتخذ هذا القرار أو يأمر به، بل كان القرار قرار أبى بكر وعندما بدأ ذلك فى شكل فرق لكل منها قائد يعلن الحرب كانت الفتنة الكبرى و ما تلاها من كوارث، لكنا اليوم نجد إعلان الحرب (الجهاد) أصبح مساحة مستباحة لأى أفاق يعتلى منبرا سواء ضد حكومته وبلاده أو ضد الغير، أو إعلان التحالف العسكرى من المسجد مع المجاهدين فى بلاد أخرى وأحيانا من التليفزيون، كما يحدث فى تأييد مشايخنا للقاعدة فرع العراق، وهو بحد ذاته إعلان حرب على العراق وشعبه وهم أهلنا وناسنا، وإعلان حرب على أمريكا، وأمريكا يا إخواننا لا تنسى أبدا، بل إنها فى مسألة الثأر أكثر صعيدية من أى هريدى فى العالم.

ومعنى ما يحدث من الحضرات أن كلا منهم قد نصب من نفسه خليفة يعلن الجهاد من موقعه، رغم أن تكرار إعلان هذا الاصطلاح اعتمادا على الخلط بينه وبين مفهوم التحرير هو اعتداء صارخ على القانون ويجب إدانته قانونيا إذا أردنا للدولة هيبة يجب أن تكرسها فورا إزاء الخلفاء الموتورين، لأنه اعتداء على نظام الدولة واختصاصاتها العظمى التى لا يجوز للأفراد الاعتداء عليها بهذه الفجاجة والعلنية التى تمر دون عقاب، مما يؤدى إلى المزيد من الطمع فى سحب مساحات من هيبة الدولة وسيادة القانون.

وكان خلط مفهوم التحرير بمفهوم الجهاد سبيلا إلى التباسات ذات نتائج شديدة الخطورة، أولا لأن الكفاح المسلح (التحرير) هو قرار أهل البلد المعتدى عليه وحدهم لأنهم الأدرى بمصالحهم، هم ينظمونه ويعلنونه ويحددون كيفيته ويضعون له خططه وأهدافه، وقد لا يعلنون هذا الكفاح أصلا كم حدث فى العراق عندما وقف العراقيون ينتظرون النتائج فى حرب يصعب فيها تحديد المواقف الواضحة حسب ما لدينا من مفاهيم.

لكن الالتباس بين مفهوم الجهاد وبين مفهوم التحرير دفع كثيرا من العرب إلى تأييد فعل القاعدة فرع العراق بحسبانه جهادا، خاصة مع الرأى الفقهى المتفق عليه أن الجهاد فرض كفاية يقوم به بعض المسلمين حتى يسقط الإثم عن كل المسلمين فى عدم المشاركة، فالجهاد مسئولية عامة ويتحول إلى فرض عين فى حال الاحتلال. ولأن أهل العراق وشعبه دفعتهم حكمة الحصار وسنين الطغيان إلى التريث والتمهل وهو الموقف المتمثل فى آية الله السيستانى الذى يرفض العنف سبيلا حتى اليوم، فإن مفهوم الجهاد قد أتاح للمسلمين من القاعدة أن يعلنوا هذه الحرب وهم غير عراقيين ليجعلوا من العراق ساحة تصفية حسابات ثأرية، يقتلون فيها العراقى وضيوفه من مختلف البشر أكثر مما يقتلون من الأمريكان.

وتلحق بمصيبة إعلان الجهاد خارج زمنه وظرفه التاريخى مصيبة ملازمة له تبرر له وتمهد له بالفتوى، رغم أن للفتوى سلطة مختصة بها تقوم بإصدارها وفق محددات صارمة، ورغم أن الفتوى جزء من سلطة الدولة، وكانت جزءا من سلطان الدولة الإسلامية طوال تاريخها منذ أقامها النبى صلى الله عليه وسلم. ولا تصدر الفتوى إلا بعد موافقة الخليفة أو الحاكم، وهى بهذا المعنى حكم قضائى يتأسس أولا وأخيرا على العدالة. لكنك تجد اليوم من يقوم بتكفير الناس والشعوب والأمم تبريرا لفعل الجهاد دون محاكمة عادلة للآخر وللذات، ولو أجرينا محكمة للذات بضمير شفاف، لوقعنا على أنفسنا أسوأ الجزاء لما قدمته أيدينا فى حق أنفسنا أولا.

لقد قدس المصرى القديم العدالة (ماعة) وجعلها ربة منزهة وهى قانون ربانى (مع) الإنسان أينما كان، وتقديسا لها كان عليه أن يعمل بفعل (ماعت)، لكننا اليوم وبعد ثلاثة أديان سماوية كبرى نترك للإرهاب يحكم فينا وفى الدنيا بالظلم من داخل كهوف الجبال، وينفذ أحكامه علنا بحسبان ذلك صحيح الإسلام. لقد كان الحكم والقضاء والإفتاء للنبى ثم لخليفته ثم لنائب الخليفة، والآن للمحكمة والقضاء، فهل آن للدولة والعدالة أن تسترد هيبتها بإيقاف هذه المهازل؟ إن هذه الفوضى الكارثية باسم الإسلام تجعلنا نحمل عارا لا يمحى، عار أن نكون همج القرن الحادى والعشرين.

هيئة علماء الإرهاب !!

كما فى كثير من دول المسلمين، تشكلت جماعات مشيخية من علماء السنة،بعيدا عن التبعية الرسمية لنظام الدولة ، وإن كانت تضم فى عضويتها الكثير من العاملين فى المؤسسات الدينية الرسمية، الذين هم أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين أو أى تنظيم إرهابى آخر وحلقة وسيطة تقوم بدور المرجعية الدينية لتبرير أى مواقف أو أفعال قد تتم إدانتها بإدانة الدولة جميعا فى حال الإفتاء بما يخالف القانون المدنى للدولة .وضمن هذه الجماعات المشيخية جبهة علماء الأزهر التى تحول اسمها إلى هيئة علماء الأزهر، والتى تحمل فى طيات اسمها أن كل الأزاهرة أعضاء فى الهيئة وهو الأمر غير الصحيح والذى يصيب الدولة فى أحيان كثيرة بالحرج وأحيانا أخرى بالإدانة نتيجة لمواقف هذه التجمعات التى ترعى أهداف جماعات غير شرعية كالإخوان أو أى جماعات تشتغل باسم الإسلام السياسى ،وتنتمى فى الوقت ذاته لجهة رسمية تسند ظهرها . ومثل تلك الهيئة المصرية ذات الملف الاسود تشكلت فى العراق «هيئة علماء المسلمين » وهو اسم يأخذ مساحة أوسع تشمل جميع المسلمين رغم عدم وجودهم فيها فى الحقيقة وقد تمكنت الهيئة فى شهور قليلة من تكوين أشد الملفات سوادا حتى تأكد لدى العراقيين أن هذه الهيئة تحرك خيوط الجريمة المنظمة فى العراق وأن أعضاء تلك الهيئة هم المجرمون الحقيقيون وراء ما يحدث فى العراق وأن محاكمة هؤلاء هى البداية الصحيحة لوقف العنف فى العراق «انظر وداد فاخر /ايلاف»/ ٢٠٠٤/٩/٢٣ وترى الكاتبة أن القومجية والإسلامجية من ذيول النظام البائد والعصابات الدينية المسلحة قد أصابهم اليأس والخيبة عندما لم تسقط الثمرة العراقية سهلة فى أيديهم ولأن معظم العراقين اتخذوا طريق المقاومة السلمية حتى الجلاء فقاموا ينتقمون من جميع العراقيين بلا استثناء وخصوا غير المسلمين بنقمتهم باغتيال المسيحين العراقيين دون ذنب واضح كما قاموا باغتيالات معلومة بين رموز العراقيين الشيعة .

وهكذا يبدو أن بقاء أمريكا فى العراق قد أصبح هدفا مطلوبا للقومجية والاسلامجية فى حد ذاته لإثبات وجهة نظرهم أنه بالامكان إيذاء أمريكا وأن أحد أفضل السبل هو إغراقها فى المستنقع العراقى لتحقيق هذا الهدف وإطالة أمد وجودها هناك لانها لن تغادر طالما الامن غير مستقر حتى إذا خرجت خرجت، مهزومة لتترك العراق لمن يمكنه الاستيلاء عليه من الداخل بعد اسقاط حكومته بحجة أنها صنيعة للاحتلال ليغرق العراق فى دماء أبنائه من بين سنة وشيعة وكرد

ومسيحين ناهيك عن بقية الأقليات التى ستقدم قرابين على مذبح الإرهاب، خاصة مع الوجود الفعلى الآن لمقاتلين عرب من منظمة القاعدة يتراوح عددهم التقريبى ما بين خمسةآلاف وعشرة آلاف مقاتل يتبعون رجل القاعدة فرع العراق أبو مصعب الزرقاوى الذى لم يترك فرصة ليعلن فيها العداء لأهل العراق وبخاصة شيعته واعتبارهم نهبا حلالا وسبيا شرعيا وذبيحة مطلوبة لإله الإسلام السنى إلا وقال فيها بوضوح ودون مواربة.

وخارج العراق كان رجع الصدى للقاعدة بين كثير من علماء الدين وبين أعضاء جماعة الاخوان المسلمين الذين عبروا عن تعضيدهم التام لما اسموه « المقاومة العراقية» من خلال الفضائيات الخليجية العديدة والصحف المتأسلمة الواسعة الانتشار وكتبوا وأعلنوا وقالو موقفهم الموافق تماما لفكر بن لادن والظواهرى والزرقاوى تأسيسا على المذهب الوهابى وبكامل الحرية اعربوا عن وقوفهم فى خندق الارهاب فى صحفنا وإعلامنا بما اسموه تأييدالفكر الجهادى لحشد التعاطف الجماهيرى وباصدار فتاوى تأييد ونشر ما يصدر عن رجال القاعدة من بيانات وتهديدات أما الاخوان المسلمون فقد مارسوا بين الناس دور وزارة أعلام للقاعدة واستثمر بعضهم وجوده فى مؤسسات الدولة الاعلامية للترويج لفكر القاعدة الجهادى وتأييده بالآيات والاحاديث من على منابر وزارة الاوقاف وقاعات محاضرات الأزهر الشريف وكافة وسائل الاعلام والدعاية والاعلان بدعوى مواجهة العدو المشترك وهو الصليبيين والصهاينة.

وللأسف الشديد فإن هذا الصوت يكاد يكو ن الصوت الوحيد فى وسائل الاعلام العربية والاسلامية حتى غاب العقل المسلم عن أى رؤية آخرى للموقف السياسى والشرعى وحتى تحول المسلمون إلى طاقة متفجرة تبحث عن منفذ للانطلاق والتدمير إخلاصا لهذا الإسلام الذى يعرفون، الذى أصبح بديلا للاسلام البكر الذى لا يعرفون .

ورغم سيل البيانات العسكرية لمنظمة القاعدة فرع العراق ورغم سيل القتلى من أبناء العراق ويالوعة الكبد لما يحدث لأبناء العراق من الاجنبى ومن الشقيق. ورغم الاعلانات بالصوت والصورة للذبائح على الطريقة الارهابية ورغم حرق أجساد الموتى وضربهم بعد موتهم وتعليقهم متفحمين على كبارى بغداد ، ولا ذنب لهم إلا أنهم غير مسلمين ، فأن قرضاوى يعقب من جانبه «الجزيرة ٢٠٠٤/٩/٢٦»على ما حدث من تمثيل بالقتلى المحروقين بقوله :«هذه الاشياء لا يقرها الشرع » ، لاحظوا الصياغة «هذه الأشياء» وليست هذه الجرائم البشعة أو ليست هذه الأفعال الهمجية

البربرية. أما عن ذبح الرهائن فإن النبى -كما يقول قرضاوى - قد قتل بعض الاسرى فى غزوة بدر وكانوا ثلاثة«ونصحح هنا لمولانا أنهم كانوا اثنين فقط هما عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث» لكنه يبرر هذا القتل للأسرى بأنهما كانا مجرمى حرب ولم يشرح لنا كيف كانا مجرمى حرب لأن هذا الوصف لا ينطبق عليهما بالمرة حتى ولوكان القائل قرضاوى ، ثم يقول «إن الرسول قال : إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا **ذبحتم فأحسنوا الذبح »**

ومع هذا الرجوع للأسانيد الدينية المبررة ، فإن قرضاوى - كعادة الخطاب المخاتل المخادع عند مشايخنا - يتهم الموساد والمخابرات الأمريكية بالقيام بهذه الأعمال القذرة فى العراق ، لتعمل فى الخفاء ليتسبب فعلها فى رد فعل نفسى عند المجتمع الدولى ، ثم ينسب ذلك إلى الإسلام والمسلمين وهم منه براء ولا تفهم هنا هل كانت تبريراته السابقة للأفعال الإجرامية تبريرا لفاعليها المسلمين ، أم تبريرا لفاعليها من الموساد والمخابرات الأمريكية؟!

ومع قرضاوى وقف ممثل هيئة علماء المسلمين العراقية فى قناة الحرة «٢٠٠٤/٩/١٣» الشيخ على خضر الزند ، ليؤكد أن ما تفعله القاعدة فى العراق هو اتباع للسياسة الشرعية التى هى جزء من الاسلام وإن خالفهم سماحة الشيخ محمد حسن الأمين وكان جل اهتمامه ليس بالقصاب ولا بالذبيحة بقدر ما كان صورة الاسلام التى أكد أنها أهم بكثير من أى اعتبار آخر ، مع التأكيد على أن الإرهاب وافد علينا وليس له أصل فى دين المسلمين.

ومثل الشيخ الزند كان قرضاوى ،وكان اهتمامه منصبا على تدخل المشايخ فى السياسة والحروب ، مع رفضه البات لمن لا يرون للمشايخ حق التدخل، وهم يرون ذلك منعا لفتن أعظم لأن مشايخنا لا هم بأهل سياسة ولا هم بأهل حرب، وأنما هم أهل تحريض تستجيب له مشاعر المؤمنين ليسوقوهم إلى حتفهم بظلفهم، ومن هنا يحتج قرضاوى أشد الاحتجاج على من يناديهم بالتزام العمل الدينى دون التدخل فى السياسة والحرب بسوء فهم أو سوء نية لا فرق فيقول «هذا لن يمنع علماء المسلمين من أن يقولوا الحق وأن يبطلوا الباطل ولو كره المجرمون» رغم أنهم بشأن قاعدة العراق لم يقولوا إلا باطلا ، ولم يبطلوا إلا الحق وكانوا هم المجرمين.

تعالوا نتأكد معا من حقنا فى هذه الصراحة بالرد على مولانا الذى أكد من هنيهة أن خطف الناس فى العراق من مختلف الملل والنحل والبلاد، بغض النظر عمن يتعاطف أو يقف مع قضايانا أو عمن يعاديها تقوم به المخابرات

الأمريكية والإسرائلية. فيتصل بالبرنامج أحد الإرهابيين ليقول: «أن المقاومة الاسلامية الشرعية هناك قد تقوم بحجز بعض الاشخاص لكن ليس بغرض قتلهم وإنما بغرض التحقيق معهم» ومن ثبتت إدانته قطعوا رأسه عبرة ودرسا وتخويفا وإرهابا للكفار والمتعاونين معهم، وأن ثبتت براءته أفرجوا عنه.

قرضاوى يعيد القفز من مربع إلى آخر فيقدم فتواه بأن «من ثبت أنه جاسوس فقتله مشروع بالإجماع مادام الاخوة (لاحظ الأخوة) يحققون ويثبتون أن الشخص يعمل لمصلحة المحتل .. وإذا ثبتت عليه جريمة توجب قتله .. ويمكن أن يمن عليهم أو يفادون بمبلغ من المال **وهكذا نحن أصحاب مبادئ»**.

هكذا أقنع الاخوة قرضاوى بأنهم حققوا مع المخطوف ومن ثم سلم قرضاوى للإخوة بالنزاهة التامة دون نقاش، بل ورد على المنتقدين لطالبى المال مقابل الافراج عن الرهائن بأنه أمرشرعى يؤكد أن المسلمين أصحاب مبادئ ؟! لكنه أعترض فقط على نشر الصور البشعة لجز الرقاب «لأنها تؤذى مشاعر الخلق والذوق العام » وهو ما يعنى أن يتم الذبح فى الستر حتى لا يضطر قرضاوى لنسبته (لبشاعته) إلى مخابرات أمريكا وإسرائيل.

ورغم تدخل بعض المشاهدين لتذكير الشيخ أن هؤلاء المذبوحين مدنيون ولأن الفتوى خطيرة فهى تحتاج إلى اجتماع علماء المسلمين من كل المذاهب لمناقشتها فإن قرضاوى لم يرعوى وأجاب قائلا :« أخونا (لاحظ: أخونا مرة أخرى) بيقولك أنهم يحققون معهم ويجدون أن هؤلاء أعوان مهمون جدا للمحتل ويتجسسون لحسابه فهذا الأمر واضح لا يحتاج أننا نجمع علماء.المسلمين .. هناك علماء مسلمين فى العراق آجتمعوا وأصدروا وقرروا وهم فى هذا كفاة» لقد صدق قرضاوى «أخونا »واخواننا الذين لم يتصلوا» تصديقافوريا أكيدا ، رغم أنه أخ واحد لا يصلح شاهدا وكان يلزمه بعض الاخوة لمزيد من التأكيد فهل كان هذا التصديق الفورى مجرد صدفة باتصال هاتفى من مجرم عتيد أم أن الاتفاق قائم قبل الاتصال ، والموافقة جاهزة ومسبقة؟

«أخونا قال لنا» فماذا نريد وضوحا بعد ذلك؟ والأمر واضح لدرجة أننا لا نحتاج لحشد العلماء ويكفينا فقط اجتماع علماء العراق على ذبح الأبرياء أنهم «هيئة علماء المسلمين » أنهم «جبهة علماء الأزهر»، انهم «جماعة أنصار السنة» أنهم جماعة «التكفير والهجرة» أنهم باختصار على مختلف المسميات: هيئة علماء الأرهاب.

من المارد العربى إلى المارد الإسلامى
يا كوارث أمطرى
قراءة فى خطاب أبى مصعب الزرقاوى

رحم الله الحاجة أم سيد (والدتى) التى عبرت عن بهرتها بعالم الغرب المتقدم ومستوى الرقى والنظافة والجمال، مقارنة بأحوالنا بعبارة قصيرة معبرة تقول: «ربنا أعطاهم العلم والمال والجمال وأعطانا حسن المآل» وهو تعبير أبسط وأكثر تفصيلا للتعبير الدعوى «أن الله اعطاهم الدنيا وأعطانا الآخرة» وهى التعابير التى تحمل وجعا مكلوما ووجيعة شديدة المرارة، وحسداً غير خاف، لما يتمتعون به من معارف وبلاد نظيفة تذخر بالثراء والجمال، وهى زينة الحياة وسعادتها بعد أن قرر هؤلاء الأجانب أن يقيموا الجنة على أرضهم فى بلادهم بدلا من انتظارها فى خمول بليد، كما تحمل تلك التعابير كما هائلا من اليأس والقنوط من إصلاح يبدو بعيد المنال مع تسارع تقدم المتقدم وتخلف المتخلف لذلك لا حل لنا سوى فلسفة الموت نقنع فيها بجنة مؤجلة آتية فيما بعد ممنوحة لنا منحاً لأننا المسلمون، نأيا بأنفسنا عن المشقة والتعب والجهد والإنتاج والإبداع والاختراع والاكتشاف لإصلاح حياتنا حتى نعيش فيها بفرح وسعادة يحرمنا منها كل ما حولنا من أصوات سدنة الدين. فالدنيا فانية مهما كانت زينتها، أما الخلد الكسول اللذيذ الذى لا يحتاج لأى جهد عقلى أو بدنى فهو نصيب أمة الإسلام الكسولة وحدها. ومنذ سمعت كلام السيدة والدتى وأنا صبى صغير، مرت سنوات تغيرت فيها الدنيا تغيراً هائلاً، وهزم العرب والمسلمون هزائم متتالية وتدنت درجتهم فى التصنيف على سلم الحضارة بسرعة قياسية، بعد أن مر العرب بكوارث المارد العربى وانتهى زمنه ليترك فراغا واسعا كناتج طبيعى لزمن القمع والدكتاتورية. ولم يبق فى الساحة قويا ليملأ الفراغ سوى حلفاء السلطان أنفسهم المشتغلين بشئون الدين الذين كانوا يعطون حكم العسكر مشروعيتهم، فآن الأوان ما داموا هم سر المشروعية أن يكونوا هم الحاكمين؟ وبدأت البوادر بسرعة ما بين ظهور جماعات إرهابيةصغيرة تضخم شأنها بعد ذلك، إلى عصيان أزهرى واضح للدولة بفتاوى ضد ما تراه مصالح الدولة ومطالبها كالموقف من المعاملات البنكية مثلا وكالموقف من تحديد النسل، وبدأ تأسيس اتحاد الإخوان المسلمين العالمى مع تضخم شأن الإرهاب كليا ثم دوليا. ومع الإرهاب الدولى دخل تاريخ الإنسانية منعطفا جديداً، تخوض فيه الإنسانية معركة الحفاظ على مكتسباتها عبر القرون من قيم ومبادىء ومثل انجزت حضارة أو انجزتها الحضارة، بينما

يخوض فيه الطرف الإرهابى معركته دون أهداف واضحة محددة، وغالبا ما يتسم القتل فيه بالقسوة المفرطة وبالقلب البارد المرهب عن قصد يتم تصويره وتوزيعه على الإعلام لإعلان العالم بالقادم الآتى من بلاد الإسلام. ولا يبدو واضحا من غرض أمام خسائر المسلمين الفادحة من تلك الغزوات الإسلامية سوى القتل والتدمير وحده، فإذا لم نستطع أن نكون مثلهم، فلنجعلهم مثلنا بغض النظر عن الأبرياء المسلمين الذين يسقطون فى هذه الغزوات أو الأبرياء من أى ملة أخرى وعادة ما يكونون أغلب القتلى كما نشاهد كل يوم فى العراق. وإلا ما معنى تلك الهجمات المسلحة فى كل أرجاء العالم على الآمنين المدنيين وضد المنشآت دون هدف سوى القتل والتدمير. لكن أخيراً عرفنا الهدف من كل هذا الخراب فيما أفصح عنه أبو مصعب الزرقاوى فى خطابه المصور، وهو الخطاب الذى يستحق أن يستعرض لنرى كيف يفكر أهل القاعدة والأهم: ما هى أهدافهم؟

يعلن أبو مصعب وكله فخر أن جماعته (القاعدة فرع بغداد) كانت وراء ما يحدث فى العراق ضاربا مثلا من العمليات الكبيرة، جريمة ضرب مركز الأمم المتحدة فى بغداد. وعمليات الهجوم على فندق الشاهين وفندق الرشيد وفندق جبل لبنان. والضربات ضد القوات البولندية فى الحلة وقوات التحالف فى كربلاء والطليان فى الناصرية، كذلك جريمة جسر الخالدية.. الخ.. وأن زعم أمريكا أن المقاومة من العراق يقوم بها فلول النظام البائد مزاعم كاذبة، لأن القاعدة هى المقاتل الحقيقى ولها قصب السبق فيما يتم من قتل لأبناء العراق بما لا يقاس بقتلى أمريكا.

ويوضح الزرقاوى أن من قام بهذه المهام القتالية «فرسان الأمة من مهاجرين وانصار» وهو ما يعنى أن العرب القاعدة المتسللين للعراق هم المهاجرون، وأن لهم حلفاء فى الداخل هم الانصار، قياسا على الهجرة من مكة إلى المدينة فى الزمن النبوى

ويبدأ الزرقاوى رسالته هكذا: «إلى أمتى الغالية خير أمة أخرجت للناس.. فإنى أحمد إليك الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأصلى وأسلم على الضحوك القتال الذى بعث بالسيف بين يدى الساعة».

وهكذا يعلن أبو مصعب الإسلام إرهابا واضحا جهيراً، منصبا نفسه جنرالا لجيش المسلمين فى العراق، يبشرها بإنجازته ويطمئنها على أن الإسلام سيظهر على كل الأديان، شارحا أنه بنفسه خيرخلف لخير سلف

«الضحوك القتال الذى بعث بالسيف» صلى الله عليه وسلم «!؟» ولإثبات أنه يسير على خطى خير سلف فإنه لايغفل شيئا، لذلك يؤكد أنهم قد «قطفوا رؤوس» الأسرى المدنيين كناية عن الذبح على الطريقة الإسلامية!!

ربما لن يفهمنا العالم كله الذى استمع لهذه الرسالة المتلفزة، وقائدنا العسكرى الذى لانعرفه ولم نختره ولا نعرف مهماته بالتحديد يعلن أننا خيرأمة أخرجت للناس، وحالنا لا يسر عدوا ولا حبيبا ومكاننا فى قاع تراتب الأمم، بل إن هذه الأمة اليتيمة بنت السبيل تحمل رسالة الهدى ودين الحق للعالم، وبين ضرورة سيادة الإسلام على كل الأديان رغم أنف هذه الأديان وما يردده أصحابها، وإدخالهم فى دين الهدى بالقوة المسلحة، وبين معانى الهدى والحق، وبين وصفه لصاحب الرسالة بأنه ضحوك قتال (ليس قاتلا فقط بل هو فى أقصى التفعيلة.. فهو قتال . من فعال) وأن نبى الهدى بعث بالسيف حتى قيام الساعة، ألا يحق للمسلم نفسه هنا الحيرة بشأن دينه هل هو هدى أم قتل؟ هل هودين حق يفرض نفسه بإمكاناته الذاتية للإقناع العقلى والروحى، أم أنه بحاجة لنا ضحاكين قتالين بالسيف لنثبت للدنيا أنه دين الحق والهدى «!؟».

يبدو أن أبا مصعب يأخذ بالمبدأين معا دون أن يرى أى تناقض ، ثم ينطلق إلى الهدف الاستراتيجى قائلا: «إن المارد الإسلامى إذا استيقظ فلن يقف دون أبواب روما وواشنطن وباريس ولندن»، أبو مصعب ورجالته يريدون احتلال الكوكب الأرضى بإقامة المارد الإسلامى، بعد أن سبق وسلمنا للمارد العربى كل شىء: حريتنا، كرامتنا، قوت يومنا، واطعنا الله والرسول وأولى الأمر منا، وقبلنا بالفقر وإخراس الصوت حتى لا يعلو على صوت المعركة، فكان ما كان من خسارة لدماء أبناء الوطن مجانا وانهيار الوطن بكامله.. هذا الانهيار الذى مازلنا ندفع ثمنه حتى اليوم.

وإذا كان الزرقاوى وجماعته هم المهاجرون، ترى من هم الأنصار؟ هنا لن نجد فى خطاب الزرقاوى إجابة مباشرة واضحة، لكننا سنجد إشارات نفهم منها من هم الأنصار فى الداخل، فهو يقول: لقد أدركت أمريكا أن **الإسلام السنى** هو العدو الحقيقى، وأن الفرق الباطنية هى نقاط الضعف وعلى رأسها هؤلاء الرافضة».

والفرق الباطنية أو الرافضة اصطلاح اعتاد أهل السنة إطلاقه على كل من ليس سنة، ولأن الفرق المخالفة للسنة تمت إبادتها عبر التاريخ، لم يبق منها غير فريق كبير منافس للسنة هو مذهب الشيعة الإثنى عشرية.

لهذا يحدد أبو مصعب الرافضة المقصودين بقوله: «إن التشيع دين لايلتقى مع الإسلام إلا كما يلتقى اليهودى مع النصرانى تحت اسم أهل الكتاب.. لقد كانوا عبر التاريخ شجا فى حلوق أهل الإسلام وخنجراً يطعنهم فى الظهر.. وهؤلاء القوم قد كفرهم أئمة السلف».

ثم يحمل على عقلاء السنة والشيعة فى العراق الذين يحاولون جهد الطاقة إصلاح ذات البين كلما حدث معكر لمنع حرب أهلية ستحرق فى العراق اليابس بعد أن احترق الأخضر، ويعتبر المتعاونين فى هذا الفعل السلامى من السنة حثالة، وأن الشيعى الذى يحاول منع الفتنة يستحق القتل كالسنى الحثالة تماما، أنظره يقول: «فعدونا الآن والخطر الداهم على الجهاد هم هؤلاء الروافض ومعهم الحثالة من أهل السنة.. أفنتركهم يئدون الجهاد حذراً من فتنة طائفية؟.. لقد أكرمنا الله **بقتل الحكيم** الذى كان يقطر خبثا ومكرا وعداوة لأهل الإسلام».

ثم يحذر الزرقاوى «المخذلين من علماء السنة» الذين يدعون لنبذ الطائفية، منذرا أحدهم بقوله: « فهذا قائلهم يطعن فى الشيخ المجاهد أسامة بن لادن.. فيما يثنى على **إمام الكفر والزندقة السيستانى** ويطريه ويصفه بأنه من علماء المسلمين، فإلى الله المشتكى»؟!

قد يقبل بعضنا صدور كل هذا الكلام عن إرهابى عتيد، لكن ماذا عن الآتى؟!

فى صحيفة الحياة ٢٠٠٤/٤/٣ يقول الشيخ صالح الفوزان عضو مجلس الإفتاء الأعلى بالسعودية: «إن الشيعة أهل باطل وضلال ولا يمكن التقارب معهم إلا إذا تابواإلى الله ورجعوا إلى الحق»، ويزيد فى كتابه عقيدةالتوحيد فيقول بوجوب هدم مساجد الشيعة وقتل مشايخهم وإجبارهم على اعتناق الوهابية، ويجوز قتلهم واستباحة أموالهم ونساءهم إذا لم يسلموا». «لم يسلموا هنا يعنى يصبحوا وهابيين».

هذا مع ملاحظة حجم الطائفة الشيعية بالسعودية وخاصة جناحها الشرقى بكامله.

ما علينا لنعتبر كلام الفوزان معلقا برقبته وهو فرد واحد يمكن إهماله «رغم عدم صواب ذلك فهو عضو مجلس الافتاء الأعلى، لكن لنعتبره كذلك مجازا.. فماذا عن بيان وقعه ١٥٦ عالما سعوديا يعترضون فيه على تغيير المناهج، كلهم أسماء لوامع فى ميدان الدعوة.. لنقرأ فقرة فى هذاالبيان الأعجوبة: «ومن أول ما أوغر صدور الأمريكان على ما فى

المناهج من عقيدة الولاء والبراء، هم بعض الرافضة.. وذكروا أن العقيدة الوهابية تحرض على كراهية الأقليات الدينية وعلى الأديان الأخرى، **وعرضوا نماذج لذلك بالجزء والصفحة**.. لكن هذا التغيير اعتداء على الثوابت.. ويمثل اعترافا منا بأن مناهجنا تنتج الإرهاب العدوانى».

وهكذا نفهم أن الشيعة متهمون بالجاسوسية، وأنهم من أوغر صدور الأمريكان، ليس بالتحريض واختلاق المبررات، إنماهم أشاروافقط لعقيدة الولاء والبراء وعرضوا نماذج لها من كتب التعليم السعودى تحرض بهذه العقيدة على الإرهاب . بل وأوضحوا ذلك للأمريكان بالصورة والجزء والصفحة.

ماذا يريد الموقعون أن يقولوا؟ أن مناهجنا لاتنتج إرهابا، وما حدث دسيسة شيعية كشفت عن أن مناهجنا تنتج إرهابا، لذلك فالمشكلة هى مع الشيعة الذين يدلون الأمريكان على عورات السنة.. وأننا نعلم أنهاعورات، لكننا لن نصلح شأنها، لأن ذلك سيكون اعتداء على الثوابت، وأى محاولة للتغيير تعنى إعترافنابما جاء فى كتب التعليم بالجزء والصفحة من مناهج تنتج إرهابا؟

هل يمكن أن يصاب ١٥٦ دماغا فجأة بالحول التام؟ لاحظوا يا سادة أن هؤلاء هم علماء بلادنا الفحول نستر عليهم بعدم ذكر أسمائهم هنا، ستر الله على الجميع أنظر معى ماذا يقول العلماء الـ ١٥٦ بعدذلك: (إن هذه المناهج التعليمية للعقائد الإسلامية مستمدة من القرآن والسنة، فلايجوز أتهامها بأنها مصدر للبغى والعدوان ،هنا حول جديد ١٨٠ درجة»، ثم يتابع الـ ١٥٦ «وبالنسبة للعدو لايمكن نزع عدواته بمجرد حذف موضوع من مقرر.. فالعداوة بين الكفار والمسلمين سنة كونية كما أنهافريضة شرعية».

إذا كان هؤلاء يصفون أنفسهم بالعلماء، فبماذا نصف الحمير؟ نعود إلى الزرقاوى غير دهشين ولا متعجبين مما يطرح ويقول. لأن الفيروس قد أصاب مركز تفكير الأمة ممثلا فى علمائها، لنجده يعجب من تصدى بعض رجال الدين وبعض السياسيين لأمريكا يتهمونها أنها التى تسببت فى ظهور الإرهاب بسياستها الخرقاء خاصة فى الشرق الأوسط، ثم يفخر معلنا بوضوح أن القاعدة هى من جاءت بأمريكا للعراق بقوله: «جاءت أمريكا وقد أرعبها المد الإسلامى المتصاعد وأفزعهانشيد الجهاد الذى علا صوته فهز العالم وزلزل الدنيا بأسرها».

ويؤرخ أبومصعب لتاريخ الشيعة بحسبانهم خونة خاصة دولتهم الصفوية التى قامت فى الزمن العثمانى فيقول: «ولولا الدولة الصفوية لكنا اليوم فى أوروبا نقرأ القرآن كما يقرؤه البربرى فى الجزائر، فلقد وصلت جحافل الدولة العثمانية إلى أبواب فيينا لكنها وقفت ثم انكفأت لتذود عن المسلمين فى بغداد وتدفع صولة دولة الرفض الصفوية».

أبو مصعب زعلان من أمريكا لأنها تقوم الآن بدور كان دوره هو المفترض، فهى سيدة العالم، بينما المفترض أنه كان ممكنا أن تكون أوروبا كلها مسلمة لولا الدولة الشيعية الصفوية التى استنفذت جهود الدولة العثمانية فعادت جيوشها من على أبواب فيينا لتحارب الشيعة الصفويين ، حلم سيادة العالم القديم مازال هو الدافع الحقيقى المعلن وراء الإرهاب بتركيع العالم لإرهابنا بعد أن ذهبت فرصة العثمانيين، بينماوجهة نظر أخرى قد تحمد الله حمداً كثيرا على عودة العثمانيين عن أوروبا وإلا واجهت العالم كارثة كبرى تتمثل فى تخلف مقيت وعظيم عرفناه نحن زمن الدولة العثمانية التى احتلت بلادناووضعتنا فى مؤخرة العالم ويفخر بها الزرقاوى لا لشىء إلا لأنها دولة مسلمة سنية.. وشكرا .. أبو مصعب مع احتلال المسلمين للعالم بكل أسلوب ممكن، لكنه ليس مع أى احتلال آخر لأى جزء من أراضى المسلمين إذا تمكن الآخرون من ذلك.

ويوضح الزرقاوى أن أمريكا بعد ضربها، وعدم تمكنها من تنظيم حرب واضحة بين جيشها المنظم وبين قوى غير منظورة يمكن ضربها فينتهى الأمر كما الحروب بين الدول، قد قررت الحضور فى بلادنا لتغيير الثقافة التى تقف وراء هذا الإرهاب عن طريق الديمقراطية أو بقوله: «جاءت لتغير ثوابت الأمة وتحرف الكلم عن موضعه وتبدل المناهج وتنشر الخنا والخبث وفكرها الساقط وثقافتها اللقيطة باسم الحرية والديمقراطية»، إن أبا مصعب وقاعدته يضعون أهدافهم احتلال العالم وأسلمته ونهب ثرواته وسبى نسائه وأطفاله، لكنهم ضد ثقافة أمريكا التى تريد نشرها هنا بإقامة ديمقراطية وحقوق إنسان تؤدى لنشوء التسامح بدل الكراهية والعلم بدلا من الجهل والتقدم بدل التخلف، لا لشىء إلا لأن الديمقراطية لاتسمح لرأى واحد أن يكون هو السيد المقدس ولا تكفر الآخرين ولا تطالب بقتل المخالف وتقوم على علاقات إنسانية يحكمها دستور وقوانين يقف الكل أمامها على قدم المساواة.. وهو يرى أن هذا هو الخنا والفكر الساقط والثقافة اللقيطة، ويذكرنا الزرقاوى: «قال بوش فى كلمة أمام

المجلس الوطنى لتنمية الديمقراطية مشددا على أن إخفاق الديمقراطية فى العراق سيشجع الإرهاب فى العالم ويشكل تهديدا للأمريكان». لذلك فإن أبا مصعب يرى أن الديمقراطية أو الثقافة اللقيطة هى الفكر الذى يمنع الإرهاب مثل بوش تماما، لذلك لابد من العمل الجهادى لمنع إقامة هذه الديمقراطية فى العراق، والتى ستصبح بؤرة للعدوى فيما حولها من دول ، وهو الأمر الكفيل بتراجع نهج الكراهية وفلسفة الموت إلى حب الحياة وصنع الجنة على الأرض وهو ما يعنى تراجع مشروع القاعدة الطموح بتدمير العالم بعدم وجود فرز جديد يمدها بالرجال وبالأيدلوجيا القاتلة.

بعد كل هذا هل سيظل المزايدون على مستقبلنا يسمون ما يحدث فى العراق مقاومة؟ وألا يرون أن تأييد القاعدة فى العراق تحت مسمى المقاومة سيؤدى فى النهاية إلى حرب أهلية تأكل الحرث والنسل، ولن تتوقف عند حدود العراق بل ستشتعل نيرانها فى الجسد الإسلامى كله، وأن تأييد القاعدة فى العراق سيؤدى إلى تقسيم العراق بما هو ضد مصالح محيطها كله، ألم نتعظ بعد من درس الأفغال العرب؟ ومع وجود التربة المهيئة للحرب الأهلية بمشروع مقتدى الصدر واستناده إلى إيران ومشروع الزرقاوى لذبح الشيعة والسنة المتخاذلين، ودعم إيران من جانب، ودعم بعض الأنظمةالعربية من جانب آخر، هل هو مشروع فلسطين جديدة نصنعه بأيدينا مرة أخرى، لقد كان أهل القاعدة أيام كانوا حلفاء أمريكا يؤكدون أن الدور آت على أمريكا، وقد صدقوا وعدهم.

تعالوا نقرأ الوعد بالآتى فى خطاب الزرقاوى «يريدوا أن يقيموا دولة الرفض ممتدة من إيران مرورا بالعراق وسوريا الباطنية ولبنان حزب اللات ومملكات الخليج الكارتونية التى تمتلئ أرضها بطغام الرفض وبؤر التشيع.. أنتم يا حكام العرب رضيتم لأنفسكم أن تكونوا أحذية للباطل .. لقد ذهب صدام بيد أسياده الأمريكان أما أنتم فستذهبون كذلك، ولكن نسأل الله أن يكون ذلك بأيدينا وسيوفنا قريبا إن شاء الله وما ذلك على الله بعزيز».

هل سيظل الإعلام العربى بعد هذا يصر على أن ما تفعله القاعدة فى العراق هو مقاومة للاحتلال؟.. أفيقوا يا قوم.. يرحمكم الله.

تعالى إلى يا أخى الحبيب

فى ٢٠٠٤/٦/١ قدمت قناة الجزيرة لقاء بين الشيخ (مصطفى تسير يتش) مفتى البوسنة العام وبين رئيس مركز التنوير الإسلامى بالقاهرة (أبوإسلام أحمد عبدالله) حول جدوى الحوار بين الأديان، وهى حلقة كارثة بكل المقاييس فى ظل أوضاع المسلمين اليوم إزاء العالم كله. كان رمز الشر فيها هذا الـ (أبوإسلام)، وبقدر ما أساء إلى نفسه وهو بها جدير، بقدر ما أساء إلى قضية الإسلام وإلى المسلمين جميعا، وقدم للعالم كل الأدلة الممكنة على إرهاب الإسلام و المسلمين، متحدثا بلغة المنتصر التاريخى الذى يملك كل القدرات الاقتصادية والعسكرية لتحدى العالم، ليس من أجل مزيد من التحضر والرفعة للعالم وللمسلمين، ولكن من أجل الكراهية والدمار. وهو الأمر الذى مهد له الدكتور فيصل القاسم فى اتجاهه المعاكس بقوله: «صحيح أن الصراع بين الإسلام والمسيحية وصل أعلى درجاته أثناء الحروب الصليبية لكن هل يقل الوضع الحالى خطورة؟ ألا يعتبر ملايين المسلمين الاجتياح الأمريكى للمنطقة العربية امتدادا للحروب الدينية؟ ما هى فائدة الحوار بين الأديان فى هذا الوقت إذن؟.. كيف تتحاور مع أتباع ديانة لا يعترفون بدينك أصلا كما هو الحال مع المسيحيين.. لكن فى المقابل.. ألم يحاور الله عز وجل إبليس؟ فلماذا نخشى الحوار مع تلامذة إبليس كما تساءل شيخ الأزهر؟».

ولا تصل خطورة خطاب صاحب مركز التنوير الإسلامى إلى هذا المستوى الدولى وبلدانه الكبرى كفيلة به، لكن خطورته تمتد إلى بلاد يعيش فيها المسيحيون مواطنون إلى جوار المسلمين كما فى أكثر من بلد فى عالمنا العربى والعالم المسمى بالإسلامى، وما يمثله من تهديد لأمننا وسلامة بلادنا وتماسكها الداخلى فى زمن أزمة دولية طاحنة لم تشهدها بلادنا من قبل.. ولا نعلم كيف توافق أجهزة الدولة فى بلادنا على إعطاء التراخيص لإنشاء هذه المراكز الإرهابية بينما ترفض الموافقة على قيام مراكز للداعين للمجتمع المدنى؟

وهلا يعلم المسئولون عن أمننا الداخلى والقومى ما يفعله هذا الـ (أبو إسلام) وأشباهه؟.. تعالوا إذن نطالع معا بعضا مما حدث فى هذا اللقاء المشئوم تقصيا لحقيقة مركز التنوير الإسلامى ومساحات النور التى ينشرها فى الوطن تأسيسا على ما قدمه وقاله بلسانه.

وبداية لنا على تقديم الدكتور القاسم فى البدء تساؤلات:

لماذا الربط الدائم بين كل صدام أو حتى تلامس بين بلادنا والغرب، وبين الحروب الصليبية؟ إن العودة إلى فخاخ التاريخ بحثا عن مبرر للكراهية سلاح



ذو حدين، فنحن بدورنا لم نكن ملائكة، وما حدث فى الحرب ليس فيلم صلاح الدين، ولم يكن صلاح الدين هو أحمد مظهر، والمتخصصون يعلمون جيدا أنها كانت حربا طاحنة على الطرفين، وأنها لم تتجه ضد المسلمين وحدهم بل ضد العرب جميعا، بدليل المحارق التى أقامها الصليبيون لليهود العرب فى فلسطين ولا تقل بشاعة عن المحارق النازية، فهذه هى حروب الكراهية. واتجهت الحرب ضد العرب مسلمين ويهود ومسيحيين، لأنها كانت غزوا لا يفرق بين المواطنين ماداموا عربا، لأن العرب حسب النظرية الأساسية للحرب قد احتلوا مقدسات المسيحية وأرضها عند الفتوح الإسلامية، وعانى الحجاج الأوربيون المسيحيون من سياسات خرقاء خاصة أيام السلاجقة مما دفع أوروبا للدفاع عن المقدسات المسيحية لاستردادها من أيدى العرب الغزاة وهو أمر فى ذلك الزمان طبيعى تماما، بل يمكن أن يكون طبيعيا فى زماننا إذا سألنا أنفسنا ماذا لو احتل غاز أرض الحرمين واستولى عليها؟ ثم ألم يدخل العرب الحروب المقدسة المتتالية من أجل تحرير الأرض المقدسة فى فلسطين؟ وماذا لو انتصرت جيوش العرب ودخلت تل أبيب كماوعدنا أحمد سعيد أول يوم لحرب الخامس من يونيو ٦٧ المشئومة؟ إن منطق الحرب هو هو فى كل زمان، كل ما فى الأمر أن الأمم ترتقى أخلاقها بمرور السنين فتقل الهفوات الأخلاقية قدر الإمكان مع التقدم الحقوقى الإنسانى. ويضيف الربط الدائم بين الحروب الصليبية وكل حدث جديد شرخا جديدا فى جدار الوطن. وأمريكا ليست مسيحية بل هى خليط من الأجناس والأعراق والملل والأديان فيها الأسود والأبيض والأصفر والمسلم والمسيحى واليهودى والسيخى والبوذى واللا دينى أيضا. والربط بين الحروب الصليبية وبين أحداث اليوم هو محاولة لإسباغ الشرعية على الإرهاب الإسلامى المتطرف الذى كان وراء ما يحدث الآن بغباء تاريخى مشهور منذ السلاجقة وما قبل السلاجقة، لتسويغ الإرهاب من جانب، والوقوف ضد أى محاولة للإصلاح الداخلى باعتبارها سيرا فى ركاب المعتدى وعمالة له وكفرا بالإسلام من جانب آخر، لأنه مع إصلاح حقيقى صادق ستختفى هذه اللغة وتلك المفاهيم ويخرج أصحابها من ساحة الفعل إن شاء الله إلى غير رجعة.

ثم نأتى للسؤال المفخخ المطروح من مقدم البرنامج: «ما هى فائدة الحوار بين الأديان فى هذا الوقت بالذات»؟.. وتعبير «فى هذا الوقت بالذات» مقصود لتتسلل إلى الذهن فكرة المؤامرة فى ظرف صعب، وأن وراء الأكمة ما وراءها فى الدعوة لهذا الحوار.

رغم أن الحوار مطلوب فى كل وقت وفى كل ظرف مادام ممكنا للتقليل من مخاطر الظروف الصعبة وتقريب وجهات النظر على مساحات مشتركة من

التفاهم الإنسانى. خاصة وأن المسلمين لا يعلمون شيئا عن ديانات غيرهم ولا يدرسونها فى معاهدهم كما هى فى واقعها، وإن درسوها يدرسونها من وجهة نظر الإسلام ورأيه فيها. بينما المسيحيون فى بلادنا يعلمون كل شىء عن الإسلام فى الإعلام والتعليم الذى يعلم الجميع الإسلام إجباريا، يظل المسلمون فى حالة جهل مطبق بعقيدة إخوانهم فى الوطن، فهى كفر بالله وشرك وتثليث وكفى بذلك سبيلا. رغم ما فى الأناجيل بوضعها الحالى الذى يتهمه المسلمون بالتحريف من خلق رفيع وحض نادر المثال على المحبة بين الناس سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين، وهو أرض صالحة لمشتركات الحوار بين المسيحية وأى دين آخر، يمكن استثمارها فى هذا الحوار المطلوب لصالح المسلمين بدلا من نفيها وتجريحها وتكفيرها وإقصائها بعقلية التعصب الأبله الذى طالما خسرنا بسببه قضايانا حتى صرنا بين العالمين مضرب المثل فى خسارة قضايانا وأرضنا وكرامتنا.

ويبقى السوال التحريضى والغبى فى الوقت نفسه: كيف تتحاور مع أتباع ديانة لا يعترفون بدينك أصلا كما هو الحال مع المسيحية؟

(لاحظ دائما: المسيحية؟! كما لو كانت بقية الأديان تعترف بدين الإسلام وإذا كان هناك أتباع ديانة فى العالم تعترف بدين الإسلام فمعناه أنهم قد أصبحوا مسلمين.. أليس ذلك الطرح معبرا عن مدى غباء العقل العربى الإسلامى؟). وهل مقصد الحوار أن يتنصر المسلمون أو يسلم المسيحيون؟ لقد ذهب المتحاورون الأجلاء الكبار القاعدون على صدورنا المالئون شاشات التلفزة فى بلادنا إلى الحوار بهذه العقلية، حتى عاد يفتى البلاد مهللا بما حققه من انتصارات للإسلام وكيف محق المحاورين قرضاوى ليعلن: « يجب يستمر الحوار والمسيحيون لا يعترفون بالدين الإسلامى».

كما لو كنا نحن قد اعترفنا لهم بدينهم المسيحى. نحن نعترف بدين مسيحى لا يعرف المسيحيون عنه شيئا ولم يسمعوا به، ونتخذ من ذلك ذريعة أننا نعترف بدينهم وهم لا يعترفون بديننا مطالبين العالم أن يكون بقدر غبائنا ليبتلع هذا الفهم العسير ويهضمه.

بينما الحقيقة أننا نكفر المسيحية علنا وكل أتباعها ونعتبرهم (الضالين)، ونطالبهم بالعودة إلى المسيحية النقية كما قالها الإسلام ومن ثم إلى الإسلام؟ ونشتد عليهم فى النكير لأنهم لم يعترفوا ببشرى عيسى «نبى من بعدى اسمه أحمد»، وليس لديهم فى أناجيلهم لا أحمد ولا مصطفى ولا محمود ولا طه ولا ياسين، وليسوا مسئولين عن فهمنا وطرحنا، وليسوا مسئولين أيضا عن تاريخ نعتقده صادقا وأنهم خرجوا عليه ويعتقدونه غير صحيح، لأنه لا دليل واحد

عليه عندهم سوى كلامنا نحن ويبقى المعنى إما أن تعترفوا برأينا فيكم باعتباركم كفرة ضالين أو لا حوار.. هذا ما يقوله العلامة البحر الفهامة (قرضاوى) عا فاه الله وأحسن له خاتمته. غير فاهم فضيلته أن مجرد جلوس المتحاورين على مائدة واحدة، هو اعتراف كل منهم بحق الآخر فى الوجود وفى اعتقاد ما شاء وفى الاختلاف حسب المنطق الليبرالى الذى أصبح علكة هذه الأيام فى فم قرضاوى دون أن يفهم أسسه وقواعده البسيطة الأولية الابتدائية.

والغريب أن المحترم (أبوإسلام) كان يبدأ كل فقرة حوارية لمناظرة بعبارة «يا أخى الحبيب» معبرا عن مدى السماحة واللطافة، ليردفها بالسباب والقذف والتصغير والتهوين من شأن محدثه المسلم مفتى البوسنة العام، ومن شأن الدين المسيحى وكل المسيحيين فى الأرض. بينما كان السيد المفتى على درجة عالية من الأدب والتهذيب تليق بداعية مسلم فى بلاد تحتاجه وتحتاج إلى دعوته وحواره، بينما يجلس بيننا السيد أبوإسلام يدعونا هنا إلى إسلامه الإرهابى، ولذلك وتفعيلا لسنته فى الحوار نقول له: «تعالى إلىّ يا أخى الحبيب» لنناقش ما قال كما فعل هو فكان وجها منفرا للمسلم قبل غير المسلم.

و(أبوإسلام) لقب أطلقه المحترم على نفسه، يبدو أنه مستمد من ابن له اسمه إسلام، حتى يكتسب المهابة كحارس للإسلام بل قل هو أبوالإسلام نفسه. ويبدأ أبو إسلام حديثه بتوضيح المصطلحات التى سيستخدمها فى حديثه إزاء المسيحيين بقوله اللبيب: «إن لفظه الكفر إذا خرجت منى فهى شهادة منى للكافر أنه صحيح على دينه وليست مذمة ولست مكفراتى كما يروجون عنى عندما أقول للصليبى أنت كافر .. وقد يرد على لسانى صفة أهل الصليب وأنا لا أجد فيها أيضا مذمة لأنها صفة ومسمى بشىء غال عندهم يحبونه ويعبدونه ويقدسونه.. يقول الألوسى دينكم الباطل ولى دين، دين الحق. هذا هو الفيصل فى أن نقول إن هناك حوارا: تعالوا إلى كلمة سواء ألا نعبد إلا الله وأن محمدا رسول الله هذا شرط الحوار».

هل تسمع يا وزير الداخلية؟ هل تسمعى يا حكومة؟ هل تسمعون يا مسلمين؟.. بهذا الاصطلاح التمهيدى سنخاطب إخواننا فى الوطن.. تخرج فى الصباح فتقابل جارك المسيحى فتقول له: لا سلام عليكم يا كافر، فيرد عليك التحية بأحسن منها: صباح الهباب يا ملعون.. وبعدها يعيش أبو إسلام وأشباهه سعادة مرأى الدم فى الشوارع وأهل الوطن يذبحون بعضهم بعضا.. هية مصر ناقصاك يا أبو إسلام؟

نتابع المكفراتى المنوراتى صاحب مركز التنوير؟! ليلقى بأسوأ ما سمعت أذن وأحط ما رأت عين دون ذرة خجل واحدة مما يسوق من اتهامات وأكاذيب بحق إخواننا وأهلنا وأحبابنا وأبناء وطننا شاء من شاء وأبى من أبى قائلا: لكى أحاور آخر لابد أن تكون هناك أرضية مشتركة للحوار، نتحاور على ماذا؟ على عقيدة وشريعة؟ الشريعة عندى كاملة وتامة وعنده مستدعاة من دين سابق. العقيدة عنده مخالفة تماما، العقيدة عندى الله واحد تساوى واحد، أما العقيدة عنده واحد زائد واحد زائد واحد تساوى واحد، فيها مشكلة ومعضلة. أنا أؤمن بالإنجيل وهو لا يؤمن بالقرآن، أنا أؤمن بعيسى وهو لا يؤمن بمحمد، أنا أنزه الله عن التجسد وهو ينزله إلى مرتبة الإنسان الذى يأكل ويتبرز (انظر قارئى إلى مستوى الأدب فى الداعية المنوراتى). أنا أنزه مريم عن كل اتهام وهو يضعها موطن شبهة.. أنا ملتزم بضوابط فى القتال والدفاع عن النفس والدعوة إلى الله وهو يرفع شعارات السلام ليذبحنى باسم يسوع الرب. أنا ادعو النساء إلى الفضيلة وأحرم الخمر وهو يدعو للحرية النسوية ويقدس شرب الخمر. أنا مأمور بالإحسان لهذا النصرانى ولم يمنعنى الإسلام من مصاهرته.. أما هم فلا يمكن أن يقبلوا هذا».

وبغض النظر عن سوء الفهم الفاحش عند أبو إسلام حول الديانة المسيحية عن جهل يبدو متعمدا أو هو تجهيل وتنفير لا يستحق عناء المناقشة هنا فللمسيحية أهلها وهم أقدر على طرحها وشرحها، فقط أعلق على ما تعلق بالإسلام فى حديثه لعله يرعوى ويتهذب، لأن التكفير بدوره سلاح ذو حدين يرتد على صاحبه، وللأسف على دين صاحبه. فالمعلوم لكل باحث فى الإسلام أنه قد استمد معظم شرائعه إن لم يكن كلها من شرائع العرب قبل الإسلام بعد أن هذب بعضها القليل جدا وشذ به لأنه ما كان ممكنا نقل شعب بكامله إلى شرائع لا يعرفها أو تناقض ما ألفه (انظر بهذا الخصوص كتاب الشيخ خليل عبدالكريم حول جذور الشريعة الإسلامية).

والعقيدة المختلف عليها أمر مسلم به وإلا أصبح كل الناس أمة واحدة وديانة واحدة وهو ما لا يتفق ومشيئة الله ولذلك خلقهم، فلا سبيل هنا للسخرية من عقائد الآخرين، لأن لدينا الكثير فى تراثنا يستحق منهم السخرية بينما هو عقائد عزيزة علينا ونؤمن بها عن يقين كالتداوى ببول الجمل، وناقة صالح التى ولدتها صخرة، والحصان الطائر المعروف بالبراق، وهى أمور محل اعتقاد وإيمان لا محل فحص منطقى وعقلى، وفى كل الديانات عقائد تبدو غير مقبولة للآخرين. أما إيماننا بالإنجيل فهو إيمان بإنجيل تنزل على المسيح وحيا وهو ما لا يعرفه المسيحيون فى عقيدتهم، لأن الأناجيل تقف عندهم موقف الحديث عندنا فهى أقوال قالها المسيح ودونها

عنه تلامذته على اختلاف بسيط هنا أو هناك كاختلاف نص رواية الحديث فى الإسلام. وكوننا ننزه الله فإن السنة والسيد أبو إسلام منهم يجسدون الله ويرون له يدا وبصرا وأنه يجلس على عرش تحمله الملائكة.. إلخ وهو ما اختلف فيه معهم المعتزلة تنزيها لله فكفرهم أهل السنة لهذا التنزيه، وكون المسيحية قد أنسنت الإله فإن هذه الأنسنة فى كثير من الفلسفات اقتراب ربانى من العباد وتواضع إلهى بغرض خلاص المؤمن. وفى النهاية هى عقيدة لا تجبر أحدا على اعتناقها ولا تقتل من يرفضها ويخرج عليها. ولم يضع المسيحيون السيدة مريم موضع شبهة يوما، بل أطلقوا عليها (أم النور) ترميزا لحملها بالسيد المسيح. ودعوتهم للحرية النسوية كلنا ندعو بها اليوم لاعتقادنا أنها دعوة راقية ومحترمة. والمسيحية لا تقدس شرب الخمر إنما ترمز بنبيذ غير مختمر لدم المسيح فى طقس المناولة، كما أن الإسلام لم ينصح باجتناب الخمر إلا متأخرا بعد أن شربه جميع الصحابة الأكارم، ولم يكن محرما فى شرائع ا لله عند الأنبياء السابقين والإسلام سمح لنا بالزواج من المسيحيات لأننا من سيركب، ولم يسمح بالعكس.

أما شرط أبو إسلام للحوار أن يشهد المسيحيون بشهادة الإسلام، فهو إرهاب فصيح، وطريقته فى الدعوة لا تترك سبيلا إلى الإسلام، وساعة يشهدون بشهادة الإسلام فلماذا الحوار إذن؟ هنا حاول مفتى البوسنة بأدب جم أن يشرح لأبى إسلام أنهم هم من يدعوننا إلى الحوار رغم ما يملكون من قوة ورغم ما نحن فيه من ضعف، وأن بابا الفاتيكان يرسل له بالتهانى فى الأعياد الإسلامية وهو ما يعنى «أنه يريد أن يقول إننى أعرف أنك موجود وأنك مسلم وأنا أهنئك». ترى بماذا رد صاحب مركز التنوير الإسلامى، قال: «يريد أن يحسن وجهه لديك.. لأنك صاحب الدين الكامل.. هو الذى أتى إليك مهرولا.. وعلى فكرة هو لا يرسل دعواه إلا لمن يحبهم.. فهذه مذمة لك يا مولانا أرجوك أن تتبرأ منها أمامنا الآن بارك الله فيك فأنت عمامة أزهرية.. هو الذى طلب منا الحوار ليبرأ نفسه من النقصان.. لكنه لم يعلن الكفر بيسوع». وهكذا.. وبهذا المنطق نصبح نحن الكمال إزاء دعوة الحب التى يجب أن نرفضها ونسخر منها ونتعالى عليها حتى يكفروا بيسوع.. لاحظ أنه يتكلم هنا عن الحبر الأعظم وبهذه اللغة شديدة السفه والبلاهة. بينما كان رد مفتى البوسنة البليغ أن المسلمين شيعة وسنة يكفرون بعضهم بعضا، «والحوار من أجل أن نعيش جميعا فى سلام أو لن يعيش أحد فى سلام». ومن جانبى لا أجد تعقيبا غير التساؤل: ترى من سيكون الخاسر لو كان رأى أبو إسلام هو الصواب؟!

لا أكثر الله من أمثالك يا أبا إسلام. روح يا شيخ .. منك لله.

هل الإسلام هو سر تخلف المسلمين؟

السؤال جد هام، وأيضا جد خطير، وهو أيضا جد حساس، لكنه سؤال مطروح الآن بقوة فى كل الدراسات الشرقية، وعلينا أن نطرحه أيضا على أنفسنا بهدوء نركن فيه إلى جانب العقل قبل القلب، وقبل النقل، وأن يكون هدف الإجابة ليس الانتصار للإسلام أو الانتقاص منه، أن يكون الهدف هو مصلحة البلاد والعباد فى زمن نتأرجح فيه على أرجوحة يقف إسلامنا فى جانبنا على طرفها فوق جرف هار بلا قاع، وعلى الطرف الآخر تقف بكل ثقلها حضارة الإنسان المدنى الحديث، قد تهتز باهتزازنا، قد تتمسك بطرفه لكيلا نسقط فى قاع التاريخ المنسى، لكنها لن تستمر كذلك طويلا دون جهد مضاعف من جانبنا للحؤول دون السقوط فى ثقب التاريخ الأسود.

وللمباشرة والدخول إلى صلب الموضوع يمكن طرح السؤال ببساطة: هل تخلفنا الذى يتندر به الركبان هو تخلف معرفى حضارى أم هو تخلف دينى؟

سيجيبنا أهل الدين كعادتهم المتعجلة فى الإجابة للوقوع فى الفخاخ، إن تخلفنا يعود إلى نقص شاب إيمان المسلمين، مما أدى إلى تخلى ربهم عنهم، وأخلص الأمريكان للصليب ويسوع فنصرهم، وهكذا تبدو الدنيا وفق هذه الرؤية كما لو كنا زمن آلهة جبل الأوليمب وأساطير الأوديسة والإلياذة، وهى قفزة هائلة إلى بطن الخرافة وارتداد نحو الأسطورة فى التفسير، والعجيب أن هذا التفسير لتخلف المسلمين هو ما يروجه رجال دين المسلمين عبر كل الوسائل الإعلامية والدينية.

وما يفوت المشايخ وهم يطرحون رأيهم فى أسباب التخلف تأثيما للناس وتذنيبا، أنهم هم المسئول الأول عن الدين الإسلامى طوال تاريخه، وأنهم يدّعون حتى الآن أنهم المسئول عن الإسلام فى الأرض، وممن ثم فإذا حدث التخلف فى الجانب الدينى فإنهم سيكونون هم المسئول الأول عن هذا التخلف، ومن ثم لن يمكن استمرار الثقة بهم بعد تخلف دام عشرة آلاف عام. لم يرعوا فيها دين الله حق رعايته التى حملوا مسئوليتها. فإن ردوا علينا أنهم لا سيطرة لهم على الإيمان داخل نفوس المؤمنين فهى منطقة ضمير حرة، قلنا لهم: قلتم قولة حق، لكنكم أيضا كنتم حراس الإيمان والمفتشين فى الضمائر والحاكمين على الناس والمنفذين للأحكام حتى هذا اليوم، ويكفى للقارئ إلقاء نظرة واحدة على ملخص أعمال معهد البحوث الأزهرى لعام ٢٠٠٤ وحده ليعرف عدد من أمسكهم هذا المعهد بتهم تتعلق جميعا بصدق الإيمان.

ولأنهم كانوا القاضى والخصم والحكم والجلاد عبر التاريخ حماية لهذا الدين، ولأنهم يزعمون أن تخلف المسلمين بسبب ابتعاد المسلمين عن دينهم، ولأنهم كانوا المسئول طوال التاريخ عن الدين فى الأرض، فإن من قصر فى حق دينه كل هذا التقصير لم يعد مؤتمنا على الدين ولا على الوطن ولا على الناس.

لا مخرج لمشايخنا من هذا الفخ التاريخى إلا الاعتراف للناس بصدق الإيمان، وسحبهم كل تكفيراتهم وتأثيمهم للمسلمين البسطاء الذين لم يتربحوا بهذا الإسلام لا اليوم ولا أمس، ولم يقبضوا الهبات والأموال والصدقات والزكاة والرضى السلطانى ليحافظوا عليه. حافظوا عليه فقط لأنه دينهم وجزء عظيم من ثقافتهم وهو يتهم، حافظوا عليه وهم يأكلون الفقر يأكلهم، ولأنهم ببساطة يحبون دينهم ويرفضون التخلى عنه.

وبعد هذا الاعتراف والسحب عليهم الاعتراف أن تخلفنا هو فى الجانب العلمى المعرفى الحضارى، وهنا وبعد الاعتراف والسحب عليهم الانسحاب، لأنه لا مجال لرجال الدين فى البحث العلمى فى مختلف العلوم، بل هو مجال الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتاريخ والرياضيات والفيزياء والكيمياء، وهذه علوم خارج نطاق الدين ولا يفهمها رجاله، لأنهم حتى اليوم يعيشون زمن القرن العاشر الميلادى يأسرون الأمة كلها داخل أسواره ،ويريدون أن يدخلوا فى منافسة حضارية مع أمم تعيش فى القرن الحادى والعشرين؟ إنكم سادتى خارج المنافسة.

فهل يبدو من ذلك أن الإسلام هو الذى أدى إلى تخلف الأمة؟ إن السؤال هنا يغفل تقدم الأمة الإسلامية خلال القرون الأربعة الأول. إذن الإسلام ليس سبب التخلف!! لكن إذا كان ذلك كذلك وأنه دين تحضر فلماذا نحن اليوم متخلفون؟

يبدو أن هناك اختلاطا ما فى المسألة يؤدى إلى التباسها، هو أن الدين فى حد ذاته كدين ليس طرفا فى الموضوع، إنما هو خارج اللعبة وبرئ من التخلف كما هو برئ من التقدم. وأن الإسلام كدين فى ذاته لم يكن عنصرا فى إنجازات الرازى والفارابى وابن الهيثم، وليس عنصرا فى اختفاء العلماء من بلادنا منذ هذه الكوكبة اليتيمة التى نستدعيها نندب عليها حضارتنا الموؤدة دفاعا عن الإسلام والإسلام منها برئ. فبالإسلام نفسه تقدمت دول أخرى فى شرقى آسيا أطلقوا عليها لفورتها القاطرة نحو قطار الحضارة باسم النمور الآسيوية.. وبالإسلام نفسه تعيش بقية دول المسلمين فى مؤخرة الأمم.

إن المشكلة ليست فى الدين ولا فى أى دين، لكنها فى كيفية استثمار هذا الدين، فهناك من استثمره فى التقدم، ومنه من يستثمره فى التخلف. هناك من احترم الدين فصانه بعيدا عن آلاعيب السياسة ودسائس المشايخ والسلاطين، وهناك من مازال يستثمره حفاظا على خط فكرى نظرى واحد ليظل سيد الموقف فى كل شأن وكل أمر، وهو موقف لا تشغله الأمة ولا الناس ولا الدين بقدر ما تشغله سيادته وسيطرته على العقل المسلم واستمرار هذه السيادة السلطوية المستمدة من تعبد الناس.

إنه الموقف الذى يمثله كل مشتغل بالإسلام مهنة ومصدرا للربح، والذين يمكنهم تشكيل وعى الناس وفق الرغبات السلطانية والسلطوية. وهو الوعى الذى يتم وفق رؤية بعينها واحدة لا صح سواها - يزعمون أنها هى صحيح الإسلام وغيرها كافر آثم، مما لم يعط فرصة للرأى الآخر يوما بالظهور، لذلك لم تظهر معارضة فى تاريخ المسلمين، وإن ظهرت فكانت وسيلتها الأيديولوجية قراءة أخرى لنفس الإسلام، لكن هؤلاء غالبا ما انتهى أمرهم فى التاريخ الإسلامى فى مجتمع لا يعرف سوى فرقة واحدة هى الناجية.

ها قد عثرنا على سبب أول يرتبط بالإسلام: انعدام وجود رأى آخر يؤدى إلى جدل مثر ونقاش حول الدين وحول الحياة لتفرز جديدها، كما حدث عندما اختلف المسيحيون الأوائل فى تفسيرات الإنجيل، وحول الذات والروح القدس، فاجتمع المختلفون فى مجامع اعتمدت على قوة حجة المتعارضين، لينتهى الأمر بقرار يتفق عليه الأغلبية، لتظهر خلافات جديدة لتعقد مجامع جديدة، وهكذا كان مجمع نيقية ومجمع خلقدونية ومجمع إفسس.. إلخ. كانت هذه بقايا ثقافة اليونان والرومان، أما على الجانب الإسلامى فكان أول مجمع وآخر مجمع هو مجمع سقيفة بنى ساعدة التى تقرر فيها شأن الفهم الإسلامى السائد سياسيا ودينيا وغيره باطل الأباطيل.

ودخل هذا الفهم محنا حتى استتب له الأمر مرورا بحروب أهلية طاحنة بدأت بحروب الردة وليس انتهاء بكربلاء، فظلت المنطقة الممنوعة المقموعة تظهر عبر التاريخ بقوة ثم لا يلبث أن يتم قمعها وإبادة أصحابها من الزنج إلى الحشاشين إلى القرامطة وغيرهم لم يبق منه جميعا غير المبدأ الخليفى القبلى الأول سائدا لا يقبل منافسة من سواه، بزعم أنه صحيح الإسلام كما يريده الله، كما لو كانوا قد عرجوا للسماء واستمعوا هناك إلى كل التفاصيل العجيبة التى دونوها فى فقههم وتحليلاتهم وتحريماتهم وتفسيراتهم وفتاواهم من فهم الله نفسه، وأنه قد خصهم بالفهم دون غيرهم.

ولأن المسيحية من فجرها حدثت ناس زمنها بلغتهم ومفاهيمهم فأعطت ما لقصير لقيصر وما لله لله فصلا للسلطات، قياما على مأثور يونانى مازالت مبادئ الديمقراطية لها فيه روائح. فإن منظومة الخلافة الإسلامية المسربلة بالدين وحلف رجاله المحترفين كانت هى نموذج الدمج الكامل للسلطات دينية ودنيوية، باحتساب النبى الذى حاز كل السلطات بيديه فى دولته الناشئة، نموذجا سنيا للحكم بحاكم مطلق السلطات والنفوذ وبرأى دينى واحد مطلق السيادة، غير مفرقين ما بين النبى كنبى أوحد خاتم للنبيين، وبين ذواتهم كوارثين للنبوة والتى لا تورث.

يبدو أن سبب التخلف فى النهاية هم رجال الدين أنفسهم مع حلفهم الانتهازى عبر التاريخ، ثم ألا يبدو خطابهم اليوم خطابا يعود للقرون الوسطى إذا ما قورن بلغة الحداثة اليوم؟ تعالوا نقارن: فى الوقت الذى يتحدث فيه العالم عن الفصل بين السلطات، يتحدث مشايخنا- أجلك الله- عن الدمج الكامل للسلطات الدينية والدنيوية فى دولة مسلمة.

فى الوقت الذى يتكلم فيه العالم عن حقوق إنسان ومواطنة كاملة يتكلم مشايخنا لغة المسلم والذمى وعالمية وطن إسلامى وهمى غير محدد جغرافيا.

فى الوقت الذى يتكلم فيه العالم عن الحرية وحق التفكير والإبداع والإعلان عن الرأى المخالف بحماية الدولة، يتحدث مشايخنا عن الخطوط الحمراء للأمة وثوابتها التليدة.

فى الوقت الذى يتكلم فيه العالم لغة العلم والمدنية والحضارة نتكلم نحن بفقه الأموات ولغة زمان مضى لا يريدون له أن يمضى.

فى الوقت الذى يرفع فيه العالم كل القيود عن الحريات نتحدث نحن عن حد الردة والخروج عن معلوم من الدين بالضرورة وعدم الاجتهاد مع نص.

فى الوقت الذى يحكم فيه العالم على ما يكتب المفكر من منطق الحجة والبرهان ومدى المصلحة المتحققة من هذه الكتابة، تحاكم مجامعنا المفكرين وتدينهم وتهدر دماءهم. بالمناسبة أتذكر هنا أن المجمع المنوه عنه سبق وطالب مصادرة بعض أعمالى، وتمت محاكمتى، وتمت تبرئتى من تهمة الكفر (الازدراء بالأديان) والإفراج عن كتابى، فإذا كانوا يؤكدون صحة الحديث النبوى: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»، فهل مع براءتى يكون الأزهر قد باء بها؟

وفى الوقت الذى تتحرك فيه الدنيا فى وثبات عملاقة علميا

واقتصاديا يدعو مشايخنا إلى الثبات، لا بل إلى العودة إلى الخلف، إلى الزمن النبوى حيث خير القرون وهو ما أدى لاحتقار المسلم لزماننا ورفضه له بكل حضارته ومنجزاته.

فى الوقت الذى يصبح فيه علم التاريخ علما مخبريا يقوم على التدقيق بأجهزة وأدوات ومركبات كيميائية وتساعده الجيولوجيا والطبوغرافيا والألسنيات والأركيولوجيا والأنثروبولوجيا والميثولوجيا لكى نصل إلى صدق وثيقة واحدة فواحدة لنرى التاريخ كما كان فى زمانه قدر الإمكان. فإن مشايخنا يمنعون مثل هذا العمل فى التاريخ الإسلامى ، ويرفضون تدقيقه، ويجرمون وصف الأشياء بأسمائها الحقيقية، بعد أن تم تزييف هذا التاريخ على المسلمين لصالح مذهب بعينة وفئة بذاتها هى الحاكمة وهى المتفقهة.

وفى الوقت الذى تفتح الدنيا أبوابها للنقد لأنه باب المستقبل ونافذة النور لإصلاح الشأن باستمرار نحو الأفضل بجميع ألوان النقد لذلك هى تتقدم، فإن المسألة عندنا تقوم على مبدأ الستر وتجميل التاريخ الإسلامى، والذب عنه، وإحدى وسائل هذا الذب هو عدم كشف عواره، وإن أى نقد سوف يصب فى خانة العداء للإسلام.

وفى الوقت الذى تصبح فيه أعظم نظريات العلم الحديث من الماضى باكتشاف جديد، ليتحول العالم كله نحو الكشف الجديد، فإن مشايخنا يرون فهمهم للإسلام صالحا لكل مكان وزمان، وأنهم المرجعية الدائمة فى كل شأن من التغوط إلى إطلاق الصواريخ.

فى الوقت الذى تبحث فيه الأمم عن أخطائها لإصلاحها أينما كانت، فإن مشايخنا صنعوا للمسلمين وعيا لا يرى فى نفسه عيبا كما لو كان الاعتراف بالخطأ كفرا، والأنكى أنه يرى الدنيا كلها عيوبا وأنه الوحيد المنزه.

وفى الوقت الذى يتحرر فيه الفرد من كل قيود المجتمع أللهم إلا القانون السارى على الجميع على التساوى، فإن مشايخنا يلزموننا السنة فى كل سلوك أو بادرة تبدر منا أو قول نقول، يلازموننا حياتنا الشخصية من الصباح حتى موعد الجماع ويدخلون معنا الكنيف وغرفة النوم. وقد زيد فى هذه السنة المستحب عند الصحابة والتابعين وتابعى التابعين، حتى أصبح المسلم كالإنسان الآلى يردد طوال الوقت الأذكار والأدعية، مما يدفعه فى النهاية إلى حالة ذهان مرضى واضحة فى شارعنا الإسلامى.

وفى الوقت الذى تجاوز فيه العالم فكرة الوطن بحدوده إلى عالمية

الإنسانية بعولمة هى فرز زمانها الطبيعى، فإننا خارج هذا كله، بل نحن لم نصل بعد إلى مرحلة أسبق هى مرحلة المواطنة، لأن مشايخنا لا يرون للمسلم وطنا سوى دينه وجماعته المتشرذمة من بلاد واق الواق إلى بلاد ماو الماو. فالإسلام هو الوطن وشعب الإسلام هو أى فرد مسلم فى العالم. فتضيع الأوطان من المسلمين فيصبحون خارج الجغرافيا بعد أن أصبحوا خارج التاريخ.

وبينما تستفيد الشعوب من نكساتها وهزائمها فى منافساتها الحضارية من أجل إصلاح الذات والتقدم على طريق المنافسة، فإننا نلجأ فى هزائمنا لنقف صفوفا وراء مشايخنا لنعلن الحروب فى المساجد ضد الأعداء بالدعاء والتزام الطقوس إثباتا للرب أننا الصالحون، وأنه سينظر إلينا بشفقة ويسامحنا ويبرز للدنيا عجائبه فجأة، فتزول أمريكا وإسرائيل وربما كل الشعوب المتحضرة لنبقى نحن أسيادا على المسكونة دون أن تحقق هذه الدعوات سوى مزيد من الخسائر والتخلف فى الواقع، لأن مشايخنا يجعلون التقدم ثمرة للصلاة والدعوات الصالحات التى قد تغفر الذنوب لكنها أبدا لا تأتى بأى تقدم، ولو كان للصلاح والتقوى والدعاء الصادق أى دور فى التقدم، لكان سلفنا الصالح هم الأحق بصنع الصواريخ والمضادات الحيوية وهندسة الوراثة، ولوصلنا إلى القمر ببركة دعاء الوالدين. إن الدعاء لتطهير النفس والصلاة للبعد عن الفحشاء والمنكر، وليس لاكتشاف الذرة أو أسس الحضارة، ولم يكونا يوما سببا فى أى تقدم أو أى انتصار.

إن التقدم والتحضر هو شأن الإنسان وممكناته وإرادته وقدراته، التقدم يقوم به عقل حر مطلقا من كل قيد، لديه القدرة على رفض كل ما هو ضد قوانين العقل والكون، وهو وحده القادر على إقامة التحضر، والعقل يقول إن الأخذ بالحداثة والانغراس الفورى فيها هو الطريق إلى التحضر والتقدم.

يقول لنا مشايخنا- رحمك الله- إن المقصود مما يقوله أمثالى أن يعيش كأهل الغرب وانحلالهم الخلقى لكى تنهار أمتنا بتقليدهم، كما لو كنا متقدمين حقا نخشى الانهيار، وكما لو أن حياة أهل الغرب قد أدت إلى تخلفهم وانهيارهم.

ومن هذه الفكرة التى ترى الحداثة غزوا ثقافيا مقصودا منها ضرب أمتنا فى دينها بعد أن أعاد الاستعمار تشكيل نفسه باستخدام أساليب جديدة، أى فكرة أن الغرب صليبى يشن عليه حملة صليبية، لا تفهم هل الغرب صليبى يمينى متدين متطرف فى تدينه، أم أنه محل فجور وانحلال وإلحاد؟

إذن لا علاقة للدين ولا للإيمان بتقدم أو تخلف، إنما هناك دائما فى وجود الجريمة من هو صاحب مصلحة مستفيد، وهى جريمة تاريخية فى حق أمة بكاملها جنى عليها رجال الدين المحترفين، وكانوا طوال الوقت المسئولين عن الإسلام والمسلمين، فكان حاميها طوال عشرة قرون هو حراميها.

خطوطنا الحمراء

سبق لى فى أعداد سابقة أن ناقشت هنا قاعدة «المعلوم من الدين بالضرورة» وما تستتبعه من أوامر ونواه تؤدى مخالفتها حسب الشروط الفقهية إلى شىء يسمى «الارتداد» وأن هذا الشىء له حد واحد هو القتل بعد محاولة الاستتابة غسلا لليد من الدم مقدما، كما علمنا أن هذه القاعدة قاعدة مطاطية لأنها من صنع فقهاء من بنى البشر، ولأنها كذلك فإنها تقبل الاضافة والحذف حسب الهوى والمصالح والنزوات الانسانية وهو كله ما لا علاقة له بالشأن الإلهى.

ولإيضاح المسألة ضربنا أمثلة لتلك القاعدة من معلومات من الدين بالضرورة تؤكد هذه المطاطية إلى حد المصادمة مع قوانين الدولة الشرعية التى ارتضيناها نظاما عاما لأمتنا المصرية الحديثة لدولتنا الشرعية، ويعتدى عليها وينتقص منها ويسلبها هيبتها، ونكرر مرة أخرى وأخرى أن السماح لفرد مهما علت مكانته أو لجماعة أو لمؤسسة ثقافية أو دينية أن يقوم بالتشريع للوطن مع وجود تشريعات قانونية ودستورية فإنه يستحق العقوبة الفورية لأنه بذلك يقيم دولة موازية لدولتنا الشرعية ويعتدى عليها وينتقص منها ويسلبها هيبتها ، ويصبح هذا المطلب المتكرر مفهوما وواضحا عندما نجد فى هذه القاعدة التكفيرية من يجعل المعترف بقوانين الدولة مارقا فاجرا مرتدا لأنه يحترم دستور وطنه وقوانينه، لأن هذه القوانين قوانين وضعية من وضع الإنسان، ومعنى احترامه لها والقسم على طاعتها والعمل بها أنه قد رضى بها بديلا لقوانين الشريعة الإسلامية وهو الكفر بالدين والخروج على الملة، وقد رأينا صحفا قومية وكتبا تعليمية تردد هذا القول وتصر عليه مما يخلق لدى المواطن ولاء لدولة الخلافة الخفية، وينزع منه الولاء لوطنه الأرض والتاريخ والشعب والدولة، ويجعل من تشريعات الوطن عبثا ومن قسم القضاة على احترام قوانين الوطن كفرا، مما يجعل القاضى أحيانا ينحرف عن قسمه اخلاصا للخلافة الخفية ليحكم بما تأمر، فتحرف الاحكام عن القانون إلى النقمة والنكاية، متمثله فى كثير من الاحكام الظالمة التى تعارض القانون علنا. وهو الأمر الذى يجب أن يتوقف

الآن وفورا بتطبيق العقوبات الرادعة على كل من يرى نفسه بديلا للوطن كله يشرع ويضع الحدود ويأمر بالتنفيذ.. وهو ما سمح من قبل بظهور الإرهاب فى بلادنا وولاء الشباب لأحكام أمراء الجماعات من جهال الدين والدنيا، وهو مالا يجب أن نسمح بعودته على أية صورة أو خلف أى قناع مرة أخرى، خاصة هؤلاء الذين يتجشأون علينا طعامهم السمين فى شاشات التلفاز بكل ما هو ضد القوانين المعمول بها، ناهيك عن كونه ضد كل ما هو عقل ومنطق وعلم، مما ينتهى بالعقلية الاسطورية إلى سيادة الموقف.

وإنى هنا ادعو كل من يهمه الأمر إلى الضرب بيد من حديد على يد كل من يستهين بالدولة وتشريعها لصالح شئون لا علاقة لها لا بالواقع ولا بالوطن، أولئك الذين يدينون القوانين الوضعية التى هى تشريعنا لأنفسنا حسب ظروف زماننا ومصالحنا، بحجة أن الله هو الأعلم بظروفنا وأنه قد شرع لنا وانتهى أمر التشريع بعد ذلك إلى الأبد؟

ومعلوم أن هذه الحجة كانت هى سند الفتوى التى افتت بها جبهة علماء الأزهر فأهدرت دم طيب الذكر دوما الراحل (فرج فودة) والمأساة الحقيقية أن هذا التكفير يطال شعبنا كله ودولتنا بكل مؤسساتنا ويخلق بين المواطنين ولاءات هى خيانة عظمى للوطن، تدفع بعض شبابنا المغرر بهم إلى رفع السلاح فى وجه وطنهم وبنى وطنهم.

أما المحزن المخزى فهو أن تتم محاكمة بعض مفكرى الوطن لأنهم اخلصوا للدستور والقانون فتحدثوا عن المساواة من الحقوق والواجبات بين المواطنين بغض النظر عن العنصر أو اللون أو الجنس أو الدين وهو ما حدث مع كاتب هذه السطور، ولولا قاض يحترم نفسه ويحترم القسم الذى اقسمه ويخلص لوطنه، الاستاذ سلامة سليم، لكان العبد الفقير لم يخرج من حبسه بعد كما حدث لبعض زملاء الهم والغم، وطبقت عليهم أحكام دولة الخلافة الخفية لا أحكام دولتنا الشرعية، والعجيب أنه تم تنفيذها وقامت بتنفيذها دولتنا الشرعية كمقاول من الباطن للحكومة الخفية ؟!

ومن جانبهم يصر مشايخنا على قاعدتهم لضمان قعودهم على صدورنا أطول فترة ممكنة، ويدرجون تحتها مجموعة من المحاذير والموانع القامعة التى لا تكاد تترك للمسلم فرصة للتفكير فى أى شأن لأنها إنما تعمل على تسليمهم عقله لهم تماما وبدون وصل استلام، لتتم إذابته فى العقل الجمعى الذى تم تنميطه وتجهيزه وفق اطر كهانية ما أنزل الله بها من سلطان، فكان ما كان ما نرى فى شارعنا وفى سلوكيات ناسنا، وكان ما كان من هزائم وتخلف وانحطاط حضارى لا شبيه له فى عالم اليوم، بتشابه النسخ العقلية

فى طبعة واحدة بطائفة واحدة يسهل إمساكها وتحريكها، وهو الأمر الذى يشكل خطورة هائلة على الوطن وأمنه لأنه يكفى لأى مأفون أن يستثير هذا العقل الواحد الذى تم سلبه الوعى ليتحرك الجميع كما سبق وحدث فى أزمة رواية «وليمة لأعشاب البحر» التى ذهب ضحيتها شباب تم نزع عقولهم فى تحرك عشوائى لولا أخذ وزارة الداخلية بالمبادرة السريعة لكان ما حدث هو الأسوأ، لكنا حتى الآن لم نسمع أنه قد تمت محاكمة الطبيب محمد عباس الذى كان وراء هذه الملحمة السوداء. وهى عثرات الدولة الشرعية التى يجب أن تتلافاها. وهذا ما ننبه عليه حتى لا يفكر مأفون آخر فى مناخنا الجاهز لأى خراب ممكن بانتهاز فرصة أخرى.

ومن هنا يمكنا أن نفهم هذا الشأن الاعجوبة، عندما تسرى فى كل العقول فجأة نفس الاستنتاجات لنفس المقدمات بنفس المفاهيم، وتتوحد المواقف إزاء كل شأن فى تراص مصفوف لأنه عندما تتحول عقول المواطنين إلى طبعة واحدة ونسخة واحدة فإنه يمكن لأى فيروس أن يخترقها جميعا. وأن يدمرها جميعا أو يعيد تشكيلها حسب إفرازاته تشكيلا متطابقا تحمل فى داخلها أمراضها التى تسمح للفيروس بتوجيهها وزرع بذرة الفناء فيها.

وهكذا اتضح لنا القاعدة ما يسمونه «الخطوط الحمراء» التى لا يصح الاقتراب منها وهى الخطوط التى تمنع المسلم من التعاطى مع دنيا اليوم ،لأنها بكليتها تخالف هذه الخطوط، لأن تلك الخطوط وضعت لدنيا غير دنيانا، وهو ما يعنى عدم التعلم من المتقدمين والاستفادة من علومهم لتطوير أنفسنا وبلادنا، لأن بيننا وبين هذه العلوم كثيرا من الخطوط المتوهجة إحمرارا، وهى الخطوط المزعوم نسبتها، للدين فتمنع أى حراك لواقعنا المسترخى الآسن، وتستخدم الدين كابحا لأى تفكير ومن ثم لأى تقدم نرجوه لانفسنا ولبلادنا.

المشكلة الحقوقية هنا هى الاعقد لأن فى الوطن مواطنين لا يدينون بالاسلام، إضافة إلى مسلمين لا يعترفون بخطوط هؤلاء لا الحمراء ولا السوداء وهم كثير، وأن هؤلاء وأولئك مواطنون على ذات الدرجة من الأهلية ومن المواطنة وأن الوطن وطنهم وأنهم يملكون من حبات ترابه نصيبا ربما كان هو الأكبر، وأنهم فى حال انتهاك دائم لحقوقهم بما يفرضه فريق الخطوط الحمراء على الجميع بكل أطيافهم السياسية والدينية المختلفة فى محاذير أغلبها إن لم يكن كلها يقف فى نهاية دربهم مسرور يحمل سيفه مسرورا، لأن حوله قد توالد أكثر من مسرور من بنى الوطن يحملون ولاءهم لمسرور وليس للوطن، رغم أن هذا الوطن ليس حكرا على طائفة دينية بعينها أو مذهب بذاته أو جماعة أو فريق أو فصيل سياسى أو من أى لون

كان، لأن مصر ملك لنا جميعا ولنا فيها من الحقوق نصيب كامل غير منقوص كأى مصرى آخر، وهو الأمر الذى يفرضه القانون ويفرض معه على كل الفرقاء قواعده، لكن عندما يتوارى القانون أمام اللحى والجلابيب والمسابح فإنه يكون قد أهان نفسه وسمح لأى فريق أن يتطاول عليه، وهو ما يمكن أن يصيب الوطن بمزيد عما نرى أمام أعيننا من تحد لهيبة الدولة وكسر قوانينها وكل واحد وكيفه ومزاجه ومكاسبه من هذا الكسر المباح الذى أباحه وجود طائفة تتحدى هيبة الدولة وتكسر قوانينها علنا فى الإعلام والتعليم، فتصيب قيمة المواطنة الأساس لأى تماسك اجتماعى بالخلل والضياع، كما تشكل فى نفوس المواطنين هيبة لذوى اللحى، وطاعة لذوى الجلابيب، هيبة أبدا لا يستحقونها ،خاصة إذا ما قورنت بهيبة الدولة المستباحة لكل أفاق أمسك بمسبحة وادعى الحديث باسم الله.

والآن لنبتهل الفرص كما يبتهلون وننتهز النهز كما يفعلون فى زمن بدأت فيه مقاعدهم فى الاهتزاز من تحتهم، وبدأوا يسجلون تراجعات يعلنون فيها ولو من طرف اللسان، أو من باب التقية حتى الوصول إلى صندوق الاقتراع، اعترافهم بأن مصر وطن لكل المصريين حقا وواجبا.

فإذا كانت مصر وطن الجميع على التساوى حسب اعترافهم بعد حلول المارينز قربنا، فإن أى طرف من الأطراف إذا أراد أن يضع لنا خطوطا حمراء لا نتعداها حتى فى التفكير والبحث، فإن هذا الحق يصبح مباحا لجميع الفرقاء ليضع كل منهم خطوطه الحمراء وفق مبادئه وما يؤمن به ،وأن أول من يجب عليه الاعتراف بهذا الحق هم المبتدعون الاصلاء لحكاية الخطوط الحمراء لأنهم المشرعون لهذا الحق لأنفسهم، فإذا كنا جميعا مواطنين على ذات الدرجة فإن للمسيحيين خطوطا حمراء لا يجب التعدى عليها، كذلك هو ذات الحق الذى لابد أن يعلن بموجبه الشيعة عن خطوطهم الحمراء، وكذلك البهائيون وكذلك الملحدون لأنه إن سمحنا للفريق السنى وحده أن يضع لنا جميعا خطوطا حمراء فهو ما سيعنى فورا أننا مازلنا نعيش أيام السادة العرب الفاتحين، وأننا مازلنا اتباعا لهم وأننا إما موالى (أى مسلمين مصريين فى درجة أدنى من السيد العربى) وإما أننا أهل ذمة وهو الأمر الذى كلما ألحنا إليه استثار حساسية سادتنا وتذمرهم غير المفهوم، فإما أننا مواطنون على ذات الدرجة فى وطننا أو أننا شعب يرفض الاستقلال حتى اليوم عن دولة الخلافة الزائلة ولا يريد لنفسه الكرامة فى وطنه، بتسييده ثقافة واحدة على باقى ثقافات المجتمع تضع له قوانينه وتسن له شرائعه وتحيطه بالخطوط الحمراء أينما اتجه، وهى قوانين وقواعد خلافة قررت حل نفسها بنفسها عندما اكتشفت ما آلت إليه من

تخلف، وتخلت عن كل الخطوط الحمراء، بينما نحن نرفض إعلان الاستقلال عنها حتى اليوم. وبما أن المجتمع هو مفردات تشكل نسيجا متماسكا، وبما أن لكل مفردة خصوصيتها التى لابد أن يعترف بها المجتمع ثم عليه أن يعترف بخطوطها الحمراء، فإن صدام هذه الخطوط معا سيكون حتميا. نعم قد يقول قائل هنا: إذن مرحبا بالخطوط الحمراء لكى يكون كل فريق رقيبا على الفريق الآخر، لكنه سيكون منطق الصراع لا منطق التكافل والتآزر الذى لا يمكن إقامته إلا بإلغاء كل الخطوط والموانع والسدود، ولا يبقى منها إلا خطوط قانون تم تشريعه برلمانيا شرعناه بأيدينا ليرضينا جميعا ويفى بحاجات المجتمع المدنى المتماسك قانونيا ودستوريا. قانون الدولة المعاصرة متعددة الألوان والأشكال بجميع أطياف اتفاقها الاجتماعى.

إن صراع القيم والمفاهيم الدينية والايديولوجية والحقائق المطلقة لن يتمكن من الوصول إلى تفاهم لأن كل فريق لديه يقينيات إيمانية تصادر على الآخر، لأن كل فريق يتخذ من موانعه وسدوده متاريس يتمترس خلفها بحسبانها مقدسات تعطيه الحصانة لينال من عقائد الآخرين وقيمهم. وفى حال كحالنا لا يتمكن أى فريق غير الفريق السيد من الرد ولا يملك حق المناقشة فى ظل إحكام سادتنا المشايخ قبضتهم على المساحات المتاحة للرأى والقول بل وعلى دماغ الناس، لأنه غير مسموح بوصول أى آخر لهذا الدماغ ،وتمسى محرماتهم وخطوطهم هى الوحيدة القادرة على الوجود وعلى الفعل حتى أصبحت هى المعتاد الوحيد، لتضحى فى نظر الناس مسلمات لاتقبل النقاش وهو الدكتاتورية عينها والاستبداد ذاته لفريق حصين يفرض سلطته وسلطانه على باقى المجتمع المجرد من أى سلطة ،هو فريق واحد يتبارى مع فرقاء مقيدين لا تصل أصواتهم لبنى وطنهم.

فكفاكم حديثا عن خطوطكم الحمراء لأنها أصبحت خارج التاريخ، خطوطكم عبودية تشرع العبودية والسبايا ووطء ملك اليمين، عبودية تشريع العقوبات البدنية كالقطع والجلد والرجم، خطوطكم تدفع شبابنا إلى الإرهاب بدلا من البناء، وإلى الموت بدلا من الحياة، وإلى الخراب بدلا من العمار، خطوطكم أهلت مجتمعاتنا للعيش فى القرن السابع الميلادى بدون أى محاولة تكيف مع زماننا، لذلك ذهب العالم فى فضائه الحر إلى حيث هو الآن، ولذلك نقبع نحن هنا الآن، خطوطكم لم تعد تصلح لا للوطن ولا للعالم ولا لقوانين واتفاقات ومعاهدات دولية مبرمة بيننا وبين الدنيا وأممها المتحدة، أو ليتحدث كل فريق عن خطوطه الحمراء، أو كل فرد، لأن لى شخصيا الكثير من الخطوط الحمراء، أريد طرحها فى زفة الخطوط الحمراء باعتبارى مواطنا صالحا ونظيفا، أمثل حزبا واحداً هو نفسى.

الإسلام والجراد؟!

نادراً ما تجد فى الصحيفة الكبرى قولا مثل قول سكينة فؤاد ٢٠٠٤/١١/٢٥: «الحمد لله أن أكد فضيلة شيخ الأزهر أن اصطياد الجراد بهدف أكله ليس تكليفا شرعيا، وإنما أمر اختيارى. حتى لا يفوتنى واجب شرعى بعد دعوة لجنة الفتوى لاصطياد الجراد وأكله، لمساعدة الحكومة فى القضاء عليه، ولأن القدوة خير مثال فكان يجب أن ينقل لنا التليفزيون صورا للجنة وهى تتناول أطباق الجراد، أو صورة الحكومة وهى تفطر وتتغذى وتتعشى على أطباقه، **ولا أعرف ما هى ضرورة أن يتدخل الأزهر فى أمر الجراد**» وجملتها الأخيرة هى سؤال مفصلى يتعلق بمفاصل ثقافتنا وحرصنا عليها، والإجابة عليه هى إجابة أيضا على أسئلة كثيرة حول تخلف المسلمين المثالى. وهنا سنحاول معا أن نضع يدنا على الأسئلة والأجوبة، لنحدد بدقة ليس علاقة الأزهر بالجراد، وإنما علاقة الإسلام بالجراد، لأن أزاهرتنا عندما يتحدثون فى شأن من شئون دنيانا فهم يرجعونه دوما إلى رأى الدين الذى يتمثلونه ويتماهون به، ويصبح الحديث كما لو كان صدى لرأى الله مباشرة، خاصة عندما تجد بعضهم يفتى فى التليفزيون ووراءه تجرى الشموس والنجوم والأقمار وبجواره لفظ الجلالة كما لو كان هو الذات الإلهية أو أنه رسولها المباشر جاءنا قافزا لتوه من بين أكوانه ومجراته وكواكبه فى إيحاء مرفوض وغير جائز بل وخال من الذوق الإيمانى فى التعامل مع رب الأكوان وطريقة الانتساب إليه.

وبعد تكليف المسلمين فى مصر بأكل الجراد بفتوى شرعية من لجنة الفتوى بالأزهر لمساعدة الحكومة فى القضاء عليه تقدم الإمام الأكبر بفتوى توضيح «أن اصطياد الجراد بهدف أكله ليس تكليفا شرعيا وإنما أمر اختيارى.. وأن تناول الجراد كطعام ليس مخالفا للشريعة الإسلامية ولا يدخل فى قائمة الأطعمة المحرمة على المسلمين» ومن ثم أعفانا إمامنا من هذه الوجبة التى لم نعتد عليها فى بلاد النيل، وحوّلها من تكليف إلى اختيار.

بعد أن دخل الجراد مصر ينهش ما تبقى لفقرائها فى الحقول، وبعد أن أحسنت وزارة الزراعة استقباله هاشة باشة مرحبة بحلوله أهلا ومجيئه سهلا، كان الحل هو تشجيع الفقراء على تناول الجراد بحسبانه طعاما تناوله من قبل الأسلاف المسلمون والعرب الأوائل فى بواديهم الشحيحة وبيئة الندرة التى كانت تسمح بتناول كل ما تقع عليه اليد أيا كان ،فكان العربى يأكل أى شىء يتحرك أمامه مع تحاشى السام منها بحكم خبرة الأجيال.

وجاء الإسلام فى مجتمع الندرة الشحيح مطابقا لعاداتهم فى تناول الطعام فلم يحرم لا أكل الجراد ولا أكل الضب «نوع من الأبراص الكبيرة السمينة الغنية بالبروتين» بل إن الجراد والضب يعتبران حتى الآن فى موطن الإسلام الأول من ألوان الطعام المفضلة والنادرة.

غير المفهوم أحيانا فى إصدار الفتاوى المتلاحقة، هو تركيزها على مدى الحلالية فى الموضوع دون تأثيم المقصرين والمطالبة بمحاكمتهم ولو مرة، ودون مراعاة فروق البيئات وظروفها والمستساغ فيها حسب هذه الظروف من أطعمة، وهو ذات الشأن الذى يفعله كل السلفيين بإحياء البيئة القديمة وإقامتها من مرقدها زمن السلف، بتقليد تلك الحياة القديمة زمانا، المفارقة مكانا فى الزى والسلوك وطريقة الطعام وكل التفاصيل الصغيرة فى الحياة أو الكبيرة، وها هى أشكال الطعام ذاتها، الجراد الذى كان يأتى لصحارى الجزيرة خيرا عظيما بما يقدمه من كميات بروتين هائلة تتساقط عليهم إعياء وجوعا من أسرابها فى صحاريهم الوسيعة، بينما كان الجراد ذاته يشكل خرابا للبلاد الزراعية وضياعا لمحصول عرق وجهد العام كله. ولم تكن موجات الجراد وحدها هى التى تهاجم المحصول عند نضوجه بل أيضا موجات البدو الجائعة على الحدود التى كانت تتربص بالفلاح وهو يلقى بذوره وهو يحرث حتى ينضج محصوله لتهبط عليه تسلبه عرق العام وبعض الأطفال والنساء، ورغم أن هذا كان جرادا وذاك كان جرادا فى نظر الفلاح المنتج، وأن كلاهما كان شرا عند المزارع، فإن الجراد عند البدوى كان خيرا بينما كان جرادا يأكل جرادا فى نظر الفلاح.

إن سادتنا المشايخ لا يحتسبون فارق البيئة ولا الزمان ولا المكان، إلا بما يوافق الهوى، فالثريد الذى هو سيد الطعام حسب الحديث النبوى، وكان سيده لأن القمح مادة الثريد الأساسية كان طعام النخبة الثرية بوصوله من مصر إلى ميناء الجار على الساحل قرب مكة، بينما كان القمح طعام العوام والفقراء فى مصر، ولم يعد الثريد سيد الطعام فى بلاده بعد معرفة البدو للأرز والدجاج والبط والحمام وظهور أكلات من لون (الكبسة) و(البريانى) و(الكباب) ولم يعد أهل الثريد يأكلون الثريد لتغير الأزمان والعوائد والتقاليد باتصالهم بالشعوب الأخرى.

ويريد مشايخنا أن نأكل جرادهم وثريدهم، ولأن مشايخنا لا يريدون أن يتركوا شأنا من شئون الزمان إلا وتدخلوا فيه ودسوا فيه أنوفهم لإثبات ضرورة وجودهم سادة ومفتين وشارحين، فقد تكرموا علينا بفتوى أكل الجراد وهو ما لا يناسب طبائعنا ولا أذواقنا ولا ظروفنا البيئية، ولأن أكل

الجراد لن يمنع أسرابه الهائلة من التهام كل ورقة خضراء فى بلادنا، ولأنه حتى لو اجتمعنا للدعاء لرفع المصاب فلن يكون للدعاء علاقة بخطط الجراد وخط سيره، وربما لو دعونا على وزارة الزراعة لكان هو الأجدى، وهو بدوره الدعاء الذى لن يفعل شيئا فى واقعنا ولن يصيب وزارة الجراد إلا باستفحال شأن جرادها الداخلى، أما المصيبة الأفدح فى القضاء على الجراد بأكله أن هناك دولا أخرى مر عليها الجراد وقاومت أسرابه برشه بالمبيدات الحشرية بكل أصنافها وما وصلنا منه ما استطاع المقاومة لكنه يحمل السم الزعاف لكل من يأكله تطبيقا للفتوى. ولا تدرى هنا هل أسرع أصحاب اللحى والجلابيب القصيرة وصويحبات يوسف من محجبات ومخمرات ومنقبات إلى هذه الوجبة الأصيلة السلفية تأكيدا لسلفيتهم أم أن أنفسهم عافته، لكنها لم تعف عن لوازمه المرافقة تاريخيا له كالزى القديم الذى يلبسونه تأسيا بالسلف، باختيار دون اختيار، مما يشير إلى التطبيق والالتزام حسب المزاج والهوى، رغم أنهم كان بإمكانهم هضم وجبة الجراد الثمينة ملتزمين أيضا بشرب مكة كولا (ملتزما) ومع هذا المناخ وذلك الحال لا تفهم استخدام الدين فى إعلانات الكسب غير المشروع على حساب أرواح العباد فى إعلان «اشرب ملتزما» وليس لنا من هذه الكولا المكية سوى الاسم فنحن لانستطيع حتى صناعة غطاء القنينة، وليس لدينا مزروعات الكولا، وليس لدينا الآلات اللازمة ولانعرف عنها سوى تشغيلها.

وإذا كنا سنأكل الجراد فقرا بعد أن تهاوت الأوضاع فى بلادنا إلى ما دون حياة البداوة التى ارتفع شأنها بسعر البترول الذى دفعنا فى رفعة دماء أبنائنا فى حروب متتالية منعت اليهود من استعادة خيبر، فإن كتب الفقه التى يدرسها أبناؤنا وبناتنا فى مدارس الأزهر تفتح لنا الباب واسعا للحصول على ألوان مختلفة وشهية من البروتين رخيص الثمن والمتوافر والحمد لله ودون أن نرتكب إثما، فيقول كتاب: «الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع ص٣١، ٣٢ شرح ج١ المقرر على المرحلة الثانوية الأزهرية»: «ويستثنى من النجس ميتة لادم لها سائل، بأن لا يسيل دمها عن شق عضومنها فى حياتها كزنبور وعقرب ووزغ وذباب وقمل وبرغوث، لا نحو حية وضفدع وفأرة».

أبشروا يا فقراء المسلمين سادتنا المشايخ لما يطالبوا بزكاة الركاز على معدن البترول، لكنهم صنعوا لكم الفرج من حيث لاتحتسبون. ويمكنكم الآن أكل الجراد والزنابير والعقارب والأبراص (الوزغ) والذباب والقمل والبراغيث هنيئا مرئيا حلالا زلالا، حلا للمشكلة الاقتصادية وإشباعا لملايين الأفواه الجائعة، وهكذا الحلول وإلا فلا!!

لكن هناك فتاوى أخرى ترى رأيا اخر وقد نشرتها نفس الجريدة القومية الكبرى الغراء فى صفحة الفكر الدينى عندما تساءلت الصحفية بحر العلوم أمانى ماجد: «وتساءل الجميع هل ظهور هذه الجيوش من الجراد بسبب غضب إلهى أم مجرد ظاهرة طبيعية بسبب تقصير بعض الجهات».

وبالطبع لم يتساءل الجميع لكن السيدة الصحفية ومن لف لفها يرون أنفسهم الجميع دوما ويتصورون كل الناس داخل هذا الجميع، لأنه لم يعد يسأل مثل تلك الأسئلة اليوم أحد سواهم وهم قلة وليسوا الجميع، فالجميع اليوم مشغولون بشئون أخرى ويفكرون بطريقة أخرى. لكن المدهش أن الأخت الصحفية حملت تساؤلات (جميعها) إلى «الكاتب الإسلامى الكبير أحمد بهجت» ولا بأس من تمرير هذا التوصيف فيجوز إطلاق وصف الكبير هنا أخذا بمبدأ كبر السن، ومن ثم يشرح الكبير قائلا: «إن واقعة الجراد هذه لم تضرب مصر لأول مرة بل أشهرها كانت فى عصر موسى عليه السلام وفرعون.. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وكانوا قوما مجرمين» ويضيف الكبير «والمصريون إزاء هذا الموقف لجأوا وتوسلوا إلى موسى أن يدعو ربه برحيل أسراب الجراد، ودعا نبى الله ربه عز وجل أن يكشف عنهم هذا العذاب، ورحل الجراد» الكبير فيما يبدو لا يعلم أن ظاهرة أسراب الجراد ظاهرة متكررة طوال التاريخ، وأنها لم تكن هذه المرة فقط، بل إنها حدثت زمن الصحابة وأكلوه هنيئا مريئا ملأوا به البطون لأنه كان خيرا عميما، لكنه فى بلد مثل مصر كان هو العذاب كما قال الكبير، ليس زمن موسى وحده وليس فى زماننا وحده، وليس لخاطر النبى موسى وحده انتقاما من المصريين المجرمين وحدهم. فهى أرتال بحر طائر من أمواج الجراد هى التى تحدد طريقها وفق اتصالاتها بالبيئة والرياح، وغريب المسألة هنا أن النبى موسى وهو نبى اليهود وهم شعب بدوى قد سلط الحشرات على مصر بغضب ربه يهوه كما فى التوراه ،لأنه كان عالما بأن الحشرات فى بلاد الندرة والبوادى نعمة لأنها مصدر عظيم للبروتين، لكنها فى بلاد الوفرة والزرع نقمة، تقابلنا مع الكبير هنا مسألتان: الأولى هو عودته المستمرة ومعه أمثاله من الكبار إلى تراث اليهود كلما تعلق الأمر بمصر، يتحالفون فيها مع يهود الأمس ضد الوطن وضد الأسلاف العظام شماتة فيهم ورفضا لهم وتكفيرا وتجريما، ولا تفهم إذن سر عدائهم ليهود اليوم مادام هذا هو منطق الأمور، أللهم إلا إذا كانت كراهية الأسلاف العظام قد فاقت كراهيتهم المعلنة ليهود اليوم، والثانية أمر جلل ومصيبة من

العظائم، ترحل بالولاء بعيدا عن مصر دوما، فإذا كان الصراع بين مصر واليهود انحازا لكبار لليهود، وإذا كان الصراع بين مصر وفاتحها العربى انحازوا للغازى وليس لمصر.. فلماذا أنتم هنا يا سادة؟ لماذا تنعمون بخير مصر وتلهطون ما منحتكم إياه دون حمد ولا شكور انتم بل مع ولاء لأى عدو لمصر.. ألا ترون قرائى أننا بحاجة لصك قوانين جديدة تحاكم مثل هذا الولاء وتدينه وتعاقبه؟

لقد جرموا أجدادنا حتى يسلبونا مصر ويحكمونها، ويسلبون مصر ولاءنا لها ليصبح ولاء لهم هربا من أجدادنا المجرمين.

ولو عدنا للقصة التراثية حول موسى سنجد أن مشكلته كانت مع فرعون واحد مزعوم من بين مئات الفراعين الذين حكموا مصر بالحكمة والقانون والأخلاق. نفس الفكرة «اسلم تسلم» التى توجه لشخص ملكى ولا يعلم شعبه عنها شيئا، ويتم عقاب الشعب كله فى حالة لم يسلم الفرد الملكى أو الحاكم عند الغزو.

وفى كل الحالات سنلحظ أن العقاب الجماعى يعم كل الناس بإثم فرد، إن كان قد أثم فالكبير يستطرد منوها بقوله: «وهذه القصة توضح أن الجراد صورة من صور العقاب وآية من آيات الابتلاء والغضب الإلهى على عصيان البشر»؟!

لكن الكبير لا يقف هنا منفردا وهو يتهم إله الكون العظيم بعدم القدرة على الفرز والتمييز بين الشرير والصالح فيرسل كوارثه على الجميع تأكل الحرث والنسل، فينضم إليه الدكتور أحمد عمر هاشم وهو كبير بدوره ويقول كلاما كبيرا أيضا ومنه قوله: «أن أسراب الجراد هى غضب من الله تعالى سببه ما يقع فى بعض دور المسلمين من ظلم وإجرام وارتكاب الذنوب، **والله عز وجل ينبه بشىء بسيط** وهى هذه الأسراب.. إن الناس قست قلوبهم ولا يرفع هذا البلاء إلا التوبة وأن يكف الظالمون عن ظلمهم ويثوبوا إلى رشدهم». ،ثم يدعو سيدنا هاشم جميع المسلمين لطرد الجراد كما سبق وطرده رب موسى بالدعاء التالى: «لا إله إلا الله العظيم الحكيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم» المهم أن الجراد أكل ما شاء وطار عندما شاء، ورحل حسب جدوله هو قبل أن ندعو هذا الدعاء المتين، المشكلة عند الكبيرين هى رؤيتهم أن «جميعهم» هم الأطهار الكبار وليس لهم مثل عامتنا ذنب فيما حدث من غضب إلهى بل هم الناصحون العارفون المطهرون، جميعهم لم يرتكبوا الذنوب ولم تقس قلوبهم مثلنا جميعا، فجميعهم حلوين طيبيين

وجميعنا وحشين عصاة!! أليس هذا هو التكفير؟ وأليس هذا عقل خرافى أسطورى، إدانة للناس طول الوقت بما لم يرتكبوا، وإشعارهم بالذنب الأبدى الذى لا ينتهى لكى يرضى عنا الله ويرسل لنا أسراب العلماء والعلم الإنسانى على جميع صفوفه بدلا من الجراد.

الدكتور عمر هاشم هو نفسه من قال ذات القول أيام الزلزال الذى دمر البيوت فوق رؤوس البشر وطحن الأسمنت بعجين الأجساد وقال ذات الكلام: **«إن ذلك تنبيه بسيط من الله»** ولم يكن الزلزال تبنيها بسيطا بل كان كارثة قومية أصابت أكثر ما أصابت أصحاب البيوت المتواضعة من فقراء مصر وأصابت أكثر ما أصابت الأطفال الذين لا تملك حواسهم إتيان المعاصى والشيوخ الذين كفت حواسهم عن إتيانها لعجزهم، ومن تمكن من النجاة هم الشباب القادر على إتيان المعصية المقصودة. إنها عقلية الإبادة الجماعية(المهابدة) التى تأخذ الطالح بالصالح، عقلية تكفير الناس للحصول على تفسير لظواهر لا علاقة للدين بها، ولا مجال لرجال الدين الحديث فيها، لكنهم يفرضون أنفسهم فى كل موقف وفى كل حدث ليثبتوا دوام وجودهم حتى فيما لا حاجة لنا بهم، وإذا كان الجراد حسب كلام الكبيرين نقمة وعذابا ويهاجم البلاد الظالم أهلها، فلماذا أحل الإسلام أكله وكان يهاجم مكة والمدينة طوال العصور وحتى الآن رغم أنها أرض الله المقدسة، وهل كان الجراد زمن النبى وزمن الصحابة الكرام كمعلوم من الطعام غير المحرم على المسلمين نعمة أم نقمة؟ وهل كان أهلها من المجرمين والذين قست قلوبهم أم من الصحابة المكرمين؟ وإذا كان الحال كذلك فلماذا نحن وأسلافنا العظام المجرمون طوال الوقت؟

لماذا لا يتوقف سادتنا أهل الدين عن التدخل فى كل شأن فى حياتنا بأسلوب أصبح غير محتمل؟ لماذا تحريم لعب الطاولة ولماذا تحريم رياضة اليوجا؟ لقد حرمتم كل أمر على الناس حتى عادوا كالعرجون القديم، كالخشب المسندة، وخلت بلادنا من كل ألوان المرح وانتهت كل الكرنفالات.. فحتى الطاولة أصبحت حراما؟ يا إخوانا اتفقوا مع بعضكم أولا، المسلمون عيدوا هذا العام على ثلاثة أيام السبت والأحد والاثنين؟ أليس هذا الشأن أجدى من تكفير الناس بالجراد؟ أبشركم أيها المسلمون: هناك بحث الآن بين سادتنا المشايخ لإطلاق قمر صناعى إسلامى تكون مهمته رؤية الهلال لتحديد بداية الأشهر العربية ونهايتها؟ الحق أقول لكن:

«أخفضوا صوتكم وأنت تقولون هذا الكلام لأن فضايحنا أمام العالم أصبحت بجلاجل». أترونكم وهذا حالكم بقادرين على إصدار فتاوى تناسب العصر والزمن وتفهم أبسط بسائطه التى يعلمها تلامذة الابتدائى

أو مفترض أن يعلموها؟ أو تسكتوا أسكت الله لكم حسا؟ بالمناسبة حكاية القمر الصناعى هى قول كبير آخر، يتحدث هذه الأيام كثيرا فيخطئ كثيرا ونتمنى أن ينعم الله عليه بنعمة الصمت والإنصات أكثر من الكلام.

إن صناع الحضارة لم يكونوا من رجال الأديان السماوية الثلاثة، بل كانت الحضارة أنشط قبل ظهور إكليروس الأديان السماوية، ثم إن التحضر الحديث لم يحدث إلا بعد التخلص من سطوة الكنيسة، ولم يحدث لبلد إسلامى واحد سوى تركيا التى تحركت مع أتاتورك نحو الحضارة، إن الحضارة والتقدم لم يقم بهما يوما رجال الدين بل كانوا دوما معطلا وقامعا ومانعا.

والموت ضرورى للتطور، لأنه لو لم يكن هناك موت لما كان هناك تطور جديد، فالتطور يعنى موت القديم ليفسح المكان لمولد الجديد، وإن استمرار القديم دون موت فلن يكون هناك تطور لجنين جديد ينمو فى بيئة جديدة، والبيئة الجديدة اليوم لا مجال فيها لمشايخنا ولكلامهم الذى يجب أن يموت حتى لو بقتله، بقتله بحثا وردا وفضحا، لنسمح للمستقبل بأن يأتى.

جماعة العلم والإيمان
آما آن لكم أن تستريحوا وتريحوا؟!

عندما تهتم صحيفة كبرى أن تكتب بلون مميز فى صدر خبر هام لديهاكلمة (خاص)، فإنها تعلن للقارئ حصولها على كسب وسبق صحفى كبير يستحق التنبيه له وبخصوصيته لتلك الصحيفة التى تمكنت من الحصول عليه، وهو ما فعلته الأهرام عندما أوضحت أن موضوعها (خاص) بها وليس لأحد آخر ولا لصحيفة أخرى، وبعدها كتبت بالبنط العريض عناوين طويلة وأكثر عرضا تعلن للعالم أن: المفكر الإسلامى الكبير رئيس لجنة الإعجاز العلمي بالقرآن يطلعنا على ما لانعلمه.

رمضان شهر نزول صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى وزابور داود وقرآن محمد.

هذه نماذج فقط من عناوين الكشف الكبير فى التصريح الخاص للصحيفة الكبرى وليس كل النماذج، أما «المفكر الإسلامى الكبير رئيس لجنة الإعجاز العلمى بالقرآن بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية» الذى سيطلعنا على مالم نكن نعلم فهو سيادة الدكتور الجيولوجى صاحب

الفضيلة الداعية النجم الشيخ «زغلول النجار» ، وإليك قارئى ما قال فضيلة رئيس هذا الشئ الفخيم ذى الاسم الطويل.

يقول فضيلته لا فض فوه وقل كارهوه: إن الله ذكر شهر رمضان فى القرآن لأنه فى رمضان قد نزلت جميع الكتب السماوية، وأما مصدر ذلك فليس بحثا وراء الآثار فى أماكنها وتدقيقها بما يليق بعالم باحث، ولا كشفا جديداً لمخطوط قديم كنانجهله، ولا نقوشا على حجر هنا أو هناك، ولا أى وثيقة تاريخية تشهد بهذا الكشف التاريخى الكبير، ولا حتى بمدونات فى هذه الكتب السماوية نفسها وهى موجودة بين أيدينا بشكلهاالحالى من زمن يسبق الرسالة الإسلامية، ولا تعرف بالمرة شهرا اسمه رمضان، ولا أى شهر عربى آخر، لأن هذه الكتب عندما ظهرت وانتشرت وآمن بها الناس لم يكن هناك أمة أو شعب اسمه العرب قد ظهر بعد على صفحة التاريخ، ولم يبدأ هذا الظهور إلا فى الفترة الواقعة بين الانتهاء التوراة وبداية الإنجيل، كما لم نعرف أن القبائل الشراذم البدائية التي كانت تعيش فى جزيرة العرب قد استشعروا أنهم شعب واحد إلا عندما جمعهم الإسلام على دين واحد، كذلك لم نعرف لغة العرب إلا من تدوين تال يذكر لنا معلقاتهم السبع،والمعلوم علميا أن أقدم نص مكتوب يمكن نسبته إلى العرب كان مكتوبا بالنبطية لأن العربية لم تكن قد ظهرت بعد ككتابة وهو نص امرؤ القيس المدون على شاهد قبره «هذا قبر امرءالقيس بن عمرو ملك العرب الذى حاز التاج وتوفى فى ٢٢٣ق م».

هذاما يعرفه المثقف العادى عبر تداوله لمنجز علم الآثار والتاريخ، وهو الأمر الذى لم يشغل الشيخ زغلول مرة منذ بدأ الكتابة وحتي اليوم، ولم يقم مرة بالتوفيق بين منجز العلم فى التاريخ وبين المفاهيم الدينية، أو التلفيق لافرق، كعادته فى البحث فى العلم عما يلتقى مع نصوص الدين.

لأنه لايعتبر التاريخ علما له وزنه ورواده وعلماؤه وأنه يجب أن يؤخذ من مصادره العلمية، لأن أى تاريخ عنده يؤخذ مما جاء فى كتب التاريخ الإسلامية دون مناقشة، رغم أن فضيلته متخصص فى تاريخ الأرض الحجرى، ويعلم أن لهذا الحجر تاريخ وعلم عظيم الشأن، فإنه لايعطى للإنسان الحق الذى أعطاه للحجر، لأن التاريخ عنده هو التاريخ المقدس وحده لذلك هو يأخذ التاريخ من الطبرانى إذ يقول: «أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الأنجيل لثلاث عشر مضت من رمضان، وأنزل الزابور لثمانى عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من

رمضان»، هذا رغم أن رمضان لم يكن قد اخترع بعد لأن أصحابه لم يكونوا قد وجدوا بعد كشعب وكقومية لها لغة واحدة وكتابة واحدة.

هذا هو الخبر الأول وفيه هذا الأمر المهول الذى أكدت له الصحيفة وأفردت تحت كلمة (خاص) ! وإذا كان هذا هو الكلام الذى استحق التبيين والتأكيد وأهمية أن يكون خبراً خاصا فى أكبر صحيفة فى بلدنا، فيا ترى كيف يفكر صحفيو هذه الصحيفة وأهلها؟ ألا يفسر لناذلك سر الجهالة المعممة فى بلادنا؟

إن تلك الروايات التي تفتئت على علم كبير كعلم التاريخ بفروعه العظمى، هى قصص من ألوان الروايات المصطباوية فى ليالى الأنس البدوية، رووا فيها من الخيال والطرائف ما رأوه من جانبهم فى صالح المسلمين لنأخذه نحن اليوم كمسلمات تكتسى ثوب العلمية لأن الحكواتى هذه المرة رجل دكتور جيولوجى، رغم أنها تبز روايات شهرزاد لملكها الناعس شهريار فى استعصائها على أى عقل صاحى، ويزيدون فى التقديس فيقدمون لغتهم العربية التي لم تتكون كلغة ذات قوام واضح له قواعده وأصوله وفنونه إلا فى الزمن الإمبراطورى الإسلامى، ويجعلونها لغة الأزل وبها حدث آدم ربه وزوجته حواء وبها سيكون الحساب يوم الساعة وبها يجب أن يتسمى كل الناس فى أى مكان وفى أى تاريخ فتصبح أسماء الفراعنة سلهوق بن عمران والريان بن الوليد، وأى حاجة فى أى حاجة فلا مشكلات مع قوم وشيين ذهبوا وبادوا كما يعتقد زغلول وكل الزغاليل.

ولا تفهم هل يكتب زغلول وجماعته حسب المناسبة مايلزمها من مواد محسنة للطعم، وتسلية للصائم بالهيام فى مزيد من تأكيد منهج اللا علم حتى لايكون لنا علم إلا ماعلمنا تراثنا؟

وهل تُطلب تلك الروايات فى الشهر الكريم لتثبيت أفئدة المسلمين حيال شهرهم الفضيل أم هى من باب التسالى الرمضانية كالياميش والفوازير؟ أم هو منح الرسالات السابقة الكرامة بإنزالهاجميعا فى شهر لم يكن معلوما بعد؟ وهل مع كل افتراض حسن النوايا هل نحن بحاجة إلى مثل هذا الخطاب فى زمن أصبح له فى درس التاريخ كعلم فنون رفيعة فى درس اللغات القديمة وفى الانثروبولوجيا والاركيولوجيا والميثولوجيا وفى دلالات العلامات والغوص بكشاف العقل والعين والأذن لدرجة اللمس فى حضارات الدنيا القديمة، هل نحن وفى حالنا المتدنى بين الأمم بحاجة بعد إلى خطاب (العلم والإيمان) ؟ أم نحن بحاجة إلى خطاب يكرس العلم

ومنهجه فى حياتنا ويحترم العقل والعلماء من أجل قراءة واضحة علمية لتاريخنا وتاريخ الدنيا حتى نستطيع أن نتكلم لغة الإنسان الآن ، لا لغة إنسان انقرض وانقرضت معه ثقافته البدائية ومناهجه الابتدائية، لاشك أننا بحاجةإلى الخطاب الثانى كى نكرم أنفسنا بدلا من شهورنا، فالإنسان لاشك هو الأكرم والأجدر بالتكريم.

ومن شهورنا المقدسة إلى أيامنا المقدسة ينتقل صاحب الفضيلة مؤكدا لنا.«أن يوم الجمعة كان مفروضا على الأمم من قبلنا .. وهدانا الله تعالى إليه، فأصبح الناس لنافيه تبع واليهود غدا والنصارى بعد غد ،ومعنى ذلك أن اليهود أصبحوا يعظمون يوم السبت، وأصبح النصاري يعظمون يوم الأحد وأنصرفوا عن يوم الجمعة».

أولا لابد أن نلاحظ هنا ملحوظتين سريعتين، الأولى تعريضه بأهلنا وشركاء وطننا وتاريخناومستقبلنا من مسيحيى مصر الذين انصرفوا عن حق الجمعة إلى باطل الأحد، وأيضا لابد أن نلحظ أنهم واليهود سيعظمون الجمعة، سيعظمونها يوم يسود الإسلام الأرض بعد أن نحتلها إن شاء الله «؟!»

ثم يأتى فضيلته بالحديث، وما أكثر الحديث عند الحاجة حتى لو تناقضت الحاجات، ليقول : «سيد الأيام يوم الجمعة، وأعظمها عند الله تعالى، وهو أعظم عند الله تعالى من يوم الفطر وعيد الأضحى، وفيه خمس خلال: خلق الله عز وجل فيه آدم عليه السلام، وأهبط الله تعالى فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى الله تعالى آدم، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئا إلا أجابه الله تعالى إياه مالم يسأل حراما، وفيه تقوم الساعة».

والحديث المذكور من أحاديث الأحاد المعلومة، كما أنه يخالف أحداث التاريخ مخالفة تامة فلم يتم استخدام اسم الجمعة كعلم ليوم من أيام الأسبوع إلا فى الزمن النبوى، وقبل ذلك كانت العرب تسميه يوم العروبة، وكان على المستوى الدينى يوم الاحتفاء بكل ما هو وثنى، وأبعد زمان يمكن افتراضه «لعدم وجود وثائق تاريخية» ليوم العروبة هو زمن قصى بن كلاب.

ولاتعلم ما الذى سيستفيده المسلم الصائم التقى المقهور الذى يعيش هزيمة حضارية ماحقة من هذا العلم بشأن يوم الجمعة؟ أو ما الذى سيحققه من تحرك فى واقعه الآسن من معرفة إن كان آدم قد نزل يوم الجمعة أو يوم الخميس؟ وإن كان قد خلق يوم الأربعاء أو يوم الثلاثاء؟ أم

هي فقط نكاية لغير المسلمين بكلام لا يؤمن به إلا بعض المسلمين، لتشريف أيامهم وشهورهم على حساب التاريخ كله؟ وهل هكذا نكون قد تفوقنا على غيرنا وتميزنا بيومنا الاسبوعى وبشهرنا السنوى؟

وبما أن هذا الحديث كان موجوداً طوال العصور الماضية ونحن نسير من هزيمة إلى أخرى ومن تخلف إلى مزيد ، ومع وجود رجال الدين فى بلادنا بعدد كما الليمون والحمد لله، فلماذا لم يبحثوا لنا بعلمهم الذى يستحقون بسببه لقب (العلماء) عن تلك الساعة مقبولة الدعاء فى يوم الجمعة، ليدعون فيها الأمة كلها للدعاء دعوة رجل واحد فيسقط أعداؤنا وتزول أمريكا من على الخريطة ويستأسر اليهود والمسيحيون والشيعة بالمرة، لنمارس عليهم كل ألوان الذبح الجميل فتحل مشاكلنا النفسية ونعيش سعادة النصر؟

أم هى لعبة فوازير رمضانية نظل ندعو حتي يسقط الدعاء فى وعاء الساعة المطلوبة إن تمكنا من الدعاء عندما تفتح فجأة.. وأنت وحظك؟ وهل يمكن عندها الاستعانة بصديق شيعى مثلا أم لا يجوز؟ وهل هذا حديث يحدثنا به رجل يزعم أنه تلقى العلم بمناهجه فى زمن هو الأسود منذ أصبحت حياتنا هى: أنت وحظك، حتى غادرتنا الأمم إلى بعد قصى ساحق يصبح معه مثل هذا الحديث جريمة تصرف الناس عن مشاكلهم الحقيقية، وعن السعى لحلها بطرق علمية، وتضليل مقصود لمكاسب ماديةرخيصة على حساب عقول المسلمين، تضليل لهذه العقول فى متاهات من الطرق الأسطورية لاتؤدى فى النهاية إلا لمزيد من تفاقم المشاكل لانصراف العقل إلى الماضى الذى مضى عن حاضره المزرى ومستقبله غير المرئى؟

ومن ثم تتالى التساؤلات على سادتنا أهل العلم والإيمان تلح تطلب منهم الإجابة لأن لزوم الصمت آفة المذنب: هل تقصدون سادتى إقناعنا بدين نؤمن به عن طريق علم لا نؤمن به أنتجه عقل قاصر كما تؤكدون؟ أم أنكم تشكون فى ديننا لاسمح الله فتبحثون للإيمان عن مبررات رغم أن الإيمان لا يحتاج تبريراً؟ أم أنكم تقصدون إقناع العلماء بترك علومهم ومختبراتهم لنعود جميعا إليكم كمصدر للمعرفة اليقينية؟ أم تراكم تريدون اقناع العلماء بالكف عن البحث والتجريب والاكتشاف والاختراع ليتجه العالم الغافل كله نحوكم يسألونكم النظريات العلمية الجديدة حتي يتأكد العالم أنه يطلب العلم من أهله ومن مصادره من شيوخنا الأجلاء؟ أم أن المقصود مثلا بحكاية الجمعة ورمضان تسجيل جون فى غير المسلمين؟ لنقول لهم بكل فخر بالجمعة وبرمضان عليكم واحد؟ أم يا هل ترى المراد

أن يتوب كل من فى الغرب الكافر من عباد عن المنهج العلمي والبحث الكشفى الذى أدى إلى انهيارهم الأخلاقى وعارهم وعريهم ليلحقوا بالمسلمين أخلاقا ومجداً وتقدما؟ وهل بالإمكان أن تتطوعوا فورا لاستلام راية البحث والتجريب والابتكار والاختراع من الكفرة والمشركين لتعلو راية الإسلام خفاقة بفضلكم الذى سنعرفه لكم ونقدره، ونجعلكم قادة لنا دون تقية وصندوق اقتراع قد يأتى بكم أولا يأتى، ودون دم وذبح وانقلابات همجية، إن كنتم كما تزعمون سادتى ففى يدكم خلاصنا وتقدم أمتنا ولكم الزعامة مطلقة ولكم علينا الفضل الأبدى.

لكن الأمر بالطبع ليس كذلك، فهم يملكون مساحات التلفزة والصحفجة ومقررات المدرسة وأسماء لوامع ومريدين كالحواريين تبعاً، ومع ذلك لم يتقدم أحدهم بكشف أو اختراع جديد واحد نرقص حوله بالدفوف فى كرنفال إسلامى عالمى لنغيظ به العالم ولو مرة؟ ولو مرة.. أيتها السنين الغبرة المرة.

نحن نعلم أن الأمر ليس كذلك لأنه لو كان كذلك فقد كان أمامهم التاريخ ألف عام متصلة يركبون علينا ويخطفون اللقيمات من أفواه عيالنا لتتراكم عندهم قصورا وجنات نعيم، فهل كانوا عبر هذا التاريخ يجهلون ما بأيديهم من علوم حتى نبههم إليها أهل الصليب والخنزير وإخوان القردة كما يحبون أن نستخدم من مفردات؟ أم كانوا يعلمون لكنهم كانوا كسالى لايشغلهم وطنهم ولا أهلهم ولا ماوصلت إليه أحوالنا من تردى فاستطابو النوم عبر عصور الغم والكرب العظيم؟ أم أنهم كانوا صما بكما عميا فهم لايفقهون؟

مع كل هذه الأسئلة وكل ما يمكنك أن تبنى عليها من استنتاج أيها القارئ، فإنك ستجد مع كل إجابة أن أهل (العلم والإيمان) ليسوا أهلا لا للعلم ولا للإيمان، وليسوا أهلا لأى تقدم بما يقدمونه لشبابنا من مخدرات تمنع العقل عن العمل ومثبطات تمنع الجلد على المشقة والجهد على تحصيل المعرفة، ومعوقات تقنعهم وهماً بأن كل العلم فى أيديهم فتعوقهم عن طلب المعرفة خارجة.

هؤلاء السادة ليسوا أهلا للاستماع إليهم بعد أن ظلوا صامتين كشواهد القبور عبر القرون حتى اكتشف لهم العلماء فى الغرب (سبوبة) للكسب غير المشروع على حساب عقل الوطن ومستقبله، حتى فى ميدان صناعة الأساطير المبهرة تفوق علينا الكفرة بعلمهم وصنعوا إبهارات هوليوود السينمية التي تبهر أساتذة الأساطير الدينية فى بلادنا.

سادتى (أهل العلم والإيمان): فى بلاد العلم والحريات يعلمون ببساطة البداهة أن العلم هو إنتاج الإنسان وعقل الإنسان وحواس الإنسان من أجل سعادة الإنسان ورفاهيته ورفع كل ألوان المعاناة عنه، لأن العلماء من بنى الإنسان يعلمون حاجات الإنسان وآلامه وكيف يسعد، كما يعلمون كم عانى بني الإنسان عبر تاريخهم من ألوان الأمراض الفتاكة التي كانت تحصد الناس حصدا، كما كان زمن الطاعون والكوليرا والجدرى والسل الرئوى والدفتريا والتيفوئيد والزهرى والسيلان، ولم يتمكن رجال الدين بالدعاء ولا بالصلاة صادقة أم كاذبة من رفع المعاناة عن الناس، حتى قرر الناس هناك أن يرفعوا يد رجال الدين عن حياتهم حتى ألجأوهم معابدهم، ليبدأ العلم رحلته العظيمة من أجل الإنسانية، بحثا وتنقيبا وشقاء ومعاناة بين عدوى المرض وفى الغابات وتحت المحيط في فدائية هى الأرقى بين كل ألوان الفدائية، لأنها فدائية من أجل الحياة لا من أجل الموت، حتى أمكن القضاء على كل هذه الأمراض الفتاكة فى بضع سنين من عمر البشرية الطويل الذى خدم فيه رجال الدين أنفسهم بالقرابين والعشور والنذور والجباية فى كل لون دون أن يقدموا للبشرية مصلا واقيا ولا علاجا شافيا.

وربما لا يدري أهل الدين عندما يردون العلم بمعجزات الأنبياء كسبق إلهى يثبت تفوق الله على الإنسان بالمعجزات، ربما لايعلمون أن العلم ليس فيه معجزات بل هو يرفض الإيمان بالمعجزات، لأنه كد وشقاء وعنت وجهد دؤوب وبذل للنفس رخيصة وراء العلم من أجل بنى الإنسان، ولولا جهودهم تلك ما صحت لنا أبدان، ولا طالت لنا أعمار، ونحن كسالى قعود فى حالة كساح طال أمده، وأحيانا لا تفهم ماذا يريد الشيخ زغلول ومن لف لفه فيما يحدثنا به عن معجزات الهدهد السليمانى الذى كان يفهم فى السياسة كما يفهم فى أصول العبادات، وكيف فهم سليمان تلك اللغة قبل أن يحاول العلم فهم تفاهم الطيور مع بعضها، ومعجزة النملة (اسمها فى قصص الأنبياء للثعلبى جرسا وكانت بحجم الذئب) وشعبها من النمل، وعلاقة هذا الشعب النملى بالشعب الإسرائيلى زمن سليمان، وكيف شهد زمن سليمان اكتشاف سرعة الضوء عندما أحضر الذى عنده علم الكتاب عرش بلقيس قبل أن يرتد لسليمان طرفه، ومعجزات المسيح الطبية فى العلاج التى سبقت العلم الذى لم يصل حتى الآن إلى إحياء الموتى مثله.

يبدو أن سيدى الشيخ زغلول ورفاقه لا يلتفتون إلى أن كل معجزات الأنبياء السابقين لم تخدم البشرية فى شىء، فالريح التى سخرها الله

لحمل بساط الريح السليمانى لم تخدم البشرية فى شىء، وجن سليمان بكل حشدهم لم يقوموا بانتاج مصل مضاد لأى مرض، ولم يطوروا إنتاج النبات والحيوان لإطعام مزيد من الأفواه الجائعة كما فعل العلم، ولم يقيموا مصنعا للطائرات فى وجود بساط الريح، بل إنهم لم يقيموا لسليمان نفسه صروحا شاهده كما لرمسيس وخوفو وأمنحتب، ولم يقم المسيح بتعليم تلاميذه كيفية شفاء المرضى حتى يتم تعميمها للحد من آلام البشر توفيراً لوقت طويل استغرق ألفى سنة بعده.

إن هذه المعجزات لايجب مقابلتها بإنجاز العلم لأنها كانت معجزات خاصة لإثبات صدق النبوات وانتهت بنهاية أصحابها، لأنها كانت معجزات (استعمال مرة واحدة).

أما العلم فلم يصنع معجزات لأن كل ما فيه يقبله العقل ويفهمه كما أنه يسمح بمشاركة أى عقل يمكنه أن يصلح أو يضيف، ولا يحتاج إلى معجزات لإثبات صدقه، لأنه يشك فى هذا الصدق كل يوم فينقد نفسه ويصلح شأنه ويحذف ويضيف فيتقدم لذلك هو علم.

سادتى أصحاب الفضيلة المفترين على العلم، سادتى دكاترة العلم الذين تركوا علومهم ليفتأتوا على ديننا، إن الحياة إنما هى نفحة ونفخة من روح الله، فمن استطاع المحافظة عليها وصيانتها استحق منا التبجيل والتقديس، أما من ركب أكتافنا يأكل آذاننا بمواعظ وفتاوى أكلت الأخضر واليابس ولم تزل تفح فينا نيرانها، فليرحل عن دماغنا لأن زمانه قد مضى، ولأن أحدهم لم يتقدم مرة واحدة بما يصون صنعة الله فى أرضه، حتى تقدم العلماء الفدائيون من أجل الإنسانية للصراع البطولى من أجل المحافظة على نسمة الله فى الأرض، وهم العلماء، وهم العقول، وهم الفعل، الذى تقول بشأنه كتب التعليم الدينية «أن علماء الحضارة المعاصرة وإن كانوا أهل خبرة فى المخترعات والصناعات، فهم جهال لايستحقون أن يوصفوا بالعلم، لأن علمهم لم يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا إنما يطلق لفظ عالم على أهل معرفة الله وخشيته «منهج التوحيد ٣ ث، ص٧٧/ السعودية»».

سادتى (أهل العلم والإيمان) بئس التجارة تجارتكم فهى تجارة بعقل الأمة ممثلا فى شبابها الذين هم مستقبلها، كفاكم ما جنيتم من بلهنية النعيم.. فارحلوا سادتى عنا.

نحن مازلنا قرودا؟!

يفترض رجال الدين أن الإنسان كائن عاجز ليس فى مستطاعه بمفرده أن يفكر أو يكتسب المعارف بجهده، ولا يعترفون أن هناك أصلا معارف يصنعها الانسان بالكشف والبحث والفهم، ولذلك فالإنسان عندهم غير مدرك لمصالحه، لذلك وضعوا لأنفسهم قوانين فقهية تمنع هذا الانسان من التفكير لأنه ربما صادم بذلك معلوما من الدين بالضرورة فاستحق الموت، أو لأنه اجتهد فى شأن يخالف نصا قطعيا قال قراره مسبقا فى هذا الشأن، لذلك فالإنسان يملك عقلا قاصرا تابعا لا يمكنه الاستقلال بصنع قوانين تناسب ظروف الحياة المتغيرة، ولا يمكنه أن يتخذ قرارا بدون الرجوع إلى أهل الدين للتفسير وللفتوى، لأنه عاجز وفاقد للأهلية بالمرة.

المشكلة هنا أن رجال الدين لا ينسون وهم يصوغون لأنفسهم هذه السيادة والسيطرة والوصاية على الناس، أنهم أيضا ناس، وأنهم أيضا بشر، ومن هنا اصطنعوا لأنفسهم أزياء مهيبة وألقابا فخيمة ولغة خاصة تشمل فى معظمها نصوصا دينية كلما تحدثوا، ومؤسسات طائفية خاصة أضفوا عليها القداسة، لإلقاء هذه القدسية فى روع العامة فيصبحون المتحدثين باسم الله، ويصبحون هم الدين، ويتحولون إلى نوع خاص من البشر يقف بين الله والإنسان فى ترتيب الدرجات، ليتحولوا إلى وسائط بين الله وعباده وشفعاء للعباد يمنحون الغفران أو اللعنات، ويطلبون استسلام الإنسان العاجز لهم لأنهم العارف بمصالح الناس عبر معرفتهم بقرارات وعلم رب الناس، بتفويض خفى من الله لهم دونا عن بقية عباده دون أن يبرزوا للناس مرة واحدة نسخة واضحة من هذا التفويض ولا مبررات حصولهم عليه.

والمعلوم تاريخيا أن هذه الرؤية التى روجها رجال الدين لصالح سلطاتهم ليصبحوا الطبقة المميزة تاريخيا عن جميع البشر، قد أدت إلى تخلف البشرية طويلا تحت سيطرة حلف رجال الدين مع أى سلطة كانت، وأحيانا كانوا يحكمون بأنفسهم مباشرة فى دول ثيوقراطية كاملة المعنى والمبنى، حتى أمكن للبشر وهم يصوغون فكرا إنسانيا جديدا، ويرزحون تحت أحكام القتل والصلب وجز الأعناق والاعتقالات للتراجع عما يكشفون بعقولهم، أن يراكموا الفكر الإنسانى الجديد لبنة بعد أخرى ليتركوا البشرية بعد عذاباتهم وموتهم من أجلها تأسيسات فكرية ومناهج عقلية أدت لبزوغ عصر ا لأنوار الذى استحق اسمه التاريخى عن جدارة

واستحقاق، لتبدأ النهضة العقلية الإنسانية بالمنهج العلمى، لتتالى كشوف العقل القاصر لتؤكد أنه لم يعد قاصرا ولا بحاجة لوصاية من أحد، بل لتتالى الكشوف التى تؤكد مدى غباء النظريات السابقة، ومدى فاشيتها وتحالفاتها المشينة ضد إنسانية الإنسان، وبأدلة تؤيد الجديد بالإثبات المحسوس والملموس وبالتجربة المخبرية التى أدت فى النهاية إلى نتائج وإنجازات اختارها الناس بعد تأكدهم من فعاليتها، لتتطور البشرية وترتقى بأدوات إنسانية لا علاقة لها بالأديان، ولتصنع لنفسها الجنة على الأرض بغض النظر عن جنة السماء المؤجلة، حتى دخلنا عصر الاتصالات العظيم والتحكم بالجينات سعيا نحو خلق أفضل مما هو كائن ومما كان هذا بينما لم يكن بيد رجال الدين وهم يفقدون أوراق سلطاتهم على الناس ما يقدمونه للناس سوى كلام لا دليل عليه لأنه ظل غيبا مجهولا لا مصداقية له ولا دليل إلا كلامه فى نصوصه القدسية فكل كلامهم فى المتخيل ، والمتخيل يتطلب من صاحبه أن يكون كذوبا بالضرورة.

وكان طبيعيا أن ينحاز الناس إلى العلم ورجاله، ليسحب التطور معنى العالم ولفظه عن رجل الدين إلى علماء العلم الإنسانى الجليل، بعدما حقق لهم هؤلاء العلماء الرفاة والسعادة والمكاسب العظيمة على كل المستويات والأنواع، من التداوى وتشخيص الأمراض واختراع علاجاتها، بعد الحجامة وبول الجمل والعسل والحبة السوداء والسحر والجان والرقية والمعوذات إلى تشخيص المرض بأدق الأجهزة للوصول إلى أفضل النتائج الممكنة للعلاج، إلى تطور كل مناهج وفنون المعرفة فى التاريخ الذى أصبح له مناهجه وأدواته إلى الاقتصاد بنظرياته وأسسه إلى علوم السياسة التى تقوم على الحريات الإنسانية الكاملة، إلى السعى فى الفضاء بحثا وكشفا وتنقيبا . هذا بينما مازال الإنسان فى بلادنا يعيش مرحلة ما قبل العلم، بل ما قبل النهضة، بل ما قبل زمن الأنوار. يحاول إثبات أهليته فيصادورنه أو يحاكمونه أو ببساطة يقتلونه، حتى يبقى دون سن الرشد فيكبر الجسم دون العقل ليتحول إلى كائن إبله كالقرد الذى يمكنه عزف الموسيقى أو مطالعة التلفاز دون أن يعرف شيئا عنهما .

لقد تجاوزتنا الإنسانية بتطورها المعرفى ومنهجها العلمى إلى مرحلة الإنسان الراقى ونحن عند المرحلة القردية لأنهم يوقفون نمو الانسان فى بلادنا نحو الرشد ويحرمون عليه إدارة شئونه بنفسه ووضع تشريعاته بما يناسبه، لأن هناك من هو أدرى بمصالحه من رجال الدين المحترفين

الذين مازالوا فى بلادنا يؤكدون أن نظرتهم هى الأزلية الأبدية الصالحة لكل زمان ومكان التى خلقت يوم خلق الانسان ولن تسقط حتى قيام الساعة.

لقد كان حلف رجال الدين والسلطة هو أبشع حلف عرفته الإنسانية من فجرها، وسجل مظالم وسحق لكرامة الإنسان عبر تاريخ مقيت، حتى تمكن الانسان فى الشمال من استعادة كرامته وإعادة رجل الدين حظيرته، وحكم نفسه بنفسه بتشريعات تناسب زمنه ومصالحه وكرامته. لكن الأمر فى جنوبنا ليس كذلك رغم أننا على تواصل اضطرارى مع إنجازات الإنسان الراقى للاستفادة من منجزاته، لكن دون أى مشاركة فى هذه المنجزات فانتكسنا من المرحلة القردية إلى مرحلة الطفيليات التى تتغذى على الآخرين ولا تكتفى بذلك بل تسبب لهم أفدح الأضرار، وهو الواضح فى أهم صادراتنا للعالم (الكراهية والارهاب).

وعبر ثلاثة وثلاثين عاما أو أكثر ساد خطاب حلف السلطان والكاهن فى بلادنا بعد صحوة مؤقتة حدثت فى مصر فى عشرينيات القرن الماضى، تم القضاء عليها بقفز عسكر يوليو على السلطة فى ١٩٥٢ولم نعد بعدها حتى اليوم إلى ما حققناه فى القرن الماضى، عندما كان الناس يجدون فى الدين الدعوة لطلب العلم ولو فى الصين ومن المهد إلى اللحد لتكريم بنى آدم الذى كرمه ربه بآيات واضحات، عرف منها أن عصر النبوات قد انتهى وبدأ عصر العقل بالنبى الخاتم، وأن القرار بختم النبوات يعنى قرارا بعدم تدخل السماء فى الأرض بقرار إلهى حتى يتمكن الانسان من بلوغ رشده لإدارة الكون الذى خلقه له الله، لكن الانتهازيين من فجر تاريخ دولتنا الإسلامية قرروا استلام الوصاية من الله على عباده بقرار شخصى مصلحى ليركبوا أعناقنا ومازالوا راكبين ينتهزون موجات المد والجذر السياسى ليركبوا الموجة فى كل مرة باسم الله والدين.

مشكلتنا الآن أنه لم يعد مسموحا لنا أن نعيش الزمن القردى فى مجتمع دولى يسعى للتكامل والتكافل والعيش المتبادل الآمن، وانتهاء عصر عبودية الإنسان لأى من كان، وأن برامج الإصلاح والمبادرات تتالى لإثبات وجودنا كطرف صاحب مصلحة فى هذه الإصلاحات المطلوبة، ورغم ذلك فإن صحافتنا القومية حتى اليوم لم تعلم فيما يبدو بما حدث ويحدث، ومازالت عند قديمها ثابتة لا تريم حراكا، فى حالة موت سريرى تعانى فيه من الهلوسات.

هنا سأختار اختيارات عشوائية مما تنشره صحافتنا فى زمن الإصلاح لنرى كيف يراد للناس أن يفكروا.

فى علاج داء خطير قتال كالسرطان تكتشف صحيفة الأهرام (٢٠٠٤/٤/١) أن العسل علاج اكيد للسرطان والفيروسات والجهاز الهضمى.. كل هذا معا ويستند الدكتور (لاحظ أنه دكتور) رمضان مصرى هلال فى ذلك ليس إلى تجارب علمية ناجحة مؤيدة بالإحصاءات المقنعة وتقنين للأسباب الفاعلة فى العسل وعلاقة تلك الفعالية بمرض السرطان، إنما هو يستند إلى حديث أبى هريرة «من لعق من العسل ثلاث غدوات كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء» ورغم أن السرطان مرض كان موجودا مع البشرية من فجرها فإن البشرية لم تعرفه ولم تشخصه ولم يعرفه الزمن النبوى، لكنه عند الدكتور هو «عظيم البلاء» ويتطوع الدكتور لشرح ذلك الكشف المعجز بقوله إن العسل «يحتوى على مواد تمنع انقسام الخلايا، وبذلك يستخدم العسل كمادة مضادة للسرطان».. والله يحب المحسنين..!!

فسيدنا الدكتور يعلم بشكل غامض شيئا عن السرطان «أنه انقسام الخلايا» ومن ثم يتطوع ليلقى فى روع العامة أنه قد عثر لهم على ما يمنع هذا الانقسام فى العسل، فيقول لهم «كلاما زى العسل» ليس أكثر، لتأكيد إمساكهم بعنان الشفاء والطب دون حاجة لعناء، ولا لعلوم بلاد الكفرة.

لكن صحيفة المساء القاهرية لا ترى ذلك الرأى لأن الدكتور محمد وهدان (لاحظ كلهم دكاترة والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه) يقول «فى ٢٠٠٣/٣/٣١» إن ماء زمزم هو «قاهر السرطان».. أى والله العظيم ثلاثة قال كذلك بل هو عنوان بالبنط العريض، ثم يضع للشفاء شرطا لا يمكن قياسه بأى أدوات ممكنة ولا حتى التعرف عليه وهو «شرط حسن النية» وقد استند الدكتور؟!» فيما وصل إليه من بحث وتمحيص إلى خبر فى صحيفة عن امرأة مغربية ابتليت بالسرطان، وحار الأطباء فى علاجها (لاحظ هنا تبخيس علم الطب لصالح مشايخ زمزم) لكن هذه السيدة « دوامت على شرب ماء زمزم، فقهر زمزم السرطان وكل الأورام الخبيثة بإذن الله الواحد القهار»!!

ومن جانبها تفرد صحيفة الأهرام صفحة كاملة أسبوعيا للشيخ الدكتور زغلول النجار فى خطاب لا يليق إلا بزمن القرود، ومن إبداعات الشيخ زغلول أن بعض المسلمين الباحثين فى العلم تأكدوا بالتجربة

المعملية المخبرية أن الذباب يحمل فى إحدى جناحيه سما ناقعا وفى الجناح الآخر دواء شافيا. كلا لم ينشغل زغلول بالمرض فى حد ذاته ولا بالعلاج الشافى فى أجنحة الذباب، وكيف نستخرج المصل الواقى من الأمراض من جناح الذبابة لنكتفى به بدلا من أدوية بلاد الكفر التى تكيد لنا بعلاجات لا تنفع، ولا حتى الإشادة بهؤلاء العلماء المسلمين وتعريفنا بهم ومن هم وأين أجروا أبحاثهم الباهرة، كل ما شغل الدكتور زغلول هو أن تلك التجربة «من أعظم الشهادات على صدق نبوة ورسالة هذا النبى الخاتم».

وتفسح ذات الصحيفة مساحات لذات الطروحات كما للدكتور أحمد شوقى إبراهيم رئيس المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة، ولا تفهم كيف يلتقيان (المجمع العلمى) و(القرآن والسنة) فللعلم شروط لا تلتقى بحال مع النصوص، والنصوص ثابتة والعلم متغير، والنصوص إلهية والعلم إنسانى، ولا تدرك لأى غرض تقوم هذه المجامع التى لم تحقق حتى اليوم أى إنجاز علمى واحد تتقدم به للعالم كحصوة فى عين اللى ما يصلى على النبى، أللهم إلا إبعاد شبابنا عن الكد والبحث العلمى الصارم إلى القول البسيط السهل فى نصوصنا، نكتفى به ونظل عالة على الغرب يكتشف لنا ونستهلك نحن على الجاهز، ومن منجزات تلك المجامع البواهر ما يقوله الدكتور شوقى عن كيفية سجود الشمس للإله، يقول سيادته «فنحن فى جوف السماوات السبع، والسماوات السبع فى جوف الكرسى، والكرسى فى جوفه العرش، فأى مخلوق فى السماء الأولى هو تحت السماوات السبع، والسماوات السبع تحت الكرسى، الكرسى تحت العرش، وإذا تخيلنا هذا النظام الهندسى للكون «لاحظ هذا كله من هندسة الدكتور ولا علاقة له بنظام الكون فالعلم لا يعرف الكرسى ولا العرش ولا السماوات السبع».

المهم يتابع قائلا: «إذن لعلمنا أن الشمس وهى تجرى فى السماء الأولى هى تحت السماء السابعة وتحت الكرسى وتحت العرش، فالشمس أينما ذهبت إنما تسجد تحت العرش ١٢/١١/٢٠٠٣».

هل فهمتم شيئا؟! صاحبنا الدكتور مهتم بتسبيح وسجود الجمادات وحديثها ولغتها، فهو يقول مرددا عن على بن أبى طالب: «كنت مع النبى فى مكة فخرجنا فى بعض نواهيها فما استقبله جبل ولا شجر ولا مُدر إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله ٦/١١/٢٠٠٣».

أليست هذه مأساة حقيقية؟ وإذا كان الله قد منح النبى قدرة فهم لغة الجبال التى لاشك تختلف عن لغة الشجر، ولغة المدر لغة أخرى بالطبع، فكيف سمعها على وفهمها ورواها لنا يتطوعون هنا بالقول أن النبى قد منحه هذه القدرة (؟!)، وما سر الاهتمام اليوم بهذه الشئون الأسطورية، وما هى علاقة المجمع العلمى بالموضوع؟ وهلا سجل لنا أحد رجال العلم فيه هذه اللغة لنقدمها للعالم بحسبانها كشفا يليق بنا؟

ومع اشتداد موجات الحر أحيانا تتقدم الأهرام بتفسيرها، ليس بشرح حركة الرياح والمنخفضات والمرتفعات الجوية ومواسمها ولماذا هذه الحركة دون تلك ولماذا هى حارة أو باردة وكيف تهب، فإنها تقدم لنا ما وصل إليه الدكتور عزت عطية فى حوار خطير أجرته معه الصحيفه المتخصصه فى هذه الحوارات الراقية علا عامر، إذ يقول سيادته: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير». الدكتور عزت أستاذ الحديث بكلية أصول الدين بأزهرنا المبارك يشرح قائلا: لا فض فوه: «فجهنم بشدة نيرانها يمكن أن يتسرب حرها إلى الأجواء التى نعيش فيها، كما يمكن أيضا أن يتسرب منها البرد الشديد أو الزمهرير» أما كيف ذلك علميا؟! فيقول سيادته «حرارتها العالية أى جهنم تتجم عن النيران **المتمركزة** فتنطلق هذه الحرارة إلى الفضاء فيصل بعضها إلى الأرض.. أما الزمهرير فهو لتعذيب الجن لأنهم خلقوا من نار، أما البشر فلأنهم مخلوقون من طين فهم يعذبون بالنار».

وتحضر الأهرام ندوة علمية لهيئة الإعجاز العلمى للقرآن والسنة حول الحجامة بين الضوابط الشرعية والأساليب العلمية لتتحفنا بأقوال علمائها لتؤكد لنا الدكتورة فاطمة النقلى أستاذة الكيمياء الحيوية بكلية طب بنات الأزهر: «إن الحجامة تسهم بشكل فعال فى الشفاء من معظم الأمراض».

(لاحظ: معظمها، لاحظ أيضا أن الدكتورة متخصصة فى الكيمياء الحيوية)، «وذلك مثل الصدفية وارتفاع ضغط الدم والروماتويد والسكر وسيلان الدم وتقليل نسبة الدهون.. وأشارت إلى اهتمام الأوساط العلمية بجامعة الأزهر بهذا الموضوع وتسجيل أول رسالة ماجستير عن الحجامة ٢٠٠٣/٦/١٥» هذا ناهيك عن حوار العقل (هكذا العنوان) بصحيفة

الأحرار، وما نشأ من جدل حول حديث التفلية، وأن ابن حجر قد أباح للزوجة أن تستضيف صديق زوجها فى غيبته لتقوم بتفلية رأسه ٩٣/٥/٣١» وكيف ثبتت فى أمهات كتب الحديث «أن النبى رسول الإنسانية والحضارة والتقدم كان يذهب للنساء الأجنبيات ليقمن بتفلية شعره مما هو فيه» ويشرح ابن حجر معنى التفلية «أى تتبع القمل فيه/ رد الدكتور محمد السعيد مشتهرى».

أليس الزمن القردى تسمية تليق بنا؟

وفى ٢٠٠٤/٤/١٢ يكتشف زغلول النجار بالأهرام اكتشافنا لسرعة الضوء قبل اكتشافه فى بلاد الغرب الكافر فى «الإتيان بعرش ملكة سبأ من أرض سبأ إلى بيت المقدس فى أقل من طرفة عين مما يشير إلى سرعات فائقة تقترب من سرعة الضوء ومثل هذه السرعات الفائقة لم تكن معروفة إلا فى القرن العشرين».. وهو ما يعتبر سبقا علميا معجزا لاحظ السبق العلمى هنا لله صاحب تلك القدرة على البشر!! هذا ناهيك عن هدهد سليمان الذى هو «هدهد خاص» حسبما رأى سيد قطب ونقل عنه زغلول فى ٢٠٠٤/٤/١٢.

هذا ناهيك عما ينشر باسم الدين ليصادم قوانين الدولة بل ويخرج عليها بسفور مدهش وتكرار أكثر إدهاشا ويستحق العقوبة القانونية للخروج على النظام العام للدولة، مثل تكفير القوانين الوضعية لصالح الشريعة الإسلامية، ولا تعرف ماذا يطلب بن لادن أكثر من ذلك، ونموذج عشوائى لهذا الحشد الدائم ضد نظام الدولة العام وتكراره باعتداء واضح على القانون، ما جاء فى أهرام ٢٠٠٤/٧/٢٤، وكيف أثبتت الباحثة خديجة النبراوى أن الشريعة الإسلامية كانت ومازالت أفضل السبل للنهوض وتطوير المجتمعات.. خلافا للقانون الوضعى.. لأنها تمتاز بالدقة والمثالية التى تتفق والفطرة البشرية وتناسب مختلف المجتمعات.

ثم تذكرنا الأهرام بفضيحة أشجار غابة ألمانيا التى تشكلت بشكل عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله، والتى ظلت تباع صورتها فى بوسترات فى بلادنا فى استثمار كاذب وملفق حتى اكتشف الناس أنها لوحة لرسام من المنصورة والفضيحة الجديدة شارك فيها الأهرام تليفزيون مصر تحت عنوان (الصورة، التى أذهلت العالم) والتى قدمها برنامج صباح الخير يا مصر، وكيف أن الأرض تبدو مظلمة من الفضاء ماعدا نقطتين مضيئتين هما مكة والمدينة، وأن الأقمار الصناعية صورتها

فأذهلت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا. هنا تشارك الأهرام باحتجاج طويل عريض للدكتورة أميرة الشنوانى التى سجلت تحت اسمها «دكتوراه فى العلوم السياسية»، لكن يبدو أنها تعمل فى الدعوة والإرشاد والهداية لأنها احتجت أشد الاحتجاج على أن نشرات الأخبار فى بلادنا لم تذع هذا الخبر، وكيف «شعرت بغضب شديد»، كيف أننا فى بلد إسلامى به الأزهر الشريف ولا يهتم بخبر كهذا، ورأت من جانبها أن تضيف فى المولد إضافة فقالت: أن المسجد الأقصى لم يكن مضيئا بدوره لأنه تحت الاحتلال ٢٠٠٤/٢/٢».

مع إشادتها بالإعلامى تامر أمين الذى **سرب** الخير لصباح الخير يا مصر!! ومن تلفازنا لصحفنا لتامر أمين لدكتوراه العلوم السياسية يا قلبى لا تحزن!!

هذه يا سادة عينات عشوائية كلها دكاترة تمكنت من عقولهم آلة الكهانة الدينية حتى لا تدرى كيف مارس أصحابها البحث العلمى للحصول على تلك الدرجات وهو ما يستدعى السؤال إعمالا لهذا: هل فى بلادنا بحث علمى حقا؟

وفى ظل هذا اللون من الفكر الذى نعيشه وتظلله تلك المفاهيم يطرح السؤال الأهم نفسه: هل يمكننا أن نتوقع خيرا بإعطاء هذا الفكر الحق فى سماع شهادته الديمقراطية فى صندوق الاقتراع؟

هذا هو الأهم فى كل ما سبق.. أن الجماهير لا تسمع إلا صوتا واحدا، وكلهم فى انتظار إشارة ساعة الصفر، فماذا تتوقع من رد فعل سبعين مليون مصرى استمر شحنهم طوال ثلاثة عقود بمثل هذا الفكر انتظارا لعودة صلاح الدين؟

يبقى أن يبدأ الإصلاح بإصلاح لغتنا ومفاهيمنا قبل أن نفكر فى الإصلاح، أن يعود الوعى إلى بلادنا أولا، أن تخرج هذه اللغة وتلك المفاهيم من بلادنا لتعيش مع بن لادن فى مغارات الجبال و ومفازات الصحارى، لتعود مصر إلى مصر، ويعود شعب مصر إلى مجده الحقيقى الذى سجله للعالم بإرادة وتحد مازال مفخرة كوكب الأرض، أن يعرف الناس أن فى الدنيا شئونا أخرى غير الدين تقدم بها البشر علما وسياسة ولغة وفنا وأخلاقا، لكن هل توجد رغبة حقيقية فى أن يعرفوا؟ هذا هو السؤال!

تأملات فى ملفين:
«الچين الإلهى» و«نظرية داروين»

تابعت باهتمام؛ اهتمام مجلتنا روز اليوسف بملفين كبيرين استغرقا أعدادا ومازالا فيما يبدو. الملف الأول كان حول ما تمت تسميته: اكتشاف وجود (چين إلهى) يدفع الإنسان داخليا لمعرفة الله، على يد السيد (دين هارد) والملف الثانى حول نظرية النشوء والارتقاء أو ما بدأته الأستاذة منى بكر بعنوانها «فى أمريكا.. التمرد على نظرية داروين» وقد شارك فى الملفين صحفيون وعلماء متخصصون وعلماء مستشيخون وشيوخ متعالمون، فى مساحة حرة ومحترمة أبرزت حوارا جميلا قد يكون بعضه هزيلا وبعضه قويا، لكنها فى مجموعها شكلت سيمفونية متناغمة لمختلف الآراء من مختلف التوجهات، وهو الأمر المحمود لهذه المجلة والتوجه المشكور للتدريب على قبول ومناقشة مختلف الآراء والتعرف عليها وإعلانها فى قضايا ربما تشغلنا أكثر مما شغلت أى آخر على الأرض، لتماسها مع الإيمان والتدين وهو أكثر ما يشغلنا بين كل الأمم، لكننى لم ألحظ الجانب الفلسفى مطروحا فى كل ما دار من حوارات، ولا ما يبنيه هذا الجانب من أسئلة كثيرة يمكن أن تثرى هذا الحوار وتغنيه وهو ما سأحاول طرحه هنا. ولنبدأ بالچين VHAT2 أو الچين الإلهى.

أول استنتاج نستنتجه من اهتمام السيد دين هارد بالبحث عن چين إلهى فى البشر، هو أنه مؤمن عميق الإيمان فبحث مثل هذا لا يشغل الملحدين ولا يهمهم فى شىء، لكن يظل كلام هارد فى المطلق غير المحدد، لأنه عند التحديد فإن كلامه يمكن استثماره إسلاميا للدعاية والدعوة إلى الفطرة الحنفية، لكنه لن ينقذ مستر هارد من السعير مهما بحث ونقب، لأنه لم يكتشف أن هذا الچين قد تحددت مواصفاته فى الإسلام تحديدا دون بقية الأديان، وشكل الإيمان الإسلامى دون بقية ألوان الإيمان، خاصة مع أسلمة جميع الأنبياء من آدم حتى محمد وشهادتهم المعلنة بذلك فى كتاب الله.

فما لنا ومال دين هارد؟ وما لشيوخنا بالحديث فى الچينات والبحوث النصرانية؟

تعالوا نستنتج ما يترتب على الإقرار بفرضية وجود الچين الإلهى، أولا لابد أن نقر أن الإيمان أو الكفر يأتى من داخل خلايانا، وهو ما يعنى أن معدم هذا الچين لن ينفع معه وعظ الواعظين شيوخا أو أحبارا أو

قساوسة، فهو كالرجل العنين لا تجدى معه محاولات كل عاهرات الدنيا لأن چينه الجنسى معطل. إذن فهذا ما يلتقى مع القرارات القرآنية التى كانت تؤكد للنبى أنه سواء أنذرهم أم لم ينذرهم فلن يؤمنوا، لأن الله قد ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم الأكنة التى ربما كانت هى ذلك الچين المفقود.

المعنى أن فاقد الچين الإلهى عاجز بالفطرة عن التعرف على الله والإيمان، وهنا تحمل الفطرة دلالة جديدة هى عكس ما يفهمه منها المسلمون، ومن ثم عليهم المزيد من تحديد المفاهيم.

ولابد سيترتب على التسليم بهذا الچين التساؤل عن جدوى إرسال الأنبياء والرسل وعن وظيفة الدعاة ومبرراتها، سيكون كل هذا بلا معنى لان الإنسان يعرف ربه بالفطرة، ولأن إنسانا آخر لن يعرفه بالفطرة وبشهادة القرآن أيضا بختم الأكنة على العقول والقلوب، لن يعرفه مهما أرسلت السماء من رسل، بعد أن تحدد مسبقا وبالميلاد من سيكون المؤمن ومن سيكون الكافر.المشكلة أن المفترض حسب النظرية أن يكون الله عالما بمووضع الچين، ومع ذلك يرسل أنبياء ، لأن السلوك هنا لن يكون مفهوما.

ووفق اعتقاد المؤمن أن غير المؤمن لا أخلاقى وشيطان فى شكل إنسان، وهو اعتقاد يساوى اعتقاد السكران أنه أكثر صحوا من الصاحى، فإن الاعتراف بوجود الچين الإلهى يعنى أن الناس إما شياطين وإما ملائكة، ولا علاج لأحدهما ليصبح كالآخر. ومن ثم على كل رجال الدين الاستقالة وإحالتهم إلى الاستيداع، لأنهم فى النهاية وبعد الأكل مريئا والشرب هنيئا لن يصنعوا فى الواقع شيئا حقيقيا. هذا رغم تصورهم أنهم من الصنف المقدس بالميلاد الچينى الإلهى وهو ما حرم منه أناس آخرون بلا ذنب جنوه، بالميلاد، مثل المغضوب عليهم، ومثل الضالين.

وستتداعى التساؤلات تأخذ بعضها برقاب بعض: لماذا إذن تقاتل السلف الصالح حول ما اعتقد كل فريق منهم أنه صحيح الدين، كالحرب الفلسفية والدموية حول هل صفات الله فى القرآن كاليد والعين والسمع حقيقية أم لا. إن اكتشاف هذا الچين يدفع إلى اكتشاف الأسباب الحقيقية وراء هذا القتال بين مؤمنين بالچين وبالرسالة أيضا التى دعمت الچين بأصول العبادة ووجود صاحب الدعوة بينهم. وعند التدقيق سيكتشف المسلم أنها كانت مصالح دنيوية وصراعات سياسية ومكاسب ومغانم مادية، وهو ما سبق وناقشه صاحب هذا القلم مناقشة أصولية فى

أعماله المنشورة، وأنه لا الجين ولا الدين كانا طرفا فى الصراع حقيقة، إنما كان هناك الإنسان العارى إلا من مصالحه، لأنه إذا كان الجين فاعلا ودالا على الله وأوامره فكيف له ألا يصيب، ولماذا كانت كل الحروب الدينية عبر تاريخ البشرية والتى كانت تتخذ شكل المهابدة أى الإبادة الجماعية فى معادلة صفرية دائمة عبر التاريخ الأسود للمتدينين.. لماذا؟

وهل وجود الجين مع عدم تحديده كان هو السبب الحقيقى فى هذا السجل الدموى للمتدينين؟ أم أن الجين الإلهى مثله مثل أى جين آخر معرض للعطب حتى عند القديسين والصحابة نماذج التقوى دون ذنب حقيقى سوى عطب يصيبهم كما يصيب أى بشر كان فى الدنيا؟

ثم ماذا عن فرعون المذكور فى القرآن الذى قال لرعيته «أنا ربكم الأعلى»؟ ما كان جينه بالتحديد؟ الرجل هنا يعرف الألوهية ومعناها، فهو غير ملحد وليس بكافر لأنه يعترف بأنه لابد من وجود إله، لكن الجين الإلهى الدال على إله السماء لم يفعل فعله، ولم يتعرف عقل الفرعون عليه (بلغة الكمبيوتر) ولأنه لابد من وجود إله فقد عين نفسه إلها؟ أم أنه كان لديه جين آخر غير ما لدى بقية الناس؟ ثم تبقى أسئلة من لون آخر، فالمعلوم أن الكائن الحى يحمل الجينات الدافعة للتزاوج والتناسل بالغريزة الجنسية وذلك لحفظ النوع، فما هى أهمية وجود جين إلهى، فانعدام الإيمان لا يقضى على النوع بهذا المعنى.

الغريب أن مشايخنا قاموا بهمة وأدلوا بدلوهم فى الموضوع برغم علمنا أنه لو كان لأحدنا مليارات الجينات الإلهية وقرر مشايخنا تكفيره فلن تشفع له جيناته الإلهية، لماذا يدلون بقولهم فى شأن حكم معروف لديهم مسبقا إزاء أى مخالف؟فيستدلون بفطنتهم من الكلام.. مجرد الكلام القابل للنقاش، على الكفر والخروج على الملة، ما لهم ومال معامل دين هارد وأبحاثه؟ إن من يطلب الدين يغار عليه ويعمل على رفعة أصحابه بفك الحصار عن عقولهم وحرياتهم لينطلقوا نحو العلم والرفعة، حتى لو استدعى الأمر أن يضحى هؤلاء الغيورون على الدين بمكاسبهم وبلهنيتهم ونعيمهم «واللهم نعم حسدا» وأن يضحوا بفكرهم الرافض للنهضة والتطور ويستريحون.

ومسألة الجين الإلهى عند المسلم ستلتقى مع الحديث القدسى «كنت وحيدا فى الأزل فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبى عرفونى» أو كما قال، لكن ماذا عن عابد أوزيريس فى مصر القديمة، وماذا عن عابد

عشتار فى الرافدين القديم، وماذا عن عابد أدونيس فى الشام القديم، وهل ترتبط معرفة الإله بوجود العابد الحامل لهذه المعرفة الفطرية؟

أى أن وجود الإله معرفيا مشروط بوجود العابد المفطور على هذه المعرفة، وبدونه يصبح الإله مجهولا، أو بمعنى آخر غير موجود فى أى وعى. ومن ثم لابد أن يقول العابد أنا موجود فعشتار موجودة، أو أنا موجود فأوزيريس موجود، وإذا كان صاحب القول، الذى هو الشطر الأول من العبارة هو اليوم غير موجود، فقد سقط الشطر الثانى بالتبعية، وهو ما يعنى أن وجود الشطر الثانى قائم على وجود الشطر الأول، فاختفاء الأصل يتبعه اختفاء الظل، واختفاء الشكل يتبعه اختفاء الصورة، واختفاء الجذور يتبعه اختفاء الشجرة، واختفاء الشمس يتبعه اختفاء النهار. أى أن الأنا هو الباقى هو الصانع والمنتجات متعددة، والخالق باق والمخلوقات إلى زوال، وهكذا زالت أرباب كانت تخلق حسب الطلب، وطبقا لشكل البيئة وظروفها المجتمعية ليظهر منتج جديد بمواصفات جديدة أكثر ملاءمة للتطور الجديد. وهو ما ينهى لنا ملف الچين الإلهى بينما الأسئلة فى أوراقه بلا إجابة شافية.

ونأتى لملف نظرية النشوء والارتقاء المتواترة باسم نظرية داروين، حيث قام ملف روز على التمرد على نظرية داروين فى أمريكا، وهو فى النهاية محاولة من المتدينين الأمريكيين لوضع النظرية الدينية فى المقررات المدرسية إلى جوار نظرية النشوء والارتقاء وترك الطلبة يختارون، وإذا كان هذا صحيحا فهو بداية تحقيق نبوءة الإسلاميين بقرب انهيار أمريكا، لذلك لا يمكننى أخذ الكلام على علاته ولا أصدر عليه حكما فى جملته، بقدر ما استنتج أن الديمقراطية الأمريكية تطرفت لدرجة سمحت لبعض المتدينين محاولة إعادة التدريس الدينى إلى جوار العلم فى المدارس وأنها ظاهرة ربما كان لها أسبابها لكنها إلى زوال سريع كما هو واضح من التراجع إلى فكرة الدمج بين النظرية الدينية فى الخلق والنظرية العلمية فى التطور بنظرية «التصميم العاقل» التى بدورها لم تحظ بأى تأييد علمى حتى الآن.

ولا بأس مما قال د. حسن عطية فى درس جديد من دروس العلم والإيمان، لأنه فى النهاية ينحو بنية صادقة إلى حث الإيمان إيجابيا نحو العلم واحترامه عبر احترام الدين، وأيضا لا بأس مما قاله صديقى الدكتور محمد شحرور وتخريجاته الجديدة المتميزة، وهو أيضا لون من

محاول التطويع الإيجابى لإيمان المسلم بالدين، لكيلا يجد فى نفسه حرجا فى الأخذ بنظرية النشوء والارتقاء بدفع الناس عبر تلوين التحريم ببهجة الحلال برؤية أخرى جديدة.

وللدخول فى صلب حكاية الخلق والتكوين دينيا أو النشوء والارتقاء علميا، أن الأولى تعمد إلى نظرية الخلق المباشر، فكما للصنعة صانع، فللكون الحى بحسبانه صنعة لابد من صانع خالق مباشر، بينما تعمد نظرية النشوء والارتقاء إلى القول بتطور حيوى عبر ملايين السنين انتهى بتطور جميع الكائنات من أصول أولى مجهرية إلى ما هى عليه الآن.

والمعلوم لدى أهل الأنثروبولوجيا والميثولوجيا وعلماء الأركيولوجيا والتاريخ مجتمعين أن نظرية خلق الإنسان من طين أحمر لازب حمأ وتشكيله تشكيلا فنيا بواسطة إله نفخ فيه نسمة الحياة، كانت نظرية أولى قديمة قدم البشرية ولدى كل شعوب الأرض من المصريين الذين قالوا إن الإله خنوم قد صنع البشر على دولاب الصلصال الفخارى، إلى البابليين إلى الأشوريين إلى الإغريق إلى تاهيتى إلى سكان استراليا البدائيين الآن، حتى إن قصة خلق حواء من ضلع آدم مدونة قبل ظهور الأديان السماوية جميعا فى بابل القديمة فى قصة تمت إعادة صياغتها أكثر من مرة تحكى خلق السماوات والأرض والكائنات الحية والإنسان، تعرف باسم (إينوما إيليش) وترجمتها (فى العلى عندما)، وهى الأصل الأصيل الذى نسخت منه التوراة قصة تكوينها نسخا (انظر تفصيل ذلك فى كتابنا قصة الخلق، أو منابع سفر التكوين).

والإسلام بدوره يأخذ بنظرية الخلق المباشر، لكنه فيما يبدو سيخالف هنا ما قاله الدكتوران حسن عطية ومحمد شحرور، ولا يحكى عن تطور الإنسان عن البشر أو العكس، إنما هو قادر على تبديل الخلقة مباشرة مما يدعم الأصل المعتاد فى فهم الخلق المباشر، فالدين شأن والعلم شأن سادتى الأكارم، وليس بالضرورة أن يمر الإيمان بالعلم عبر الإيمان بالدين، والإصرار على ذلك هو سر كارثتنا الأزلية وخيباتنا غير القابلة للمنافسة، لننظر إذن فى ضوء محاولة تفسير القرآن لصالح العلم فى ضوء قول الله فى القرآن: «فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين/٦٥/البقرة» وكذلك «فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين/١٦٦ الأعراف» وقوله: «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين/٦٥» هنا عملية تحويل مباشر وفورى فى الخلقة والخلق، لم تعتمد التطور

منهجا لها، لأن أهل ذلك الزمان ما كانوا يعرفون التطور، وقد جاء الإسلام ليخاطبهم بلسانهم وعلى قدر عقولهم، لقد جاء ليقول لهم ما يعلمون مسبقا من أديان ومعارف متواترة، وكان طبيعيا أن يخاطبهم حسب إدراكهم الذى هو أقل بألف وأربعمائة عام من إدراكنا، وتحسب العام الأخير فيها بما يعادل ما أنجزته الإنسانية كلها عبر تاريخها منذ وجدت على الأرض، وما كان ليحدثهم بلسان نظرية التطور لأنه لم يكن لديهم مختبرات ولا ميكروسكوبات الكترونية ولا مناهج علمية فى البحث والتفكير، ولا مراكز علمية متخصصة تصرف فى بحوثها المليارات. لقد كان بإمكان الإنسان أن يتصور إمكانية تحول البشر إلى كائنات أدنى عقابا لهم على الآثام والجرائم كالقردة والخنازير، لكنه لم يكن يتصور أن يكون هو مسخا من القردة والخنازير لأنه الأرقى والأكثر وعيا منها، لذلك ما كان ممكنا نظريا لصالح التفوق الإنسانى أن يكون الإنسان متطورا أو ممسوخا عن كائنات أدنى رتبة.

إن كل نبى خاطب أجيال زمانه حسب زمانه وقدر فهم زمانه، وهذه الأجيال هى ناتج أجيال سابقة أكثر بربرية وهمجية ورثت عنها ضمن ما ورثت بعض ثقافتها ومعارفها البدائية الأولى. ولم يكن باستطاعة أى نبى أن ينكر معارفهم عن التكوين والخلق وإلا طالبوه بالبديل الأصوب والأقرب للفهم.

لقد مرت الإنسانية وهى تصنع مفاهيمها للكون وما حولها بمراحل، وكانت قبل الأديان الثلاثة فى مرحلة تعددية الآلهة، وأيضا لها رؤيتها للخلق والتكوين المباشر لأنها لم تفهم أبعد من هذا، وهو ما نسميه اليوم أساطير، وكلمة أساطير تتضمن الخيال والوهم السحرى غير المترابط أو غير المعقول أو غير المرتبط فيه السبب بنتيجته، فيصبح المرض سببه شيطان ما وليس الفيروس، وتصبح الكوارث سببها غضب الآلهة وليس أسبابا موضوعية فى تكوين الأرض وطبيعتها، لذلك نرى تفكيرهم أسطوريا من منظور زماننا. لكنهم صاغوا مفاهيمهم للكون بلغة تعبيرية خاصة قد تبدو لغير المتخصص كلاما لا معنى له، لكنه بربطه بزمانه ومنهاج زمانه فى الفهم والتفكير، تكتشف أن هذه الأساطير تسجيل لأحداث حقيقية حدثت، وأيضا تسجيل لمفاهيم وطرق لمعرفة ما حولهم وقوانين ناسبت زمانهم.

وقريبا سيأتى الزمان المتطور بقوة نحو فيزياء كونية جديدة، وسيحتاج

إلى عقل جديد وقوانين جديدة وإدراك جديد، يوم تنتقل عبر الزمن لتقابل ذاتك، أو يوم نكتشف ما فى الطرف الآخر من الثقوب السوداء الكونية، أو كيف أمكن اليوم إطلاق جسيم بسرعة أكثر من سرعة الضوء ثلاثمائة مرة، حتى إنه وصل جهاز الاستقبال قبل أن ينطلق ويختفى من مكانه الأول، نحن مقبلون على تحول هائل جديدة يحتاج فهما جديدا يصبح معه فهم زماننا بالنسبة للآتى ضمن مرحلة الأساطير.

ونحن على أبواب هذا التحول الكونى، الذى سيأخذ بشرا نحو مستقبل غير مفهوم لنا الآن، ويترك بشرا لا يفهمون حتى ما يحدث الآن، ترى كيف سيكون الفرق، وساعتها هل سنكون كلنا بنى آدم أو كلنا أناسى.. أو ناسا أو بشرا أو غيره مما طرحه الدكاترة.

من عجائب الدهور أنه فى هذه المرحلة الفارقة نجد على الأرض وبين الأناسى بشرا بقوا من تلك العصور القديمة من بدايات البشرية، حفريات حية تفكر بعقلية زمن الأساطير الماضى، وهؤلاء هم نحن أهل الشرق المسلم سادتى.

ومن ثم نسجل الملاحظات هنا، وهى أن قناعة الإنسان البدائى بنظرية الخلق المباشر لم تتضارب مع الأديان، فأقرتها كل الأديان سماوية وغير سماوية وأسطورية، لأنه ما كان ممكنا لأى نبي أن يحدث قومه حينذاك عن قصة التطور والارتقاء، وما يتطلبه ذلك من حديث عن الجينات والخلايا وأنواع التكاثر والاستنساخ والكيمياء العضوية، فإن أحدا ساعتها لن يفهم لأن ذلك خارج مخزونه ومدركاته المعرفية، بل إن بيننا حتى الآن أناسا لا تستطيع استيعاب نظرية التطور وفهمها فهما دقيقا لا يشغل الدين فى شىء ولا يشغله الدين فى شىء، وعدم قدرتنا على استيعاب النظرية تعود إلى أن منطقتنا فى مرحلة أسبق من الزمن الحالى وهو ما لا يعنى كذب النظرية بقدر ما يعنى رفضنا لها لعدم قدرتنا على فهمها.

وحتى لو فكرنا بمنطق تلك الأزمان اليوم فلابد أن ننتهى للاعتراف بالعلم ونظرياته، ففى أوروبا أنكروا قدرة الله على دفع الأرض للدوران حول الشمس، حتى عادت الكنيسة فى العقد الماضى إلى التراجع عن خطئها التاريخى واعتذرت لجاليليو، لأنهم آمنوا ببعض قدره الله واستكثروا عليه بعضها، على تشغيل وإدارة ما أنتجه، ونحن نكرر نفس الخطأ اليوم، نعترف لله بقدرته على إحياء كل تلك الأحياء ثم ننكر عليه القدرة على تطوير وترقية ذلك الخلق، خاصة إذا كان بإمكانه تغيير

الصورة الآدمية إلى قرد، فإن بإمكانه أيضا القيام بالعكس ولو تركنا الأمر مهملا محرما تدريسه فى الأزهر، فكأننا نقول إن داروين فقط هو الذى يطور الكون ويدفعه للترقى لمجرد أنه أدرك هذه القدرة الإلهية ومهد لكل العلماء الأفذاذ من بعده للتحكم فى الأحياء بهندسة الوراثة لإنتاج أجيال حية محسنة واستخدامها لمطاردة الأمراض، وبهذا المنطق يمكن القول أن الكفر البين هو الكفر بقدرة رب الإسلام على خلق ما يدير به أكوانه من قواعد وقوانين، وأن جهل السلف الصالح بالجراثيم والميكروبات لا يعنى أنها ليست من خلق الله، وقولنا اليوم بوجودها لا يعنى أننا قد كفرنا بالله، وأن عدم ورود أى ذكر لها فى الكتب السماوية لا يعنى أنها خرافة، وأن الإقرار بوجودها لا يعنى الكفر، بل ربما كان الكفر هو إنكارها.

وثمة سؤال أخير مازال يضرب أخماسه فى أسداسه: ماذا لو كان عصرنا الذى نعيش بكل إمكانياته قد تقدم زمانه فجاء فى القرن العاشر قبل الميلاد. فهل كانت الكتب السماوية ستتغاضى عن ذكر مكتشفات زمانها ونظرياته وعلومه؟ هل كانت ستنكر وجود المجرات وعدم وجود سماء كما نفهم نحن؟ هل كانت ستنكر أن نجوم السماء ليست مصابيح زينة إنما هى شموس عظيمة الأجرام؟ هل كانت ستنكر أن الأمراض تسببها الفيروسات والبكتيريا والجراثيم والخلل فى الخلايا؟ هل كان يمكن للنبى أن يمرض ولا يذهب إلى الطبيب؟ وهل كان سيتنكر لأطفال الأنابيب لو احتاجها؟ وهل كان سينكر معرفة كل شئون الجنين وهو فى بطن أمه؟ وهل كان سينكر التليفزيون والطائرات والمحمول والإنترنت والأسلحة النووية؟ هل كان سينكر النشوء والارتقاء الذى تقوم عليه علوم البيولوجيا والاستنساخ؟

فلماذا والحال كذلك لا نتوقف عن تبرير العلم أو تحليله استنادا للدين؟ ولماذا لا ننتهى إلى أن هذا شأن قلبى تؤمن به على علاته أو لا تؤمن، وأن العلم شأن عقلى مخبرى لا علاقة له بالقلب ولا بالإيمان؟ وأن الإيمان لا علاقة له بتقدم أو تخلف إنما هو شأن شخصى ضميرى، والتخلف فيه مرجعه إلى الله، أما العلم فهو موضوع التقدم وموضوع الأمة كلها وليس شأنا شخصيا ولا يحتاج لمن يبرره ويحسن وجهه وإلا كانت مصيبتنا فى عقلنا قد أصبحت هى كبرى مصائبنا (ربما كان من الأفضل ربط نهاية هذا الموضوع بأوله).

ما قام على باطل فهو باطل

فى ملف روزاليوسف حول نظرية النشوء والارتقاء، لولا بعض الموضوعات العلمية المحترمة مثل الحوار مع الدكتور أحمد مستجير، والموجز المكثف الذى كتبه الدكتور مجدى المليجى لدعوت المصريين إلى إقامة سرادقات العزاء نعزى بعضا بعضا ونقول لبعضنا بعضا «عظم الله أجركم فى عقل مصر». وحتى أوضح سر هذا العزاء المؤجل الذى نرجو له ألا يحدث أبداً سأختار حوارا مبهرا حقا أجرته الأستاذة إقبال السباعى مع الدكتورة «هالة البنا» استاذ علم الوراثة بجامعة الأزهر، كنموذج لما وصلت إليه أحوال الجامعات فى مصرنا، وكيف يفكر أساتذة العلم.. فى العلم؟ فى بلادنا، وأزعم أنه نموذج كاشف لما وصلت إليه أحوال بلادنا بين العالمين من تخلف وهوان.

الأستاذة الدكتورة المفترض أنها وهى فى مثل هذه المرتبة، هى عالم باحث متخصص منجز منتج مكتشف لأن الغرض الأساسى هو اضافتها الجديدة إلى العلم بكشف لم يعرفه العلم من قبل كسبيل للحصول على درجة الاستاذية فى علمها المتخصص. والمفترض بهذا المعنى أن تكون مصر أكثر عتقدما فى كل العلوم عن الولايات المتحدة الأمريكية، لأن الحاصلين على درجة الدكتوراة والأستاذية فى مصر يزيد عن مثيلهم هناك ورغم ذلك فإن البون هائل وفادح ولامجال لاجراء أى مقارنة بيننا وبينهم وهى شهادة واقع ماثل وليست حكما أو رأيا فهل ياترى هذا السيل من الشهادات هو أحد عوامل انتكاسة العلم فى مصر بعد أن حل فيها الفكر الدينى محل العلم؟ تعالوا نتأكد من صحة هذه الفروض من عدمها بمراجعة ما قالت أستاذ علم الوراثة!!

قالت رعاها الله: «إن إثبات أى حقيقة يحتاج إلى دليل عقلى ونقلى وإذا كان داروين قد ذكر فى نظريته أن الإنسان أصله قرد، فهذا الكلام مخالف للدين تماما» بداية لايشغلنا شخص الدكتورة لا فى كثير ولا فى قليل، بقدر ما يشغلنا أموال الوطن المهدرة لتخريج علماء الوراثة فى بلادنا، وعلاقة الأستاذة بالعلم والبحث العلمى ومنهجه وكيف تفكر، لأن كل ذلك سينعكس على شبابنا الذين يتلقون مثل هذا العلم منها.

ولأن شخصها لايشغل أحدا هنا فإن ما قالته يصبح ملك الجميع مادام قد خرج من فمها وتم نشره وتعميمه، وهو ما سيكون مناط الحديث ومحاولة الفهم ونظرا لعدم تخصص صاحب هذا القلم فى علوم البيولوجيا على أنواعها فإنى أطرح عليها التساؤلات لنفهم ونتعلم، لكن

مالا خلاف عليه ويفترض أن يجمعنا معا هو الاتفاق على منهج التفكير العلمى وأصوله وشروطه وخطواته فى التعامل مع الموضوعات المعرفية، وفى علومنا الإنسانية حيث مساحات التخصص تخضع لذات الشروط وتتبع ذات المنهج، لكنه مع شديد الأسف هو بالتحديد المنهج الذى لم نجده فى كلام الدكتورة بالمطلق.

ماذا تقصد رعاها الله بالتعبير «إذا كان داروين قد ذكر فى نظريته أن الإنسان أصله قرد»؟ إن هذه الجملة بمفردها دون شطرها الثانى تفصح بجلاء عن كارثة بل مصيبة قومية إذا كان هذا هو حال دكاترة العلم فى بلادنا، وللأسف هو الأوضح والأكثر جلاء وانتشارا.

إن السيدة الدكتورة لاتعلم ماذا قال داروين تحديداً؟ وليست متأكدة إن كان قد قال إن الإنسان أصله قرد من عدمه؟ فكيف أصبحت الدكتورة دكتورة فى علم الوراثة؟ ومن أشرف عليها؟ ومن منحها الدرجة؟ ومن أوصلها لدرجة الأستاذية؟ انظر إلى أساس الشرط «إذا» هنا ومرجعيته فإذا كان قد قال «فهذا الكلام مخالف للدين تماما»؟! أستاذة الوراثة كل ما يشغلها فى الموضوع هو الاتفاق مع الدين من عدمه، مع عدم معرفتنا لدرجة معرفتها بالدين وكيف تفهمه بهذا الصدد والذى قدم فيه المشاركون بالملف قراءاتهم لاثبات «أن هذا الكلام غير مخالف للدين تماما» وهم فيميدانهم اتفقنا معهم أو اختلفنا أساتذة أكفاء.

الملحوظة الثانية أن السيدة أستاذ علم الوراثة تتحدث عن نظرية النشوء والارتقاء كما يتحدث عنها العامة الذين يسمعون أطراف كلام مختزل فى عبارات لاتشغلها الدقة العلمية ويبنون عليها مواقفهم، فهى بطول ما قالت كانت تشير إلى النظرية باسم «نظرية داروين» لأن الفكرة العبقرية التى طرحها داروين بعد حشده الباحث وراء الأدلة عبر العالم فى رحلته مع السفينة بيجل وطرحها من بعد فى كتابه «أصل الأنواع» ليست خاصة بداروين وإن اشتهرت مقترنة به لكنه كان واحد ضمن سلسلة طويلة من العباقرة منهم لويس بوفون ولامارك ووالاس ومئات العلماء الفدائيين الذين عاشوا سنوات عمرهم فى الغابات والأحراش يبحثون وراء الكائنات الدقيقة والكبيرة على الشجر وتحت الأرض وفى الصحارى وتحت البحر وفى قاع المحيط لتصبح النظرية مدعمة بآلاف الشواهد التى يبدو أنها لم تشغل الاستاذة فى شىء وربما لاتعلم عنها شيئا.. بينما هى متاحة للجميع متخصصا وغير متخصص، حتى أن هذه النظرية بالتحديد وبالذات ولمخالفتها معهودا ثابتا منذ عصر الأساطير حتى اليوم فقد كان ذلك مدعاة لحث العلماء النشطين وراء الكائنات على مختلف الأصناف مما حشد لهذه

النظرية قرائن بالألوف تراها العين وتشهدها الحواس كما لم يحشد لنظرية علمية من قبل، وقد أوضح الدكتور المليجى فى نفس الملف أن كتاب «أصل الأنواع» المشهور لداروين لم يرد فيه ما يشير إلى قردية الأصل الإنسانى، إنما ساق احتمالا فى سطر واحد يضع احتمالا أن يكون التطور الذى ينطبق على جميع الكائنات قد حدث أيضا مع الإنسان المتطور عن كائنات حية أخرى. بينما تناول داروين مسألة الإنسان والقرد فيكتاب مستقل لايقول بتطور الإنسان عن القرد إنما بانحدار كليهما عن أصل واحد مشترك، ومن هنا لابد أن نتساءل عن مدى معرفة استاذة الوراثة بنظرية النشوء والارتقاء أو التطور وهى تتساءل بسذاجة: «إن القرد موجود ولم يندثر ولم نلحظ أن هناك قردا تحول إلى إنسان أو أنه ولد إنسانا» لذلك تصدر حكمهايقول «فنظرية داروين فى هذه الجزئية نظرية ساقطة تماما».

إن ستنا الشيخة الدكتورة لاشك تعلم كما يعلم العوام أمثالى أنا والقراء من قراءات بسيطة بهذا الصدد أن العلماء قد عرفوا الكثير من المعلومات عن نباتات وحيوانات تعود إلى أزمان سحيقة فى القدم من حفرياتها وأننا نعلم أن أجدادنا البشر أو الأناسى أو الإنسان حسبما يرى الموفقون بين العلم والدين قد أصبحوا إنسانا حقيقيا بالمصطلح المعتاد منذ إنسان جاوة المحدود الذكاء لأنه حجم جمجمته كان ٩٠٠ سم٢ ثم إنسان بكين الأكثر ذكاء وعاش منذ ١٠٠ ألف سنة وبلغ حجم جمجمته ١,٢٠٠ سم٢، ثم إنسان دوسلدورف وعاش منذ ١٠٠ : ٤٠ ألف عام بتفوق أكثر فى القوى العقلية ثم كرومانيون الذى عاش ما بين ٣٠ : ٤٠ ألف عام والذى ينتسب إليه الإنسان الحالى العاقل الهوموسابينس ، السيدة الدكتورة تقول «إن التطور يكون فى إطار الكائن الواحد وليس هناك تحول كائن إلى كائن آخر»، لكن ألا ترى الدكتورة أن تطور الإنسان عبر المراحل المذكورة هو تحول من كائن إلى كائن آخر؟ وبالفرض أن هذا التطور كان داخل نوع واحد هو الإنسان، فما كان أغبى أبينا آدم بهذا المعنى وهو حسب إيمان الدكتورة «نبى» لايمكن وصفه بالغباء، وإذا كان هذا ما نعلمه من تطور إيجابى يزيد كل حلقة تحسنا وذكاء وتطورا ألا يعنى هذا أننا بالعودة إلى الجانب السلبى فى الاتجاه المعاكس، أننا سنلتقى حتما مع القردة فى جد مشترك؟

ثم ألا ترون معى أن موقف الدكتورة هو ضد كل ما تعلمته كأستاذة وراثة وأنها ترفض هذا العلم؟ فلماذا هى إذن حتى الآن تعمل بهذا العمل؟ لماذا لاتتركه وتتفرغ للدعوة؟ وهل كانت مراجع الدكتورة العلميةحتى حصولها على هذه المرتبة كانت الحديث والفقه والتفاسير أم كانت مراجع علمية تقوم كلها على نظرية النشوء والارتقاء؟

وقد قالت الدكتورة مبهرات كثيرة كقولها السالف «إن إثبات أى حقيقة يحتاج إلى دليل عقلى ونقلى»، ونقلى أى نقلا عن كتب الاسلام المقدسة منقولا إلينا من السماء ويضاف إليها أحيانا كتب الأصول كتفسير. المبهر أنها بعد ذلك تقول: «لاتعارض بين العلم والدين» فلماذا تفرق هى بين العقل والنقل، ولماذا لاتلجأ للعلم وكفى مادام يتفق مع الدين؟ الدكتورة تقول أو كأنها تقول إن النقل يختلف عن العقل ثم تقول إنه لايختلف ، فهل هناك إرباك فى المفاهيم أبعد من هذا؟

بينما لو أرادت الدكتورة إثبات إيمانها مع عدم تخليها عن العلم الذى أعطته عمرها درسا فى النشوء والارتقاء وقراءة ومتابعة حتى تصل إلى منصبها، كان أولى بها أن تقول إن الدليل النقلى هو دليل عقلى، يليق بمعقول زمانه فقد كانوا أصحاب فكر ومناهج خاصة تجعل معقولهم غير معقولنا اليوم لأن معقولهم كان يبنى على مفاهيم عن الكون والخلق ووجود الكائنات سائدة عالميا حينذاك كنظريات نهائية، فقد كان النقل متفقا مع العقل فى ظرفه التاريخى، لكن الدكتورة هنا تنزع صفة العقلانية عن النقل بقولها بضرورة وجود دليل نقلى وعقلى. ونعلم أيضا أنهم كانوا عقلانيين حسب زمانهم وممكناته، فكانوا يعرفون مرض الحمى باللمس وليس بالترمومتر ومن زمنهم بمنطق اليوم لا تمر رحلة الاسراء أو المعراج هينة على العقل لكنها كانت مقبولة فى منطق زمانها، حتى فى زمانها كانت بحاجة للإيمان أولا، وإلا تساءل المؤمن لماذا لم تحدث نهارا جهارا ونرى النبى صاعدا أمامنا، كان منطق زمانها التصديق بالشخوص المقدسين، وهو فى منطق علم اليوم أمر لا علاقة له بالعلم بل ويرفضه العلم بالمرة.

التطور إذن حدث حتى فى علاقة العقل بواقعه، فأصبح نفس الواقع ونفس الأحداث لاترى بنفس المنظار والعقل الإنسانى هو هو لم يتغير، نيوتن اكتشف قوانين الحركة التى كانت هى المعقول التام فى زمنه حتى جاء آينشتين فخلق فهما جديدا لذات ما كنا نعتقده تام الصدق.

إن سيدتى المؤمنة بدلا من أن ترى هذا فلا يحدث لديها هذا الارتباك بين العقل والنقل كان يجب عليها أن تدافع عما تعلمت بدلا من أن تقوم بتسفيهه.

سيدتى المؤمنة لم تر التطور حتى على مستوى علاقة السماء بالأرض وأنه كلما نضج الإنسان وتطور احتاج نبيا جديدا يلائم التطور الجديد وهو السبب الوحيد الذى يفسر تعدد ارسال السماء رسلها للبشرية.. إنه

التطور الذى كان يدفع السماء لاضافة الجديد المناسب للتطور الحادث على الأرض، إن النبى محمد لم يعط علم الصواريخ بل علم زمنه وهو الدرع والسيف لذلك ساغ لهم أن يصدقوا أن اليهود فى آخر الزمن سيفتن عليهم الحجروالشجر للمسلمين «ورائى يهودى يا مسلم تعال فاقتله» لكنه أصبح حديثا غير مستساغ مع كروز والقنبلة الذكية، فالزمن غير الزمن، لذلك لانجد العلم فى القرآن لأن رب القرآن كان يعلم أن البشر لم ينضجوا بعد ليحدثهم حديث العلم والخلايا والجينات الوراثية لذلك خلا من علم اليوم لذلك أيضا لايعتبر القرآن مرجعا لأى تجارب فى العلم اليوم. النقل يا سيدتى الشيخة الدكتورة لم يرد فيه شىء عن الاستنساخ ولا نقل الأعضاء ولا الهندسة الوراثية فهل يعنى هذا أنها بدورها «ساقطة» بتعبيرك؟ هذه العلوم تكاد تكون معجزات مع العقل الدينى لكنها تصبح بسيطة ومفهومة مع العقل العلمى؟ إن عدم التسليم بها يعنى أن عقولنا لم تنضج بعد لتقبلها حتى لاتصاب بالجنون.

والله يعلم مساحة العلم التى يستطيع عبادة فى مراحل تطورهم العقلى استيعابها فكان كلما تطورت قدراتهم العقلية من عليهم بعلم يناسب هذه القدرات حتى الأخلاق جرى عليها ما جرى على غيرها من تطور لذلك وإيجازا هو أن ما غاب من الكتب السماوية قد غاب لأن ما كان يرد فيها هو ما كان يناسب فكر إنسان زمانها وليس زماننا.

وتتابع الشيخة الدكتورة اثباتها عدم وجود بنيةتحتية اساسية لديها تتمثل فى منهج التفكير العلمى تقول سيادتها « إن الدين يحث على العلم، لكن الشطط بدعوى الإبداع والتجديد، هو هدم العقائد الدينية الثابتة والراسخة مع قدرة الإنسان المحدودة بالنسبة لقدرة الله».

سيدى رئيس جامعة الأزهر الزاهرة، سيدى الوزير المسئول عن التعليم العالى فى بلادنا، سادتى أهل هذا الوطن وأهل من تريدونهم شبابا عالما عارفا، هل يمر هذا الكلام مرا هينا سهلا؟ أم يفزعكم سادتى على مستقبل هذا الوطن؟ إن لم يفزعكم فلا داعى لكل ما يكتب بهذا الصدد لكنى أثق أنه أفزع بعضكم على الأقل. فإذا كانت سيدتى دكتورة الوراثة ترى الدين ثابتا راسخا وأن قدراتنا محدودة ازاء الله وقدراته فلماذا تعادى ما تسميه الشطط؟ أم ترى فى نفسها قدرة تفوق قدرة الله تدفعها للدفاع عنه؟

أم هو خوف دفين على مفاهيم لاهى من العلم ولا هى من الدين وتقوم على مسلمات تاريخية خاطئة فى التعامل مع الدين ومعزولا عن زمنه وتاريخه وظروفه حتى أرضه؟ ألا تفزعكم كلمة «الشطط» فى العلم؟ هل الشطط فى العلم أى الانغراس فيه حتى أبعد مدى هو قيمة مرفوضة فى بلادنا من

أساتذة العلم يا سادة؟ وهل تسفيه القدرة العلمية على هذا الشطط هو وظيفة العلماء؟ وهل الاصرار على قدرة الإنسان المحدودة ينتج علما؟ أليس هذا هو منطق العوام؟ إن هذا الكلام قد نتركه يمر إذا قاله نجار أو نقاش لعدم التخصص وليس تحقيرا لمهن محترمة، لكن ان تقوله أستاذة وراثة فهو علامة أننا قد وصلنا حافة الثقب التاريخى الأسود حيث الزوال من الوجود.

إن سيدتى أستاذة علم الوراثة مشغولة بالدين وليس بالعلم فالمقياس أنظر احتجاجها العلمى: «فهذا الكلام مخالف للدين تماما»؟!! أنظرها تقول أيضا «فالمقايس الذى نقيس عليه هو أن الجبار لا يكون سوى الله سبحانه وتعالى، فمن أنقص من قدرة الله وقدرته ليس لها حدود، أما قدراتنا وعلمنا فهو قاصر محدود» وبغض النظر عن ارتباك عبارات سيدتى الفاضلة، وبغض النظر عن تسليمها بحكايات «سيدنا آدم» وحكايات «سيدنا نوح» وبغض النظر عن سقوط حكاياتها إلى مستوى العوام وخضوعه لذات المناخ، فإن عالمة الوراثة عندما يكون مرجعها ومقياسها الذى تقيس بها تجاربها هو الجبار وعندما تدخل المختبر وهى على يقين أن قدراتها وعلمها قاصر محدود تراها ماذا ستنتج لنا؟ وألا يفسر ذلك انحطاط أمة المسلمين إلى هذا الدرك المفزع المرعب المخيف المكئب الدافع إلى القنوط التام من خروجنا من قاع مزيلة الأمم.

ترفض سيدتى الشيخة أطال الله فى عمرها ومنحها من العلم والمعرفة ما يفيد طلاب علمها، ترفض فكرة التطور بالتحول من نوع إلى نوع، من جد مشترك للإنسان إلى إنسان وقردة أخرى، فماذا عن قدرة الله التى تؤمنين بها والتى حولت اليهود إلى قردة وخنازير؟ هل تنكرين هذه القدرة على الله؟ فإذا لم تنكريها فلماذا تنكرى قدرته على فعل العكس وهو الثابت اليوم فى افلام لابطال العلم فى الغابات وقاع المحيطات بألوف الأدلة المتاحة لمن أراد أن يعلم ويتعلم فى افلام كولن الألمانية وكاليبسو الفرنسية والموسوعة الجغرافية والموسوعة البريطانية وغيرها على c.d فى كل المكتبات العلمية فى الدنيا.

لماذا تنصحنا فى نهاية حديثها العميق بالتعمق فى الدين وليس التعمق فى العلم، ولا تتعمق هى فى الدين لتقرأ كيف تحول البشر إلى قردة وخنازير وتعطينا من علم الوراثة ما يفيد ليثبت ذلك وحينها سيكون الممكن الوحيد بين يديها هو العكس، وهو على قدرة الله ليس بعزيز، فإذا كان الله قادرا على إحالة العصاة إلى قردة بفارق فى الجينات بين الأصل والمسخ ولا يتعدى ١,٧٪ أفلا يمكن العكس؟ أم هى تنكر معلوما من الدين بالضرورة بانكارها آيات القردة الخاسئين؟

وعن الشطط والتعمق فى العلم ترى سيدتى الداعية العالمة «أن مثل هذه النظريات ستتهار من تلقاء نفسها ويصبح الأصل والأساس هو الدين إذا نظرنا إلى الأمور بموضوعية وعقلانية ودون تعصب». ما هذا؟!!!!

ما هو مفهوم الموضوعية عند اساتذة الكليات العلمية فى بلادنا؟ وما هو مفهوم العقلانية؟ ما هو مفهوم التعصب؟ ألا ترى سيدى وهى تسلم بالدين أساسا وتتمنى انهيار العلم حتى يصبح الأساس فى كل شىء هو الدين ألا ترى ذلك تعصبا للدين فى الأساس؟ فأين الموضوعية والعقلانية هنا؟

إن لدينا معجما خاصا لمعانى المفردات لاعلاقة لها بالعلم حتى لو كنا علماء (كيف؟! هذا لغز كبير)، لدينا معان ودلالات للألفاظ تختلف عن كل دول العالم وملل العالم، معانى : التخلف، الفكر الحر، حقوق الإنسان ،الديمقراطية، الدولة. الوطن. الحكم. الإيمان،. التسامح، الموضوعية، التعصب، الاغتصاب، السرقة، الزنى» نحن نعيش مفردات القرن الرابع الهجرى على الأقرب، لذلك معانى مفردات الحداثة غير موجودة فى مخزوننا الثقافى، لآن هذه المعانى قد تطورت فى العالم المتقدم واكتسبت دلالات جديدة لانعرفها فى بلادنا حتى على مستوى العلماء المنتظر منهم الأخذ بيد هذا الوطن نحو الحداثة والتقدم.

إن سيدتى لم يشغلها الوطن ولا الحداثة ولا كل ما نقول هنا، يشغلها إرضاء الله، فترفض نظرية التطور الكونى والكائنى لأنه سيأخذها بعيدا عن زمنُ الدعوة وطريقة العيش أيامها وطريقة التفكير أيامها.

لقد تمكن مشايخنا من دماغ الوطن حتى العلماء منهم أو المفترض أن يكونوا كذلك، وليس لذلك صرف عليهم الوطن، و ليس لذلك رقاهم الوطن لذلك ندفع لهم رواتبهم من جيوبنا ضرائب إنما ليعلموا أبناء الوطن ليرتقوا بالوطن لكن مشايخنا تمكنوا من شل الوطن وتكسيح الوطن بشل العقل بشروط تمنع الابتداع والابتكار لأن ذلك شطط غير مسموح به. ووسط كل ما هو خط أحمر على العقل فى بلادنا وفى ضوء كل ما هو غير مسموح به كما قالت سيدتى الدكتورة، قررت من جانبى زيارة حديقةالحيوان بالجيزة وكتبت هذا الموضوع وأنا جالس أمام جبلاية القرود، لأحسدها وهى تتحرك بحرية، ولها حيزها الشخصى الذى لايتدخل فيه أحد بفتوى كيف يتصرفون أو يسلكون أو يتكلمون أو يتبرزون، شاهدتهم يمرحون بسعادة وبحرية دون استئذان القرداتى حيزها حسدت أبناء عمومتى وعدت إلى بيتى أحلم بيوم نحصل على حرية أبناء عمومتنا، ولا أنسى أن أذكر دكتورة الوراثةآنه لولا داروين ما كانت هى دكتورة وراثة.

قبل أن تنقرضوا!!

يلفت نظرك فى الصحيفة القومية الكبرى أخبار العلم، التى عادة ما تنشر مليئة بالأخطاء العلمية الفادحة فى بسائط العلم التى يعرفها طلاب المراحل الإعدادية والثانوية، مما يشير إلى تعامل الصحيفة مع العلم وكشوفه وآخر منجزاته بعقلية الخبر الصحفى، الذى ينقل ما تكتبه وكالات الأنباء، وليته يكتفى بمجرد النقل لكان هو الصواب، لكنه يتدخل بعبقرية نادرة فى أيامنا فى إعادة صياغة الخبر لكى يتمكن من بصم اسمه عليه، فيحيل الصحيفة كلها إلى أقرب مقلب قمامة.

ولن يكون ذلك غريبا عندما نلاحظ موقف الصحيفة كلها من العلم وإنجازاته، ومثالا لهذا الموقف المتكرر ما جاء فى صفحتها الأولى فى شكل خبر كشفى خطير تمت صياغته كالتالى: «علماء إسبان يعثروا على حفرية عمرها أربعة عشر مليون عام، هى الجد البعيد لكل القردة العليا وكذلك الإنسان حسب اعتقاد العلماء وفقا لنظرية داروين».

تعالوا نفهم هذه الصياغة فى فقرتها الأخيرة «حسب اعتقاد العلماء». الكشف العلمى ليس علما يفرض نفسه على الجميع بل هو اعتقاد؟!

نحن نتخذ موقفا عقديا من العلم والعلماء بحسبانه عقيدة مخالفة كما لو كان دينا آخر ينافس الإسلام، أو كما لو كان لونا من التبشير المستهجن- إذن نحن- من الآخر- لسنا مع ما يراه العلم تأسيسا وبداية وموقفا. وهو ما لابد أن يفترض أن لدينا البديل العلمى الأصوب والأكثر نجاعة.. فمن نحن؟!! وماذا نقدم للعلم حتى ننعى عليه كشوفه؟ الصياغة أيضا تحمل قدرا من الكبرياء المبطن والاستهانة بالعلم وكشوفه الذى مازال يعتقد فى «نظرية داروين»!!.. ألا يفسر لنا ذلك مصيبة تخلفنا النموذجى والقياسى حتى بين جميع الأمم المتخلفة؟ ألا يجعلنا ذلك خارج العلم أى خارج مسيرة البشرية؟ وهل بهذا الموقف نكون بشرا من بشر هذا الزمان؟ وهل لدى الصحفى الأريب (المؤكد أنه كبير بدليل نشره فى الصحيفة الكبرى وفى صفحتها الأولى)، هل لدى هذا الصحفى بديل للعلم فى تاريخنا الطويل العريض الغليظ ذى الجلد السميك؟ هل لديه بديل لعلم تتبعه الدنيا كلها أم أنه كالشعر يتبعه الغاوون؟ وهل لديه أى مبرر لكل هذه الإنفة والشموخ والكبرياء بينما هو وصحيفته وأمته كلها فى قاع تراتب الأمم؟ وإذا كان كبيرا وصحيفته هى الكبيرة ويكتب هذا الذى كتب بدون تردد، أفلا يفسر لنا ذلك خيباتنا وهزائمنا المتتالية وأن الجهل قد أصبح سيد الموقف؟

بالطبع يمكن لمحررنا الداهية أن يشير هنا إلى سبقنا المعرفى فى فروع

علم البيولوجيا مستعينا بفقهنا المقرر على طلاب الثانويات الأزهرية، ومعرفته لتهجين الحمار والحصان لينتج بغلا أو بغلة عقيما، وكيف أن علمنا يرتبط بعقيدتنا دون تفريط، فيجوز للحصان أن يقفز على الحمارة لإنجاز المطلب العلمى برضى شرعى مسموح به إسلاميا، لكن «يكره نزو حمار على فرس/٤٠٣».. وسر كراهة قفز الحمار على الحصانة أن الحصان حيوان كريم شريف عند العرب إضافة إلى أن الخير معقود بنواصيها حسب الحديث الشريف: وربما واجهت علماؤنا هنا مشكلة فى إقناع الحمار بكراهة نكاح الحصانة، أو إقناع الفرسة بعدم السماح للحمار بركوبها، وهى مشاكل بسيطة وهينة إن شاء الله.

إنها شيخوخة الأمم عندما تدخل طور الخرف والزهايمر قبل الموت المهين لا الكريم، أمة أصبحت تخاف حياة لها تطورها الذى لا تعرفه ولا تفهمه، تخاف من العصر وطرقه وأساليبه فتتكفئ على ماضيها البعيد تستحضره بحسبانه أجمل العصور، كالفرد تماما عندما تصيبه الشيخوخة ولا يعود يرى فى شيخوخته سوى عالم لا يعرفه فيعيش حلم يقظة أيام شبابه الذى ذهب وولى، فيفقد القدرة على تغيير نمط سلوكه، وتضيع منه الهمة والإرادة منشغلا بآخرته رافضا أى جهد لأى عمل منجز أو منتج بعد أن تيقن أنها أيامه الأخيرة.

إن الرئيس الأمريكى بوش وصف القارة الأوروبية بالقارة العجوز لفقدها الهمة والقرار فى حل مشاكلها، ولو لا تدخل أمريكا فى الحرب الثانية إلى جانب القارة العجوز لكان الدب الروسى قد التهم كل أوروبا، ولو لا تدخل أمريكا فى حل مشاكل أوروبا المعاصرة كما حدث فى البوسنة مثلا لتمزقت أشلاء البلقان وما حولها بالتبعية فى متتالية انفجارية. فإذا كان هذا وصف أوروبا فبم يمكن وصفنا نحن؟ بماذا يمكن أن نصف أنفسنا ونحن نروج فى كبرى صحفنا للعداء للعلم لأنه إنجاز شعوب أخرى، وأن علينا مخالفة هذه الشعوب إخلاصا لأصالتنا ووفاء لتخلفنا؟

نحن أمة تصنع مشاكلها بأيديها ثم لا تعرف إلى حلها سبيلا، وكل حلولنا نربطها بالدين أو بوجهة نظر فى الدين كالحجاب الذى بدأ كزى من أزياء الحشمة لينتهى اليوم فرضا إجباريا دونه إنكار معلوم من الدين بالضرورة ،ولأن الدين مقدس فلا يضح مراجعة الحلول السابقة التى تمت بموجبه. آخرها علم العراق الذى كتب عليه صدام بإصبعه الشريف أيام أم الهزائم ١٩٩٠ عبارة الله أكبر، ومن بعدها لم يتمكن العراقيون من تغيير علم الطاغية، فهكذا يفعل كل نظام مأزوم، يختفى وراء الله ويترك حلوله قيودا تكبل شعبه عن التحرك من بعد، ليكون ديكتاتوريا حيا وحبيسا وميتا.

أسلمنا كل مظاهر الحياة فى بلادنا فى زمن أزمة انتقالية مستحكمة، وسمحت حكوماتنا لشغل الناس بقضايا الحيض والنفاس بهجمة الأسلمة على العقول ، بالأشرطة غير المرخصة التى تحوى قمامة الفكر التحريضى المثير للكراهية والفتن، بالصحف، بالمجلات، بالكتب (ويا خسارة الورق والعقول)، بإذاعة الدولة، بتلفاز الدولة، ومؤتمرات الدولة، واحتفالات الدولة، إضافة إلى نهر المال البترو دولارى الذى ارتبط بإسلام المظهر دون المخبر، الزى والجلابيب واللحى والخمار والنقاب والشباشب، والطعام الإسلامى، والطب الإسلامى، مصحوب هذا كله بحملة تكفير علنية للمجتمع والدولة والقانون والدستور والحريات فى كل وسائل الإعلام وفى مساجد الدولة، بل وفى الأوتوبيس العام والمترو، حيث أصبح لكل منها خطيب أو خطيبة، أى والله العظيم.. خطيبة!!، بل إن بعضهن اشتهر فى مترو الأنفاق بالاسم مثلهن مثل الشاب عمرو خالد، والشاب «قرضاوى»، حملة تكفير لكل ما هو مخالف لعادات وتقاليد البدو، حملة تكفير للفن وتدعير للفنانات والفنانين، وتكفير للأدب الذى هو أدب، وللثقافة وللعلم حتى كفروا الرئيس الذى أعطاهم كل هذه المساحة واغتالوه يوم نصره مكافأة له لاستعادته تراب الوطن الذى فرط فيه من قبل العربيون المتأسلمون، وتركوا على تراب سيناء مساحات دم من أبناء مصر ستظل تخزى تاريخهم أبد آبدين.

وبعد هذه الأسلمة المتشحة بأسوأ رداء إسلامى ممكن وبأكثر رؤية مظلمة للإسلام، رغم وجود بدائل مذهبية أكثر احتراما للإنسان وللدين وللمستقبل. بعد هذا كله يصبح طبيعيا أن يكون هذا موقف صحفنا الكبرى من أى علم، ومن الطبيعى أن يرفض الناس أى جديد.

المصيبة تتفاقم عندما نحاول اليوم العثور على حلول لمشاكلنا المتراكمة تلالا، وبعد الاجتماعات وجهد المتخصصين ووضع الخطط والاقتراحات، يتم رفع التقارير النهائية للمشايخ مرة أخرى ليروا رأيهم فيها ليحللوها أو يحرموها. والأنكى أن نتحدث عن الإصلاح الدينى حتى لا يفرز الإسلام بوضعه الحالى مزيدا من الإرهاب، بإحالة ملف الإصلاح لرجال الدين للإصلاح الدينى (؟!!).. ا لسؤال هنا هل يمكن للفيروس أن يبحث لنفسه عن علاج يقتله؟

إن الإرهاب هو النتيجة الطبيعية والمفترضة لسوء السياسات التى استخدمت الدين فى أغراضها، لجر الشعوب من أعناقها عن رضى وإيمان طيع، الإرهاب أصبح كائنا حيا ينمو ويتكاثر بإغواء الآخرين للتزاوج معه لإنتاج أجيال محسنة، وكما برع فقهنا البيولوجى فى مسألة تهجين البغل

الذى لا يتناسل، فقد جاء منجزنا البيولوجى واضحا لكل الدنيا، جاء الإرهاب نتيجة هجينة لتزاوج ثقافة التكنولوجيا مع ثقافة القبيلة البدوية، فأنتج شائها عملاقا قويا يملك آليات العصر مع عقل الماضى المتخلف، عملاق قوى الجسد ضعيف الفهم، نصف آدمى نصف آلى، نصف متحضر، هجين كالبغل لهذا هو قاتل سفاح. لهذا أيضا هو لا يستطيع الإنجاب، لذلك يتراجع بيولوجيا إلى مرحلة الكائنات الطفيلية، فهو طفيلى فى كل شئونه، طفيلى فى موارده المالية، طفيلى فى الحصول على منفذى عملياته، يعيش فى مزابل الكراهية وكهوف الغدر بعيدا عن الحضارة وإشعاعها القاتل للجراثيم، ثم هو أيضا لحل مشكلته البيولوجية التكوينية يأخذ صفات مصاص الدماء، يتغذى مثلهم على دم البشر، ويدفع فى شرايينهم سمومه ليصيبهم بالعدوى، فيصيبهم بالكساح الفكرى والبله والعته والكراهية والحقد فيتحولوا بالعدوى إلى مصاصى دماء. وليس من دليل واضح على انتشار عدوى السعار انتشارا وبائيا أكثر من الشباب المسلم فى مختلف البلدان وهم يلتفون حول رمز دينهم بن لادن بولاء قبلى لا يعرف معنى الوطن، فيضربون الوطن إخلاصا لرمزهم غير واعين أن الأمة الإسلامية هى مجموع هذه الأوطان التى يدمرونها، وغير مفترضين أن من يقتلونهم هم من يشكلون مجتمع هذه الأمة.

الإرهابى لا يشغله من هم ضحاياه الذين سيدفنهم التفجير أحياء، لا تشغله أحلامهم ولا أهلوهم ولا إن كانوا من المصلين التقاة أو من الآثمين، لا تشغله انتماءاتهم وبعضهم أخلص منه إسلاما، أو للحقيقة كلهم.

إن البشر لا يسلكون هكذا أبدا.. إنه انجازنا العلمى، إنه الإنجاز الذى بلا شبيه، إنه الهجين المفترس الطفيلى مصاص الدماء المسعور، الذى يفترس الشيعة والسنة والأطفال والنساء والعجزة، اليهود والمسيحيين والبوذيين، المصريين والعراقيين والماليزيين والأتراك، يضرب فى أى مكان، فى الأراضى المقدسة وفى سيناء المقدسة وفى فرنسا وفى إسبانيا وفى أمريكا وفى ماليزيا وفى أفغانستان وفى أى ستان وكلها يعيش فيها بشرا آمنون فهى كلها مقدسة ، يلتهم ولا يفرق بين ذكر وأنثى ولا كبير ولا صغير ولا أبيض ولا أسود ولا أصفر ولا طفل رضيع.. ترى هل اكتشف شعب فى الدنيا أسلوبا كالذى اكتشفناه وصنعناه فى معاملنا؟.. وهل فى الدنيا من له كل هؤلاء الأعداء؟

وعود إلى مشايخنا الطيبين الذين سيحلون لنا مشكلة الإرهاب عبر ملف الإصلاح الدينى.. منهم من أيد الإرهاب علنا ومنهم من أيده على استحياء ومنهم من سكت، لكن ليس منهم من قام يكفر الإرهاب والإرهابيين كما سبق وكفروا مفكرى الوطن وحكام الوطن وكل الوطن.

مشايخنا الطيبون هم من يقودون صغار شبابنا لبيع دمائهم فى سوق الخلود ليلحقوا بالصبايا الحور، ويتركونا بين الدمار وبين التهديد الدولى القادر. إنها سوق نخاسة لا إنسانية، تذكرنى بما كان يفعل السلف الجاهلى بقيادة الفتيات لبيع أعراضهن فى الخيام الحمر.. تذكرنى بالقوادين.

وكلما اقتربت رياح الديمقراطية ازداد الشيوخ ضراوة، وازداد الإرهاب شراسة بادعاء أن الديمقراطية بدعة غربية مرفوضة، وكأنما صحيح الدين سيتعطل عندما يراقب الشعب سارقيه.

لقد استولى المشايخ عبر الفترة المأزومة الماضية على كل السلطات، فأصبحوا هم مصدر التشريع ومصدر القانون ومصدر التنفيذ، أصبحوا الآمر الناهى، بينما تم إقصاء الدولة الحديثة لأنها غير ملتزمة ولا تشرب مكة كولا، وأنها تضع تشريعات كفرية، ويقوم نظامها كله على أسس كفرية.

ولأن الديمقراطية تطيح بكل هذا لصالح الدولة المدنية الحديثة يصبح مفهوما اشتداد سعارهم الآن الذى هو علامة على بداية النهاية.

هل تذكرون عندما صلى شعراوى تجاوز الله عن سيئاته فى هزيمة ١٩٦٧، وقال إنها كانت شكرا لله لهزيمة السلاح السوفيتى فى أيدى المسلمين أمام السلاح الأمريكى فى أيدى الإسرائيليين.

الحقيقة أنها كانت صلاة الاحتفال بهزيمة الدولة الحديثة العصرية التى أزاحت دولة الدين والخلافة.. وبعد سبتمبر ٢٠٠١ وهبوب الرياح القالعة للكراسى الدموية ازداد بطش الارهاب لأنه دولة الدين، أو المتحالفة معه فى طورها النهائى ونزعها الأخير. لأن قيام الدولة الحديثة منذ زمن محمد على فضح جهلهم وتخلفهم وطمعهم وغشهم لله وللمؤمنين فحقدوا عليها وكفروها وكفروا تشريعاتها وطالبوا بزوالها، حتى واتتهم فرصة السقوط فى ١٩٦٧.

ولأن الأيام دول فقد آن لمشايخنا أن يتركوا ملف الإصلاح لأهله وناسه لأنهم قد أصبحوا عمالة زائدة فى الدولة المقبلة، وحتى تتم تهيئة الأوضاع ضمن مسيرة الإصلاح لقدوم الآتى، إما أن تتم إحالتهم للاستيداع، أو أن يعاد تأهيلهم وهو الأمر الصعب، حتى يمكنهم مرافقتنا سفينة المستقبل، ولكن لهذه المشكلة حلها الذى نعرضه حبا فى الوطن ولأننا لانعرف الكراهية مثلهم، بل نغفر لهم، وعلى استعداد لإعادة تأهيلهم. نحن يا سادتنا نعرف الغفران والحب لكل أبناء الوطن، ونحن كفيلون بتعليمكم وتثقيفكم وإخراج كل الخرافات من رؤوسكم لتركبوا معنا سفينة النجاة نحو الحضارة، لأنه لا عاصم لكم اليوم من الانقراض.

ماذا يريد الإخوان

١ - قراءة فى المبادرة

يلحظ المتابع للخطاب الدينى الإسلامى، سواء كان صادرا عن فرد كأى شيخ تلفازى أنيق، أو واعظ فى مسجد بالضواحى، أو زعيم الجماعة إرهابية كابن لادن مثلا، أو زعيم لجماعة تزعم أنها تخلت عن إرهابها السرى (والله أعلم) مثل مهدى عاكف مثلا.. أن كلا منهم يتحدث وكأنه الراعى الرسمى للإسلام، أو أنه المكلف بتوكيل من الله مباشرة (والمسلمون لايعلمون لغفلتهم)، أو أنه الناطق باسم جميع المسلمين بعد تفويض منهم مسجل بالشهر العقارى ومختوم بختم النسر، أو باختصار بأنه الإسلام نفسه، وأن غيره ليس كذلك بالمرة.

وهى كارثة لحقت بالإسلام والمسلمين ممن ركبوا على رقابهم باسم الله، وأربكت المؤمنين ما بين قول هذا وقول ذاك وتناقض هذا مع ذاك، أو تناقض هذا مع نفسه، وذاك مع ما كان يقول منذ قليل، حتى أصاب المسلمين الحول فى أخص مقدساتهم وباتوا لايعلمون هل هم على دين سماحة ورفق ومحبة، أم على دين يأمرهم بقتل الآخرين وغنم أموالهم وأولادهم ونسائهم، فالتبس الإسلام واحتار المسلمون إزاء أولئك الذين يقومون بتشغيل الإسلام حسب المطلوب لمصالح خفية تكمن خلف الخطاب الظاهر المسجوع الخاشع، ونموذجا لهذا اللون من الخطاب المريك ما جاء فى مبادرة جماعة الإخوان المسلمين بريادة مرشدهم الجديد الشيخ مهدى عاكف، والتى تحتاج إلى وقفة للفرز والفهم والتقييم.

والقارئ لهذه المبادرة العجب سيلحظ فورا تلك النغمة التى يفرزها الشعور بالقيادة المختارة قدريا والإلهام المتفرد الذى يتسم به أصحاب المهام التاريخية أو من يعتقدون ذلك، مع الإحساس بالاصطفاء والاختيار الإلهى الذى لاراد لقضائه، كالقول فى بند رقم «٤» بالمدخل أن الإصلاح المنشود والمطلوب لخروجنا من قاع التخلف يحتاج إلى ريادة (قيادة) وهو أمر لا تستطيعه الحكومة وحدها، فكيف إذن نعثر على هذه القيادة الملهمة؟

فى تلفيق لطيف يليق بتلامذة الثانوى يطلبون التفاف كل قوى المجتمع للمساعدة فى الاصلاح فعلام سيلتف الملتفون؟ الإجابة سيلتفون حول المقومات الأساسية للمجتمع؟! وما هى هذه المقومات؟ تحددها المبادرة بأنها تلك التى تهدى البشر إلى الحق وتنير العالم بمبادئ الإسلام؟ ومن

الطبيعى أن نعلم أننا ملتفون والحمد لله. فما الجديد هنا وأين هى الريادة؟ هنا يقدم لنا عاكف حل الفزورة الملفوفة لأن أهداف هذااللف الملفوف هى الغاية العليا لدعوتنا، و«أننا ننادى بفكرة الإسلام.. ونقدم للناس شريعة القرآن».. إذن تاهت ولقيناها فالريادة موجودة والحمد لله عند الحافظين للإسلام وشريعته التى هى المقومات الأساسية التى يجب أن يلتف حولها الجميع تحت ريادة الأمناء عليها، إخواننا المسلمين حفظهم الله للأمة العربية ذخرا وللإسلام فخرا. وعليه فالحكومة وحدها لا تستطيع الإصلاح، والريادة عند عاكف، وعاكف عند الإخوان، والغريب هنا قول المبادرة أن الإخوان مهمتهم تقديم شريعة القرآن للناس، ناسين أن الله هو من قدم هذه الشريعة للناس وليس عاكف وجماعته. أو خالطين بين الجماعة وبين الله دون مبرر واضح يثبت لنا هذاالخلط، أو دون بيان لنزول الوحى من جديد على الجماعة بعد أن ختمه النبى الخاتم دون أن نعلم، وإن علمنا كفرنا.

وبما أنه قد تم تحديد الاصلاح المنشود بإقامة شرع الله فإنه يستمر موضحا دور الإخوان البسيط للمشاركة فى هذا الاصلاح بقوله: «إن لنا مهمة محددة.. هى العمل على إقامة شرع الله» ولا تدرى أيضا من حددها لهم دون غيرهم، لكنه الكلام الذى يستبطن أن الاصلاح المنشود فى النتيجة النهائية سيكون مهمة الإخوان «المحددة» وحدهم باختيار واصطفاء خاص، يتطلب منهم إبراز التوكيل الذى أعطاهم الله إياه لهذه «المهمة المحددة» التى هى فى النهاية ريادة قوى المجتمع نحو الإصلاح المنشود، فأين التوكيل ياحاج عاكف؟

ثم ينطلق نحو الغرض التكتيكى المرحلى تمهيدا للهدف الاستراتيجى، فيردد ويزيد فى مسألة أنهم أهل الدعوة إلى الله، ويعيد وينغم ملتاعا: إعطنى حريتى أطلق يدى، ففى البند «مجال لبناء الإنسان المصرى» ينادى «بإطلاق حرية الدعوة»، وتحت بند «مجال إصلاح الأزهر ينادى «بإطلاق حرية الدعاة». وبما أن حرية الدعوة فى مصر مكفولة فى براح لم يشهد له الإسلام مثيلا عبر تاريخه، فى زمن وسائل ومكتشفات لم تكن معروفة كالتلفاز والراديو الميكروفون والإنترنت، وهى كل الوسائل التى تم استيلاء الدعاة عليها، سواء فى التلفاز بقنواته الأرضية وقنواته المتخصصة وقنواته الفضائية وكل محطات الارسال الاذاعى وفى الشارع وفى الأتوبيس وفى المترو وعلى يافطات ولافتات أينما وجهت وجهك فى أى شارع وعبر ميكروفونات تواجه بعضها بعضا وتجاور بعضها بعضا

بأصوات تقصف الآذان فلا تفهم ما يقول هذا أو بماذا يصرخ ذاك، وفى ازدحام تفوق على ازدحام المرور ويستحق جائزة (الأيزو) المباركة، لذلك فإن مطلب الإخوان هنا باطلاق حرية الدعوة والدعاة لن يكون مفهوما إلا إذا كانوا يحتسبون أنفسهم الدعاة الأصليين وأن كل الدعاة الذين يدعون فى بلادنا دعاة «سكندهاند» وهو أيضا ما يعنى أن حكومتنا مقصرة فى افساح المجال لدعوة الإسلام، رغم أننا لو حاسبنا الحكومة فسنحاسبها على إطلاقهم على المواطنين من كل حدب وصوب دون حساب لحاجات المواطنين ومطالبهم ووقت عملهم ووقت دراسة الشباب منهم إضافة إلى ما اصاب الصحة السمعية والنفسية والعقلية لمواطنينا بفضل دعاتها الكواسر،.

ومع استثمار كل التيارات المتأسلمة لمسألة الدعوة هذه، والتى لا يستطيع أحد أن يقول لها: «بم»!! نقرأ للشيخ ممدوح الشيخ تعقيبا على توبة الارهابيين (فيما يزعمون والعلم عند الله) فى موضوع بعنوان «مراجعة الفكر والأساليب والموقف» أن الإرهابى التائب اسامة حافظ قال: «ستبدأ فترة جديدة تتأخر فيها مرحلة القتال وتتقدم من خلال الدعوة» ولنلحظ هنا دقة صياغة العبارة، فهو إطلاقا لم يفصح بالرجوع عن مبدأ القتال والتوبة عنه، بل قال إن القتال سيتأخر خلال المرحلة الحالية، لكن لايخشى المقاتلون على صدأ الكلاشنكوف ومتعة الدم، فهم لن يستبدلوا القتال بالدعوة، بل إن القتال باق، وأنه **سيتقدم** من خلال الدعوة!! فأين الصدق وأين البهتان وأين التقية الرديئة؟ أو أين السنيورة الأمورة بين الثلاث ورقات؟ وهل ثمة علاقة بين هذه الدعوة التى سيتقدم القتال من خلالها وبين دعوة الإخوان بإطلاق حرية الدعاة؟ ثم أليس من غفلة المغفلين ألا تنتابنا الريبة فى إخواننا هؤلاء وإخواننا أولئك؟

وأليس من حق المسلم البسيط أن يتساءل عن معنى الدعوة المقصودة عند الإخوان وإخوانهم؟ هل يقصدون بالدعوة وظيفة الداعية بمعنى رجل الدين؟ الاجابة لن تكون فقط بالنفى بل بالرفض القاطع لأن الاسلام لايعرف رجال دين ولا اكيروس. إذن هل هم يريدون توجيه الدعوة الإسلامية لمسلمين أسلموا منذ ١٢٢٤ سنة مضت؟ أم تراهم يدعون إلى إسلام غير الذى عرفناه عن نبينا وقرآننا وأسلمنا له تسليما؟ أم تراهم يريدون دعوتنا إلى الإسلام نفسه لكنهم يرون أن صاحب الدعوة الأول قد قصر فى دعوته؟ أم أنهم يريدون دعوتنا إلى إسلام غير ما علمنا ربنا ونبيه؟ أو ربما يريدون دعوتنا إلى طريقة جديدة فى فهم الإسلام؟ وفى

هذه الحال لابد أن نتساءل لماذا يكفرون أصحاب الطرق الأخرى فى فهم الإسلام؟ أم هم يرون كل المسلمين قد كفروا وارتدوا وأصبحوا بحاجة إلى الدعوة الإسلامية من أول وجديد؟ وهنا نكون قد عدنا إلى زمن جماعة التكفير والهجرة عودا غير حميد.

نحن نفهم أن الدعوة إذا كانت خالصة لوجه الله فإنها لاتكون هنا فى ديار الإسلام وأن عليهم الاقتداء برجال الدين المسيحى الذين وهبوا أنفسهم لربهم وزهدوا فى حياة الدعة والرخاء وهاجروا إلى مجاهل أفريقيا يعيشون بين النمور والأسود والبدائيين يقدمون لهم العون والعلاج والعزاء الدينى والهداية أو حتى تقتلهم أمراض القارة السوداء أو النمور والضباع شهداء عند ربهم يرزقون، أما أن يقوم كل من هب ودب من الفسخانى فى امبابة إلى الشيخ عاكف إلى الشيخ قرضاوى وأيضا تائبو الإرهاب للدعوة للإسلام فى بلاد المسلمين بعد أن أصبح الدعاة أكثر عددا من المسلمين، فهذا هو الأمر غير المفهوم، لكننا قد نفهم معنى الدعوة ونحترمها ونقدرهاونستبعد أن تكون تجارة أو ضحكا على ذقون المسلمين عندما يغادرنا الدعاة بالسلامة إلى بلاد الزناجرة ليعيشوا بين القردة والتماسيح والبشر البدائيين ليثبتوا أحقيتهم بلقب «داعية»، أما أن يجلس بعضهم أو أكثرهم فى قنوات التلفاز يدعون ويتجشأون بين الدعوة والدعوة أكلهم السمين المغموس فى السمن البلدى ودم الغلابة، ويعيشون فى القصور ويلبسون النفائس ، فهذا ليس بدعوة بل هو تجارة بالدين وما أبأسها تجارة.

ولا يبقى من كل احتمالات صراخهم بالدعوة وافساح المجال للدعاة الإخوان سوى أنها طريقة فى لعب السياسة باللعب بالدين، وأن هدفهم الحكم وليس الله ولا محمدا ولا المؤمنين، وهو الاحتمال المرفوض جملة وتفصيلا من العامة قبل الخاصة، وهنا لابد أن نقول لحكاية الدعوة هذه بدل الـ «بم» الواحدة «ألف بم».

وتستمر المبادرة الإخوانية ترص البنود صفا مرصوصا لنقرأ البند الثانى فى صدرها يقول: «إن الاصلاح الشامل هو مطلب وطنى وقومى إسلامى. يهدف إلى إنجاز آمال الأمة فى حياة كريمة ونهضة شاملة وحرية وعدل ومساواة وشورى، وبعضنا سيوافق على العبارة خاصة فى كون الاصلاح مطلبا وطنيا تقع أعباؤه على أبناء الوطن، وبعضنا سيختلف على كونه مطلبا قوميا وإسلاميا فهو أمر فوق قدراتنا وعندما نحل مشاكلنا نشوف مشاكل غيرنا بعونه تعالى ، ولكن مالن يتفق عليه

الفاهمون لتاريخنا الإسلامى هو مسألة «الشورى» تلك بعد أن عانى المسلمون منها المرارات، وكم من جرائم ارتكبت باسم الشورى فى تاريخها غير الجميل، لأنه كان المبدأ الذى يأتى بحاكم يحكم مدى الحياة عدلا أو ظلما وجورا ،وحالات العدل لاتعد حتى على أصابع اليد الواحدة بين خلفاء الشورى لعدم وجود مؤسسات تتبع نظرية الشورى يمكنها عزل الحاكم الجائر ومحاسبته، بل إنه لم يهتم أحد حتى بوضعها إلا فى كتب القراءة الرشيدة والمحفوظات الحالمة، ومن بعد الخليفة يأتى خليفة لم يختره أحد ويساق الناس بالسياط لمبايعته وإن لم يفلح السوط أفلح السيف لإعطائه البيعة، وكان للخليفة أن يتشاور مع جماعة من الأفاقين ثم الاصطلاح على تسميتهم بأهل الحل والعقد أو لا يتشاور هوه حر!! وله أن يأخذ بالمشورة أو يعزم ويتوكل على الله لا على العباد.

وفى بنود المبادرة المرصوصة كالبنيان يحدثنا البند ٤ عن ضرورة الاصلاح الذى يجب أن «ينطلق من المقومات الاساسية لهذا المجتمع.. من منطلق هداية البشر إلى الحق.. وإنارة العالم بمبادئ الإسلام، وهى الغاية العليا لدعوتنا.. فنحن ننادى بفكرة الاسلام وهى أقوم الفكر، ونقدم للناس القرآن وهو أعدل الشرائع.. لإقامة شرع الله.. ومن الحق أن نعترف أننا بعدنا إلى حد كبير عن مقتضيات الإسلام.. ولا أمل لنا فى تحقيق أى تقدم إلا بالعودة إلى ديننا وتطبيق شرعنا والأخذ بأسباب العلم والتقنية الحديثة وحيازة المعرفة بأقصى ما نستطيع فى ظل ثوابت هذا الدين العظيم.. لذلك فإن لنا مهمة محددة هى العمل على إقامة شرع الله من منطلق إيماننا بأنه المخرج الحقيقى الفاعل لكل ما نعانى منه من مشكلات داخلية أو خارجية سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية.. وذلك من خلال تكوين الفرد المسلم والبيت المسلم والحكومة المسلمة.. لتقيم شتات المسلمين وترعى مجدهم وترد عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم السليبة».

وإنه لكلام كبير والله العظيم.. كبير الخداع عظيم المراوغة.. يعتمد على وجهته إلى المواطنين البسطاء وأشباه المتعلمين الذين تم سلب وعيهم سلفا بمطالب الحياة وتكريسهم لمطالب الموت، خطاب يدغدغ العواطف الدينية ويدلك الغرائز الطائفية.

خطاب مشغول بتكتيكه واستراتيجيته لا بالاصلاح، لأن الاصلاح عنده يجب أن ينطلق من المقومات الأساسية للمجتمع الإسلامى التى هى سبيل الاصلاح؟! وإذا كان الاصلاح بمقوماتنا الاساسية الموجودة لدينا سلفا

فلماذا نحتاج إلى اصلاح؟ أليس السبب أن هذه المقومات لم تكن يوما سببا فى اصلاح أى شأن؟ وإذا كانت هذه المقومات عبر تاريخنا هى الوحيد الثابت حتى اليوم فلماذا لم ينصلح شأننا بل اصبحنا بين الأمم شعوبها المريضة ومسخرة العالمين؟

إن سادتنا الإخوان يريدون وضع مقدمات أساسية لا ينبغى الحيد عنها هى ذات المقدمات التى تعانى الخلل وتحتاج إلى إعادة النظر بشأنها لاصلاحها لا التغنى بقدرتها على اصلاحنا وإصلاح العالم أجمع من حولنا؟! تأمل يا مؤمن؟! والغريب المثير للزراية والسخرية أن هذه المقومات التى سنهدى بها البشرية لم تجعلنا بين الأمم المتحضرة السعيدة حتى يمكننا إغواء الأمم الأخرى بها، والأنكى أننا سنقوم بإنارة العالم بها؟! وهذا رغم أن العالم منور أحلى نور ويعيش التقدم والتحضر والرقى والعلم والحريات والانتاج والتفوق، بينما نحن بما لدينا من مصابيح الأنوار نصحو على الاسلام وننام على الاسلام ونتجشأ بالاسلام ونتغوط بالاسلام وننكح بالإسلام ونتحدث بالاسلام وندافع عن الاسلام، ورغم كل هذه المصابيح فإن تيار الإنارة مقطوع عناحتى أمسينا نعيش فى ظلام دامس، ولاتفهم كيف يتصور الأعمى أن يقود المبصر، أو من يعيش فى الظلام أن يكون قادرا على إضاءةبلاد الآخرين.

ما علينا لنتابع أثافى الإخوان نسمع الإخوانجى يقول: «إننا نقدم للناس شريعة القرآن وهى أعدل الشرائع.. لإقامة شرع الله والحكومة المسلمة»؟! كما لو كان كل ما تقدمه وسائل الإعلام والتعليم بكرة وأصيلا شيئا آخر غير القرآن والاسلام، وكما لو كانت الحكومة الحالية غير مسلمة؟ أما مسألة إقامة شرع الله فهو الأمر الذى أصرت عليه الجارة العزيزة السودان فكان ما كان من انهار الدم وانقسام الوطن الواحد، لأن مصر ليست كلها مسلمين، ولأن غير المسلمين لن يقبلوا بتطبيق هذه الشريعة اليوم، ولأن هناك غيرهم مسلمين ومؤمنين لن يقبلوا بتطبيقها اليوم إيمانا منهم بأن الزمن قد تجاوز العقوبات البدنية إلى غير رجعة، وأيضا لأن هذه الشريعة تحوى الكثير مما تركته السنين لزمنه وتاريخه، فلم يعد بالإمكان إعادة الرق لتطبيق أحكامه وللتفرقة بين أحكام الرق والحر فى الحدود، ولكن إن حدث لاقدر الله أن استولى الإخوان يوما على الحكم وأقاموا الحكومة الإسلامية كما يفهمونها، فإنى أدعوهم بدعوة أخى الشهيد فرج فودة وأنا رجل من فقراء مصر أن يعيدوا بطاقة التموين المدعوم وأن توضع بها بجوار خانات الزيت والسكر والشاى والأرز خانة

احصل بموجبها على حقى فى الجوارى حتى أحصن ولا أقع فى جريمة الزنا كفانا الله شرها، كذلك سيرفض إخواننا المسيحيون لاشك شريعة لاتناسبهم ولن يرضوا أن يعودوا إلى زمن الجزية وأهل الذمة لا أعاده الله أبداً.

لكن اللافت للنظر هنا بشدة قولهم بدولة إسلامية تطبق الشريعة فى ذات الوقت الذى يقولون فيه تحت بند «فى مجال الاصلاح السياسى» : «إن جوانب الاسلام الشامل لا تتحقق إلا من خلال تطبيق الديمقراطية التى نؤمن بها ونلتزم بأصولها.. مع الاقرار التام بأن الشعب مصدر جميع السلطات»؟!

كيف يلتقى هذا مع الاصرار على الشريعة هنا لاتفهم كيف يلتئم القولان: دولة إسلامية شرعية، ودولة ذات أصول ديمقراطية؟! خاصة مع ما نعلمه أن جماعة الإخوان لاتمارس فى داخلها أى لون من ألوان الديمقراطية وعلى الأعضاء السمع والطاعة، ناهيك عن كونهم قد أكدوا بدل المرة عشرات المرات أن الإسلام لايلتقى مع الديمقراطية بحال، ومازلنا نتذكر المرشد الراحل مصطفى مشهور تجاوز الله عن سيئاته وهو ينادى بملء الفم «إن الديمقراطية دعوة تناهض الإسلام وتحاربه.. وأن من ينادون بالديمقراطية.. يرفعون رايات تخالف منهج الله وتحارب الإسلام، مجلة «الدعوة ١٩٨١/١» وبينما يقول الحاج عاكف هنا: إن الشعب هو مصدر جميع السلطات» فإن زميله على العريشي يقول: «إن الحكم باسم الشعوب شرك بالله/ كتابه المجتمعات الإسلامية الحديثة» فأى الموقفين وأى الإعلانين هو الصادق؟ أم علينا أن نبحث عن السنيورة بين الثلاث ورقات كلما تعاملنا مع الإخوان وأشباه الإخوان؟ أم أن السنيور عاكف يماشى جو هذه الأيام المطالب بالديمقراطية بعد ثبات فشل الارهاب المسلح فى الوصول إلى السلطة ليصلوا إليها عبر صناديق الانتخاب وتكون آخر انتخابات إن شاء الله تغلق بعدها كل الصناديق والأفواه، متصورا سامحه الله أن أحدا سيقبل بفوضى الديمقراطية التى يحلم بها، لأن الديمقراطية دون تأسيس حقوق إنسان كاملة يؤمن بها الجميع عن يقين ستكون هى الكارثة الكاملة، ديمقراطية لاتعرف مرشحين يدخلون الانتخابات تحت رايات الله يزعمون أنهم المختارون من السماء لمواطنين بسطاء سيعطون أصواتهم لله طبعا، ديمقراطية لاتسمح إطلاقا لابحزب دينى ولا بمرشح يثبت عليه انتماءه لجماعة دينية أو يرفع شعارات دينية، بل وتجريم من يثبت عليه ذلك وهو أول مطالبنا فى

تأسيس مسيرة الاصلاح السياسى الآتية. فلا نحن ولا الناس ولا الله بغافل عن التقية الرديئة التى يمارسها الإخوان من أجل الوصول إلى الحكم بأى أسلوب.

أما قول السنيور عاكف: «ومن الحق أن نعترف أننا بعدنا إلى حد كبير عن مقتضيات الإسلام.. ولا أمل لنا فى تحقيق أى تقدم.. إلا بالعودة إلى ديننا وتطبيق شرعنا». فلا تفهم هل هو يقصد المسلمين فى بلادنا أم يقصد الإخوان؟ إن كان يقصد الإخوان فقد قال قولة حق باعتراف يحسب له، أما إن كان يقصد المسلمين عامة فى مصر المحروسة فهو اتهام شديد المجازفة يفصح عن رغبتهم الدائمة فى التكفير دون تحفظ أو احتراز، وعدم احترامهم ولا تقديرهم لملايين المسلمين الطيبين الركع السجود المسبحين لربهم بالغداة والعشى، وهم فى مصر وحدها أكثر عددا من مؤمنى زمن الدعوة ومؤمنى زمن هارون الرشيد، وأكثر منهم رشادا بفضل انتشار وسائل الاتصال التى احتلها الدعاة فأصبح الناس أكثر قدرة على التواصل مع علوم الدين، ناهيك عن فارق عدد المتعلمين اليوم عن تلك الأزمنة البائدة، ودون أن يلحظ سيادته أن تطبيق شرعنا زمن الخلافة الراشدة لم يمنع موت الخلفاء الأربع قتلى (أبو بكر أيضا مات مسموما فى كثير من الروايات» ولم يمنع الصحابة الأكارم الموعودين بالجنان من الاقتتال وسفك دماء بعضهم بعضا، وتمزيق أوصال الدولة التى لم يقمها بعد ذلك قوية بملك عضود إلا قوم لم ينشغلوا لا بالشريعة ولا بالإسلام بقدر ما شغلتهم الدنيا وبناء القوة وتوسيع رقعة الإمبراطورية جلبا لمزيد من الغنائم وألوان النساء الغوانى على مختلف أشكال الاقطار الشقراء والبيضاء والسمراء، وأن اتساع رقعةالدولة الإسلامية لم يكن بفضل تطبيق الشريعة، إنما بسبب وضع المسلمين وظروف ذلك الزمان الذى انهارت امبراطورياته وتركت فراغا قويا ملأه المسلمون.

أما القول إن مجرد تطبيق الشريعة اليوم ستتبعه فورا قوة إسلامية معجزة فهو لون من الخبال لايرى ظروف عالم اليوم وأحواله، وأن من يقول ذلك لا يختلف كثيرا عن الساحر الذى يعتقد أن بعض الكلمات والطقوس يمكنها التأثير فى حركة الواقع وتغيير ها دون الأخذ بالاعتبار ظروف هذا الواقع، ولا نظن السنيور عاكف وبقية «السنانير» على هذا القدر من الغباء بقدر ما نعتقد جازمين أنهم يلعبون بمثل هذا الخطاب على أرواح بسطاء المسلمين الطيبين ليس أكثر، لعبة تجاوزتها الأيام بدورها ولايزال لنا مع مبادرة الإخوان حديث وقول.

٢- لماذا الإخوان حتى الآن .. إخوان؟!

يرى الإخوان أن مشروع الاصلاح المطروح الآن فى ساحة المناقشة قد استدعاهم ليقولوا فيه كلمتهم لإثبات وجودهم كقوة سياسية فى فعل المستقبل. وبحسبانهم دعاة إصلاح بغض النظر عن مواقفهم خلال العقود الماضية من قضية الإصلاح.

ولأن الإصلاح لكى يكون اصلاحا فلابد أن يبدأ بالاستماع لكل الآراء والافكار الممكنة من جميع القوى الوطنية. فعلينا أن نسمع للإخوان رغم المضض من تاريخ الإخوان، خاصة مع إعلانهم التمسك بالمبدأ الديمقراطى وتعدد الأحزاب، وأن الشعب هو مصدر جميع السلطات مما يعنى تراجعا فى مواقفهم العلنية فى منشوراتهم بمعاداة النظام التعددى الحزبى والمبدأ الديمقراطى» ورغم ما ورد فى مبادئهم من بنود ناقشناها فى العدد الماضى لا تشير إطلاقا إلى ايمان حقيقى بهذا المبدأ الرفيع، وهنا نتابع قراءة المبادرة لمزيد من التبقن والتأكد. خاصة أنه فى ميدان السياسة لا معنى لما يسمى النوايا الحسنة بدون دلائل وبراهين وإعلان واضح دقيق.

يفاجئنا الإخوان بجديد حقيقى فى بند يؤكد على «حرية الاعتقاد الخاص. وتأكيد إقامة الشعائر الدينية لجميع الأديان السماوية المعترف بها» وبما أن لكل جديد دهشة، فإن أول اسئلة الدهشة: هل نفهم أن الإخوان مع مستشارهم الجديد قد قرروا التخلى عن تراثهم إزاء الأديان الأخرى وأصحابها ؟ هل قرروا التجاوز عن فتوى مستشارهم السابق مصطفى مشهور تجاوز الله عن سيئاتهم بوجوب دفع المصرى المسيحى الجزية واستبعاده من الجيش تحسبا لخيانته؟ لقد تراجع مشهور نفسه بعد فلتته اللسانية وما واجهه من عاصفة رفض شعبى، لكن ذلك لا يعنى التصديق بالتوبة وانتهاء الأمر، فهذا قول له تراث طويل فى فقهنا المعتمد من الإخوان تعضده سيول من الأقول التراثية والإخوانية نضرب منها على سبيل المثال كتاب ابن القيم الجوزيه أحد رجالات الأثر المرموقين عند الأخوان المسمى بـ«الشروط العمرية» وهو ما استخلص منه الأخوان أن موقفهم من إخوانهم فى الوطن ومثالا خلاصيا لهذا الكتاب ما جاء بمجلة الدعوة فى ديسمبر ١٩٨٠ يقول : «إن حكم بناء الكنائس فى ديار الإسلام على ثلاثة أقسام : الأول بلاد أحدثها المسلمون وأقاموها كالمعادى والعاشر من رمضان وحلوان وهذه البلاد أمثالها لا يجوز فيها إحداث كنيسة أو

بيعة والثانى: ما فتحه المسلمون من البلاد بالقوة كالاسكندرية بمصر والقسطنطينية بتركيا فهذه أيضا لا يجوز بناء **هذه الاشياء** فيها«لاحظ: هذه الاشياء»؟! وبعض العلماء قال بوجوب الهدم لأنها بلاد مملوكة للمسلمين والقسم الثالث ما فتح صلحاً بين المسلمين وبين سكانها والمختار هو ابقاء ما يوجد بها من كنائس وبيع على ما هى عليه فى وقت الفتح، ومنع بناء وإعادة ما هدم منه» فهل يعنى إعلان الإخوان الجديد تخليهم عن هذا التراث ؟ وهلا أعلنوا ذلك بوضوح إزاء رتل هائل من مكتبتنا التراثية هى المائدة المستديرة للإخوان.

ومع جديد الإخوان وتأكيدهم على «حرية الاعتقاد الخاص وإقامة الشعائر الدينية لجميع الأديان السماوية المعترف بها «لابد من السؤال عن الأديان المسموح لها بالعمل ووصفها بكونها» المعترف بها» فكيف نوفق بين ذلك وبين معنى الديمقراطية لأن الكل عند الديمقراطية سواء ليس فيها دين أفضل من دين ولاعقيدة أعظم من عقيدة ، ولادين معترف به أو غير معترف به، خاصة أن معيار الاعتراف عند الاخوان يقوم علي المبدأ الحقوقى إنما يعطى المواطنة أو يسلبها أو ينقص منها حسب رأى الإسلام في عقيدة المواطن ، لأن المقصودة بالإديان المعترف بها هو أنها تستمد هذا الاعتراف من رأي الإسلام الذي يمثل الإخوات بالضرورة خاصة إزاء مثل هذه القضايا.

وهو ما يعنى حكم الدين أو بالاحرى المتغلبين على الناس باسمه، لأن الديمقراطية تؤكد الحقوق على المساواة المطلقة بين جميع المواطنين، ويحق للمواطن أن يختلف بعقيدته ويؤمن بما يراه وأن الدولة والمجتمع الديمقراطيين يعترفان له بهذا الحق بل ويصوناه له ويعطيانه الحق فى الإعلان عنه.

المعيار هو المواطنة وليس الطائفة الدينية، بينما يقول الإخوان بعد أن ايقنوا من الديمقراطية وآمنوا بها فى البند رقم ٤ بصدر المبادرة «إنه لا أمل لنا فى تحقيق أى تقدم إلا بالعودة إلى ديننا وتطبيق شرعنا والأخذ بأسباب العلم فى ظل ثوابت هذا الدين الصحيح فهو المخرج الحقيقى الفاعل لكل ما نعانى منه من مشكلات داخلية أو خارجية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية من خلال تكوين الفرد المسلم والبيت المسلم والحكومة المسلمة».

وهكذا يبدو أن ثمة خللا فاضحا فى فهم الإخوان المعنى الديمقراطية،

ثم خللا أفضح فى فهمهم للعلم الذى **لابد أن نأخذ بأسبابه فى ظل ثوابت** هذا الدين الصحيح بينما العلم لا يعرف ثابتا خارجه ولا يستمد قوانينه من خارج العلم بل إنه ليس له ثوابت على الاطلاق لأنه لو ثبت لكان شريكا لنا فى التخلف. وأنه ينكر ثوابته ويتجاوزها وينقدها كل يوم. لذلك هو علم ولذلك العلم وأصحابه هناك، ونحن وثوابتنا هنا، ورغم هذا الجهل الفاضح بأساسين من أسس الاصلاح والتقدم، معنا الحريات الديمقراطية، ومعنى العلم، فإن ذلك لايسقط حقهم فى القول والرأى ولكن بحكمة وترو وبتواضع يناسب ممكناتهم، حتى يمكننا أن نستمع إليهم، وعلينا أن نستمع إليهم وأن نناقشهم بتسامح وغفران، لكن شرط أن يعرفوا ماذا يقولون؟ فكيف يكون حديثهم عن حقوق غير المسلمين فى الوطن بأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا كما لو كانت منحه يتعطفون بها على بقية المواطنين، ويا ليتها صدقة صادقة، لأنها فى ضوء الاهداف العليا هى تكوين الفرد المسلم والبيت المسلم والحكومة المسلمة!!.

ولابد أن يصاب قارئ المبادرة بالهلع من حجم التناقضات التى لا تشير إلى تناقض فى رص المحفوظات، بقدر ما هو تناقض داخل العقل نفسة وقوانين هذا العقل. ثم لابد أن يصاب القارئ بالبلبلة التامة عندما يجد بين البنود الأهم «فى الاصلاح الاجتماعى» بند «إحياء نظام الحسبة» ؟!! هل تذكركم بشىء هذه الحسبة ؟! إنها الوصاية البغيضة لكل من لبس يونيفورما مشيخا، أو انضم لعصبة الأخوان، أو تحدث فى شئون الدين، أو اعلن انه من جنود الإسلام وصاية على أرواح الناس وسلوك الناس، إنها نظام المطوع، إنها ضبط المجتمع وفق نظرية جعلوها عقيدة هى الولاء والبراء، إنها محاسبة المسلم إذا والى أخيه المسيحى فى الوطن فيصبح غير مسلم، إنها مطاردة الناس فى رمضان للتأكد من صيامهم والتفتيش فى قلوبهم، ومحاربة وقمع المفكرين على تفكيرهم، ومازالت آثار الحسبة فى زمننا بادية واضحة فى محاكمة المفكرين وتكفير الفنانين وتدعيرهم ومصادرة الفكر رغم أنه لا يحمل سلاحا وكل ما يحتاجه فكر مخالف يفنده أو ينقده، إنها الحسبة سلاح العجزة من المشتغلين علينا بالدين إزاء تخلفهم ولكاعهم وهيامهم بين موتى التاريخ، إنها الحسبةالتى أوقفت عرض الأفلام وكسرت آلات الطرب وأحزنت فرح الناس وطلقت المسلمين من المسلمات وشتت شملهم، إنها الحسبةالتى تقوم فى صدرها على أن الدنيا نوعان فقط من البشر: المسلمون وهم السادة، وغير المسلمين وهم

أى شىء آخر. لنتناول أكثر كتب الحسبة شيوعا ومرجعية للإخوان «معالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الإخوة القرشى» نطل على تهاليله الذكية وهو ينبه المحتسب لمباهج الحسبة «يجب على المحتسب الاهتمام بهذا الأمر.. يمنعون من إحداث بيع أو كنائس فى دار الإسلام، وفى كتاب الحاوى الصغير فى الفروع فى الفقه الشافعى أنه ينظر فى خرابها، فإن صارت دارسة منعوا من بنائها.. وإذا جاء المحتسب أو العامل الأخذ الجزيه أقام الذمى بين يديه ثم يلطمه بيده على صفحة عنقه ويقول أد الجزية يا كافر، ويخرج الذمى يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيعطيها له بذلة وانكسار .. الخ. ٤٨ ، ٤٩.

فهل سنأخذ بمبدأ الحريات خاصة حرية الرأى والتفكير والاعتقاد ؟ بنظام قانونى يحمى الجميع على ذات الدرجة، أم سنأخذ بنظام الحسبة المأساوى غفر الله لزمنه ؟ وهل سنحل مشاكلنا معا أم سيحلها المسلمون وحدهم دون بقية المواطنين ؟ وهل الحل المرتقب وغايته الاصلاح الديمقراطى كما تقول المبادرة سيكون من أجل كل مواطن أم من أجل الفرد المسلم والبيت المسلم والحكومة المسلمة ؟ وهل سنعامل المعتقدات الدينية جميعا باحترام يقوم على التكافئ ؟ أم سنعامل بعضها على أنه معترف به وبعضها على أنه غير معترف به، والمعترف به بدوره شىء غير الاسلام، لأن الإسلام هو الذى يعترف أو لا يعترف فيأتى المعترف بهم فى درجة أدنى من الاسلام» ثم بعدها يأتى غير المعترف بها، ولا نعرف هنا هل سنأخذ منهم الجزية أم نأخذها منهم ومن أصحاب الأديان المعترف بها ؟ أم سنقتل أصحاب الأديان غير المعترف بها؟ أم ترانا سنقتل كلا النوعين أريح وفق عقيدة الولاء والبراء؟ وذلك عندما يأتى يوم التمكين إن شاء الله «لا سمح الله» !!

وهل تراهم مع سماحهم لكل مواطن بالجهر بعقيدته لا يعلمون أن ذلك ممنوع بالحسبة وفق الشروط العمرية بقرار يكتبه المسيحيون على أنفسهم بأن «لا نظهر صلباننا ولا كتبنا ولا نضرب بالنواقيس إلا خفيفا ولا نرفع أصواتنا على موتانا /٢٢/ج١/المستطرف».

ولا تفرغ جبة الأخ عاكف من العجائب فتحت بند «فى مجال الإصلاح القضائى» والتى يجب أن يصبح فيها القانون معبرا عن المبادئ التى يؤمن بها «أن الشعب هو مصدر جميع السلطات» «والتأكيد على حرية الاعتقاد الخاص وتأكيد إقامة الشعائر الدينية لجميع الأديان» فإن الاصلاح

القضائى المرتقب لتحقيق ذلك الحلم السعيد لابد أن يبدأ عند الاخوان «بتعديل القوانين وتنقيتها باعتبار الشريعة الإسلامية هى المصدر التشريعى الرئيسى للتشريع إعمالا لنص المادة الثانية للدستو»ر وهو ما يعنى أن الإخوان لا يرون الدستور بحاجة لأى اصلاح إكراما لعيون المادة (٢). ويعنى أيضا رجوعا إلى الوراء قرونا ونعيش عالمنا المعاصر فى الوقت نفسه بل وأن يخضع حاضرنا لقوانين ماضينا.

ولعل الاستئناس بما يدرسه أبناء أزهرنا فى المرحلة الثانوية يكون مفيدا بهذا الشأن يظهر لنا شكل هذا العدل المطلوب فى القضاء، وذلك فى شروط الصلاحية لمنصب القضاء فى كتاب الفقه(روض المربع بشرح زاد المستنقع) وأهم الشروط أن يكون مسلما لأن الإسلام شرط العدالة ومن العدالة تطبيق أداب الدخول على القاضى« إذا كان أحدهما مسلما والآخر غير ذلك يقدم المسلم دخولا ويرفع جلوسا/ ص٤٥١»

وفى مجال المرأة تستمر طرافة المبادرة الإخوانية فى لطافاتها، فتجد دائما وعند الحاجة وفى هذه المواقف خطابا إنشائيا طويلا عريضا، تشتم، منه اعترافا داخليا برقى الحقوق التى حققتها الحداثة بشأن المرأة، لكن دون أى تنازل فى الحقوق النصية وهو بيت القصيد وجوهر الحكاية، فتقرأ تعبيرات من قبيل المرأة نصف المجتمع وأن الجنة تحت أقدامها وأن وضعها فى الجاهلية كان الأشد سوءا لكن دون أى تعرض لمسألة الزواج بأربع، ولا بميراثها بعد متغيرات لابد تستدعى النظر القانونى الذى يناسب الزمن والظرف وموقع المرأة الاجتماعى الذى أكدته بجهود دؤوبه حتى حصلت عليه، ولا بشأن شهادتها النصف حتى لو كانت من نوادر النبغاء، ولا ما لحقها من تبخيس عظيم فى تراثنا الكبير. ويشبه ذلك الحديث حديثهم «فى مجال بناء الإنسان المصرى» لا تجد إلا الإنشاء والحديث عن تزكية هذا الإنسان الأهم من أى أمر أن تكون بالاخلاق ومكارمها ومحاسنها وإحياء الضمائر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهى كلها تمنيات موهومة بوسائل موهومة أيضا. ثم تطرح المبادرة رأى الأخوان فى المواطنين فى تقييم أميل إلى سحب الإيمان عنهم «كما فى قولها» فى الفقرة الأخيرة «رانت على القلوب غلالة من الغفلة والأنانية وسادت بعض القيم المادية والشهوات.. والاصلاح يسعى إلى تطهير جوهر هذه الشخصية على أساس الإيمان وتنقية اجهزة الإعلام من كل ما يتعارض مع أحكام الإسلام» وهكذا الاصلاح وإلا فلا؟! فرض الرقابة على

أجهزة الإعلام ومن وجهة نظر الإخوان؟ **زرعنا وحصدنا والحمد لله** !! إن إخواننا لا يروننا مطلقا، فكل أمر لهم بل ووفق رأيهم فيه، إنهم لا يرون أناسا آخرين يفكرون بشكل مختلف ويرون الدنيا بشكل مختلف، وأن لهم الحق فى تحديد ما يريدون من الإعلام وأنه ليس شرطا عندهم تنقيته من كل ما يتعارض مع أحكام الإسلام، ولا يشغلهم أن تكون وظيفة الإعلام هى تعليم الناس الإيمان، بل والإيمان بدين واحد من بين أديان المواطنين وشروط هذا الإيمان وفروضه، مع اختلاف لا محدد فى فهم هذه الشروط بين المؤمنين أنفسهم، اللهم إلا إذا كان الأمر وصل مع الإخوان إلى فرض مذهب بعينه من مذاهب الإسلام على كل المسلمين وغير المسلمين عندما يركبون اكتافنا- لا سمح الله - بالطبع لقد وصلوا إليه حتى قبل أن يحكموا.

ولو أهملنا كل ما فات وسبق ذكره، وصدقنا نوايا الإخوان ومعرفتهم للديمقراطية وإيمانهم بها، وأنهم يقرون بأن الديمقراطية تعددية لا تعرف المبادئ الشمولية ولا الرأى الواحد الأحد، وإنما تعرف مشاركة كل المواطنين بغض النظر عن أديانهم وألوانهم وأجناسهم. ديمقراطية تعنى الفعل المدنى الذى لا علاقة لهم بالدين، بل وتجرم حكم رجال الدين أو الحكم بالدين. ولا تعترف بالجماعات الطائفية أو العنصرية بحسبانها جماعات سياسية. وإن كانت تعترف لهم بحق تكوينها دون أن يشتمل دستورها المعلن على أى لون من ألوان إنكار الآخرين من بنى وطنه، وإن المعلن هو الباطن فلا مجال فى الديمقراطية للعمل السرى ولا للأجهزة السرية.

إذا كان الإخوان كذلك حقا ويؤمنون بذلك صدقا فلماذا هم حتى الآن جماعة دينية طائفية شمولية واحدية لديها كل الحلول لكل المشاكل بحسبانها تملك المنهج السماوى؟

وما داموا قد اعلنوا إيمانهم بالديمقراطية بشروطها الليبرالية فلماذا لم يحلوا جماعتهم حتى الآن تفعيلا لإيمانهم هذا ليتفرقوا بين النخب السياسية على اطيافها المدنية العديدة؟ لماذا الإخوان حتى الآن.. إخوان؟!

٣- ... الذئاب... يعظون؟؟
إذن.. الإرهابيون.. يصلحون!!

يبقى من مبادرة الإخوان أن نفهم بنية العقل المعرفى الواقف فى خليفتها، عبر آراء الإخوان ومواقفهم، وبخاصة ما قدموه فى مبادرتهم التاريخية، وكيف أقروا بمبدأ الاختلاف والتعددية الديمقراطى، ثم فى ذات المبادرة نسخوا هذا الإقرار بقرار لابد أن ينتهى إليه الوطن، يعترف بريادة الإخوان نحو بناء المواطن المسلم والدولة المسلمة والحكومة المسلمة.

يعتبر الإمام أبوحامد الغزالى مرجعية كبرى بهذا الصدد، لأنه فى «فضائح الباطنية/٢» ينادى المسلمين بقبول حقيقة الاختلاف، ليس لأن الاختلاف حق إنسانى طبيعى، لكن لأن الله قد جعل هذا الخلاف بين الناس والأمم تقديرا إلهيا وضعه فى صنعته وفى خلقه.. وحكما قضى به من الأزل بنصوص قرآنية، وأن هذا الاختلاف بين البشر لم يستطع حتى الأنبياء رفعه.. ويذهب الغزالى إلى أن الاختلاف فى الأمة رحمة بها، كما قال كثير من الفقهاء، لكن الغزالى يصر رغم ذلك على أن يقيم نفسه مقام الله مفضلا نصه الغزالى على النص الإلهى.. فيؤكد أن حق الاختلاف هذا غير جائز على الإطلاق فى الأمور الاعتقادية؟!!

وهو ذات ما عبرت عنه مبادرة الإخوان فى بنود تؤكد حق الاختلاف حسب المبدأ الديمقراطى الرفيع، وتسحبه فى الوقت نفسه من المواطنين لأن الهدف ا لنهائى للإخوان هو إقامة الدولة الواحدية المصمتة التى لا تعترف بالتعدد، إنما هى تلغيه بفرض وجهة نظر على وجهات النظر الأخرى، بحسبان وجهة النظر المفروضة وجهة نظر ربنا لا وجهة نظر الإخوان.. ولا تفهم كيف يحيلون هذا التناقض إلى الله ببساطة عجيبة، خاصة أن فرض طرف على بقية أطراف المجتمع كفيل بتفكيك اجتماعى بالضرورة. بينما التعدد والاختلاف على التعادل بحقوق وواجبات مقننة يرضى بهاالجميع، هو باب التنافس المبدع الخلاق وتعدد الطرق إلى المعرفة دينا أو سياسة أو اقتصادا أو علما، وهو فى الوقت ذاته قرار إلهى بالاختلاف البشرى؟!

وهكذا يصيبك الإخوان بالاضطراب إزاء ما يريدون بالضبط، رجلهم الكبير سيد قطب الموصوف بالشهيد فى أدبياتهم قد أكد لهم فى المانافيستو المعروف بـ «معالم على الطريق (١٦٢)»: «إن من قال إن التشريع من حق البشر فهو ليس بمسلم: والديمقراطية أولا وأساسا هى

حق البشر فى التشريع لأنفسهم»، فأيهما نصدق: شهيدهم أم مبادرتهم؟ أم بعض مبادرتهم دون بعضها؟

وفى حال كوننا من أهل الديمقراطية كحل خلاصى، فلابد هنا أن نضع تشاريعنا حسب ظروف حياتنا ومستجداتها، وهو حق المواطن الطبيعى تشاريعنا حسب ظروف حياتنا ومستجداتها، وهو حق المواطن الطبيعى فى النظام الديمقراطى لأنه العارف بمصالحه. وأن نعترف بأن الشريعة الإسلامية كان لها ظرفها التاريخى المرتبط بزمان الدعوة ومكانها وشكل المجتمع والسياسة حينذاك. وألا ننسى أن الإسلام كان يقيم لشراذم قبائل بدو الجزيرة دولة مركزية احتاجت لشرائع تناسب قبائلها وجغرافيتها ومطالبها وأهدافها ومنطق زمانها، وألا ننسى أن وطننا مصر قد سبق الدعوة حضاريا بألوف السنين، وله ظروف تختلف بالكلية عن ظروف الجزيرة، وتختلف حاليا عن القديم فى مجمله. ومع هذه المعانى اللازمة للقائل بالديمقراطية «كما قالت المبادرة» فإن حكيمهم القانونى عبدالقادر عودة كان يعلن تكفير «كل من قال إن الشريعة كلها أو بعضها ليست أحكاما دائمة وأن بعضها أو كلها كان موقوتا بزمنه، أو قال إن أحكام الشريعة لا تصلح للعصر الحاضر، وأن غيرها من أحكام وقوانين وضعية خير منها/ التشريع الجنائى فى الإسلام/٢/٧٠٨».

وإذا كانت مبادرة الإخوان تقصد الدخول فى حوار وطنى خلاق من أجل إصلاح نحتاجه نحن، بغض النظر عما تحتاجه أمريكا أو أى آخر، فإن الحوار يعنى الانفتاح على كل وجهات النظر الأخرى، وأن الرأى فى الحوار يكون دوما نسبيا لا يعترف بمطلقات، ولا ينسب أحد المتحاورين لنفسه الصدق الكلى مستبعدا صدق بقية الأطراف لأن بقية الأطراف عنده غير صادقين بالضرورة، لأنهم لا يملكون ما يملك هو من صدق مطلق ربانى، ومن ثم ينفى الآخرين سلفا وينفيهم مقدما رفضا لأى يقين غير يقينه علما بأن الحوار لا يعترف بأى يقين تام كامل، فالاعتقاد بامتلاك مفاتيح كل الحلول وكل اليقينيات، هو انغلاق على ذات تشعر بكمالها وعدم حاجتها للآخرين من بنى الوطن للتكامل معا من أجل الكل.. من أجل الوطن.

الحوار يفترض عدم اليقين بمطلق لا يقبل النقص عند جميع الأطراف، وأن يقين طرف بذلك يدفعه إلى فرضه على الجميع، أو نفيهم بحسبانهم كفارا. وعندما يبدأ الحوار بالمبادرات فإن على هذه المبادرات أن تعى أنها قد قبلت بمبدأ نسبية الرأى وأنها لا تتحاور معنا لتثبت لنا

يقينها الشامل إزاء منطقنا النسبى، أو لتثبت لنا صدقها وكذبنا.. لأن ذلك يعنى اللاحوار فيما يطرحون علينا فى مبادرة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

وعندما يزعم الإخوان أنهم طرف فى حوار ومبادرات إصلاحية، فعليهم بداية التخلى عن تصنيف الناس إلى مسلمين وإلى غير مسلمين، أو شبه مسلمين أو مسلمين ضالين، يحتاجون ريادة تهديهم، لأن تعريف الجماعة بأنها «الإخوان المسلمون» يعنى تصنيفا وفرزا يميز جماعتهم بالإسلام عن غيرهم، فيمارسون وصايتهم ونخبويتهم واستبعادهم لغيرهم مسلمين كانوا أم غير مسلمين، ليطرحوا علينا مبادرة كلها هواجس أيديولوجية يكمن الداعية القاسى فى كل سطر فيها، باعتقاد عجيب بمهمتهم الرسولية، لجعل حياة كل المسلمين مكرسة من أجل النص الدينى ولا يرون أن هناك مسلمين يعتقدون أنهم لم يوجدوا من أجل النص بل من أجل أنفسهم، وأن النص قد وجد من أجلهم لتيسير معاشهم لا تعقيد هذا المعاش وتفريغه من حوار النص مع الإنسان والواقع المتغير ومع الزمن والمكان، ليكون نصا حيا فى خدمة الإنسان وليس العكس. غير واعين أو واعين أن اختيار أنفسهم حماة للنص وأهدافه هو لون من الاغتصاب العلنى لحق كل المسلمين فى دينهم وأنهم يقيمون من تفسيراتهم وطريقتهم فى فهم الإسلام نصا بديلا عن النص الأصلى، يغتصبون فيه المعانى لصالح أهدافهم وأغراضهم بعدوان سافر على الله وكلامه، للعدوان بهما على حقوق الناس. وطريقتهم المعلومة هى جعل الدين أيديولوجيا كاملة لجامعة طائفية يتحول فيها الانتماء عن الوطن إلى الانتماء لجماعة المسلمين لتكريس الوطن الجماعة لا الوطن الأرض، وهو ما سمح عبر التاريخ بخيانات كبرى للناس والأوطان مادام الحاكم القادم من خارج البلاد مسلما، سواء كان شركسيا أو ألبانيا أم هو من الديلم أم من العثمانلية.

ولا يفهم أى عاقل كيف يطلبون الديمقراطية لتطبيق الشريعة الإسلامية فهل سيؤسلمون غير المسلمين، أو يطردونهم من البلاد مع بقية المسلمين غير الموافقين؟ أم سيفرضونها فرضا عندما يصلون إلى الكرسى؟.. وبفرض أن هذا الكابوس أمكن وقوعه ألا يرون أن فرض الشريعة قهرا يحول الناس جميعا إلى منافقين؟

ثم ألا يعلمون وهم يتبنون الديمقراطية منهاجا أن الشريعة تختلف جذريا عن الحقوق فى المبدأ الديمقراطى؟ لأن الشريعة تعبر عن مشيئة

الله أما الحقوق فى المبدأ الديمقراطى فهى تعبر عن مشيئة الناس، وأن الناس هم من يصوغونها وفقا لحاجاتهم ومطالب زمانهم ومصالحهم.

إن أى تشريع أيها السادة فى أى برنامج إصلاحى لابد أن ينبع من مشيئتنا نحن ويعبر عن أحلامنا نحن، فى زمن لم يعد فيه كثير من بنود الشريعة مقبولا لاختلاف طبائع وعوائد الأزمان، فلم يعدممكنا اليوم وضع قواعد تشريعية تحدد حقوق الأسياد وواجبات العبيد، ولا حق المسلم التقى فى ركوب أى عدد من الجوارى برضاهن أو بعدم رضاهن، لأن ذلك فى قواعد زماننا وفى الحقوق الديمقراطية وأدبياتها له اسم واحد هو «الاغتصاب» وما أبشعه!!

وهى القواعد التشريعية التى تصر عليها أبواب الفقه المقرر على تلاميذ ثانوى أزهرى فى بلادنا، كما فى كتاب «روض المربع» الذى يشرع فى باب الرهن «ولو رهن اثنان عبدا لهما عند اثنين بألف فهذه أربعة عقود/ ٢٣٨» كذلك «لا يحق للعبد أن يكون وليا فى نكاح.. وللحر نكاح أمة أبيه/ ٣٣٥, ٣٤٠» وفى كتاب الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع قرار «بجواز الجمع بين الإماء بملك اليمين من غير حصر/ ص١٦ شرح ج٣» لقد تغيرت أذواق البشر ومعاييرهم الأخلاقية، فما كان أخلاقا اعتيادية معمولا بها فى تلك الأزمان لظروف عصره، لم يعد ممكنا الآن، فمثلا لم يعد ممكنا للشيخ عاكف أن يتزوج بطفلة عمرها تسع سنوات احتراما لتشريع فقهنا فى باب عشرة النساء إذ يقول: «وإذا تم العقد لزم تسليم الزوجة الحرة التى يوطأ مثلها وهى بنت تسع سنين» وإن اشتكت هذه الطفلة من ألم الفعل الجنسى وأنكر الزوج أنه يؤلمها «وإن أنكر أن وطأه يؤذيها فعليها البينة/ روض المربع ٣٥٣». أى أن عليها أن تثبت للجمهور أن نكاحه لها يؤلمها؟!! كذلك لا نعتقد أن أى إخوانجى اليوم سيرضى بتزويج طفلته ذات السنوات التسع إرضاء للشرع، لأنه قد تغير ذوقه الأخلاقى بمعيشته فى زماننا عن زمن زواج بنت تسع فإن لم يقبل الشريعة حسب ذوق أيامنا فيكون قد اعترف بحاجة التشريع الإسلامى إلى كثير من التعطيل وأحيانا الحذف، وإذا بيل بالتغيير ليتوافق مع قواعد أيامنا فاستبعد الرق بكل ألوان أبواب فقه الرقيق، وإذا رفض زواج بنت تسع، فلماذا إذن العودة إلى القديم لتوفيقه مع حقوقيات اليوم؟ لماذا لا نلجأ لحقوقيات زماننا مباشرة إذن؟ لماذا لا نضع نحن تشريعنا بأيدينا كما تفعل كل الأمم؟

ألا ترون أن إخواننا الإخوان يعودون بنا إلى مناقشة موضوع تجاوزه الزمن بالمرة ولم يعد مطروحا للمناقشة أصلا.

أما الحكم السياسى بالشريعة فكيف سيكون؟ إنك مهما بحثت ونقبت فلن تجد فى الشريعة أية قواعد واضحة مقننة منضبطة للحكم، ولا أى لون من ألوان التخطيط، ومن فجرها لم تجب الشريعة عن أسئلة مهمة مثل: من يكون خليفة النبى؟ أو كيفية تنصيبه؟ وما هى صلاحياته؟ ولا كيفية مشاركة المسلمين فى إدارة شئون الدولة؟ وما هى الحريات التى يتمتعون بها؟ وكيف يحمونها من السلطان إن جاء؟ ومن يخلف السلطان القائم.. إن هذه أساسيات قيام أى دولة وقد تجاهلتها الشريعة .. يردون علينا هنا بكل ما أنتجوه هم ومحترفو التلفيق بالتوافق العظيم بين ما جاء فى الشريعة وما وصلت إليه الإنسانية من سمو ورقى اليوم، وهو اعتراف بقياس الشريعة على المنجز الإنسانى بعمليات تقريب وتأويل وإعادة تفسير.. وهو ما يعنى أن الأصل هو حقوقيات اليوم التى وصلت إليها البشرية بعد طول صراع ضد الظلم حتى قننتها، أما التقليد فهو الشريعة المؤولة والمفسرة بمنطق الحاضر فلماذا كل هذه المشقة وأمامنا المنجز الإنسانى الحاضر؟! أمامنا الأصل دون التقليد المبتسر المتكلف؟!

لقد كان النظام الإسلامى السياسى «الخلافة» حكما عربيا قرشيا أضفى عليه رجال الدين فى حلفهم مع الخلفاء الصفة الدينية، للاحتماء بمظلة الشرعية الدينية للدفاع عن نظام سياسى بشرى لا علاقة له بما يريد الله ولا بالشريعة وأن الدولة الإسلامية عبر تاريخ الخلافة لم تعرف تطبيق الشريعة إلا بما يخدم السلطان وسيطرة رجال الدين ومع ذلك يقدم لنا شهيدهم كشفه لحل كل مشاكلنا بأنه: «لا حاكمية إلا الله ولا شريعة إلا منه»؟!

وإنه للوصول إلى هذا الهدف العظيم يخبرنا محمود الصباغ «إن أعضاء التنظيم الخاص يمتلكون الحق دون إذن من أحد فى اغتيال من يشاءون من خصومهم السياسيين، فكلهم قارئ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إباحة اغتيال أعداء الله/ حقيقة التنظيم الخاص/ ٤٢٩».

إن هذا الإرهاب الفصيح يخاطبنا اليوم بلباس المصلحين كما خرج الذئب يوما فى ثياب الواعظين.. لماذا يا ترى؟ لأن الوصول إلى السلطة عن طريق العنف قد أثبت فشله.. ولأنها اليوم وفى ظروف العالم اليوم تشكل فرصة سانحة تاريخية فالأمريكان أحباب الأمس واليوم وغدا قد تواجدوا قربنا، والأمريكان تشغلهم مصالحهم فى المقام الأول، لذلك كان فضلهم على الجماعات الإسلامية بكل أصنافها، وعلى مشاريع الصحوة الإسلامية، وكم صرفت المخابرات الأمريكية ببذخ على مؤتمرات الصحوة

الإسلامية، وفى الوقت نفسه يشكل الأمريكان تهديدا لأنظمة كثيرة فى المنطقة ومع هذه الصورة للواقع القلق ركب الإخوان مركبهم الصعب فى انتهازية فاضحة لكل الأطراف، فبينما لم تشر المبادرة إلى موقف واضح من أمريكا بشكل محدد بصياغة شفافة لترك الباب مواربا للعم سام إن شاء حوارا أو حلفا. وفى الوقت نفسه عرض الدكتور عصام العريان فى برنامج الحقيقة/ دريم/ ٢٠٠٤/٥/٨ على الحكومات العربية ضرورة إدماج الحركات الإسلامية فى نظمها السياسية «بغض النظر عن الديمقراطية هنا»، وذلك كما قال: لتقوية ظهر الحكومات فى هذه المرحلة الخطيرة التى تعيشها الأمة العربية والإسلامية، وهنا يمد الإخوان يدهم للحكومات لتسند ظهورها، وتمد يدها الأخرى للأمريكان، ولا تعلم فى أى يد سيكون الخنجر متصورين سامحهم الله أن أحدا لا يعلم بتاريخهم الذى هو تاريخ الانقضاض على الحليف فى أول فرصة، ولا توجد حالة تحالف واحدة لم ينقض فيها الإخوان على الشريك عبر تاريخ تحالفاتهم.

وإذا كانت هذه أخلاقيات إخوان الإسلام فى العمل السياسى، فإنه يكون صعبا على البلع تنغيمهم وألحانهم حول دورهم فى إعادة الحياة الفاضلة والخلق الكريم لمجتمعنا بطول مبادرتهم، فى بند التعليم والبحث العلمى لابد من القيم الدينية والمبادئ الأخلاقية، وفى بند بناء الانسان المصرى لابد من تعميق إيمانه بالأخلاق الفاضلة ومكارمها ومحاسنها بعد أن رانت علينا الشهوات الدنيوية، وفى المجال الثقافى يجب العودة بثقافتنا إلى مصادرها الإسلامية وإصلاح مفردات الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون بحيث تنطق بالقيم الإسلامية بما ينأى بها عن مواطن العبث بالمبادئ الأخلاقية والسقوط فى هاوية الفحش والبذاءات ببرامج ومسلسلات وتمثيليات هابطة تخدش الحياء وتشيع الرذيلة وفى بند الأزهر ترى المبادرة ضرورة غرس الأخلاق الفاضلة بشرح أخلاق الإسلام ومفردات تلك الأخلاق.

ويلاحظ فى هذه البنود سوء فهم الإخوان لمعنى الثقافة، لأن ثقافتنا لا تقوم على مصادر إسلامية فقط، بل بها روافد كبرى عميقة منها المصرية القديمة ومنها القبطية ومنها الإفريقية ومنها الأوروبية ومنها العالمية.. إلخ.

ويلاحظ أيضا اهتمام المبادرة الشديد بالإعلام وضرورة إصلاح الفجور فيه والرذيلة بالعودة إلى مفردات الأخلاق الإسلامية كما هى فى مناهج الأزهر مثلا وهى المناهج التى تقدم مفرداتها وفق منطق أنه لا

حـيـاء فى الدين وفى ضـوء هذا المنطق يدرس صـبـايانا وشـبـابنـا المراهق بالأزهرى الثـانوى أبواب فـقـه يحـدثهم بـعـضـهـا عن مـفـسـدات الصوم والكفارة: «من جامع فى نهار رمضان.. فغيب حشفة ذكره الأصلى فى قُبل أصلى أو فى دُبر، ولو ناسيا أو مكرها، فعليه الكفارة والقضاء سواء أنزل «أى أمنى» أو لم يُنزل.. وكذا إذا أنزلت امرأتان بمساحقة.. فلا قضاء ولا كفارة». أما متى يجب الغسل؟ «لو أدخل حشفته أو قدرها من مقطوعها فى فرج.. ولو أولج حيوان قرد أو غيره فى آدمى ولا حشفة له فهل يعتبر إيلاج ا لذكر «كل ذكره» أو إيلاج قدر حشفة معتدلة/ انظر الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع/ ص٩٠/ج١». ولاتفهم من هنا سيؤدى الكفارة : الفرد أم الآدمى؟

ومن ثم يطالب الإخـوان بهـذه المفـردات لتكريس الخلق الرفـيـع فى إعلامنا؟!

هل تذكرون عندما طالب المفكرون فى بلادنا بتدريس الثقافة الجنسية فى مدارسنا كى يتعلم المراهقون الصواب والخطأ وقيمة هذه الأعضاء وأهميتها وخطورتها فى نفس الوقت، وكى يعلم الصبى كيف يقى نفسه، وكيف أن الفعل الجنسى ليس مشينا ولا معيبا لأن هدفه الحياة وإيجاد حياة جديدة، وأن تعرف الفتاة أسرار أعضائها ووظائفها وكيف تحميها بحسبانها مصدرا للحياة، لكنها قد تكون مصدرا لكلّ الأمراض إذا أسىء استخدامها.. عندما طرح هذا الأمر قام جميع إخواننا قومة رجل واحد على مختلف أطيافهم رافضة منددة بهذا الانهيار الأخلاقى، وعندما شاهدوا عجرم وروبى وهيفاء بالتلفاز طار صوابهم ولم يشعروا سوى بذئاب الجنس تعوى بداخلهم، بدلا من أن يروا أمامهم إبداعا ربانيا خلق فأبدع وبنى فأحسن البناء ومن ثم قرروا أن يستبدلوا هذا الفحش بمفردات كالحشفة والإيلاج فى قرد أو نحوه والمساحقات عندما ينزلن «يبلغن الأورجازم» أو إدخال الحشفة فى فرج بهيمة أو دبرها أو العكس، خاصة لو فكرنا من باب تعميق المفردات وشرح المفاهيم أن نخرجها فيديو كليب.. أنا شخصيا فى هذه الحال سأفضل روبى قطعا.

وتكتشف أن أى إصلاح ينشغل به الإخوان يدور ما بين الحشفة والفرج ولو بدا بعيدا فى النظرة الأولى، كما فعلوا فى إصدار بيان تأييد للمذيعات المحجبات فى قناة الاسكندرية بدون علم نقابتهم ودون أن يشعروا بأى حرج أخلاقى، ومثله ما جرى فى نقابة الأطباء «انظر العدد الماضى من روز اليوسف» وكيف تم التحول عن قسم «أبقراط» أبو الطب

إلى قسم خاص لا علاقة له بالطب بل بالطائفة، رغم البادج الذى يحمل اسم النقابة العامة لأطباء مصر، يعنى لكل الأطباء، ومع ذلك يبدأ القسم بالبسملة الإسلامية: بسم الله الرحمن الرحيم. رغما أن قسما كهذا لا يفتتح هكذا، بل إن البسملة نفسها باتت صرعة غير مفهومة نفتتح بها الخطابات ونرسل بها الشكاوى ونكتب بها حتى رسائلنا، رغم أنك كى تبدأ بالبسملة فهذا يعنى أنك ستقول كلاما مقدسا قياسا على القرآن، ثم هل علم المسلمون أن النبى كلما تكلم بدأ كلامه بالبسملة؟ يعنى هل قال يوما أحاديثه على قياس: بسم الله الرحمن الرحيم أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك ؟إن الغرض من افتتاح القسم بالبسملة هو الأسلمة الإجبارية لكل طبيب سواء كان مسلما أم غير مسلم أو هو عدم اعتراف بوجود ثلث أطباء النقابة المسيحيين، وإذا كانوا يعترفون بهم، وقررنا الدروشة فى العمل العلمى فلماذا لا نكتب بالمرة باسم الأب والابن والروح القدس إلها واحدا آمين؟

المهم.. تلى البسملة آية يكتبها كل أطباء مصر المسلمين فى عياداتهم وفى المستشفيات هى «وإذا مرضت فهو يشفين»، فماذا عن مئات النماذج فى الإنجيل ما لها لا تكتب؟! وإذا كانوا على صحيح الاعتقاد باليقين فلماذا هم أطباء حتى الآن مادام هو يشفين؟

خاصة مع ما يحبذه فقهنا «لا يلزم الزوج لزوجته دواء وأجرة طبيب إذا مرضت لأن ذلك ليس من حاجاتها الضرورية المعتادة/ روض المربع ٣٩٧» ويرى فقهنا «أن ترك التداوى توكلا على الله أفضل ويُكره إكراه المريض عليه/ الإقناع ص ٣٢٨ شرح ج١».

وماذا عن موقف الأطباء المتأسلمين من دعوة المبادرة إلى إقامة علمنا على شرعنا، وشرعنا يقول غير ما يقول طبهم، وعليهم أن يختاروا هذا أو ذاك، فيقول الفقه الحنبلى: «إن أكثر مدة للحمل هى أربع سنين لأنها أكثر ما وجد. وأقل مدة حمل هى ستة أشهر/ روض المربع ٣٨٩». ما انتهى إليه الفقه الحنفى «إن أقل مدة حمل ستة أشهر وأكثرها سنتان/ الاختيار/ ١٥٤ شرح ج١» بل وكان الامام مالك نموذجا لهذا الحمل المعجز فقد كان حمله سنتين!!

ثم تعالوا إلى القسم نفسه وصياغة عباراته صياغة إسلامية المفردات مثل «تعاون الهيئة الطبية على البر والتقوى»؟ لماذا يا إخوان؟ هل أصبح شق الوطن وتمزيقه مهمة إخوانية «محددة»؟ أم أنهم لا يرون بقية أطباء



مصر من غير المسلمين؟.. الواضح أنهم يرونهم جيدا لكنهم يقومون فقط بفعل نكاية لإثبات السيادة لهم وتبعية غيرهم لهم.

لذلك قاموا بتعديل البند الأخير بالقسم العربى للطبيب إلى «أن تكون حياتى مصداقا لإيمانى فى سرى وعلانيتى نقية مما يشينها تجاه الله ورسوله والمؤمنين» بعد أن كانت «تجاه الله ورسله» هذا رغم أن إعلان اعتراف المسلم بكل الرسل هو شرط أول للإيمان الإسلامى، وإعلان الاعتراف بكل الرسل فى القسم أهم وأشمل من إعلان الاعتراف بنبى الإسلام وحده وهو ما يعنى أنهم جعلوها «ورسوله» لمجرد النكاية وحتى لو خالفت عقيدة إسلامية أساسية.

والغريب المدهش أن نسمع الدكتور حمدى السيد يقول إن نص القسم متفق عليه بين الدول العربية ماعدا حكاية رسوله ورسله، وأنه تم استبعاد قسم أبقراط لما فيه من إشارات وثنية، و هو ما يجعلنا نتساءل هل قسم أبقراط فى العالم كله يعنى وثنية هذا العالم؟ أو الاعتراف بوثنية اليونان؟

أم أنه قسم رمزى نستمده من زمن الطب الأول زمن أبى الطب لأن له علاقة أكيدة بموضوعه وهو الطب، وبتاريخه وهو تاريخ الطب، كما لم تعد تماثيل الفراعنة أصناما بل رمز على ثقافة وزمن ومن هنا أبدى الدكتور عماد فريد دهشته وهو المسلم من إيراد رسوله أو رسله فى القسم أصلا لأنها مخالفة تماما لقواعد العلم والطب. إن لدينا بين أطباء مصر من لم يزل يحترم العلم حقا.

ها هم إخواننا وما يريدون فى مبادرتهم، وها هم عندما يدخلون مكانا كنقابة الأطباء مثلا أو الصحفيين مثلا ويريدون منا أن نصدق شيئا بين مجموع النقائض التى طرحوها فى المبادرة، أو أن نثق فى إخلاصهم للديمقراطية وفى حق الديانات الأخرى الذى أعلنوه، ونرى ما نرى فى آخر نتائج دخولهم مكانا.. القسم الإسلامى للطبيب.

بالمناسبة رأى الدكتور عصام العريان فى برنامج دريم المذكور أن مبادرة الإخوان هى برنامج الإخوان السياسى والاقتصادى والاجتماعى، وأنه برنامج إصلاح شامل؟!!

أبناء مصر هذا برنامج الإخوان الشامل تطارحنا حوله عبر حلقات ثلاث فمارأيكم؟ وهل نتركهم يسرقون منا الوطن بعد أن سرقوا منا الإسلام؟

٤- ما قبل التمكين

فى موضوع بعنوان «موقف التيار الجهادى السلفى من الإخوان المسلمين» يفصح صاحبه (كمال حبيب/ تيار جهادى) عن تحالف التيار الجهادى «الاصطلاح الرمزى للإسلام الدموى» والإخوان وكل اصحاب المشاريع الإسلامية على تنوعها ، باعتبار ذلك هو مخطط تكتيكى مرحلى لما قبل التمكين» حتى يمكن حدوث هذا التمكين «لأن الحالة الاسلامية فى مرحلة ما قبل التمكين أو الاستضعاف هى أكبر من قدرة جماعة واحدة مهما كان تاريخها وامكانياتها ورسوخها فى الدعوة /من الملفات الخاصة بالجزيرة نت»، وأن هذا التحالف لابد أن يفصح عن نفسه خاصة فى مرحلة ما بعد طالبان، وذلك لأن «المواجهة القادمة والجارية مع العالم الإسلامى هى مواجهة دينية ثقافية حضارية بالمفهوم الشامل.. وذلك لأن القوى الغاشمة تفرض على العالم الإسلامى الخضوع للتوافق مع الحداثة فى مسألتين هما قبول العلمانية وقبول التسامح الدينى، ويتأتى هذا عن طريق تحديث الإسلام وبناء الإسلام الليبرالى / مقال بالساخر/ نت» ويتوافق هنا ممثل التيار الجهادى مع رفاق الحلف الاخوانى لإثبات إيمانهم بالمبدأ الديمقراطى لكن من خلال الشريعة، إذ يقول: «وأنا مع تقديم الشريعة على كل القيم الأخرى بما فيها الحرية.. وأن مشكلة العالم الإسلامى والعربى أنه انتزع منه حقه فى اختيار الاطار المرجعى الذى يحكمه، وعلى مر التاريخ نجد أنه متى كانت المرجعية الحاكمة هى الشريعة كانت الحرية سائدة ، ولن ينصلح ما نحن فيه إلا بإقامة الشريعة فليس هناك تعارض بين الشريعة والحرية، لأن الحرية حق للمسلم فى اختيار ما يريد ولكن فى إطار المرجعيات.. وإن أى حضارة لها قيمة عليا، فالحضارة الغربية قيمتها العليا هى الحرية) والاشتراكية قيمتها العليا هى المساواة، والاسلامية قيمتها العليا هى الشريعة / حوار مع إسلام أون لاين / نت».

وعلى هذا الكلام ملحوظات:

أولا: إنه يكرر ويعيد المقامات الغنائية الحديثة للإخوان حول الإيمان بالديمقراطية بدلا من الفكر الانقلابى الدموى ولكن من خلال الشريعة ،تأكيدا على خصوصية الشرق الإسلامى إزاء المفهوم الإنسانى العالمى لمعنى الديمقراطية. وذلك للإعلان عن فرصةيقدمون فيها هذا التنازل بالمشاركة فى ديمقراطية تناسب ثقافتنا، وأن هذا ما يجب أن تفهمه أمريكا، وهى أنهم القادرون على تقديم الإصلاح المطلوب دون حدوث مشاكل مجتمعية ،وبما يحقق الأهداف الأمريكية فى ظل الخصوصية،

لأنهم الأمناء على هذه الخصوصية والمعبرون عن الضمير الإسلامى الذى هو ضـمـيـر الأمـة. وهـو مـا يلتقى مع رؤية الاستـراتيـجى الأمـريكى (هانتنجنون) فى خصوصية الشرق الإسلامى وإمكانية تحقيق المصالح الأمريكية فى ظل هذه الخصوصية. وبهذا السبيل وجد الدكتور سعد الدين إبراهيم فى الطرح الإخوانى طرحا جديرا بالنظر والاعتبار بما يحقق الإصلاح المطلوب. رغم أنه رجل المجتمع المدنى ويعلم بحكم خبرته العلمية على الأقل أن ما يطرحه الإخوان وإخوانهم فيما يكتبون ويعلنون ويفعلون هو فى النهاية القضاء المبرم على هذا المجتمع المدنى.

ثانيا: إن المرحلة الحالية (مرحلة ما قبل التمكين) أى مرحلة الإعداد للاستيلاء النهائى على البلاد والعباد، تتضمن تحالفا تحتيا بين جميع التنظيمات الإسلامية، يقوم كل فريق بدور مرسوم، فالجناح العسكرى يكيل الضربات فى كل اتجاه فى العالم لإثبات أن الإرهاب لن يمكن التغلب عليه إلا بالمفاوضات السياسية والرضوخ لمطالب التنظيمات الإسلامية، حيث يمكن للجناح السياسى الممثل فى الإخوان العقلاء الطيبين للقيام بمهمة إنهاء الإرهاب وحكم الشعوب الإسلامية بالحرية والديمقراطية والشريعة الإسلامية ويتمعتون بالرخاء ويأكلون الفالوذج أو المهلبية ويعيش الجميع فى تبات ونبات ويخلفوا صبيان وبنات.

ثالثا: إذا جاز للمصالح الأمريكية هضم هذه الصيغة لحل مشاكلها مع الإرهاب، وإذا كان من بين أبناء الوطن من تم مسح وعيهم لقبول ديمقراطية الفالوذج وسيف مسرور، فإن اغلبية الناس فى بلادنا لم يعد من الممكن خداعها بحكاية الحريات فى إطار المرجعيات الإخوانية، بعدما عانوا من الإرهاب فى مصادر عيشهم وأقوالهم وشاهدوا بأعينهم جرائم غريبة على تاريخ المصريين، وتقززت مشاعرهم لدماء الأبرياء فى مشاهد لن ننساها أبدا ولن نغفرها أبدا لأنها تندرج تحت عنوان الجريمة المنظمة / المافيا، حتى لو تسربلت بثياب الواعظين.

رابعا: وهو الملحظ الأهم فى الموضوع كله .. ويتلخص فى سؤال من بسائط الأسئلة هو: ما داموا قد قرروا القبول بالمبدأ الديمقراطى فأين برنامجهم المفترض طرحه على المواطنين ؟ لقد قال رجلهم العصبى الدكتور عصام العريان فى قناة دريم إن المبادرة الإخوانية التى أعلنها الشيخ عاكف فى نقابة الصحفيين هى برنامج الإخوان الشامل من أجل الاصلاح الشامل، وقد سبق وتدارسنا هذه المبادرة عبر الأعداد الماضية ولم نجد فيها أى سمة من سمات البرامج الحزبية الواضحة ،بقدر ما

رأينا خلطة عجيبة من شتى المتناقضات التى لاتفصح عن إصلاح بقدر ما هى برنامج للخراب الشامل، ومصر والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه فيها ما يكفيها.

ولأننا نعلم أنه عندما تكون المرجعية هى الدين فإن المستحيل نفسه هو الاتفاق على برنامج أرضى بشروط برنامج سماوى، حيث يختلف الإيمان من مؤمن لمؤمن، ويختلف الفهم من فريق إلى فريق وهو تاريخ الفكر الإسلامى الواضح عبر العصور، لأن الدين والإيمان هما مساحة ضمير خاص لا فعل يتطابق حوله الجميع، حيث لا مقاييس معيارية محددة فى الفهم والاستنتاج يتفق حولها المؤمنون دون تدخل العامل البشرى الذى يصبح فى هذه الحالة فهما بشريا ورؤية لفريق واحد يتم فرضه على بقية الفرقاء. ولما كان جميع المؤمنين يرون أنهم على ذات الدرجة من اليقين على اختلاف. فسيصبح مستحيلا تفضيل فهم على فهم وإيمان على إيمان. وأن نظرة خاطفة على تاريخ المسلمين منذ فجر تاريخهم يوضح مدى الاختلاف ليس فقط فى التفاسير أو التشريعات بل فى أصول الاعتقاد ذاته كما هو واضح اليوم بين الفريقين الأعظم بين المسلمين : السنة والشيعة.

ولكن دعونا نعط الفرصة للنوايا الحسنة، رغم أن تاريخ الإخوان ليس فيه حسنة واحدة، لنهيب بهم كقيادة سياسية لفرق الإسلام السياسى أن يتفقوا فيما بينهم على برنامج واضح دقيق مفصل صريح لا تحتمل عبارته لبسا، ويخلو من العبارات الاعتراضية مع كل طرح حول الحريات الديمقراطية من قبيل «فى ضوء ثوابت الأمة» أو فى «إطار المرجعيات الإسلامية» لأنهم عندما يمارسون السياسة فيجب أن يعاملونا بلغة الأرض لا بلغة السماء، فالسياسة شأن أرضى لا شأن سماوى، وأن يتوقفوا عن مخاطبتنا بالنصوص المقدسة فهى نصوصنا جميعا ونعرفها جميعا ونحفظها جميعا. خاصة أن هذه النصوص ليست منتجهم بل هى منتج سماوى. وفى مساحة الحوار السياسى يقدم كل فريق منتجه، لا أن نخاطبهم خطابا بشريا فيردوا علينا بالآيات التى تحددت ملكيتها لله وحده، ونصبح فى حوار طرشان أو صدام بيننا نحن البشر وبين الله ممثلا فى الإخوان وفى النهاية فإن الذى سيحكمهم البشر وليس الله.

وحتى لا نضعهم فى وضع تعجيزى رفقا بهم وهم من لم يرفقوا بأحد، فإننا نطمع فيما هو أدنى بكثير من برنامج واضح المعالم دقيق العبارات، نطمع فى اتفاقهم على الحد الأدنى حول المفاهيم الضرورية لأى طرح

سياسى، ليعلنوا علينا هذا الاتفاق.. إن استطاعوا فليقولوا لنا ما ينتهون إليه حول البنود التالية:

١ - فى المجال الاقتصادى: يفترض فى عالم اليوم أن كل الدول حتى التى تزعم اسلامية شرائعها أن تخضع لقوانين السوق العالمية لكى تصبح عضوا فاعلا فيه. فهل سيقبل سادتنا عند التمكين الاندماج فى هذا النظام بقواعده وشروطه العالمية؟ أم سيطبقون قواعد ما يسمونه الاقتصاد الإسلامى فى مجالات لا يتطابق معها بحال كمجال البنوك والاستثمار والتنمية وهى ألف باء النظام الاقتصادى وهو حسب منطقهم نظام ربوى مرفوض اسلاميا كما أكدوا فى مبادرتهم .. فما هو الحل؟ هل لن نقبل الاقتراض من صندوق النقد أو البنك الدولى؟ هل سنقاطع كل الدول التى لا تعمل بنظامنا الإسلامى؟ هل سنفرض على المستثمر الأجنبى أن يشهر إسلامه أولا فى دار الافتاء ؟ أم سنطلب منه قبول لوائحنا التنظيمية الإسلامية الاقتصادية؟ ثم ما هو نظامهم البديل للضريبة العامة على الدخول أو ضرائب المبيعات؟ أم تراهم سيعودون إلى نظام بيت المال وجباية الخراج والزكاة؟ وهل سيقبلون نقل السلع بالبدع المستحدثة كالطائرات مثلا، أم يجب العودة إلى قوافل البعير، حيث لم يرد ذكر الطائرات فى القرآن كما ورد ذكر البعير؟ جلبا لمزيد من البركة فى المال. يرد بعضهم هنا بمدى ما حققه المجتمع الإسلامى من رفاهية فى ظل الامبراطورية الإسلامية بفضل نظام الزكاة فى مغالطة لا تليق بتلامذة الابتدائى(انظر بهذا الشأن سيدنا قرضاوى). حيث لم يكن لتلك الرفاهية علاقة بالزكاة، ناهيك عن كون حالة العز والرفاهية التى يزعمون أن المجتمعات الإسلامية تمتعت بها فى مجدها بفضل نظامنا الاقتصادى الفريد، لم يعشها سوى السادة العرب الحاكمين بأمر الله وبطانتهم ومن لحق بحزبهم خادما ونصيرا من أبناء البلاد المفتوحة التى نهبت ثرواتها و«هلكت فصالها» بتعبير عمرو بن العاص، حتى كانت الجارية (وهى طبعا من بنات البلاد المفتوحة)، تباع بوزنها ذهبا فى زمن عثمان بن عفان فى جزيرة العرب العجفاء، حيث كان هناك من يشترى وهناك من يباع فى سوق النخاسة، بعد أن تدفقت غنائم البلاد المفتوحة على الجفاة العراة ومن وجهة نظر من كان هذا العز؟ الذى يحال إلى بركة الاقتصاد الإسلامى وزكاته، بينما كان فى حقيقته دمارا للبلاد وسلبا للثروات لقيام ذلك المجتمع المرفه والاقتصاد القوى فى عاصمة الخلافة وحدها، وهو أسلوب التنمية الوحيد الذى عرفته دولة الإسلام. وهو أسلوب التنمية الاقتصادية المرجو عند الاخوان كما سيتضح الآن فى البند التالى.

٢ - فى مجال السياسة الخارجية: ما هو معيار الإخوان الذى ستتحدد فى إطاره علاقتنا الدولية؟ هل سيكون المعيار هو مصالح الوطن وأمنه القومى؟! أم مصالح المسلمين فى البوسنة وبلاد الأفغان والشيشان وبلاد تركب الأفيال بغض النظر عن مصالح الوطن، وما قد يجره مثل هذا التدخل فى بلاد العالم على أمننا القومى؟ أم سيكون المعيار هو تفعيل قواعد الدين بغض النظر عن النتائج ؟ أى هل سنتعامل مع العالم غير المسلم وفق ما يسمونه «عقيدة الولاء والبراء»؟ أم أنهم قد قرروا التنازل عن هذه العقيدة؟ الواضح فى أدبيات الإخوان أنهم يرون أن الله قد أمر المسلمين بتنفيذ أمرين أساسيين هما: نشر كلمة الله فى الأرض حتى تخضع لها كل البشرية بالموعظة الحسنة إن كان ممكنا، وإلا بالقتال حتى يظهر دين الله على سواه. والأمر الثانى هو تطبيق الشريعة الإسلامية فى بلاد الإسلام والبلاد المفتوحة وإخضاع العالم لها أو بتعبير شهيدهم (سيد قطب): «لا حاكمية إلا الله ولا شريعة إلا منه/ المعالم ٢٩» أو بتعبير شهيدهم المؤسس «حسن البنا» : «إن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصايا النبيلة.. وقد أمر المسلمين أن يعمموا الدعوة بين الناس بالحجة والبرهان فإن أبوا وتمردوا **فبالسيف والسنان** / مجموعة الرسائل ١١٧».

وعليه فإن العالم من وجهة نظر الإخوان ينقسم إلى قسمين : دار السلام وهى ديار الإسلام ، ودار الحرب حيث يحارب المسلمون حتى يتسلطن الإسلام، أو بقول حسن البنا: «إن المسلمين يدعون الناس إلى إحدى ثلاث: **الإسلام أو الجزية أو القتال**/ الرسائل ٤٣» وفى حال البلاغ الشهير «إسلم تسلم» إلى ملوك العالم، فإن المواطنين يحملون نتائج رفض (ملوكهم للإسلام وما يستتبع ذلك من قتل ونهب وسبى واستعباد وهتك للأعراض) «يسمى اليوم تطهير عرقى». وبهذا الفهم الإخوانى دافع «بن لادن» عن قتل تياره الجهادى لألوف الأبرياء فى أبراج التجارة بأنهم غير أبرياء لأنهم يدفعون الضرائب للدولة الأمريكية لذلك هم مسئولون تماما كالدولة. كذلك رأى الأخوانى العريق قرضاوى وجوب قتل أطفال الاسرائيليين لأنهم عندما يكبروا سيصبحون جنودا لأن مجتمع إسرائيل كله عسكر بمن فيهم القعيد والمريض والشيخ الفانى. وإعمالا لذلك فإن الدعوة الإسلامية تظل فكرة نظرية يهلك بسببها من لا يعلمون عنها شيئا. هذا ناهيك عن كونه لا يوجد فى الدنيا شعب يرضى مختارا أن يذل عنقه لشعب غريب أو أن يدفع الجزية وهو صاغر. ولا يبقى سوى الخيار

الواقعى وهو الحرب ضد البشرية وقتل الكفار المقاتلين فيما يقول ابن تيمية (السياسة الشرعية ١٢٤) مع قتل من يعين على الدفاع عن وطنه ويحرض على الغزاة المسلمين، لأنه بذلك يعين على الحرب لا على السلام، أما من لم يحارب أو يُعين فأمرهم متروك للإمام إن شاء ذبحا وإن شاء استعبادا وإن شاء دفعوا الجزية وإن شاء عفى.

وفى هذا الموقف من دول العالم فى العلاقات الدولية عند الإخوان لابد أن تحدث التنمية المرتقبة للاقتصاد الإسلامى وحرية التملك الفردى المكفولة بما «ينشأ عن ملكية السلب وهو كل ما مع القتيل المشرك الذى يقتله المسلم / سيد قطب / العدالة الاجتماعية / ١٢٨ » وإن هذه التنمية الاقتصادية الفريدة التى يتحول فيها المسلمون إلى آفات كالجراد، هى الحلال البين الذى لا شبهة فيه للحرام، مما يجعل المجتمع الإسلامى يعيش عيشة راضية فى رفاهية الحلال الزلال بتأكيد شهيدهم «إن نصوص الإسلام تبيح للفاتحين أن يستأثروا بكامل ما يملكه المحاربون الذين يأبون الإسلام والجزية ويقاتلون المسلمين / العدالة الاجتماعية / ١٩٨».

ولمزيد من التنمية الاقتصادية يستحب الاستيلاء على أموال الذين لم يقاتلوا بدورهم بحيث لا يصبح هنا فرق بين من قاتل ومن لم يقاتل، وهذا اللون من النهب يسمى (الفىء)والذى يعود على المسلمين بالخير العظيم ، ومعناه ما أفاءه الله على المسلمين أى رده إليهم من الكفار، لأنه نظريا كان فى الأصل والصواب ملكا للمسلمين، ويشرح ابن تيمية هذه الفزورة بقوله: «إن الأصل أن الله خلق الأموال إعانة على عبادته، والكافرون به أباح الله أنفسهم التى لم يعبدوه بها وأباح أموالهم التى لم يستعينوا بها على عبادته، فأصبحت حقا لعباده المؤمنين **كما يعاد على الرجل ما غصب من ميراثه**/ السياسة الشرعية / ٤٠».

فهل ستظل هذه قواعد الإخوان فيما يعرضونه علينا وعلى الأمريكان؟ (هل تسمعى يا أمريكا .. آلووووه ه ه)؟ وهل ستكون لتعهداتنا الدولية عبر حكوماتنا المتعاقبة نصيب فى ظل هذا الفهم لعلاقتنا بالعالم؟ وهل سيجيبنا إخواننا الإخوان بجواب واضح قبل أن يحدثونا عن دورهم فى العملية الديمقراطية ويجأرون للعالم الحر بما وقع عليهم من ظلم فادح!!

٣ - فى مجال التعليم : هل سيقبلون بتدريس ما انتهى إليه العلم الحديث من حقائق أصبحت بديهيات حتى لو تعارضت مع نصوصنا

الدينية؟ وهل سيبيحون اسلوب التعليم الحديث القائم على المنهج العلمى وحده فى التفكير دون إحالة كل قضية إلى «ما شاء الله» وإلى «سبحان الله» وربطها بثوابتنا ؟ أم سنكتفى كما كنا وحتى الآن بالتعليم التلقينى واختبار الذاكرة الحافظة لا الملكات والابداع؟ من باب الحفاظ على ثوابت الأمة حتى أصبحنا ثوابت بلا أمة!! وهل ستكون جامعاتنا محرابا مقدسا للعلم وحده دون تدخل لأى سلطان غير قوانين العلم ومنهجه، أم ستخضع لرأى الدين ورقابة رجاله المحترفين فى مساحات لا علم لهم بها ولا قبل لهم بها؟ وهل سنؤسلم العلوم بما فيها العلوم الانسانية كالاجتماع والاقتصاد والسياسة أم سندرسها كما يدرسها خلق الله فى البلاد المحترمة المنتجة المتفوقة ؟ أم سنحول معاهدنا التعليمية إلى أوكار لتخريج الإرهابيين كما هو حادث بالفعل فى معظمها، لتحقيق أهداف الأمة العليا باخضاع العالم الجاهل لسيادتنا العالمة؟ وهو هدف فى ضوء أوضاعنا إزاء العالم لا يبدو مبشرا سوى بالخراب التام والموت الزؤام.

٤ - فى مجال الثقافة والفنون: هل يعترف الاخوان وإخوانهم أن الثقافة ثقافة إنسانية ساهم فيها كل البشر، أم أن الثقافة الوحيدة هى التى أنزلها الله على أحبابه وحدهم بالحجاز وقبلها جاهلية وبعدها جاهلية؟ وهل ستظل ثقافة اليونان وفلسفتها وفنونها الروائع مجرد وثنية ؟ وهل ستبقى مصر القديمة هى ثقافة الفرعون العاصى وقومه المجرمين المغرقين، ثقافة الكفر البواح؟ ومن ثم لا تستحق سوى الاستبعاد والنفى والاقصاء؟ وماذا عن ثقافة العالم الحر اليوم أم أنها من البدع التى لا تعرفها السماء ؟ وهل سيسمحون بدراسة الثقافات القديمة من باب العلم بالشىء أو من باب قياسها على ثقافتنا الاسلامية السمحاء لاثبات انحطاطها ؟ أم سندرس هذه الثقافات دراسة شافية كافية بحسبانها أعمدة ومنابع وأسس حضارة الإنسان فى الأرض؟

وهل سيظل الفن التشكيلى حراما بحسبانه تصويرا وتمثيلا ضمنيا؟ وهل سيظل الموديل الحى مستبعدا من كليات الفنون فى بلادنا بحسبانه فجورا وتعرية للعورات؟ أم سيتم قبوله بعد أن تغطى الموديل نفسها بالحجاب، أم يستحسن بالنقاب؟ أم من الأجود إلغاء هذه الفنون الخليعة من بلادنا والإبقاء فقط على تحسين الخط العربى البديع؟ وماذا عن الفنون الإنسانية فى مختلف بلدان العالم من موسيقى إلى أوبرا ناهيك عن المصيبة الفاجرة المعروفة بفن الباليه؟ أم سيكون هناك باليه اسلامى يستحسن أن يقوم به الرجال وحدهم شرط اطلاق اللحية وتقصير

الجلباب وستر السيقان المراد بالسروال منعا للفتنة مع استبعاد كل الآلات الموسيقية المبتدعة والعودة إلى الأصول بضرب الدفوف ورقص الحداء (مشية الجمل) كرقص رصين وفن أصيل غير مستورد؟

٥ - فى مجال العدل والقضاء: تقول مبادرة الإخوان إن القضاء سيلتزم عند التمكين بقوانين الشريعة، وهو ما يعنى القضاء المبرم على القوانين الوضعية المستمدة من ظروفنا والموافقة لتعقيدات زماننا واستبدالها بقوانين الشريعة. وهو ما يعنى تطبيق الحدود وإقامة ساحات القطع العامة تشجيعا للإقبال الجماهيرى لرفع مستوى الحس الإنسانى الرفيع، وهو ما يعنى أيضا ضياع كل المكاسب الحقوقية الإنسانية بعد طول صراع ضد الظلم والعقوبات البدنية عبر التاريخ. ثم ماذا عن قوانين الاحوال الشخصية، وماذا عن وضع الاقباط والأجانب؟ هل يمكن مثلا العودة لنظام المحاكم المختلطة ؟ أم تراهم سيدعوننا إلى التأسى بتجربة السودان الرائدة فى سحل العباد وتمزيق البلاد؟ أم لديهم قول آخر لم نسمعه بعد؟

٦ - فى مجال السياحة: فى ظل التناقص المستمر للموارد الطبيعية مع الزيادة السكانية فوق طاقة ما تحتمل الأرض، مع تراجع تدفق الاستثمارات الخارجية، لا يبقى لمصر من أمل سوى السياحة لما تملكه بهذا الصدد من رأسمال غير قابل للمنافسة، وتصبح السياحة هى المصدر الوحيد والأمل الأول الذى يجب الاهتمام به فى كل تفاصيله بعدما حدث من تراجعات بعدما قام به الإسلام الجهادى من عمليات اجرامية فاحشة فى بشاعتها ضد السائحين فى بلادنا. والمعلوم أن للسياحة شروطها التى توفر للضيف كل ألوان الراحة الممكنة وكل المتعة الممكنة بشروط الضيف لا المضيف لأنه هو من يدفع. ومن غير الممكن بل من الجنون أن نطالب السائح الالتزام بقواعدنا الشرعية فى الملبس والمشرب والمأكل وإلا أنفضوا عنا إلى غيرنا. مع ملاحظة أن بلدا كإسبانيا لا يتمتع بواحد من ألف مما تتمتع به مصر من آثار عريقة تحقق من السياحة دخلا قوميا يعادل دخل الدول العربية مجتمعة .. مرتين!!

أم ترانا سنخصص لهم أماكن خاصة أو نجمعهم فى مساحات محددة يعيشون فيها كما يحبون؟ وفى هذه الحال هل يستحسن نقل الاهرامات والمعابد والمتاحف إلى هذا المكان المختار؟ أم سنعتمد على الله ونقوم باعدام هذه الآثار كما فعلت طالبان فحلت عليها البركات؟ أم لهم قول غير فصيح بهذا الشأن لم نسمعه بعد؟

٧ - فى مجال الإعلام: الكل يرثى الإعلام المصرى بالقصائد المبكيات وتلفازنا الذى قالوا إنه ولد عملاقا فإذا به قزما بين الصغار من محطات فضائية بنت الأمس فى بلاد هى كلها بنت الأمس، إرضاء لنوازع دينية وطلبا لرضا رأى عام غير رشيد ولا سوى ورغم ذلك فإن إعلامنا المسكين ابن السبيل متهم فى مبادرة الإخوان بالفحش والفجور. وهو ما يعنى أن حالة هذا الإعلام عند التمكين (لا قدر الله) ستكون هى الغم والنكد الأبدى مع مزيد من الجمود والانغلاق واستمرار الخطاب التلقينى الإرشادى وفى هذه الحالة ربما يستحسن اغلاق فضاء البلاد استبعادا لشرور القنوات الأجنبية الفاجرة الكافرة التى سيهرب إليها الناس كما هو حادث بالفعل، والعبد الفقير إلى الله لم يشاهد التلفاز المصرى منذ عشر سنوات تقريبا، والمرات النادرة التى جلست فيها أمام قنواتنا نقلتنى إلى العناية المركزة مما دعا الاطباء إلى نصحى بالابتعاد عن مشاهدة التلفاز المصرى حرصا على حياتى وعلى دماغى من حدوث ما لا تحمد عقباه.. ومع التغيير المقبل عند التمكين ماذا سنفعل مع البلاء الفضائى العالمى؟ أم علينا بالصيام والصبر حتى نتمكن من فتح الدنيا وتدمير الرذيلة والفحش؟ وإن كنت لا أعلم كيف سندمر الاقمار الصناعية .. ربما سنضربها بالمنجنيق باعتباره سلاحا إسلاميا اثبت فعاليته فى غزوات كبرى.

٨ - فى مجال الصحة: هل سيقبل الإخوان بالتطور العلمى فى ميدان الطب الحديث، أم سنقتصر على العلاج بالقرآن والحبة السوداء وعسل النحل والحجامة وبول الجمل، وهل تعبئة بول الجمل فى قنانى دون أن يصيبه الفساد بحسبانه طيبا حلال؟ وما القول فى الفرق بينه وبين بعض أنواع الخمر الخبيث الحرام؟ وهل سنتمكن سيقبلون بزرع الاعضاء والتبرع بها عند الوفاة وإقامة بنوك لهذه الاعضاء؟ وماذا عن موقفهم من الهندسة الجينية واستخداماتها الطبية؟ وهل سيعتبرون التدخل الجينى انتصارا للطب والعلم أم عدوانا على خصوصيات الله؟

هذه مجرد تساؤلات نطلب فيها رأيا يتفق عليه الإخوان وإخوانهم فى أمور هى من بسائط الشأن السياسى. رغم أنهم منذ خمسين عاما يناقشون مسألة تحديد النسل الكارثى. ولم يتفقوا بعد.. يبدو أننا سننتظر اتفاقهم طويلا..

٥- سحر الديمقراطية

يبدو لى من مجموعة ملحوظات عن مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية أن المركز وصاحبه الدكتورسعد الدين إبراهيم، يذهبون إلى ضرورة إشراك الجماعات الإسلامية فى عملية الاصلاح المنشود بالحوار معهم والاستماع إليهم وبخاصة جماعتهم التأسيسية التى أفرزت لنفسها أذرعا وفروعا وجماعات «تحتية سرية (جماعة الإخوان المسلمين المحظورة)، وهو موقف لاخلاف عليه» فالاستماع والحوار واجب فى كل مكان وزمان لكل من يعلن رغبته فى الحوار بالطرق القانونية السلمية المسموحة، وقد استمعنا لمبادرة الإخوان واحترمناها بمناقشتها على صفحات هذه المجلة عبر أكثر من شهر. ولم نسمع من الإخوان ردا على هذه المناقشة يسمح لنا بفرز الأسود من الأكثر سوادا والسيىء من الأكثر سوءا فيما قدموه لنابمبادرتهم التى كشفت فى خلفيتها أشد الآراء ظلامية وأشدها عداء للديمقراطية، لم نفتر عليهم كلمة ولم ندس فى مناقشتنا لهم كلمة ولم نفسر على هوانا بل تركناها تفسر بعضها بعضا وتفصح عن مكنونها بعباراتها ومفاهيمها وبلسان أصحابها.

لكن مركز ابن خلدون يذهب فيمايبدو إلى ماهو أبعد من الاستماع والحوار والمناقشة، فهو يطلب مشاركة هذه الجماعات فى العملية الديمقراطية المطلوبة بشكل فورى ودون أى اعتراض أو مناقشة لما يطرحونه ودون الحصول منهم على أية ضمانات واضحة لما أعلنوه عن إيمان بديمقراطية زماننا ويكفينا منهم الإعلان عن التخلى عن العنف واللجوء للعمل السياسى السلمى، لأن قصر الديمقراطية على الديمقراطيين هو خيانة للمبادئ والقيم الديمقراطية وهو لون من المكارثية البغيضة عندما تفرز الناس ما بين مسموح له بالمشاركة وبين ممنوع من المشاركة، لأن المبدأ الديمقراطى يقبل جميع الناس على قدم المساواة المطلقة.

هذا رغم أن مناقشتى لمبادرة الإخوان تكشف عن أن العقل الاقصائى المكارثى لم يقدم إخلاصا لمبادئه بما هو أفصح وأجلى من مبادرة الإخوان. كما بدا لى من خلال مشاركتى فى محور الاصلاح الدينى فى ندوة الاصلاح فى مصر التى عقدها ابن خلدون يوم ٣٠ يونيو ٢٠٠٤، ومن خلال الاستماع إلى رأى أحد باحثى المركز وهو يناقشنى أن الديمقراطية

المقصودة فى النهاية والمطلوبة فورا هى ديمقراطية صندوق الانتخابات، وبعدها ستنصلح كل الشئون إن شاء الله.

وأزعم هنا من خلال لقاءات عديدة بالدكتور سعد كان معظمها فى بيتى أنه رجل علم اجتماع نشيط وداعية حقوقى ومناظر قوى الحجة متماسك المنهج لكن له عثرات أحيانا فيما يطرح أعتقد أنها ناجمة عن قصور شديد لديه فى الدراية بالإسلام والتاريخ الإسلامى، وكذلك تاريخ الحركات الإسلامية وأدبياتها، وأنه يتعامل معها بخفة شديدة وتبسيط مخل ولا يأخذها كثقافة شعوب بما يناسب حجمها وثقلها، بينما ينعى على الآخرين أخذهم شئون المجتمع والاجتماع بخفة وتبسيط دون فهم عميق. ولما كان المجتمع والثقافة ضفيرة واحدة متشابكة فإن التعامل مع الثقافة بتبسيط وخفة لابد أن يؤدى إلى نتائج مضللة فى علم الاجتماع، وفى حالتنا هنا مع الديمقراطية والإخوان لابد أن يؤدى إلى نتائج كارثية.

وفى ظرف كحالنا اليوم هو الحالة الحرجة الحقيقية والرجراجة على سراط يمتد ما بين حال الإنسان الواقف على قدمين القابل للانقراض ،وحال الإنسان الراقى القوى القادر على الاستمرار بمزيد من العطاء للحضارة.فإن تبنى مركز بن خلدون لفكرة إشراك الإخوان وذيولهم واذرعهم الضاربة إن أمكن فى العملية الديمقراطية سيفترض أحد موقفين: أحدهما يتسم بسوء الظن الشديد وله العذر والمبررات أحيانا كما فى حالتنا هنا، وهو ما أخذ به الكل تقريبا إزاء بن خلدون وإن كان بعضه غثا مفتريا فى شئون أخرى تعتمد على التجريح الشخصى والتخوين الوطنى، والموقف الآخر أن نأخذ ما يطرحه المركز بقدر من حسن الظن وهو ما سأفعله هنا لنرى إلى أين يصل بنا هذا الظن الحسن.

وإعمالا لحسن الظن أفترض أن الدكتور سعد الدين إبراهيم يتعامل مع الجماعات الإسلامية الراغبة فى إلقاء السلاح وخوض العمل السياسى العلنى بأحزاب إسلامية الصبغة والشعارات. باعتبارها الشبيه المحلى للأحزاب المسيحية فى بعض البلدان الأوروبية، حيث لتلك الأحزاب التى تحمل سمة الدينية المسيحية كل الحقوق والكفالات المكفولة لنظيرتها من أحزاب أخرى، من أحزاب الملحدين إلى أحزاب الخضر.

لكن هنا فرقا هائلا بائنا بين تلك الأحزاب فى أوروبا وبين جماعاتنا الاسلامية التى تريد تأسيس أحزاب لها تخوض بها العمل الديمقراطى.

فالمسيحية كديانة ليست لديها شريعة تطلب تطبيقها والأحزاب المسيحية لاتملك برنامجا مستمدا من شريعة سماوية أو معتمدا عليها أوحتى مستشهدا بها. اللهم إلا فى معانى المحبة والسلام والتراحم الإنسانى. ورغم هذا الفارق الواضح فقد حمل الدكتور سعد وجهة نظر تلك الجماعات إلى السفراء الغربيين فى بلادنا .وهنا يكون قد ارتكب أكثر من سقطة.

لأن أول معانى هذا الخط الحوارى هو فتح قنوات للحوار بين المتأسلمين وبين دول الغرب عبر مركز ابن خلدون، وهو ما يعنى فى نتيجته النهائية تأكيد وجود هذه الجماعات كجماعات مستقلة غيررسمية أمكن لها الوقوف موقف المحاور مع الدول الكبرى استثمارا للظرف العالمى وتحقيق أى مكاسب ممكنة عبر هذا الحوار. وهو أيضا ما يعنى أن هذه الجماعات الخارجة على القانون قد تم تقديمها بحسبانها ضمن قوى المعارضة المصرية أو قل هى المعارضة القوية القادرة على طرح نفسها نيابة عن شعب مصر. وهو كله ما يشكل لونا من الاعتراف بهم خارج القانون، رغم أن مصر الدولة ومصر الحكومة ومصر القانون ومصر الناس مسلمين ومسيحيين يرفضون الاعتراف بهذه الجماعات معبرا عنهم بل ولا مجرد الاعتراف لهم بشخصية قانونية، لأن هذا الاعتراف مع ما نعلم من فكرهم وأقوالهم وبعدما اكتوينا بنارهم يعد اعترافا فوريا بشرعية الدم وبوصايتهم علينا بأمر الرب حسبما يقدمون أنفسهم. وهى أبغض وصاية ممكنة، وأكثرها زيفا وضلالا، ويعنى أيضا قبولنالهم أعضاء فى الفعل الديمقراطى وهم يعلنون عدم الاعتراف بهذا الفعل حقا وصدقا بقدر ما يعلنون تقية باللسان لأنه كما قال محمود الصباغ «من خدع الحرب أن يسب المجاهد المسلمين وأن يضلل عدو الله بالكلام حتى يتمكن منه ويقتله /حقيقة التنظيم الخاص ٤٢٩» أو كما قال مصطفى مشهور بلغة فصيحة صريحة غليظة: «إننا نقبل بمبدأ التعددية الحزبية الآن.. لكن عندما يقوم حكم إسلامى فإننا نرفضها ولن نقبلها /رفعت السعيد/ ضد التأسلم ٢١١».

وأن قبولنا بانخراطهم فى الفعل الديمقراطى المقصود هنا هو قبولهم أعضاء فى ديمقراطية صندوق الانتخابات دون تقيدهم بشروط الديمقراطية الحقوقية كحق تشريع البشر لأنفسهم وهو ما يرفضونه لأنه لا حكم إلا بالله (من خلال الإخوان طبعا) وكحق المرأة فى شخصية إنسانية كاملة ذات أهلية تامة، وهو ما يتعارض عندهم مع حدود الله، وكحق الاعتقاد مطلقا وهو مالن يتفق مع حد الردة الخ.

وهو كله ما يعنى قبولنا لرفضهم لنا سلفا واقصائهم لنا وللديمقراطية، ونكون كمن يشرب السم ويعلم أنه سم إخلاصا للوعد بشرب السم مادام داخل الفعل الديمقراطى، ويعنى القبول سلفا بعلمنا أنهم سينقلبون على الديمقراطية وفق شريعة سماوية معلنة سلفا ترفض الديمقراطية وأيضا دون أن نستطيع الاحتجاج. ومع حال كحال بلادنا اليوم ومناخ كمناخنا الفكرى فإن هذه المغامرة الديمقراطية غير مضمونة العواقب بإطلاق ومرفوضة بإطلاق.

لأن السماح بديمقراطية صندوق الانتخابات وحدها للهاب والداب والضحوك القتال بحجة أن هكذا الديمقراطية النقية نرفع صلبانها ونترهب ليصلبوننا عليها دون ذرة شك، إننا نستخدم منهج تفكير سريا يخلص للمبدأ بمنطق الذى يسلم قدره لخط سير المبادئ الذاتى وقدرة المبادئ على الفعل بمجرد تفعيلها. وبحسبان الديمقراطية قادرة بذاتها على طرد العملة الفاسدة تلقائيا. وهنا لابأس أن تخوض الشعوب تجاربها باختياراتها ولا بأس من ٥٠ سنة أخرى أو قرن أخر تجارب نتعلم منها فى زمن فارق فى سرعته فى مفارقته لنا كل يوم بمسافات تتحول إلى جدران عازلة بيننا وبين دنيا الإنسان الراقى، وعلينا أن نبدأ بالتجريب فى زمن جاءت فيه الفرصة ذهبية ولن تتكرر فى ظرف فريد فى التاريخ يتفق فيه المحلى والأجنبى على ضرورة الاصلاح الديمقراطى، لنضيع الفرصة إلى الأبد بعشوائية الديمقراطية السحرية، ورغم ما حدث أمامنا من تجارب كان المبدأ العنصرى أو الطائفى الدينى هو محركها كما حدث فى تجربة إيران باختيار وقرار شعبى ساحق فى استفتاء جماهيرى مباشر من كل جماهير إيران واتفاقها، أو كما حدث فى وصول النازيين إلى الحكم فى ألمانيا عبر انتخابات حرة نزيهة. ودون النظر إلى الخراب المحلى والدولى الذى افرزته التجربتان، وما حاق بالناس الذين تسعى الديمقراطية لكفالة حقوقهم. فانتهت النازية بحرب عالمية وعشرات الملايين من القتلى من كل لون، مع ماعانه الشعب الألمانى نفسه من قهر عظيم بقبوله هذا الاختيار مع الأهداف المعلنة للحزب.. ولم تنته بعد السلطة الدينية القامعة فى إيران بذكرياتها البشعة ومئات ألوف القتلى فى محاكمات كانت تتم بسرعة توزيع التلاميذ على فصول المدارس.

مع ملاحظة أن ديمقراطية صندوق الانتخابات المطروحة يغيب عنها

بوضوح معنى القرية أو المبنى العالمى الواحد اليوم، الذى لايحق لأحد فيه أن يعبث عشوائيا فى منطقته الخاصة لأن هذا العبث سيؤثر سلبا على المبنى كله، وربما كان صحيحا من حيث المبدأ لكنه غير صواب من حيث النتائج المعلومة سلفا والمحسومة سلفا القيام بتطبيق ديمقراطية صندوق الانتخابات بعمل مفتوح فجأة توكلا على الديمقراطية وقدرتها السحرية على الفرز لأنه سيتم وأدها قبل أن تفرز، وبهذا المعنى نحول الديمقراطية إلى تميمة قدسية قادرة على صياغة الواقع دون الإنسان الفاعل بالفعل فى هذا الواقع، وما أبعد ذلك عن نتائج نرجوها لمصالحنا لا تطبيقا مثاليا لمبدأ ناقص إخلاصا للمبدأ لا للنتائج والمصالح، لأنه لابد أن يتم اتخاذ القرار بعد أخذ كل الظروف المحيطة محليا ودوليا بكل تفاصيلها فى الاعتبار بكل تناقضاتها وتقاطعاتها وتباعداتها وتقاربها دون إغفال منمنمة واحدة قد يكون لها التأثير الأعظم أحيانا فى تحويل خط سير التاريخ لو تركناها تسير كالقصواء (ناقة النبى) لتبرك حيثما شاءت لأنها مأمورة، لأن ناقة النبى كانت مأمورة من السماء، أما الديمقراطية فهى من صنع الناس وقد تصبح مأمورة لأشد الناس إفكا إن لم تكن من الأصل قيما يعرفها كل الناس .ويحرص عليها كل الناس بحقوق تهم كل الناس ويدافع عنها كل الناس فهى لا تسير ميكانيكيا بضرورة تماثل عالمى. ولأنها لو فتحناهافتحا لينحشر فيها الكل بما فيهم أهل الرشاشات والسنج الذين قتلونا بحكم رسوخهم فى العلم وتابوا بحكم رسوخهم فى العلم (ربنا يجعل كلامنا خفيفا عليهم) لتمزقت الديمقراطية شر ممزق ومعها الوطن ذاته قبل أن تبدأ ولنا فى الجزائر أسوة غير حسنة، لأنه بينما الديمقراطية تعتبر الدين جزءا اختياريافى حياة الناس وليس هو كل هذه الحياة. وأن من يقول فى الدين قولا إنما يقول رأيا مثل بقية الآراء المطروحة قابل للقبول وللرفض، فإن إخواننا الإخوان ومخالبهم لايرون ذلك بل يرون قولهم فى الدين هو الدين، وأن الدين ليس رأيا كبقية الآراء بل هو معيار كل الآراء والحكم عليها والحاكم بها.

ولأن الديمقراطية المنتظرة لم تنتزعها شعوبنا عن رغبة منها وإيمانا بها، بل تسببت فيها ظروف عالمية ورياح اقليمية بل ربما ردنا أى استفتاء شعبى اليوم مع ديمقراطيتنا إزاء الإيمان بأن التشريع هو حق الله وحده وليس للإنسان حقوق لم تقررها السماء، وأنها ديمقراطية يتم ترتيبها ولم

تنتج عن ثورة فى وعى الناس تعى وتميز فى اختياراتها بين مختلف الأطراف المطروحة على الساحة السياسية، وعليه فإن الاختيارات فى ظرفنا عبر ديمقراطية صندوق الانتخابات الفورية دون تأسيس المعانى الحقوقية، ستكون نتائجها مطابقة لوعينا العنصرى الطائفى الذى نعيشه منذ زمن الخلافة وحتى اليوم وسيكون هو الضياع للأبد.

ومن وجهة نظرى المتواضعة أن الفرصة جاءت لشعوبنا النائمة على طبق من ذهب. وأن علينا انتهازها وركوبها بالسرعة الممكنة لفرض وجودنا على الاجندة العالمية كشعب وكتيارات سياسية فعالة وكمجتمع مدنى نشط بتسريع المراحل وفق ظروفنا، لكن دون حرق المراحل، ولا تطبيق شىء من الديمقراطية دون شقها الأساسى. وأعتقد أنه يجب أن تكون خطواتنا متواضعة ووئيدة لكن واثقة تعرف أهدافها المرحلية وأهدافها البعيدة فى ظل كل ارتباط لهذه الأهداف بظرف محلى أودولى، مع تغير وتيرة التسارع مع كل متغير جديد يمكن الاشتباك معه.

ومن وجهة نظرى المتواضعة أن الفرشة الأسمنتية تقوم على أعمدة أساسية تغوص فى جغرافية هذا الوطن ليحميها ناس هذا الوطن وينافحون عنها، أقصد .. مصر الوطن الأرض ومعنى المواطنة. لأن وطنناعلى حاله لن يحتمل انقلابات فكرية أو سياسية مفاجئة فوق ممكناته وقدراته، فلابد أن يعود إلينا الوطن أولا ونعود إليه بتآزر وطنى ساحته مفتوحة ليتنافس فى تعميق المواطنة المتنافسون وهو مالا يعنى تقبيل لحى بعضنا وحضور مائدة الرحمن بالكنيسة، بل يعنى نقدا حقيقيا وإصلاحا صادقا لاصلاح كل السلبيات التى تعوق المواطنة لنجهز الأرض المتماسكة بشعب متماسك يعترف ببعضه بعضا وبحق بعضه بعضا فى الاختلاف، لكن مع هدف راسخ هو التماسك الإنسانى مع الجغرافيا بارادة تتوجه نحو المستقبل، حينئذ نكون قد وضعنا قدمناعلى بداية طريق الإصلاح. وأعتقد أن مشاركتنافى رسم فجره يجب أن تبدأ بإلغاء خانة الديانة من البطاقة الشخصية كخطوة تتبعها خطوات.. فهل من مستمع؟

هذه كان مناقشة لمركز ابن خلدون مع الأخذ بحسن الظن لأن بعض الظن إثم.

٦- ردا على الدكتور سعد الدين ابراهيم:
سعد الدين إبراهيم والإخوان تفاهم أم تحالف؟!

أبداً لم يتغير الدكتور سعد وبخاصة فى أسلوب خطابه المتسم باللطف الشديد والأدب الجم والاحترام المشكور لكن هناك أمورا هى صلب المسائل لايجامل فيها ولا أجامل فيها، فأنا لا أجامل هنا عندما أقول إن منهج ابن خلدون كان يسعى دوما وراء تأسيس فكرة المجتمع المدنى الحر الديمقراطى منذ قيامه مركزا بحثيا بل كان له قصب السبق أحيانا قياسا على جمعيات أخرى تهتم بأنشطة مثيلة.

وفى صلب المسائل تكون المواقف، وضمنها موقفى من محنته خلال سنوات ٢٠٠٠ - ٢٠٠٣ وكيف قدر الدكتور هذا الموقف ووصفه بالشجاع. وقد أفردت به بابا طويلا هو الأول فى كتابى «شكرا بن لادن» دفاعا عن حقه فى إبداء رأيه وسعيه النشيط من أجل فكرته بالطرق السلمية، لكنى مضطر هنا إلى تذكير الدكتور سعد بمحنتى فى محاكمتى على كتابى «رب الزمان» الذى حوكمت فيه وفق الرأى المشيخى والفقهى السائد والسيد والذى هو جوهر أيديولوجيا الإخوان، وهو الخط الأقوى المتواجد على الساحة نافيا كل آخر منذ فجر الخلافة وحتى اليوم، وأذكر رجل المجتمع المدنى أنه لم يقل كلمة واحدة ولم يكتب كلمة واحدة ولم يحمل قضيتى التى هى قضية المجتمع المدنى وليست قضية الإخوان، لم يحملها إلى السفراء الأجانب وهى قدرة سهلة بيمينه، عسيرة على استطاعتى الضعيفة، وأنا من كان فى محنة و الإخوان ليسوا فى محنة بل هم محنتنا جميعا، هم محنة هذا الوطن منذ شكلوا تنظيمهم العصابى وحتى اليوم، لأن التواصل مع ممثلى الدول لايتخذ بشأنه قرار شخصى، لأنه هنا يصبح شأن وطن لا لعبة ثقافية.

ولكن لأن المشترك المدنى بيننا أعلى من أى موقف شخصى «رغم أن محاكمة مفكر ليست أمرا شخصيا لكن لنحتسبه كذلك»، فقد قررت نسيان الأمر والوقوف إلى جوار سعد حليفا له بالتأكيد ومؤازرا ونصيرا، رغم أنه يقول إن موقفى لم يكن تحالفا معه استبعادا لفكرة التحالف مع الإخوان المتهم بها حاليا من جانب بعض المثقفين المصريين. لكن مالا يفوت المدقق هنا أن محاكمتى كانت ذات حساسية خاصة بالنسبة للدين وبالنسبة للتيارات السلفية، لكنى أبداً لم يذهب بى سوء الظن أن ذلك كان سبب صمت رجل المجتمع المدنى عن الكلام فى موطن الكلام بالضرورة ،لأنه موطن فكرة المجتمع المدنى ويظل سؤالى حول سكوت الدكتور سعد معلقا بلا جواب.

وأيضا لن يذهب بى سوء الظن إلى أن لقاء الدكتور سعد فى حبسه

الظالم حقا برجال الجماعات والإخوان فى مكانهم الطبيعى حيث المجرمون والقتلة العتاة، مع الأخذ بالحسبان ضعف ثقافة الدكتورسعد الإسلامية ازاء هؤلاء المتمرسين وإمكان اقتناعه بخطابهم المخادع المراوغ.

لن أقول إن ذلك قد أدى به إلى تحالف انتقامى، خاصة مع ما يملكه من مساحة اتصالات واسعة بشخصيات كبرى محليا ودوليا، فى ظرف لايحتمل ثأريات نهدر فيها الطاقة والجهد ونسكن الثعابين بيوتنا فى زمن ولحظة تاريخية فارقة لن تعود مرةأخرى إن لم نستثمر كل ما فيها من أجل تحقيق وطننا الحلم وإنساننا العزيز الكريم. وأؤكد..كلا لن يذهب بى سوء الظن هذا المذهب رغم أنه ظن مطروح بقوة عند الكثيرين.

ومن الطرافة أن موضوعى الذى يرد عليه الدكتور سعد هنا كان شكله «العناوين: تحالف سعد الدين والإخوان.. ديمقراطية الهلاك» من وضع هيئة تحرير روزاليوسف،وهو حقها فنيا حسب مالديها من ملفات وطوارئ أسبوعية، وكان عنوانى الأصلى للموضوع فقط هو «سحر الديمقراطية»، وقد أحطت الدكتور سعد علما بذلك قبل أن يرسل رده إلى روزاليوسف لينشر»، ومع ذلك أصر الدكتور سعد على تناول الشكل وكرس مساحة كبرى من موضوعه لهذا الشكل ؟!

ثم سقط الدكتور سعد من حيث يدرى أو لا يدرى فى فخ الدفاع عن الإخوان ليؤكد هذا التحالف أو التعاضد أو الاتفاق على مشتركات من أجل هدف مشترك أيا كانت التسمية، وأتمنى ألا يعتبر صديقى ما سأقوله هنا قاسيا بل أعتبر الأمر كله حوارا خلاقا أفيد أنا منه ويفيد منه القارئ، وقد أحب الدكتور سعد كرجل مجتمع مدنى وأتمناه كذلك دوما مقاتلا جسورا من أجل الحريات والحقوق، لكنى أحب وطنى أكثر عندما يرتكب الخطأ رجل المجتمع المدنى، وإذا كنا نقول لكبائر الأمور قفى عند الإضرار بالناس وبالوطن فالأولى أن نقول ذلك لأنفسنا.

أن تلتقى الفصائل الوطنية وأن تتحاور بصدر رحب فهذا أمر لا يختلف عليه أحد سوى الإخوان وإخوانهم،وكان تاريخهم كله هو تاريخ الانقضاض على المحاور أو الحليف أو الشريك فى أول فرصة ولم تشذ فى تاريخ تحالفاتهم حالة واحدة عن هذه القاعدة، ومع ذلك فإن صدر الوطن فسيح وقبلهم الجميع عندما قرروا علينا الحوار بقرار بإلقاء السيد مهدى عاكف مبادرتهم فى نقابة الصحفيين، وناقش المبادرة كثير من مفكرى مصر وضمنهم العبد الفقير لكن أحدا منا لم يتخذ قراراً منفردا خاصا بنقل الحوار إلى مستوى الدبلوماسيين الأوروبيين والكنديين والأمريكيين ومن ثم اعود فأؤكد أن موقفى من محنة الدكتور سعد كانت

هى التحالف بعينه بعد أن كتبت كلاما دفاعا عن قضية أدى بى إلى محنة شبيهة رغم أنه ينكر أن يكون تحالفا ، لكن موقفه مع الإخوان أيا كانت تسميته تشير إلى ضعف شديد فى معرفته بهم خاصة مع قوله هنا وقناعته البادية فى حديثه بماطرأ على مواقف الإخوان من تغيير وتطوير فى العقود الثلاثة الأخيرة.

وبحسن ظن صادق لا أرى الدكتور سعد متآمرا فيما يظهر من كلمة تحالف، خاصةإذا كان مع الإخوان بقدر ما آراه رجلا يؤمن بمبادئه عن إخلاص وتفان لقناعته بقيمتها وأهميتها لمستقبل الوطن فيتحدث عن ديمقراطية صندوق انتخابات مفتوحة.. هكذا قال ذلك ببساطة بينما يطلب منا الدليل؟! وضرب الأمثلة على النجاحات التى حققتها دول إسلامية شرقاوجنوبا لكن الدكتور سعد يبدو غير عارف بالمرة بالأيديولوجيا الإخوانية التى تنفيه هو سلفا من أى حوار، وتذهب إليه تطلب المؤازرة لتبيض وجهها لدى سفراء الغرب عند الاحتياج لتغيير الموقف كتقية مرحلية نحو الهدف الاستراتيجى، يبدو لى أنه لا يعلم ما هى عقيدة الولاء والبراء وأصولها ومساحة انتشارها، ولايدرك كيفية التعامل مع خطابهم المراوغ المخاتل المخادع المتقى «ليس من التقوى ولكن من التقية»، ولا بأصول التجديد الوهابى للمذهب الحنبلى السنى خاصة أنه يقوم بتعريف «التحالف» بأنه: «بين شركاء نشطين فى مجال عام، لكل أهدافه، ولكنهم يجدون مساحة مشتركة للتفاوت من أجل أن يعظم كل منهم فرصته فى تحقيق أهدافه، شريطة ألا يكون على حساب أى منهما، أى لاينطوى التحالف على عمليات صفرية، أى يكون مكسب أى طرف مساويا لخسارة الطرف الآخر».

ألا يرى الدكتور سعد حقا أن معادلته مع الإخوان بل معادلة الوطن جميعا بل المستقبل جميعه مع الإخوان هى معادلة صفرية؟ ألا يرى العقل العربى وطبعا المصرى فى الطليعة وقد تمت أدلجته عبر ثلاثة وثلاثين عاما بالمذهب الحنبلى الوهابى فى صراع السلطة لإثبات تدينهاأمام التيارات السلفية، فكان أن غزت السلفية إعلام الدولة وتعليمها ووضعت بويضاتها فى عقل مصر؟

إن الدكتور سعد يتهم شخصى الضعيف بالوصاية على الناس عندما لانثق فى قدرتهم على الفرز فى صندوق انتخابات عار عن أى تأسيس للديمقراطية بحقوق موازية يعتنقها الناس ويحاربون من أجلها.

هلا يمكن مرة أن نتحدث معا دون اللجوء إلى الاستعانة بالجماهير؟ هلا يمكن أن نتحاور دون دغدغة غرائز الناس؟ هل يمكن أن نتحدث

بشفافية من أجل الوطن والناس؟ إن القانون يحجر على المختل ووطننا كله مختل وعلقنا يا سيدى مختل وحياتنا كلها طائفية عنصرية قبلية همجية متخلفة تختل فيها أى تطبيقات للنظم الحديثة لعدم تطابق المعيار لأن الديمقراطية أصلا تقوم على ما هو ضد الطائفية والعنصرية والتخلف والقبلية وضعف الانتاج لدرجة الموات.

ومع ذلك يا أخى لا يطلب أحد الحجر على الناس ولا الوصاية عليهم، إنما إعطاؤهم فرصة أفضل لأن يعرفوا أن هناك رأيا آخر ودنياأخرى وحقائق أخرى ومعايير أخرى وقيما أخرى وحياة بكاملها يجب احترامهاوالاعتراف بها لتهيئة الواقع ليقترب من المعيار الضرورى لتطبيق المبدأ، وأن يتم أولا اصلاح ما افسدته الأيام العجفاء، بإعادة صياغة شاملة للإعلام والتعليم تبنى بالكامل على معانى الحريات وقدسيتها ومفاهيم حقوق الإنسان أولا، لتدريب العقل الكاره على قبول الآخر فى الوطن وفى العالم وهو الف باء الديمقراطية، وبضمانة أمريكا يا سيدى يمكنك ونحن معك أن نستغيث بها فى حال قصورنا وعجزنا وكساحنا نحن أهل المجتمع المدنى عن الانتصار لقضيتنا بخطى مدروسة وئيدة، ولا نكون بذلك قد فرطنا للسلطة فيما نريده. فقط علينا بتمهيد الأرض استغلالا للظرف العالمى السانح دون أن نغفل مكامن الفخاخ التى قد تضيع منا الفرصة إلى الأبد ونحن معها ضائعون حتما من الوجود.

وصديقى رغم علو كعبه فى تخصصه وأنه فى ميدانه ضليع فإنه يظل يصر على بناء مواقفه على جرف هار، لأنه لو ألقى نظرة مدققة دارسة على أدبيات الإخوان وتاريخهم وعلى الفقه وعلى المذهب الحنبلى وتاريخه سيتمكن من ربط النظرية بالمواقف والسلوك وسيفهم لطافة الإخوان وديمقراطيتهم وسعيهم المشكور إليه، وسيتمكن من أن يتنبأ بالسلوك وسيرى نبوءته تتحقق عندما تتوافر لها الظروف، ومن الخبراء فى هذا الميدان من يمكنه أن يخبرك ماذا سيقول الشيخ فلان فى المناسبة الفلانية المفاجئة، وماذا ستكون مواقفه حتى لو ناقضت ما قيل بالأمس، وهذا ليس تفتيشا فى الضمائر ولا حديثا فى النوايا، إنما هى أقوالهم المعلنة والمنشورة بأيديهم لا بأيدينا نحن. وأحيل أخى سعد إلى إعادة ما سبق وعقبت به فى روز اليوسف على مبادرة الإخوان وأتمنى عليه أن يردنا إن استطاع فهنا المحك وهنا الكلام غير المرسل الذى يداعب عواطف رأى عام غير سوى وغير رشيد ولا أكذب ولا أتجمل ولا أخدع وطنى ولا ناسى، ولاأريد أن أكون بطل الجماهير ولا بطل الديمقراطية الذى يرضى الجميع وتجتمع عنده كل التيارات فأنا أكثر عجزا من ذلك.

٧- قرضاوى الديمقراطى!!

الشيخ يوسف قرضاوى هو النجم الساطع فى قناة الجزيرة الفضائية، وهو صاحب الفكرة فى إقامتها، وهو الأب الروحى لمعظم جماعات الإسلام السياسى، وهو المرجعية الفقهية العليا لجماعة الإخوان المسلمين، وهو المستشار المالى لأكثر من عشرين شركة عملت بنظام المرابحة الإسلامية ونصبت على المسلمين وخربت بيوتهم، وهو المستشار المقرب من أمير دولة قطر، لذلك هو نصير حكام دون حكام حسب العائد، فهو هناك من أنصار المبدأ السنى العتيد بعدم عزل الحاكم أو الثورة عليه حتى لو كان جائرا أو فاجرا مادام مسلما، و«أطع الأمير ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك»، وهو هنا من أنصار تحديد مدة الحكم للحاكم والثورة عليه عند الضرورة، لأن هنا مكمن الصراع، لأنه الوطن، والكرسى الأعظم فى الوطن، وقرضاوى هو أيضا من يدخل اليوم مباراة الديمقراطية المفتوحة، التى حملتها إلينا رياح انهيار برجى التجارة فى نيويورك فى ٢٠٠١.

ولماذا لا يدخل قرضاوى المباراة؟ السؤال ليس له محل لأن الديمقراطية ساحة مفتوحة لكل أبناء الوطن المؤمنين بها حقا، لكن السؤال الحقيقى هو لماذا يدخل قرضاوى المباراة؟ وهل هو مؤمن بالديمقراطية حقا؟

إن الديمقراطية هدف عظيم ونبيل ومحترم لذاته، لأنها حققت على الأرض بنظامها الحقوقى الحريات للإنسان مما أفرز تقدما علميا ورقيا أخلاقيا وطفرة نوعية أنجزت حضارات لم يسبق للتاريخ مجرد تصورها، فى الوقت الذى كنا نحن ندلل على ما أنجز المواطن من علم بأنه قد ختم القرآن.

ومع يقين أن الديمقراطية آتية لا ريب فيها، خاصة أن الراعى الرسمى للمباراة هو أقوى دولة قادرة فى عالمنا، وعن ثقة مسلم بها فى هذه القدرة، أمسى الخيال الديمقراطى حقيقة تلوح وتتجسد أمامنا. ومن ثم قفزت كل فئران السفن الغارقة إلى المركب الجديد تغنى نشيد الديمقراطية، وأصبح الكل فجأة بغض النظر عن تاريخ معظمهم أنصارا غيورين للديمقراطية، بل أبطالا لها فى الشرق، حتى من كانوا يقبضون ثمن السكوت عن قهر الشعوب رواتب شهرية وكوبونات نفطية من أكاسرة العرب الكواسر، وفى المولد الديمقراطى تحول عتاة الإرهابيين من باقرى البطون وقاطعى الأعناق إلى التوبة وتعديل المفاهيم طلبا للمشاركة فى المشروع الآتى.

ورغم أن الديمقراطية ساحة مفتوحة للجميع، فإن هذا لا يعنى إن الجميع يدخلها محترما هذه المساحة الحرة بل إن البعض يدخلها بآليات

ومفاهيم لا تعترف بهذه المساحة من الحرية لتقويض هذه الحرية من الداخل. وهذا البعض ينتهز الفرص ويبتهلها بتحالفات مشينة بين النقائض تحمل فى داخلها بذور الخراب وتدمير المعبد على رأس الجميع من باب تخليص الثأر من الحكومة أو على الأقل إرباكها وهى فى مرحلة تحول مأزوم وكل المتبارين يحملون ملفات من الأدلة التى تؤكد للراعى الرسمى أن كل التيارات فى بلادنا تجتمع عنده وحده، أو أنه على الأقل الممثل الحقيقى للشعب، بدليل أنه لو عملنا انتخابات حرة سليمة سيكون هو الفائز!! «هذا ما يقوله كل تيار تقريبا».

وفى هذا السباق قدم الإخوان أوراق اعتمادهم فى مبادرتهم المعلومة، بينما أخذ قرضاوى يؤسس فكريا وينظر للخط الإخوانى الجديد عبر قناته، ليعلن إيمانه العميق بالديمقراطية شارحا مفصلا ما أغفلته المبادرة الإخوانية أو سقط منها سهوا أو كان مثار نقد، وذلك فى برنامجه الدين والحياة يوم ٢٠٠٤/٦/٦.. مدافعا عن حق الإخوان فى إقامة حزب شرعى يدخلون به الانتخابات فى المجتمع الديمقراطى الآتى متسائلا تساؤلا مشروعا هو «هل لأن الشخص متدين يحرم من حقه فى أن يكون له حزب؟.. هذا ضد الديمقراطية لأن الديمقراطية هى أن تتيح فرصا متكافئة للجميع». وهو كلام له نعومة الأفعى ومرونتها لا تعرف فيها الرأس من الذيل، لأن معنى الكلام أن الإخوان فقط من بين الناس هم المتدينون وهو أمر يجافى واقع بلادنا تماما. ولأن أحدا لم يزعم يوما أن المتدين يحرم من العمل السياسى لكن هذا شأن، وإقامة حزب على أساس دينى فى دولة متعددة الأديان شأن آخر، خاصة أن هذا الحزب يحمل منظومة متكاملة بديلة لمنظومة الدولة المدنية المعروفة، ويعلن أنه يسعى إلى إقامتها بكل الوسائل الممكنة، وهكذا وفى عبارة واحدة خلط قرضاوى أى شىء بأى شىء وطرح سؤالا لا يطرح إلا على عامة البسطاء من الناس ولا يصح أن يصدر عن الداعية الكبير.

المهم أن قرضاوى يدخل المدخل الديمقراطى من الباب الأمريكى حيث تم تشخيص أسباب العنف والإرهاب للقضاء على أسبابه التى هى فيما يقول: «تسلط بعض الناس على الشعوب وسوقها بعصا القهر وإذلال الجماهير».

لكن قرضاوى لا يريد أن يأخذ الديمقراطية كما صنعتها ظروف الإنسان وهو يبنى لنفسه كرامة على الأرض، إنما هو يخلطها بلاهوت السماء «وإلا فكيف سيكون له ولجماعته دور؟ وهم فى نظر أنفسهم ممثلو السماء؟» فيؤكد عدة مرات «أنا أقصد ديمقراطية المجتمع المسلم» كما لو

كان سكان البلاد مسلمين فقط، وكما لو كان عهد الذمة مكتوبا على القبطى المصرى فى ظل الديكتاتورية العربية التى بركت على أنفاسه وأنفاس أشقائه المسلمين بحسبانهم موالى أكثر من ألف وأربعمائة عام، ومكتوبا علينا أيضا أن نظل أهل ذمة وموالى فى الزمن المأمول الآتى.

ويشرح لنا قرضاوى ديمقراطيته الإسلامية وكيف سنمزج المنجز الإنسانى بالمنجز الإلهى بقوله: «نأخذ من الديمقراطية آلياتها فيحكم الشعب حكام يختارهم الشعب.. بدون تزوير.. ونستطيع أن نحاسبهم.. وتحدد مدة رئيس الجمهورية.. والديمقراطية هى الشورى الملزمة، لأن هناك من العلماء من يقول إن الشورى ليست ملزمة». ولا تفهم هنا سر قبول قرضاوى وإخوانه للمبدأ الديمقراطى الغربى مع الإصرار على كونه الشورى الإسلامية رغم علمه أن هذا أمر وذاك آخر ومادام إخوانهم أهل الحقيقة المطلقة وكل منهم يقدم نفسه حاملا لمشعلها فلماذا لا يتفقون أولا على إلزام الشورى للحاكم، كى لا يأتينا ذات يوم قرضاوى آخر ليحكمنا فيقول بعدم الإلزام كما قال خلفاء المسلمين من زمن أبى بكر حتى انتهاء الخلافة العثمانية.

أقول لكم سر الإصرارعلى هذا الخلط وعلى الشورى الإسلامية وهو ليس بسر، خاصة إن أفصح به لسان قرضاوى فى أكثر من زلة لسانية فصيحة أو بالأحرى فضيحة.

لأن قرضاوى وأترابه يحتسبون المشيرين «أهل الحل والعقد» هم قرضاوى ورجاله وإخوانه وأن شوراهم اليوم ملزمة للحاكم، فيقول «ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ذاك ما لا خلاف فيه/ كتابه الإسلام والعلمانية ص١٢٠». وأن عدم مشاركة أهل الدين لأهل الحكم بالمشورة الصارمة النافذة أدى إلى «الاستبداد بالرأى الذى قوض دعائم القوة والخير فى حياة المسلمين وجرأ الطغاة .. لأنهم غير ملزمين بمشورة أحد/ المرجع نفسه ١٢٢».

مع ملاحظة أن قرضاوى بطول حديثه كان يتحدث عن الديمقراطية باعتبارها الحق الحر فى اختيار الحاكم ليس إلا. ثم ينزلق قرضاوى إلى درجة صدق غير معهودة فى خطابهم المخاتل تقربا إلى الديمقراطية التى تفترض قيام التشريعات لمصالح البشر بيد البشر بغض النظر عن رأى الدين «أى دين» فى هذه التشريعات فيقول فى اعتراف عظيم الشأن: «إن السوابق التاريخية ليست ملزمة شرعا، وإذا كانت بعض أفعال النبى تدل على الإباحة والمشروعية، فإنها لا تدل على الوجوب، لذلك الخلفاء الراشدون خالفوا الرسول.. فالرسول فعل ما هو الأصلح فى زمنه وعمر

فعل ما هو الأصلح فى زمنه.. ونحن نفعل الآن ما هو الأصلح لزماننا».

الله أكبر

ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا!!

وهذا الزهوق الذى زهق كان هو إصرارهم على القدسية الكاملة التامة لفعال الصحابة والتابعين، وطرائقهم فى العيش سياسة أو اقتصادا أو مجتمعا، بل ويقدم هنا قرضاوى تنازلا مبهرا حقا عندما يتنازل عن قدسية أفعال النبى وضرورة ديمومتها كسنة محلقة بالقرآن بالضرورة، وهو ما يعنى التنازل عن قدسية القرارات لأن الأفعال لا تتم إلا بعد اتخاذ القرار بالفعل.. وهو اعتراف وتنازل عظيم تترتب عليه نتائج أعظم.. وما قدمه قرضاوى هنا من تنازل، هو ما ظل صاحب هذا القلم ينبرى له بالدليل الشرعى والقرائن الفقهية وبالقياس على فعال الصحابة والنبى أنفسهم ولحسابات مصالحنا اليوم، عبر صفحات هذه المجلة منذ عام ١٩٩٨ وحتى الآن، فكفره سادتنا المشايخ ولعنه أدعياء التقوى من أصحاب المصالح على حساب مستقبل المسلمين. لكنم أدركوا فجأة قيمة ما طرحه خلال السنوات السوالف فقاموا يؤكدون ما قال كمبدأ مشروع فى دين الإسلام، بعد أن حل المارينز بيننا ورأينا مجدهم مجدا. وكان قولى بوجوب التغير بتغير المصالح والأزمان والظروف تهمة ضمن عدد من التهم بإنكار معلوم من الدين بالضرورة ووقفت بسببها فى قفص الاتهام بطلب من سادتنا المشايخ، ثم تبين لهم اليوم أنه ليس معلوما من الدين بالضرورة وسابقا أفتوا بقتل فرج فودة فقتله الإرهابيون بفتوى وآيات، وبعد أن قتلوا ومزقوا الوطن ترويعا وتقتيلا اكتشفوا خطأهم بفتوى وآيات وأصدروا سلسلة كتب مراجعة المفاهيم. ولهذا لا يبدو لى ما يقول قرضاوى هنا سوى لون من «التقية» الإسلامية الشهيرة، وهى أن يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب. وحتى لا أبدو هنا متجنيا على فضيلته سأطلعكم معى على الثعلب وهو يروغ... عندما اتصل مشاهد لبرنامج القرضاوى معترضا على اعتراف قرضاوى بالديمقراطية، لأن فى الديمقراطية «للمخلوق أن يغير من أحكام الله إذا اقتضت الضرورة ذلك، وبتقدير المصلحة يجعلون رأى المخلوق أظهر من حكم الخالق».

السؤال شديد الحرج لمولانا، فهو شيخ إخوانجى معمم محترف معروف، وأمام خيارين أحلاهما مر، هنا بدا الخطاب القرضاوى يكشف عن زيف كل ما قال من هنيهات وأنها كانت حلاوة من طرف اللسان ليس إلا، لكسب المباراة على الطرفين، طرف الديمقراطية لسادة العالم، وطرف الإسلام لجماهير بلادنا، فقال فضيلته: «إن الديمقراطية التى أدعو إليها

هى ديمقراطية المجتمع المسلم، وله ثوابت لا يتعداها، وخطوط حمراء لا يمكن أن يتجاوزها، وثوابت لا تدخل التصويت ولا يدخلها التصويت، ولا يدخلها النقاش».

لله درك يا ديمقراطية!! لأنك مبدأ عظيم نزيه، صدرك فسيح والحريات فى قيمك هى الأقدس، يتم انتهازك عن غير إيمان ولم أزل اذكر خطيب المسجد فى أحد مساجد هولندا وهو يخاطب المسلمين اللاجئين إلى هناك يسكنون ويعالجون ويطعمون بمنح شهرية وتتم حمايتهم واحترامهم بأوقات محددة فى القنوات التليفزيونية يبثون فيها ثقافتهم ومطالبهم، يطالبهم خطيب المسجد أسكت الله له حسا بألا ينسوا أنهم فى ديار حرب، وأن الله قد سلط على هذه البلاد عقولها فاخترعت الديمقراطية التى سلطها الله عليها بدورهم لصالح المسلمين الذين سيبلغون عام ألفين وعشرين ٥١٪ من السكان بحسب نسبة التزايد العددى الحالية، حينئذ سيستغلون الديمقراطية ليأخذوا هولندا بأرضها وناسها ليحكموها بالإسلام.. ويا خراب بيتك يا أمستردام.

ومثل الخطيب العربى الهولندى ينسج قرضاوى نسجة فيذكرنا «إن الديمقراطية تعطى فرصا متكافئة للجميع».. وأننا سنأخذ «بعض» آلياتها «كى يحكم الشعب حكام يختارهم الشعب بدون تزوير».. الموضوع هو الحكم، وبعد ذلك «ما كان حكما لله ثابتا قاطعا لا يجوز للديمقراطية ولا غيرها أن تغيره مادمنا مجتمعا مسلما.. وبقية الأشياء أحكام اجتهادية، يعنى نصالح فلان أم نحاربه، نزيد الضرائب أم لا؟.. والاحتكام فى النهاية إلى تصويت الأغلبية».

وهكذا لا يبقى من الديمقراطية سوى هل نصالح أم نحارب وهل نزيد الضرائب أم لا؟ لأن المعنى هو الحكم الدين التام الشامل، لأن فقهاءنا سامحهم الله لم يتركوا شيئا فى حياة الإنسان المسلم إلا وانحشروا فيه وأدخلوه مدخل الإسلام، حتى أصبحت رؤاهم فى الإسلام وأحكامه تبدأ من النهوض فى الصباح مع السواك وتنتهى بدعاء النكاح فى المساء، ولا تصبح الديمقراطية هنا مطلبا لذاتها. بقدر ما هى الوسيلة لإثبات أن الناس بالديمقراطية ستختار حكم الدين ولن تختار الديمقراطية.

قرضاوى وإخوانه مطمئنون لنتائج الصندوق سلفا ويراهنون عليه إذا أتيحت فرص متكافئة للجميع، بفعل ديمقراطى ليس فيه من الديمقراطية سوى الصندوق، الذى يختزل الديمقراطية فى قيمة رثة اعتمادا على ثلاثة أمور:

الأول: التدين الذى يشتهر به الشرق خاصة المصريين، والذى يمكن استثماره دوما دون اعتراض الناس.

والثانى: هو سيادة رأى بذاته فى الدين على بقية الآراء منذ فجر

الخلافة فبقى وحده فى ساحة الفعل، فطبع الإسلام بوجهة نظره وقدم تاريخ المسلمين من وجهة نظره، ووضع أصول التعبد ذاتها من وجهة نظره، وفسر القرآن من وجهة نظره، واتخذ موقفه من الحديث وقدسه، وقدس البشر من الصحابة، وما كانت وجهة النظر تلك سوى لمصالح الفقيه والسلطان وضد مصالح المواطن. حتى أصبحت وجهة نظرهم من قواعد الدين وأولياته ولم تكن كذلك أبدا. كالاعتقاد فى عقيدة الكراهية الدموية «الولاء والبراء»، والاعتقاد بقتال غير المسلمين وقتلهم فى «عقيدة الجهاد»، والاعتقاد بشىء اسمه حد الردة، والاعتقاد بصلاحية أحكام انتهى زمانها وانتهت معه كأحكام فقه الرق، والمرأة.. مثلا.

والثالث: الاعتماد على ظرف تاريخى قريب تم فيه غسل عقول الناس وإضافة مزيد من قيم الكراهية والموت للإسلام عبر نافذة بن عبدالوهاب، التى حمل ريحها الإخوان والعائدون من الخليج، إضافة إلى الأزمات التى عانى منها الوطن، ودفعت بالحاكم إلى الاستغاثة بالدين للتبرير واكتساب المشروعية، خاصة فى حال الصراع مع تيارات وطنية ليبرالية أو يسارية، ومع وجود آلة الإعلام الباهرة «التلفاز» فى كل بيت، أصبحت عملية غسل العقل المصرى مهمة أكثر يسرا ونجاعة، مما تحول بالمجتمع كله نحو إسلام مظهرى السلوك قاسى المخبر كاره عنيف لا يطرق القلب ولا الروح، إضافة إلى النشاط الموازى الكثيف الذى قامت به الجماعات والجمعيات الدينية داخل الوطن لمزيد من التعبئة والحشد.

ويعتمد إخواننا على انتشار هذه الثقافة فى الوعى الجماهيرى ويصبح كل من ارتدى اليونيفورم واطلق اللحية وتحدث فى الدين مستحقا للسلطان لأنه سيكون الأدرى بشئون العباد عبر معرفته بكلام رب العباد. لذلك يريد الإخوان الصندوق وحده ينجحون فيه لمرة واحدة وبعدها يكون لكل مقام مقال.

لكن قرضاوى وهو يعامل الديمقراطية بهذه الانتهازية لأنها تتيح فرصا متكافئة أو بالأحرى متساوية للجميع، يعلم يقينا، لا يفصح عنه أن ذلك ليس من العدل فى شىء «وليس من الديمقراطية فى شىء ولا حتى من أخلاق المؤمن المتدين فى شىء، لأن بقية الأطراف من قوى المجتمع السياسية التى تم تهميشها طوال الوقت وحصارها وسد المنافذ عليها بسلاح التكفير الدينى والتخوين الوطنى، لم تجد أبدا فرصتها للوصول إلى الجماهير بعد أن استولى التيار الدينى على الإعلام جميعا. ومن ثم فإن الفرص المتساوية هنا تفترض إعطاء باقى الفصائل السياسية ثلاثة وثلاثين سنة سيطرة إعلامية بداية من زمن دولة العلم والإيمان، تم عبرها

غسل العقول بنصوص جديدة ركزت على المظهر دون المخبر، وحلت محل كلام الله وأصبحت هى الإسلام والوسيلة إلى فهم كلام الله.

وربما قنعت تلك الفصائل بالتنازل عن فارق زمن يجب أن يبدأ من يونيو ١٩٥٢، وربما تنازلت عن فارق ١٤٠٠ سنة ساد خلالها خط واحد فى فهم الدين مع عدم السماح بأى فهم آخر تحت طائلة التكفير، وربما قنعت فقط بخمس سنوات بروح ديمقراطية تسمح لكل الفصائل بالتواجد المتساوى فى الإعلام لأن الفرص المتساوية يا مولانا لا يمكن أن تكون متساوية إذا بدأ السباق وحضرتك وإخوانك تقفون على بعد عشرة أمتار من خط النهاية وتقف بقية الأطراف على بعد كيلو مترات.

ألا يشعرنا إخواننا الإخوان ومرجعهم القرضاوى وهم يطلبون صندوق انتخابات مجردا مع علمهم بهذا الواقع أنهم انتهازيون كبار أماثل، وأنهم أبدا غير صادقى النوايا، وأن الديمقراطية عندهم وسيلة لا غاية.

وفى واحدة من نوبات الحماس التى تأخذ قرضاوى حمل حملة شديدة على حكام العرب وأنظمتهم وديكتاتورية بعضهم المرهبة، وله فى ذلك كل الحق، لكن الملاحظ أن سيدنا لم يحمل ولا مرة واحدة على ولاة نعمته فى الخليج وعضد القاعدة فرع العراق وناصرها ضد الأمريكان، رغم أن عدد الجنود الأمريكان بالنسبة لعدد سكان العراق، قياسا على عددهم فى القاعدة الأمريكية بقطر بالنسبة لعدد سكان قطر، يجعل من وجودهم فى العراق زيارة سياحية ويجعل وجودهم فى قطر احتلالا. ولكن قرضاوى لم يطلب أبدا حمل السلاح ضد أمريكان قطر، بل يميل دوما لمدح أمراء البلاد وتقديم التقدير المشيخى لهم. لكنه يحمل على حكام الوطن لأن موضع الحكم هنا هو موضع النزاع. ومع الحماس غامر فقارن حال بلادنا بحال الهند وكيف أن ديمقراطيتها «أتت برئيس حكومة من طائفة السيخ وهى طائفة أقلية» ولا يلحظ قرضاوى أن ديمقراطية الهند ليس لديها خطوط حمراء ولا هوية دينية فلا هى إسلامية ولا هندوسية ولا بوذية ولا سيخية، وأظن قرضاوى لن يجد ردا بل يحتمل أنه سيغضب لو سألناه عن رأيه فى وصول مصرى وطنى مخلص مسيحى الديانة إلى الحكم بالديمقراطية؟ السؤال نفسه لا محل له مع الديمقراطية القرضاوية الإسلامية.

ثم ماذا لو قررت كل طائفة دينية أن تضع للديمقراطية خطوطا حمراء؟ ماذا يبقى من الديمقراطية؟ وإذا كانت الديمقراطية قيمة عظيمة وراقية أدركها مشايخنا مؤخرا فلماذا لا يأخذونها بكليتها لتفرز حريات وعلوما وحضارة، وليس فقط كيفية الوصول إلى كرسى السلطة.

ولكن إن قلنا «الديمقراطية بكليتها» ردوا فزعين: إذن هى العلمانية؟ ولا تدرى مم يفزعون بينما هم من لوث العلمانية وقدمها للبسطاء على أنها ضد الإسلام وأنها فجور وانحلال. نعم الديمقراطية بأسسها وقيمها هى العلمانية لكن من قال إن العلمانية كذلك سوى مشايخنا عفا الله عنهم؟ ولماذا فعلوا ذلك؟ ولماذا أصبحنا نعادى العلمانية ونستنكرها؟ حتى قال قرضاوى وعينه على الصندوق معتمدا على الوعى الجماهيرى المزيف: «مجتمعاتنا تؤمن بالإسلام، وأنا أتحدى أى شعب من الشعوب الإسلامية نعمل له استفتاء هل يحكم بالإسلام أم بغيره ونرى النتيجة».

قرضاوى يقدم العلمانية كنقيض للإسلام، رغم أنه هو نفسه يقول فى موضع آخر إن العلمانية «لا اعتراض لها على الجانب الأخلاقى فى الإسلام بل لعلها ترحب به وتدعو إليه/ كتابه الإسلام والعلمانية ١٠٣» بل إن «العلمانية لا تجحد الجانب العقدى فى الإسلام ولا تنكر على الناس أن يؤمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر انطلاقا من مبدأ مسلم به عندها هو تقرير الحرية الدينية لكل إنسان/ المرجع نفسه ٩٥» وهى أيضا «لا ترفض الإسلام باعتباره عبادة وشعائر/ نفسه ٩٣».

فأين جريمة الديمقراطية الكلية/ العلمانية فى حق الإسلام والأخلاق لتنفير الناس فيها كل هذا النفور؟ يرد قرضاوى الديمقراطى ليعود فى مراوغته من حيث أتى قائلا: «إن العلمانية لا يمكن أن تكون محايدة كما زعم بعض العلمانيين العرب، فهذا بالنسبة للإسلام مستحيل، لأن الإسلام يواجهها بشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية.. وهى لا تسلم له بهذا الشمول، فلا مفر من الصدام بينهما.

إن النصرانية قد تقبل قسمة الحياة والإنسان إلى شطرين، شطر لله وشطر لقيصر، أما الإسلام فيأبى إلا أن يواجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه وأن يصبغها بصبغته.. إن طبيعة الإسلام أن يكون قائدا لا مقودا وسيدا لا مسودا يعلو ولا يعلى/ نفس الموضع».

ولأن الذى سيحكم ليس الإسلام بل رجال من بنى الإنسان، ولأن الإخوان يقدمون أنفسهم كنواب للإسلام، ولأنه بعدما قال قرضاوى لم يبق من ديمقراطية الإخوان سوى الصندوق، وبعد الصندوق سيتم صبغ كل شىء فى الحياة برؤية الإخوان وقرارات الإخوان وتفسيرات الإخوان بحسبان ذلك أحكام الإسلام ووصاياه.. وبعدها.

لا عزاء للمصريين

٨- قرضاوى وإخوانه

كلاكيت: ثانى مرة

معلوم لدى الكافة فى أدبيات الإخوان وشعاراتهم العداء الشديد للديمقراطية وكان شهيدهم سيد قطب أبرز من وقف بصلابة ضد أى محاولة للتوفيق بين الإسلام والديمقراطية لأن كرسى سيادة الوطن ليس مؤسسات تعمل جميعا من أجل الوطن والمواطن أولا، إنما هو كرسى سيد مطلق يجلس عليه ديكتاتور يتم اختياره بالبيعة، يضمن العدالة بسلطان السيف لرعيته، يحكم مدى الحياة منعا لأى فتن، وهو المذهب السنى العتيد عبر تاريخ الخلافة الإسلامية الطويل، بغض النظر عن طريقة تنصيب الحاكم وبغض النظر عن البيعة التى كانت تؤخذ قسرا، وبغض النظر عما لاقاه المسلمون فى ظل هذا الحكم من صنوف الظلم والعذاب وانعدام العدل أو حتى الرحمة المأمور بها دينيا، هذا رغم أن الديمقراطية تعتبر هى القيمة الأسمى بين كل قيم الممارسات السلطوية، التى تمت ممارستها تحت مختلف المسميات فى تاريخ العالم كله بما فيه العالم الإسلامى وقد فحص الدكتور محمد مندوره الإخوانجى والأستاذ بجامعة الملك سعود «وهو مصرى الجنسية» الموقف بوضوح من الديمقراطية عندما كان الإخوان فى ذلك الوقت واضحى اللغة تجاه الديمقراطية وكانوا يعلمون أن الديمقراطية كلية واحدة لامجرد صندوق اقتراع، فقال -لافض فوه - شارحا مدققا: «إن الأسس التى تقوم عليها الديمقراطية هى أولا فصل الدين عن الحياة، وهى ثانيا أن الأمة مصدر التشريع والسلطات وهى التى تضع الأنظمة والتشريعات بحكم الأكثرية» وثالثا : هى تقديس الحريات الفردية وتضمنها للناس مثل حرية العقيدة وحرية الرأى وحريةالملكية والحرية الشخصية.. وهذا كله مما يخالف الإسلام جملة وتفصيلا فليس فى الإسلام فصل للدين عن الحياة، والحاكمية فى دولته لله وحده، ومصادر التشريع فيه معروفة..وليس فى الإسلام تقديس للحرية الشخصية بمفهومها الموجود فى الديمقراطية فلا يستطيع المسلم أن يغير دينه والخلاصة أن الديمقراطية ليست من الإسلام فى شىء وأنها تخالف الإسلام مخالفة صريحة لا يشك فيهاأحد وأن مفهوم الديمقراطية وجميع ما ينبنى عليه من أحكام ودساتير وما ينبثق عنها من أنظمة تتنافى جميعا مع الفكر الإسلامى / صحيفة الشرق الأوسط لندن - ١٩٨٥/٤/١٩».

لكن فى أيامنا هذه عندما يكتشف الرئيس الأمريكى جورج بوش الأبن عدم وجود أى تناقض بين الإسلام وبين الديمقراطية ولا تعلم هنا المقصود هل هو صندوق الاقتراع أم الديمقراطية الكلية فإن المرجع الفقهى الإخوانى الكبير قرضاوى يعلن بدوره عن اكتشافه الجديد فى خطبته التى ألقاها بمناسبة مؤتمر الديمقراطية والإصلاح السياسى المنعقد بقطر، فى خضم مولد مباراة الديمقراطية المفتوحة، وأن هذاالاكتشاف يتلخص فى جملته الواضحة «إن الديمقراطية هى روح الإسلام».

وإذا كانت الديمقراطية هى روح الإسلام فأهلا ومرحبا بها إذن، لكن قرضاوى يستبق النتيجة بتأكيده فى ذات الخطبة الميمونة بقوله « ولكن ديمقراطية بلاد الغرب هى حكم الشعب، أما نحن فنريد حكم الله».

وهنا يتجلى الحول التاريخى فى الخطاب الإسلامى المراوغ، الذى لا يمكن أن تخرج منه بصدق المتحدث، بقدر ماهى مخاتلة تخاطب جماهير المسلمين تدغدغ غرائزهم، وتخاطب العم سام برسالة مقتضبة تؤكد الطاعة عند اللزوم لسادة الأرض، لكنها أيضا الطاعة المراوغة التى لن تضار منها أمريكا بشىء بقدر ما ستضار بلادنا وناسنا، ولمزيد من التوضيح يقدم قرضاوى الديمقراطية كروح للإسلام بأنها أولا الشورى والنصيحة فى الدين، وهو ما يعنى أن المشيرين على الحاكم سيكونون هم محترفوا العمل السياسى الدينى، لأنهم سيكونون أهل الحل والعقد، يقدمون للحاكم الشورى الملزمة- حسبما يرى قرضاوى- وليس بيننا من احترف تسييس الدين سوى الإخوان وفروعهم الضاربة.

وبأنها ثانيا : هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «أى أن الديمقراطية هى نظام المطوع السعودى الذى تم إلغاؤه فى السعودية بأوامر أمريكية» وهكذا سيرحل بنا قرضاوى عبر الديمقراطية إلى الخلف مسافة أبعد تخلفا مما نحن فيه بوصاية على الأرواح والعقول والسلوك يقوم بها إخواننا فى القرى والنجوع لممارسة الديمقراطية على العباد.

وبأنها ثالثا: حرية النقد والتعبير،وهو ما عقب عليه الدكتور شاكر النابلسى بقوله: إنه لا القرآن ولا الأحاديث الصحيحة أو الكاذبة ولا أقوال السلف الصالح أو الطالح جاءت على ذكر كلمة الديمقراطية، لأنها قيمة دنيوية وليست قيمة دينية»، وأن هذه القيمة الدنيوية ليس فيها شىء مما يقول قرضاوى بالمرة.

ولأن القفز على كرسى الحكم أكثر حلالا من أى ديمقراطية فى الحنبلية السنية ولأن ظرف اليوم لم يعد يسمح بالوصول إلى الحكم بهذا الشكل خاصة فى منطقتنا مع وجود العم سام فى الجوار ومعه عصاه الغليظة ولأن العم سام اقترح حله بديمقراطية وحريات إنسان، تمنع الفكر الإرهابى من النمو حماية لبلاده ومنظوماتها ومصالحها ومكاسبها قبل أى مقام آخر، ولأن سادتنا الإخوان لن يتراجعواعن حلم الكرسى الأعظم فى الوطن فقد قرروا خوض المتاخ بدخول المباراة الديمقراطية، لكن كما هو واضح فيما قالواحتى الآن لا هناك ديمقراطية ولا هم يحزنون.

هنا معنيان هامان يجب الوقوف معهما: الأول هل القفز على كرسى الحكم بالفعل فى المذهب السنى أكثر حلالا من الديمقراطية من وجهة نظر الإخوان؟ والثانى ما هو الهدف النهائى للإخوان هل هو الوطن والناس وتعميق الديمقراطية أم أن المسألة فى النهاية لاتعدو «تقية» من طرف اللسان توصل إلى الكرسى بأى وسيلة ممكنة وبعدها يكون لكل شأن موقف؟

ولتأكيد المعنى الأول وأنه ليس افتراء بالمرة، ماقال بن حنبل عن الفراء: «من غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه برا كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين.. وطاعة الأمير واجبة حتى لو كان فاجرا فاسقا والثورة عليه منكر لما تجلبه من الأخطار وتعطله من مصالح الناس «محمد عمارة - الأعمال - التيارات». بل يقول ابن جماعة «إنه إن خلا الوقت عن إمام فتصدى لها من هو ليس من أهلها وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو استخلاف انعقدت بيعته ولزمت طاعته ولا يقدح فى ذلك كونه جاهلا أو فاسقا» وقد عقد الدكتور رفعت السعيد فصولا مطولة فى مقارنة بيعة المتغلب بنصوص الإخوان المعاصرة أكد فيها استمرار ذات الخط الفكرى عند الإخوان فليرجع إليها منعا للتكرار.

ومن طرائف الشيخ قرضاوى إفصاحاته الخجولة أحيانا والملتبسة أحياناأخرى دفاعا عن مذهبه ورأيه السنى، والتى تظهر أحيانا فى شكل فلتات لسانية كما فى قوله دفاعا عن نظام الحكم فى الزمن الأموى بحسبانه أملنا المقبل إن شاء الله «لاسمح الله»: «إن معاوية وبنى آمية بصفة عامة قد ظلمهم الإخباريون من رواه الحديث الإسلامى ولو كان معاوية بالسوء الذى تصوره بعض الروايات ما تنازل له عن الخلافة

راضيارجل مثل الحسن بن على رضى الله عنه، حرصا على وحدة الكلمة وحقن الدماء لهذا سمى المسلمون ذلك العام عام الجماعة بل جاء فى الحديث الشريف التنويه بموقف الحسن والثناء عليه حين قال جده صلى الله عليه وسلم إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين - الإسلام والعلمانية - ١٥٧».

وعلى هذا الموقف وهذا الكلام ملحوظات.

الأولى أشرناإليها سابقا حول موقف قرضاوى الحنبلى المناصر لسطوة الحكم حتى لو فجر فى بلاد العريان، ومطالبته هنا بالكرسى الأعظم عن طريق الديمقراطية ولامناص أن نستنتج أنه يريد أن يعود بنا إلى هذا النموذج القويم فى الحكم بعد الاستيلاء على الحكم بالصندوق العارى فى مصر المحروسة.

والثانية أنه بطول حديثهم عن الدين والسياسة لاتجد ذكرا للإنسان الفرد فى أدبياتهم كما هو واضح هنا لأن الأهم هو الجماعة لا الفرد الإنسان وهو ما تأسس مع فجر الدولة الإسلامية الأولى فى الحجاز حرصا على وحدة القبائل فى دولة مركزية من التفكك وظل شعار المسلمين من بعده «عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد» وهو نص ما خطب به الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فى المسلمين بعد مبايعته، أما مبايعته فقد تمت بناء على نصيحة والده عبدالملك له: «وادع الناس إذا مت إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا، فقل بسيفك هكذا وأشار إلى حلقه علامة على الذبح» وهكذا فالجماعة هى لزوم السلطان بالطاعة.

والثالثة: أن قرضاوى هو بسبيل تبرئة نظريته السياسية التاريخية فى الحكم مما امتلأت به من ظلم وجور وفساد يشين نفسه بالاستشهاد بالأحاديث المختلفة والمعروفة ببطلانها لدمغ الحق وإفساد التاريخ والمستقبل أمامنا. فيتخذ قرضاوى من تنازل الحسن بن على عن حقبة متفق عليها يتولى بعدها الحسن العرش «ولم يتأت له ذلك بعد أن أوعز معاويّة لزوجته بقتله بالسم، مقياسا لصلاح معاوية دون النظر لفعال معاوية نفسه وتلطخ ايديه بدماء المسلمين ومنهم الكرام البررة ولا يرى مشكلة فى اتفاق طرفين على تبادل الحكم دون وجود الناس فى المشروع أصلا، فسيعطون البيعة عن يد وهم صاغرون لذلك لاتجد الإنسان المواطن فى أى من هذه الأدبيات التاريخية ولامتداداتها عبر المذهب

السنى الحنبلى وتجديده الوهابى والإخوانى وبغض النظر عما هو معلوم عن معاوية وتاريخه كمؤسس للحلف الفقهى السلطانى السنى يشغلنا منه هنا نظريته فى الحكم والتى تتلخص فى قول خطيبه للناس وهو يأخذ البيعة فى المدينة -يثرب- لنفسه ولابنه يزيد من بعده دفعة واحدة : «أيها الناس اسمعوا وعوا: أمير المؤمنين هذا وأشار لمعاوية فإن هلك فهذا وأشار ليزيد فمن أبى فهذا وأشار إلى سيفه» فلقبه معاوية بأبلغ الخطباء.

وبالعودة إلى اللائحة التنظيمية للإخوان تجد هدف الأهداف الذى لاعلاقة له لا بالوطن ولابناس الوطن، فهم «هيئة إسلامية جامعة تعمل على إقامة دين الله فى الأرض، وقيام الدولة الإسلامية التى تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه».

وفى مبادرتهم فى مباراة الديمقراطية التى أكد عصام العريان أنها البرنامج التام الجامع المانع للإخوان نقرأ :إن لنا مهمة محددة.. هى إقامة شرع الله من منطلق إيماننا بأنه المخرج الحقيقى الفاعل لكل ما نعانى من مشكلات داخلية أو خارجية، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية.. وذلك من خلال تكوين الفرد المسلم والبيت المسلم والحكومة المسلمة، وأن هدفهم النهائى هو «هداية البشر إلى الحق.. وإنارة العالم بمبادئ الإسلام. لأنه لا أمل لدينا فى تحقيق أى تقدم.. إلا بالعودة إلى ديننا وتطبيق شرعنا» وأن ذلك كفيل بتحقيق آمال الأمة « فى حياة كريمة ونهضة شاملة وحرية وعدل ومساواة وشورى» وإن «البداية» الصحيحة يجب أن تكون من الاصلاح السياسى.. استمدادا من ارادة شعبية صحيحة حرة عبر الاقتراع الحر النزيه» وذلك بحسبان «الشعب مصدر جميع السلطات».

وهو كلام بدوره عليه كثير من الملحوظات:

أولا: أن وجود الناس فى هذا المشروع ليس للناس إنما هم فقط لإعطاء أصواتهم لله «الإخوان كده وكده» الذين سيقومون بالحل الإعجازى بإقامة شرع الله.. وبشكل سحرى يحل كل المشكلات.

ثانيا :أن الكلام يبدو لطيفا أو ظريفا ليس أكثر لأن مناقشتنا لتلك المبادرة على صفحات هذه المجلة لاتشير إلى برنامج من أى لون لامن قريب ولامن بعيد ولم يتكرم عليناالعريان ولا عاكف بأى توضيح بهذا الشأن مما يشير إلى صدقية ما قدمنا وقلنا وكذبهم فيما ادعوا دون بينات واضحة.

ثالثا: أن المدقق يلمح بسرعة التأكيد الإخوانى على البداية التى يرونها صحيحة والتى يجب أن تبدأ بصندوق الانتخابات النزيه بصوت الشعب الحر الأبى.. الخ.. الخ.. الخ!!

رابعا: أن الإخوان يعلنون بذلك أن لديهم مشروع دولة يختلف بالمرة عن نظام الدولة المدنية المعروف فى الدنيا ولدينا دولة ربانية، دولة لاعلاقة لها بأنظمتنا المعروفة والتى استوت عليها الإنسانية فى الدنيا وهو أمر ليس فقط خارج الديمقراطية بل خارج منظومة العالم المتمدن كله، وهو مشروع يحتاج الرب نفسه لإقامته حتى نخضع له رقابنا مؤمنين ولأننا لن نخضع لمشروعهم لمجرد نسبه للرب أو لدين من الأديان لأن من سيمثله فى النهاية إنسان من بيننا لن نضع رقابنا له سهلة فى مشروعه التاريخى المعروف لدينابكل ألوان الظلم والقهر والإذلال والاضطهاد.

خامسا: بعد النجاح فى صندوق الاقتراع يقومون بانهاء مهمتهم المحددة وهى إقامة شرع الله فى الأرض وبمجرد إقامته سيتحقق الصلح بين المسلمين وربهم وهو الكفيل بتدخل السماء لتحل لنامشاكلنا الداخلية والخارجية جميعا «وبلا برامج اقتصادية واجتماعية ودراسات علمية بلا وجع دماغ».

سادسا: وعندما يتم صياغة الفرد المسلم والبيت المسلم «انظر للوصاية البغيضة على الارواح كما لو كانوا مبعوثى السماء» والحكومة المسلمة فإن ذلك سيحقق آمال الأمة فى حياة كريمة ونهضة شاملة.. هكذا!!

سابعا: عندماننتهى من تجهيز بلدنا فى الداخل بعد الوصاية وغسل العقول نتحول نحو الخارج لفرض ديننا على الناس «هداية البشرية إلى الحق» دون أن تطلب منا البشرية ذلك ودون أن نفترض أن أصحاب الأديان الأخرى يرونها هى الهادية إلى الحق، المهم أن المعنى يتضمن «إسلاميا» الفكر الجهادى لنشر الدين بالغزو والفتح تنفيذا للائحتهم التنظيمية وخطواتها التكتيكية لإقامة الدولة الإسلامية وإقامة دين الله فى الأرض.

هذا بالطبع مع عدم احتساب وجود غير مسلمين فى البلاد لأن المبادرة حلت مشكلتهم بجرة قلم« لهم مالناوعليهم ما علينا» ببساطة وخفة واستخفاف بعقول الناس دون تفصيل هذه العبارة الزئبقية فى ضوء

فتاواهم التى تنفى غير المسلمين من المواطنة بل تعتبرهم طابورا خامسا داخل البلاد.

إذن هى دولة إسلامية تعتمد الديمقراطية سبيلا إلى الحكم وبعدها يحكم الإخوان منوبين عن السماء ويتم استبعاد الديمقراطية لأنها ستصطدم بخطوط الأمة الحمراء فلا حق للاختلاف فى الدولة الإسلامية لأنه سيكون اختلافا فى فهم الدين ولأن حضراتهم يرون قدسية الدين فى رأى واحد وفهم واحد فلن يبقى سوى الفهم الذى يمتلك قدرة الوجود والقضاء على غيره، وسيكون هذا القضاء سهلا لأن الرأى المختلف سيكون هو الكفر والخروج على الجماعة وليس معارضة سياسية.

كذلك لن يكون هناك حق إعلان الرأى ونشره وفق ما نرى فى تنظيم الإخوان من الداخل ومواقفه من الرأى المختلف بل وفى تاريخ الدولة الإسلامية كلها وطريقة الحوار التى كانت تنتهى قبل أن تبدأ على يد الغوغاء أو بسيف مسرور.

وبالطبع لن يكون هناك شىء اسمه حق المساواة فى الواجبات والحقوق - حقوق المواطنة-، لأن السيد غير العبد المملوك وهى أبواب فقه ثابتة لم ينظر فيها إخواننا حتى الآن بما يوافق زماننا بل يرفضون ذلك لارتباطها بآيات قرآنية تحتاج إلى إعادة قراءة أو تعطيل لأحكامها بما أباحه الشارع لكنهم لا يفعلون وستظل المرأة دون الرجل بل سيتم تبخيسها بقيمتها النصف فى الميراث وفى الأهلية وفى الشهادة وفى عدم الولاية لأنها مجرد شىء للمتعة، ومع هذا الهبوط الاضطرارى ستهبط أوضاع «الذمى» إلى حال دون الإنسانية وهو ما سبق وأوضحناه بنصوص أزهرية وفتاوى إخوانية منشورة ومعلنة.

وبالتأكيد لن تكون هناك حرية اعتقاد إزاء حد الردة الذى لم يتنازلوا عنه لحظة، رغم ما طرحه المجتهدون فى هذاالشأن من أدلة إسلامية على عدم وجود شىء اسمه حد الردة فى الإسلام ومنهم صاحب هذا القلم.

ماذا يبقى إذن من الديمقراطية فى دولة الإخوان المنتظرة؟! أو بالأحرى ماذا سيبقى من هذا الوطن؟ إن بقى لنا وطن!!

٩- من المستنير إلى المعتدل
يا وطنى لا تحزن

الشيخ فهمى هويدى الذى يستطيب وصف المفكر الإسلامى المستنير انزعج أشد الانزعاج للخبر الذى تناقلته وكالات الأنباء عن إفتاء الشيخ قرضاوى المشهور بالمفكر الإسلامى المعتدل فى نقابة الصحفيين المصرية فى ٢٠٠٤/٨/٣١ بجواز قتل الأمريكيين فى العراق دون تمييز بين عسكرى ومدنى، فكتب فى أهرام ٢٠٠٤/٩/١٤ مقالا بعنوان «إعلام الفتنة» وهو مقال يستحق المناقشة فى ضوء آراء كل من المستنير والمعتدل، خاصة مع إعطاء المستنير للمعتدل صفة فيها كثير من التجاوز على علماء الأمة ورموزها بدءاً من شيخ الأزهر وما يتلوه درجات، إذ يقول : «إن الشيخ يوسف القرضاوى هو أهم مرجع من أهل السنة فى زماننا»، وهو ما يعنى خلع الإمامة الدينية عن الأزهر ومنحها للإخوان المسلمين ممثلين فى عضوهم المرجعى قرضاوى، وهو ما يعنى أيضاً تبعية المسلمين جميعاً فى مرجعيتهم الدينية إلى الإخوان، دون أن يقدم لنا الشيخ هويدى وثائق واضحة بهذا الاختيار من جانب المسلمين السنة لقرضاوى كأهم مرجع دينى فى زماننا بهذه الصيغة الإطلاقية فى الوصف وإعطاء المناصب فى صحيفة الأهرام القومية شبه الرسمية كما توصف.

ولم يكن انزعاج المستنير من الفتوى بقدر ما كان مما زعمه تزييفاً لفتوى المرجع السنى الأعظم من قبل من سماه «إعلام الفتنة». وبأسلوب تهكمى ينعى المستنير على هذا الإعلام ما أثاره من ضجة حول فتوى قرضاوى، وأن السبب أن الأمريكيين والغربيين هم من الدرجة الأولى الممتازة فى تصنيفات البشر وليسوا أفغاناً أو عرباً أو أفارقة، ولا تعلم علام يتهكم الشيخ هويدى؟ فلو حدث فرز فعلى وتصنيف للبشر من حيث درجة ارتقائهم فسيكون الغربيون من الدرجة الأولى الممتازة قطعاً ودون حتى الحق فى الامتعاض، ناهيك عن الحق فى التهكم!! ولو أعطى هويدى فى هذاالفرز صوته لغيرهم لكان مضللا مزيفا.

وإعلام الفتنة هو تلك الصحف التى نددت بموقف قرضاوى وركزت على أمرين: «أولهما أن الرجل كشف عن حقيقة اعتداله الذى يدعيه، وأظهر للجميع وجها متطرفا وتفكيرا ارهابيا، والأمر الثانى أن تيار الاعتدال أسطورة ووهم وأنه يكتم تطرفه ويخفيه وهو منطق أريد به تأكيد أن الناشطين المسلمين جميعا إرهابيون وأنهم فى حقيقتهم ما بين

متطرف أسفر عن وجهه وكشف أوراقه، ومتطرف آخر كان أكثر حذقا ومهارة وأظهر سمت الاعتدال.

وفى هذا الكلام لون من المراوغة المعلومة لدى سادتنا السدنة والكهنة، فماذا يعنى بكلمة «الناشطين» المسلمين؟ نحن نعلم ما هو الإسلام وكيف نمارس شعائره ونخلص له ونتعبد به فهل كلنا ناشطون؟ أم يقصد الناشطين سياسيا؟ الواضح أن المقصود هنا بالناشطين خارج إطار العبادات الذين يستخدمون الدين فى غير أغراضه، وليس بيننا من يفعل ذلك سوى جماعات الإسلام السياسى وعلى رأسها جماعة الإخوان وقرضاويها، وإذا كان هويدى يقف فى نفس الخندق ناشطا مدافعا منافحا ، فهو مع سمت الاستتارة يؤكد لنا الاعتدال، وأن بين هؤلاء الناشطين فروقا بين الاعتدال والتطرف، رغم ما نراه من حال المسلمين الطيبين الذين يؤدون لله عباداته وللوطن حقوقه ويرعون قيم السماحة والأخوة الإنسانية، وأن أيامن هؤلاء لم يتحول إلى إرهابى إلا عندما «نشط» إسلاميا، المهم أن فضيلة الشيخ فهمى يؤكد حصوله على تسجيل لكلام قرضاوى، وأنه لم يجد فيه تلك الفتوى لأن نص كلام الشيخ قرضاوى حسبما أورده الشيخ هويدى هو : «إن الأمريكيين الذين جاءوا إلى العراق غزاة، ومن ثم فكلهم محاربون وقتلهم واجب ولكن التمثيل بالجثث لاتقره أخلاق الإسلام، ودستور الحرب فى الإسلام أخلاقى، وبمقتضى ذلك الدستور فينبغى ألا يقتل إلا من يقاتل، ومن ثم فكل من لايحمل السلاح ليس لنا أن نقاتله».

قرضاوى اعتبر «كل» أمريكى جاء للعراق هو محاربا دون تصنيف ولا تفريق بين من جاء صحفيا أو جاء للإغاثة الإنسانية «فكلهم محاربون وقتلهم واجب»، لكنه فى الوقت نفسه يثير ألف التباس عندما يعود فيقول «إن كل من لايحمل السلاح ليس لناأن نقاتله»، لكن يبدو أنها رسالة ذات طرفين، طرف للقاعدة فرع بغداد ولكل المسلمين، وطرف ثان للعم سام.

لكن قوله «إن دستور الحرب فى الإسلام أخلاقى» بحاجة لإعادة نظر لأنه دستور كان يليق بزمان أحداثه وحروبه فى وقت سمح بكل التجاوزات قياسا على أخلاق اليوم بعد تطورها أربعة عشر قرنا، فكان بالإمكان قتل الأسرى وكان بالإمكان الاستيلاء على الأموال والبلاد، وكان بالإمكان خطف النساء سبايا وركوبهن اغتصابا، وكان بالإمكان استعباد الصبية والأطفال أيضا، وهو كله مشروع فى أخلاق دستورنا الحربى فى زمن كانت هكذا أساليبه فى الحرب وفى بيئة قبلية بدوية كانت هكذا قيمها،

ومن ثم لا يصبح قول قرضاوى فقط هو الذى يحتاج إلى إعادة نظر، بل إن هذا الدستور الحربى هو ذاته بحاجة إلى إعادة نظر، خاصة بعد سيل الذبائح البشرية للأسرى فى العراق تحت راية الإسلام وهتاف الله أكبر، والذين يقف قرضاوى فى خندقهم ويفتى لهم ويدافع عن فتواه المستتير مولانا هويدى.

لكن ماذا عن إعلام الفتنة الذى أثار حنق هويدى وحفيظته؟

يقول لناإن كاتبا كتب «أنه منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ والإسلاميون العرب يواصلون ترويع العالم بأحداث مشابهة»، دون أن نفهم شيئا، فهل هو معترض على تسمية الأحداث بأسمائها ونسبة الجرائم لأصحابها؟ أم هو معترض على تذكيرنا بها؟ أم هو معترض على أن الكاتب عربى مسلم يجب عليه إخفاء عوراتنا وعدم فضحنا؟ ألا نكون بذلك كالأعمى بإرادته وسط عالم مبصر؟ وفتنة أخرى زعم مثيرها فيما كتب «أن الإرهاب مرض مزمن عند العرب»، فهل لدى السيد هويدى ما ينفى به أحداث الماضى وأحداث الحاضر لتكذيب الكاتب فيما كتب؟ إن تلك الأحداث لن تسعف الشيخ هويدى ويصبح الكاتب صادقا لكنه مزعج مثير للفتنة لأنه لا يتجمل بالكذب، وكاتب ثالث من إعلام الفتنة «رسم صورة بائسة للعرب المسلم بدا فيهاغبيا متعصبا وعنصريا، حتى قلت إن أى كاره للعرب والمسلمين أو حاقد عليهم إذا ما أراد أن يعزز حملته ويقوى حجته فما عليه إلا أن يترجم هذا دون أى تعليق».

المستتير يرى وجوب مخالفتنا للغرب حتى ولو زوراً، حتى ولو لوينا عنق الحقيقة للكذب على الذات وعلى الناس، للتبرؤ من الكوارث التى نفعلها بأيدينا، المستتير لايرى أن الحق متفق عليه بين الجميع وأنه معلوم ولو أخفيناه تحت ألف قناع، فهلا يرى المستتير مثلا فيما قامت به القاعدة وتقوم به غباء وتعصباعنصريا؟ أم له رأى آخر؟ وإذا كان العالم كله يتابع ذبح البشر وهم يخورون كالخراف ونزع الرؤوس أمام الكاميرات وخطف المدنيين من جنسيات بلاد تساند قضايانا فى تعصب غبى وعنصرى أكثر غباء، فما هو القول الصواب هناغير الغباء والتعصب والعنصرية؟ ولماذا يصبح من يقول هذا مثيرا للفتنة؟ أم أن العيب فى المرآة؟

وفى خلط أوراق معيب ومشين لشدة وضوحه يقول هويدى «إن أى مسلم يرتكب حماقة أو جريمة فى أى مكان بالكرة الأرضية ينسب فعله

إلى المسلمين كافة حتى لو كانت دوافعه ليس لها علاقة بعقيدته، فالشيشانيون مثلا دوافعهم فى صراعهم ضد الروس قومية بحته وليست دينية، والذى قتلوا النيباليين البوذيين هم أنفسهم الذين قتلوا الأتراك المسلمين، ولا أحد يمكنه أن يدعى أنهم بذلك كانوا يسعون لإقامة الخلافة الإسلامية، فلماذا نتهم الهوية الدينية فى كل جريمة يقترفها مسلم».

فأما عن قوله: «فأى مسلم يرتكب حماقة أو جريمة فى أى مكان بالكرة الأرضية ينسب فعله إلى المسلمين» أتساءل: إذن لمن ننسبه؟ وإذا كانت دوافع الشيشان ليست سوى قومية فلماذا يؤيد المسلمون تحديدا الشيشان من المشارق إلى المغارب؟ ولماذا يوجد مسلمون غير شيشانيين فى قيادات الشيشان العليا؟ ولماذا يقوم الشيشان بعمليات انتحارية؟ ألا يعود ذلك إلى الثقافة التى يستندون إليها؟ مثلهم فى ذلك مثلما يفعل المسلمون المتطرفون فى كافة المعمورة؟ ثم لماذا لم نسمع ضجيجا واحتجاجا على قتل النيباليين بيد المسلمين؟ هل لأنهم بوذيون؟ أما مسألة إقامة الخلافة فهو قول مجاهديك يا شيخ هويدى لاقول غيرهم، فلماذا التلبيس على الناس؟ كما أن لا أحد يتهم المسلم عندما يرتكب جريمة بأنه مسلم ولا أحد يتهم المسلمين به، فللجرائم عقوبات قانونية تطبق عليه كما تطبق على غيره من غير المسلمين، لكن التهمة تنشأ فورا عندما يقف أصحابها تحت رايات الدين ورموزه وآيات قرآنه، عندما يقتلون وفق ثقافة عنصرية طائفية ويعلنون ذلك ويؤكدون أن فعلهم بغرض تأييد الدين هنا لا يكون التعميم مخلا، ويصبح المطلوب هو إعادة النظر فى هذه الثقافة وطرحها للمناقشة الحرة وليس التستر عليها كما يريدنا هويدى أن نفعل.

ثم يضع الشيخ فهمى يده على سر الفتنة ومصدرها فى قوله: «ثمة قواسم مشتركة فى خطاب إعلام الفتنة منها مثلا أنه ينهل من مربع فكرى وسياسى واحد تقريبا، تقف رموزه على أرضية التطرف العلمانى الذى تجاوز فكرة الفصل بين الدين والدولة، وراح يضرب بقوة فى ركائز الانتماء العربى والإسلامى ويتبنى دعوة صريحة إلى التغريب الذى بات منحدرا مؤديا فى النهاية إلى الارتماء فى الأحضان الأمريكية والإسرائيلية». وبغض النظر عن الاتهام التحريضى الأخير الذى يحتاج إلى أدلة عالية الجودة قبل إرساله كلاما فى الهواء، فإن القواسم المشتركة للعلمانيين هى الحريات الفردانية وحقوق الإنسان والديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية، وهى كلها قواسم راقية المسمى كماهى راقية المعنى كما هى راقية الأهداف، كما هى نظيفة من الطائفية

والعنصرية والإرهاب والدموية، أما القواسم المشتركة فى خطاب الإرهاب فهى بدورها واحدة فاشية عنصرية طائفية دموية ضد الحريات الفردية وضد حقوق الإنسان وهو لسوء الحظ الخطاب الأكثر انتشارا فى الفكر الإسلامى من الإرهابى إلى المعتدل إلى المستنير.،

ويذكرنا الشيخ فهمى «أن أحدا لم يتحدث عن الإرهاب الأرثوذكسى حين قام الصرب بمذابحهم ضد البوسنيين المسلمين.. ولا يجرؤ أحد على أن يصف الجرائم الإسرائيلية الوحشية التى ترتكب فى الأراضى المحتلة بأنها من تجليات الإرهاب اليهودى»، والشق الأول من هذه الفقرة يتجنى على حقيقة ما حدث، لأن أهل الغرب الذى نراه مسيحياهم من كشف ما يجرى فى البوسنة، وهم من قاموا برد العدوان عنهم، وهم من يحاكمون الآن قادتهم، بينما لم نحسن نحن سوى العويل، أما الشق الثانى فهو يشير إلى اعتراف داخلى بالإرهاب، وأن هناك منافسة بين المسلمين واليهود فى هذا الميدان العريق عندهما، أو هو اعتراف بصهيونية إسلامية إزاء صهيونية يهودية، وهو ما لانقبل به كمسلمين غير ناشطين، نحب الله والرسول والوطن، ولا ننتمى لجماعات ناشطة كالإخوان تضع شعارها سيفان بينهما عبارة وأعدوا، لأننا نحب الزهور واخضرار الحقول بالعمل والعرق للإعداد أكثر من السيوف، ونعتقد أن الانتاج والتنمية والتقدم هى الوسيلة للانجاز الحضارى، لأن المعركة اليوم ليست معركة سيوف ولا مدافع فقط، إنما هى فى المقام الأول معركة وجود حضارى.

الأهم فى كل ما حدث هو أن قرضاوى بعد عودته إلى قطر سارع بعقد مؤتمر صحفى أنكر فيه فتواه الأولى، وأن ماحدث كان لونا من الالتباس فى ضبط تعريف اصطلاح «مدنى» وطالب بضبطه حتى لايحدث التباس بشأنه، ومن ثم فقد تراجع مولانا عن فتواه بقتل المدنيين الأمريكان أو الغربيين، وهو فيما يبدو ما هز مكانته ومكانه عند الإرهابيين. فعاد فى برنامج الشريعة والحياة بقناة الجزيرة يوم ٢٠/٩/٢٠٠٤ لكن ليسمح بقتل المدنيين الأسرى من غير الأمريكان لأنهم يعاونون الاحتلال، إذا كانوا سائقى شاحنات أو بائعين لسلع مطلوبة أو فنيين متخصصين فى بعض الأعمال، وقد شرع قرضاوى قتل المخطوفين المدنيين لسببين: أولهما : أنهم يعاونون الاحتلال، وثانيا أنه تتم محاكمتهم قبل ذبحهم، وهكذا أصدر قرضاوى فتواه بناء على حيثيات بأن هؤلاء يعاونون المحتل دون أى وثائق إدانة بيديه حتي يضع هذه الحيثية مبررا لقتلهم، ودون أن يقول لنا من كان القاضى ومن كان الجلاد ومن كانوا

الشهود وما هى الأدلة، وما هو النص القانونى المعول عليه ومن هو واضعه وهل القضاة عدول يستحقون مناصبهم.. الخ، وإذا كانت معاونة المحتل من مدنى تستوجب جز عنقه، فلاشك أن هذا سينطبق بالتالى على كل المسلمين الذين يعيشون فى أمريكا وإنجلتراوبقية دول التحالف، ويعملون وفق نظامهم ويقدمون هناك أجل الخدمات كما لابد أن ينطبق بالضرورة على ألوف الفلسطينيين الذين يدخلون إسرائيل للعمل من أجل القوت وهو ما لا يقبل به عاقل رشيد.

والأن ترى ماذا سيقول هويدى بعد العودة الزئبقية لقرضاوى إلى مربع الإرهاب الدموى علنا من قناة الجزيرة؟ وهل سيظل المرجع الدينى الأهم للسنة فى زماننا؟ و،هل العلاقة بين فتاوى قرضاوى وبين فقه الإخوان الدموى، وبين المرجعية الدينية الوهابية، وبين دفاع الشيخ هويدى الحار لاتفسح المكان لتأكيد قول هويدى أن الرجل كشف حقيقة اعتداله وأن الجميع داخل نفس الجبة؟

١٠- من المحتال؟

سبق وأوردنا هنا الحديث المنسوب إلى نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم بصدد معركة الخير والشر قبل القيامة، والذى يقول إن الحجر والشجر سينطق فى هذه الملحمة ينادى المسلم: «ورائى يهودى يا مسلم تعال فاقتله، إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود» ويدرس هذا الحديث طلبة العربية السعودية فى منهج التوحيد، ويضيف المؤلف هنا بذكاء معهود: إن اليهود يكثرون هذه الأيام من زراعة شجرهم (الفرقد) فى إسرائيل حتى لايفتن عليهم للمسلمين يوم المعركة الكبرى.

وقد حملت المذيعة (باربرا والترز) هذا الموضوع إلى السيد وزير خارجية هذه الدولة العربية الكبيرة وقرأت له نص الحديث، فجاءت إجابة السيد الوزير مدهشة للغاية، كانت إجابته أولا دهشة عظيمة كأنما هو يسمع به لأول مرة، ثم أتبع الدهشة بالنفى القاطع أن يكون هناك حديث نبوى يقول مثل هذا الكلام، وأكد أن هذا كلام غير صحيح إسلاميا، وأن الأمر فيه لبس، ولاشك يعود لخطأ حدث فى الكتب المدرسية.

وموقف سيدى الوزير يحمل دلالات تتضمن دروسا وعبراً نستعير بها لنقرأ الدلالات، فهو أولا ينكر حديثا لايخلو كتاب من كتب الحديث الصحيحة منه أو يكاد.، وهو بذلك إنما ينكر معلوما من الدين بالضرورة،

وهو أمر راسخ فى تاريخنا الفقهى، وله حدوده وعقوباته التى أرساها هذا الفقه، ويطبقونها علينا دون المشايخ والوزراء والسلاطين وقتما شاءوا وحيثما تمكنوا، لذلك لايمكننا قبول دهشة السيد الوزير بهذا الشأن ببساطة وخفة لأنها ليست مما يمر مر الكرام، فدهشته ليست مجرد انكار لمعلوم من الدين بالضرورة، فقد كانت دهشة استنكارية مصطنعة، دهشة تنفى وجود حديث بهذاالنص والمعنى الذى يحض على الكراهية بسبب الدين، واشتمال هذا المعنى على عداء تاريخى قديم يجب وفق أوامر الحديث المضمرة فيه أن يستمر حتى قبل قيام الساعة بقليل، ويومها يبدأ الحديث يشتغل فى الواقع فتحدث المعجزة وينطق الحجر والشجر، ماعدا الفرقد الداهية الكتوم الذى يدارى أصحابه ولا يشى بهم اخلاصاووفاء لأنه شجرهم «لاتفهم كيف؟ وهل هناك شجر ينبت لإناس بعينهم ولا ينبت لآخرين؟ ولاتعرف ما هو هذا الفرقد، فهو شىء كالعنقاء والقنطروس لامعنى له سوى إضفاء طابع الواقعية على الحكاية. فالشجر اليهودي له اسم لتأكيد صدق الحدث الذى سيحدث بغض النظر عن كونه فرقداً أم شمسقا، فكلها اسماء، المهم أن يكون للاسم غموض وهو ما يحمل معانى الاسطورة والخرافة فصيحتان وهى معانى تجاوزتها الأزمان والأيام واستبدلته بمنهج التفكير العلمى الذى لن يرى فى هذا الحديث سوى عقلية اسطورية ذهبت مع زمانها، دون أن يصدق أى عقل سليم وصاحى أن فى زماننا من يصدق ذلك حقا.

ثم إن موقف سعادة الوزير يحمل ضمنا موقفين: الأول موقف ازدراء الإسلام بسبب هذاالحديث، وهى تهمة التى طالما صادرونا وحاكمونا بسببها، لأن دهشته الاستنكارية هى ازدراء واضح، أما الموقف الثانى فهو الخجل من دينه الذى تركه وهرع هاربا يختفى تحت قناع الدهشة المصطنعة، ثم يقدم لنا نفسه بوصفه العارف بدين الإسلام الصحيح، وأن هذا الحديث ليس ضمن هذا الإسلام الصحيح الذى يعرفه، وهنا عندنا مشكلة مستمرة بلا حل فالجميع يتحدث عن الإسلام الصحيح دون أن نعرف حقا ما هو الإسلام الصحيح الذى يتفق مع أخلاق زماننا ومناهجه فى التفكير ودون أن يقدموا لنا مرة هذاالصحيح بعد أن يتفقوا عليه مرة واحدة تنهى المسألة وتوقف المهزلة.

مشكلة سيدى الوزير وكل سادتنا أدامكم الله وعافاكم سواء كنتم رجال دين أو رجال حكم تريدون الإسلام كما كان فى زمنه لتعملوا به فى زمن جاء بعده بألف وأربعمائة عام تغيرت فيها المفاهيم وكل القيم وكل العلوم وبعضها وصل فى تغيره إلى النقيض، دون أن تعترفوابيساطة بفارق الزمن

الهائل والمتغير الأحول، لقد اعترف اليهود ببساطة، واعترف المسيحيون ببساطة، وكذلك باقى الأديان، وتحول كثير مما فيها يشبه هذاالحديث إلى مجرد فولكلور عزيز عن ميراث الأجداد، فكان لهم زمنهم ولنا زماننا وكان لهم قيمهم وفهمهم لمعانى الخير والشر والحق والباطل والجمال والقبح، فما كان فعلا خيرا أصبح فعلا شراً، فمثلا لم يعد مسموحا باغتصاب النساء وأخذهم جوارى فى الحروب، وإلا واجه من يفعل ذلك العالم كله وضميره كله، ومما يخفف وطأة التنازل عن بعض مأثورنا وتركه لزمانه أن كل الأديان تخلصت مما يكبلهاعن حضور زماننا، وفى تاريخ الأمم الكثير مما يخجلون الآن منه، فاليهودية كانت تسمح بزواج المحارم كما فى زواج الأخت، وكما فى زواج النبى إبراهيم من أخته سارة، وفى زواج النبى موسى من عمته بوكابد دون أى شعور بالعار، وفى قديم كل منا حتى كأفراد ما يخجل منه لو فعله اليوم، وإلا ما معنى التعلم والتطور والارتقاء على مستوى الفرد والإنسانية؟ وبهذاالمعنى لابد أن نتجاوز حديث «خير القرون قرنى» لأن خير القرون دوما هو آخرها وأحدثها لأنه آخر ما وصلت إليه الإنسانية من رفعة علمية وخلقية، أما- أخيرها فهو الذى لم يأت بعد، ثم ينتهى سيدى الوزير بتخطيئ كتب المدارس (كتب التوحيد) المقررة فى بلاده، مؤكدا أن ذلك خطأ من واضعى الكتاب للطلاب، لكن دون محاكمة هؤلاء الذين وضعوا وألفوا هذا الأمر وفيه هذا الكره العظيم والعنف الكريه والتحريض على القتل، لأنه حديث ضد كل معانى الإنسانية. ثم إذا كان ما قال سعادة الوزير صحيحا فلماذا تستمر ذات الكتب فى فعلها فى أرواح التلاميذ الصغار حتى اليوم؟

يشبه هذا الذى حكيناه حادثة أخرى مشابهة تحدث فيها القس جيرى فالويل عن نبى الإسلام باعتباره كان رجلا مزواجا جمع عدداً كبيراً من النساء وكان بينهم طفلة فى التاسعة من عمرها «السيدة عائشة»، بينما كان هو قد بلغ الثانية والخمسين من عمره.

ويغيب عن هؤلاء الذين يهاجمون هذا الشكل من الزواج أنه كان عرفا اجتماعيا معمولا به على نطاق واسع، ولم يبدأ التباعد عن نكاح الفتاة الصغيرة إلا فى زمن قريب بحكم تطور الأعراف والتقاليد، وهو أيضا ما لابد أن يدفع مشايخنا إلى التخلى عن تمسكهم بعادات انتهت لمجرد أنها كانت فعلا نبويا. فحتى اليوم تشرع السنة زواج بنت تسع عملا بالسنة، وهو تجمد مخيف وخطر، وهو أيضا ضد القانون، المهم أن فالويل جعل المسلمين يشتاطون غضبا لينيبوا عنهم العضو الناشط فى المنظمة العربية لمحاربة التمييز العنصرى السيد حسين أبيش ليرد عليه فى برنامج كروس

فاير التليفزيونى، وما كان من مولانا أبيش إلا أن كذب هذا الكلام جملة وتفصيلا وأعتبره افتراء على الإسلام واتهاما باطلا لنبى الإسلام. رغم أن كل مسلم حتى من هو دون الحلم يعلم بالقصة ويعلم أنها صحيحة جملة وتفصيلا، وبماأن الشيء بالشيء يذكر فقد نشرت صحف الإنترنت خبرا عن المعتدل «قرضاوى الديمقراطى» لايشغلنافيه الجانب الشخصى بقدر ما يشغلنا أنه تمت مطابقة الخبر مع السنة النبوية فى زواج الصغار، والخبر يؤكد أن سيدنا قدتزوج «باسماء» التى تصغر صغرى حفيدات الديمقراطى وتفصلهما مسافة ستين عاما أو يزيد، ولم ينكر سيدنا الخبر ولم يقم بتكذيبه، كما لو أن فعله هذا فتوى وتشريع يسرى بقوانين ألف أربعمائة عام مضت لتفعل فعلها فى زماننا ثم نستحى من أنفسنا؟!

ومع التداعى استدعى حادثة أخرى هى على ذات المنوال والنسج، وكنت أحد أطراف الموقف المباشرين وذلك فى برنامج «مع نشوة» على الـ MBC، حيث كنت ضيفا على البرنامج وكان يجلس إلى يسارى مباشرة السيد نهاد عوض المصرى الأمريكى الإسلامى المشهور المسئول عن مؤسسة كير الأمريكية الإسلامية، وهى غير مؤسسة كير التى شرفنا أبطال العراق بجز عنق ناشطتهاهناك مارجريت حسن، فنحن هنا مع كير أخرى لها اهتمامات أخرى غير الخدمات الإنسانية.

كان عنوان الحلقة هو (الفوبيا إسلام) أو الخوف أو رهاب الإسلام فى أمريكا، وكانت هذه الحلقة قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

أحضر السيد نهاد عوض معه فيلماتسجيليا صنعته مؤسسة كير وعرضه علينا ليثبت لنا أن أمريكا تعادى الإسلام وتكره المسلمين، وأن المسلمين الأمريكيين يتعرضون لتمييز طائفى وتعصب عنصرى، لذلك فإن مؤسسته بحاجة للدعم المالى من المسلمين لتدافع عن مسلمى أمريكا، وقدم دليلا على نشاط كير فى أمريكا جذبا للدعم المطلوب حكاية عن كتاب بين يديه، وأن هذا الكتاب مؤلف ضد الإسلام ويتم تدريسه للطلبة الأمريكيين، وأن به اساءة شديدة لنبى الإسلام حيث يحكى الكتاب أن النبى تزوج صفية بنت حيى ابن أخطب بعد أن قتل أبيها وأخيها وزوجها وعامة عشيرتها. وأن كير رفعت دعوى قضائية كسبتها وتم حذف هذا الجزء من الكتاب، والتهبت أكف الحضور بالتصفيق!! وبالطبع المناشدة للتبرع.

مددت يدى وتناولت الكتاب ففاجأنى عنوانه، فهو «الأديان فى العالم» وليس كتابا مخصصا للإسلام، وبسرعة ألقيت نظرة على الفهرست فإذا

به عرض لكل أديان العالم كفكرة عامة فيما يبدو فى ضوء عدم تدريس شىء اسمه التربية الإسلامية أو المسيحية فى تعليمهم المدنى.

هل تشعرون معى بحجم المأساة؟ مأساتنا نحن لا مأساة الأمريكان، لأن الحدث المحذوف من الكتاب حقيقة تاريخية سجلتها مأثوراتنا الإسلامية جميعا وعلى اتفاق ودون اختلاف. ودونت أسباب الحدث وعوامله الموضوعية فى زمنه وشكل الحرب التى كانت دائرة حينذاك وقوانين الحرب التى كانت تضع نساء المهزوم سبايا للمنتصر، لكن مؤسسة كير أنكرت حدوث الحدث بالكلية،وهو بدوره إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة لارتباطه بتاريخ الدعوة وتاريخ القرآن وتاريخ التشريع الإسلامى بل والفقه الذى اختلف أهله ما بين احتساب صفية زوجة للنبى وأما للمؤمنين لإلقاء النبى بردائه عليها بعد أسرها وما بين كونها سبية وجارية لدخوله بهافى اليوم التالى لانتهاء المعركة دون أن يستبرئ رحمها، وإنكار السيد عوض والسادة كير تضعهم جميعا تحت طائلة العقوبة الإسلامية بالردة وضرورة امتثالهم للقتل بجز العنق من عرشه، وأتمنى أن يتحسس السيد عوض عنقه، لكنى متأكد أنه لن يتحسسها لأنه يعلم حقيقة ما حدث فى التاريخ الإسلامى،ويعلم أيضا أنه يزور فى التاريخ ويزور على القضاء الأمريكى أيضا بدوره، مما يجب أن يضعه تحت طائلة عقوبة هذا القضاء ويعلم أيضاأنه ضحك على ذقن الديمقراطية الأمريكية وقوانينها المحترمة بالاحتيال مستثمرا فى هذه القيم الحقوقية وبالكذب الصريح، ليشطب الحدث من الكتاب الأمريكى، إنه مرة أخرى شعور سيدى وزير الخارجية أنه الخجل وربما العار، بينماتفوق الأمريكيون باحترامهم للمسلمين ولدينهم وتصديق نصبهم واحتيالهم بشفافيةآمرت بحذف هذه الحادثة من الكتاب، بل وإدانة المؤلفين بالتعصب الطائفى، وما أبشعها فى أمريكا من تهمة!!ورغم علم كلا السيدين أنه بما يفعل إنما ينكر معلوما من الدين بالضرورة، فإنهماأيضا يعلمان أنه رغم هذا الإنكار فهو المستحب عند جماهير المؤمنين التى تحرص على استحضار الماضى دوما لكنها تضعه فى دائرة الستر،لذلك لم يغضب أحد لإنكارهما المعلوم بالضرورة لأنهماعملا بمبدأ الستر وعقيدة التقية حتى يوم التمكين إن شاء الله.

حادث رابع لا أذكر على أى قناة فضائية كان، أنكر فيه أحد المشايخ الأمريكيين وجود الرق كمبدأ مشروع ومباح فى الإسلام، لكن للاقدار لطافاتها وأفاعيلها، فبعدها بيومين افتى إمام مسجد البصرة الكبير بوهب الأسيرة المجندة الغربية أو العراقية أو المتهمة بالتعاون مع الأمريكان كسبى لآسرها ينكحها بحلال أحل من لبن الأم، وله أيضا أن يستعبدها فى العمل عملا بالقواعد الإسلامية بهذا الشأن.

أما الخامسة فهى نكتة فى حديث سمج للمستنير فهمى هويدى بأهرام ٢٠٠٤/١١/٢ الذى كتب يؤكد أن ثمة تلاعبا قد حدث فى استطلاعات الرأى بين بوش وكيرى يضيف صفحة جديدة إلى سجل الاحتيال الذى اتسمت به حملة الرئيس بوش من بدايتها. النكتة التالية أن بوش فاز وأن كيرى أول من هنأه بفوزه ولم يشكك مطلقا فى نزاهة العملية الانتخابية، اللهو المخفى فى الموضوع أننا نسقط عليهم أمراضنا فنراهم ناسا محتالين ومزورين ونحن من يتجرأ على التحدث عن الديمقراطية الأمريكية؟ ألا ترون أن المستنير لا يرى أين الاحتيال؟ المهم يستطرد المستنير مردفا: «إن تدين بوش يمثل تقاطعا غير مسبوق فى التاريخ الأمريكى، حتى إن رئاسته تعد أول تجربة فى تاريخ الولايات المتحدة تقوم على استغلال الدين لتحقيق أهداف سياسية، لاحظوا الجملة الأخيرة.. سيدنا هويدى زعلان خالص من بوش لأنه يستغل الدين لتحقيق أهداف سياسية ويطعنه بهذاالمطعن؟!

إذن على رأى سيدهم بن لادن «إليك يا ربى المشتكى» ، انتبه قارئى فرغم أن سيدنا هويدى هو مفلسف الدولة الإسلامية المنتظرة فإن الشيخ (يوسف العييرى) أفتى بشأنه قائلا: «الزنديق فهمى هويدى، أنا بأقول يجب قتله أفضل».

أنا أراهن على مثل هذا الغباء.. أراهن على غباء الدموى، وعلى انتهازيةالمستنير وعلى وصولية المعتدل فهى تربيطات مفكوكة لابد أن تنتهى بتمزيق قعضها وإلى الله المشتهى.. أراهن على أنهم سيقتلون بعضهم بعضا، وأراهن أنهم سيداهمون أصدقاء قضايانا من دول العالم بالتفجير وقطع الأعناق فسيتنفرون الدنيا كلها ضدهم.. وإلى الله المرتجى. أراهن على دفاعهم الكاذب المزور عن إسلام يريدونه كذلك لتستمر المنافع والسيادة على الناس، وتطبيقهم فى السر ما يكذبونه فى العلن كما فى الزواج السرى لقرضاوى وخالد الجندى ومحمد جبريل والسويركى بالمرة، فالكل تجار دين يتاجرون بالرضا والنور وينكحون الصبايا الحور ثم يحملون للغلابة أمثالناسيف مسرور.

قرضاوى الديمقراطى يفتى بقتال الأمريكيين فى العراق ولا يطلب من ابنه محمد ترك جامعته فى فلوريدا ليلتحق بالمجاهدين، ولا من ولده الأصغر ترك الجامعة الأمريكية بالقاهرة طلبا للشهادة، وبينما كان يطالب بمقاطعة أمريكا وإنجلترا كان له ثلاث بنات يدرسن فى إنجلترا ورابعة تدرس فى تكساس.

أعجبنى هنا قول الدكتور أحمد الربعى: «إن الشيخ قرضاوى مثل كثير من الشيوخ المتطرفين لايموتون عادة ولا يستشهدون ولا يحدث ذلك لأبنائهم الذين يتعلمون فى أحسن مدارس الغرب. فالقرضاوى الذى يعيش الرغدوالعز فى الدوحة يفتى بقتل المدنيين الأمريكيين، والأئمة الأربعة الشيعة الذين اجتمعوا فى منزل السيد السيستانى فى النجف ويعيشون تحت الاحتلال، يطالبون بعدم استخدام العنف ضد القوات الأمريكية».

اللغز هنا فى جماهير المسلمين الذين كانوا يؤكدون أن أمريكا ستغرق فى المستنقع العراقى، وفى الوقت ذاته كانوا يتكالبون على شراء الدنانير العراقية بعد الغزو، لأن دواخلهم تعلم أن العراق سيكون له شأن يرفع من قيمة عملته بالغزو، وهو خداع عظيم للنفس وكذلك على الذات وعقل مثقوب معطوب، ونفس تعانى مرضا عضالا، نشترى الدنانير العراقية استثمارا ونعطى ٩٦٪ من أصواتنا تأييدا لمجازر القاعدة فى العراق «حسب قناة الجزيرة»؟ أترون أين مصيبتنا.. مصيبتنا هى نحن، نحن البعيدون عن المجازر لا ينالنا منها شىء بل ننال الخير الوفير بالتجارة بأموال العراقيين، وماعلينا لو مات ألوف العراقيين، وما علينا لو ذبحوا الأبرياء كالنعاج، لأننانعلم أن كنزنا سيثمر أجلا أم عاجلا، أن نسبة التصويت المذكورة لصالح المجازر هى علامة على شعب لايستحق أى احترام إنسانى، ولأنها رسالة للعالم كله تجعلنا جميعا أمة معطوبة تشكيلها إنسان شرير انتهازى لا تقع عليه وحده نتيجة شره بل تلحق بالمسلمين البسطاء الذين لايفهمون ما يقول لهم أشاوسنا ومثقفونا سوى أن جز الرقاب هو الإسلام.

أما الأشد فرزا لمرارة الحلق والروح فهو موقف المصريين المثقفين ضد حكومة العراق بحسبانها حكومة عميلة للإحتلال رغم اعتراف الجامعة العربية والأمم المتحدة بها، والأشد إثارة للفزع هو عدم تحرك العاطفة المصرية المشبوبة والمعلومة تاريخيا فى شعبنا المصرى، عندما كان المصريون يذبحون على شاشات التلفزة وأحدهم يقفز بين يدى جلاديه كالدجاجة المذعورة، أمام القصاب والآخر يقطعون لسانه حتى لا ينطق بالشهادتين، وهو ما يشير إلى تمكن فيروس الإرهاب من الناس،وهى كارثة تحتاج إلى فورة إعلامية وتعليمية على طريق الاصلاح، ولدينا يا سادة ورب العزة روشتات سبق نشرها فى هذه المجلة ومازال منها رصيد عظيم لعلاج ما يحدث، جاءت بعد جهد زمان وافناء العمر والسنين فى قضية.الوطن، وقسما بالله العظيم لانريد منكم منصبا ولا نطمع فى جاه ولا حتى شكورا، إنما هو لوجه وطن عزيز يعيش فيه مواطن كريم.

نرجوكم سادة بلاد المسلمين لاتجعلونا نتصور - حاشا لله - أنكم تروجون لهذه العقلية وتحمون أصحابها لتوظفونها لخططكم تضليلا لشعوبكم وتجييشا لها لتتوافق مع ديمومة استئثاركم بشتى ألوان السلطة.

هل تتصورون ماذا يمكن أن يفعل العالم الحر وعلى رأسه أمريكا؟ إن بعض دهماء مثقفينا والمعتوهين من منظرينا يتحدثون عن أبطال الفالوجة وما فعلوا أمام أعظم دولة فى العالم، دون أن يفكر هؤلاء لحظة، لو كانوا يفكرون، أن أمريكا كانت قادرة بالضغط على زر صغير على إزالة الفالوجة من خريطة الأرض للأبد. خاصة بعد أن غادرها ٨٠٪ من المدنيين لكن الحرص على بقية أهاليها الرهائن فى الداخل دفع أمريكا لخوض معارك مواجهة من بيت لبيت ، بينما لديها من أدوات الفتك ما يقيها خسارة جندى واحد.. ثم ماذا لو كانت أدوات الفتك هذه بأيدينا نحن.. ترانا ماذا كنا فاعلين؟ هل كنا إخلاصا للسلف سنفعل فعل خالد بن الوليد فى قبائل بكر بن وائل العراقية فنذبح منهم ماشئنا ترطيبا للقلب وراحة للنفس الكارهة، أم ترانا كنا سنفعل معهم فعل سعيد بن العاص مع أهل مدينة طميسة بالإبادة التامة؟

سادتى أهلى وناسى ، سلاطين وعمائم وكاسكيتات وشعوب، إن هذا العالم الذى نحاربه ونحرض عليه ونكرهه سبق وضحى بأربعين مليون إنسان ليحمى حرياته التى لانفهمها وهم أحرص عليها من حرصنا على إسلامنا. بل إن تاريخنا يشهد أننا بعنا إسلامنا بعرض الدنيا فى أول فرصة منذ زمن الصحابة الكرام البررة الذين باعوا كماباع ابن عم الحسين الحفيد النبوى لقاء حفنة مال، لكن هؤلاء القوم يبيعون كل شىء عدا حريتهم، لقد صارعوا الشيوعية مع وجود ندية نووية وترسانة صاروخية وتكافؤ علمى حتى انتهى المعسكر الشيوعى فى النهاية، وسبق ودفعت ألمانيا لليهود على مدار عشرين سنة تعويضات هائلة، وها هى ليبياتحذو حذوها دفعا لتعويضات عظيمة ، فترى كم سندفع لضحايا البرجين عندما يبدأ الحساب؟ كلنا يعرف أنهم قد حصلواعلى حقوقهم ويعرفون كيف يحصلون عليها وأنهم على ذلك قادرون فهل من عاقل فيك يا أمة العربان؟ هل من مستمع؟ أناديكم ولا أشد على أياديكم، أناديكم علكم من سكرات اساطيركم تفيقون، لأن لكل منا أولادا نريدهم أن يعيشوا زمنا آخر وحضارة أخرى لنموت قريرى الأعين راضين عما استطعنا حجبه عنهم من شر وما أمكننا تقديمه لهم من خير.. فهل أنتم منتهون؟ أم أننا ننادى فى قوم قد التاثوا سعارا ليقتلوا ويقتلوا ولا علاج لهم سوى الفناء؟ وهو على قدرات أمريكا هين وليس بعسير؟ وهل الأسهل

للإنسانية جمعاء لكى تتفرغ لعلومها وحضارتها وتقدمها دون شعوب تأكل وتشرب على حساب الإنسانية وتستجدى قوتها من الأقدر ولا تصدر له سوى الكراهية والخراب، تراكم لو كنتم مكانهم ماذا كنتم تفعلون؟ سؤال كل منايعرف جوابه.

١١- كهنة دولة الظلم

«وقد أجمع العلماء على أن من أنكر معلوما من الدين بالضرورة.. فإنه يكفر بذلك ويمرق من الدين، وعلى الإمام أن يطلب منه التوبة والإقلاع عن ضلاله، وإلا طبقت عليه أحكام المرتدين».

هذا النص الفاشى بامتياز هو من أقوال قرضاوى فى كتابه الإسلام والعلمانية ص ١٣٤ .ورغم هذه الفاشية المتطرفة فإن قرضاوى يعلن للعالم المتحضر تمسكه بمبادىء الديمقراطية وقيمها وإيمانه بها. وهو عارف عن يقين بالأسس التحتية للبناء الديمقراطى المتمثلة فى حقوق للإنسان يجب أن يسلم بها من يقبل الديمقراطية منهجا. وأول هذه الحقوق وأهمها هو حق الاعتقاد حراً مطلق السراح من أى شروط، لأنه علاقة الإنسان بضميره حيث المساحة التى لا يمكن دخولها أو قهرها، كذلك حق الاختلاف وإعلان الرأى المختلف على الناس بكل الوسائل السلمية المتاحة والممكنة، ومع ذلك فإن قرضاوى الديمقراطى يقرر علينا شيئا اسمه حد الردة، وهو المسمى والمعنى والشكل والمحتوى الذى لا يعرفه صحيح الإسلام البكر، ولا وجود له فى دين المسلمين حتى وفاة نبيهم وانقطاع الوحى. ومن العبارة القرضاوية لا يطبق هذا الحد فقط على من قرر وفق حق الاعتقاد الحر أن يخرج من الإسلام إلى ما يقبله قلبه ويرتاح إليه ضميره فى دين آخر أو إلى لا شىء، لا فرق، بل إنه يطبق بالأساس على المسلم الذى يلتزم أوامر ونواهى دينه ويحترم هذا الدين ويرجو له السلامة، لكنه يختلف مع سدنة الدين الذين عينوا أنفسهم كهنة للمسلمين وسموا أنفسهم بالعلماء دون وثائق ثبوتية تفيد بموافقة المسلمين على هذا التعيين، خاصة إذا كان هذا الاختلاف متعلقا بفهم شأن من شئون الإسلام التى قررها السدنة وليس الله على العباد، لأنهم قرروا فهمهم للنصوص المقدسة فهما وحيداً هو الصح المطلق وعداه باطل مطلق، وتكون أى محاولة تفكير أو إعادة فهم أو إعلان رأى جديد فى الشأن الدينى سيكون خروجا على المستقر عبر تاريخنا بغض النظر عن كون هذا المستقر من صلب دين المسلمين، أو عن كونه إضافات بشرية من نوع

مكسبات الطعم واللون والرائحة المضافة، لصالح فئات دون فئات، ولمصالح دنيوية محض، تحولت بالتقادم إلى مقدسات مضافة إلى الإسلام البكر الأول.

ومن ثم يتم دمغ أى محاولة فكرية جديدة فى قراءة النصوص بالمروق والزيغ على القاعدة التى يقولون إنها إسلامية « الخروج عن معلوم من الدين بالضرورة»، رغم أنها ليست بقاعدة وليست بإسلامية. ووفق هذه القاعدة المبتكرة فى زمن دولة الظلم الإسلامية تصبح عقوبة التفكير بفهم جديد أو إعلان رأى مختلف هى الموت!!

لقد جمع قرضاوى فى هذه العبارة كل مقومات الفاشية الإسلامية دفعة واحدة، فى كتاب لا يقرأه إلا المهتم بالكتاب القرضاوى، ومن ثم فهو يعلن لقرائه هؤلاء التزامه بقواعدهم، لكنه على الجانب الآخر يعلن لنا من دولة قطر تحت أزيز الطائرات العم سام ونعال جنود المارينز إيمانه التام واليقينى بقيم العم سام، ولأن وجود هذه القوة العظمى فى منطقتنا لم يعد سامحا بأى مغامرات للوصول إلى الكرسى الأعظم، ولا بأى أشكال انقلابية، ولم يعد ممكنا سوى سلوك الطرح الأمريكى بقبول الديمقراطية لأنها أصبحت من الآن السبيل الوحيدة والأقوم للوصول إلى الكرسى الكبير فى الوطن.

لكن عبارة قرضاوى هنا مع موقفه المعلن للديمقراطية وأهلها تكشف عن الوجه الحقيقى للفاشية الإسلامية، حتى لو أختفى هذا الوجه وراء ألف قناع، وهو انكشاف يشير إلى مساحة من الضمير الردىء والتقية الخبيثة فى إخواننا الإخوان ورجلهم المقدم قرضاوى، الذى هو مرجعية الجميع ممن يسجل موقفه بالقلم تقية إلى من يسجل موقفه بالرشاش صراحة. وقد سبق لصاحب هذا القلم ولمفكرين آخرين أن قدموا أدلتهم الشرعية الدامغة على عدم وجود شىء فى دين المسلمين اسمه حد الردة (ارجع لكتابنا شكراً بن لادن من ص ١٩٧). ورغم ذلك فإن قرضاوى وكل القرضاويين يصرون على إدخال الإسلام ما ليس فيه، وهو موقف قد يبدو فى ظاهره غير مفهوم إذا كانوا يطلبون الإسلام وربه وليس متاع الدنيا ومكاسبها، لكنه سيكون مفهوما تماما لو كان الغرض هو هذا المتاع تحديدا أو تلك المكاسب بالذات، خاصة أن هذه المكاسب ستكون من اردأ ألوان المكاسب واسوأها دينا وخلقا، لأنها ستكون عائد التجارة بديننا وتزييفه على المسلمين البسطاء الطيبين، طلبا لمكاسب وعوائد وبلهنية عظيمة عاش فيها فقهاء دولة الظلم والطغيان طوال عصورها، فكانوا الكاسب العظيم من التجارة بالله وبالناس لأنهم دوما كانوا اللاعب الأوحد فى الساحة.

إذن قرضاوى يقرر علينا حد الردة وهو الحد الذى يشير إلى عدم الإيمان بأبسط حقوق الإنسان ناهيك عن بقية الحقوق التى تفترضها الديمقراطية مثل إبداء الرأى المختلف. وهو أيضا الممنوع قرضاويا إذا تعلق بشأن إسلامى مستقر. رغم أن هذا المستقر بكل كتبه التى تملأ أرفف المكتبة الإسلامية هو إضافات بشرية لا علاقة لها بالسماء، وبالذات هذا الذى يسميه حد الردة الذى لم يعرفه الإسلام والمسلمون إلا زمن الخليفة الأول أبى بكر، وذلك لشأن سياسى تاريخى معلوم لكافة من اطلع ولو يسيراً على تاريخ تلك الفترة فى جزيرة العرب، وتم وضعه لتحقيق شأن سياسى لصالح خلافة أبى بكر وبهدف القضاء على المعارضين لخلافته باسم الإسلام، والإسلام مما حدث برىء، ويربطون حد الردة بقاعدة الخروج عن معلوم من الدين بالضرورة الذى هو بدوره قاعدة فقهية بشرية لا علاقة لها بزمن النبوة، خاصة أن هذا المعلوم بالضرورة شىء مطاطى يتسع لكل التهم الممكنة والتى تبدأ عادة بطاعة أولى الأمر منا. وأولو الأمر هم حلف السلطان والفقهاء فى الدولة الإسلامية، وهو حلف يقوم على مبدأ يقوله قرضاوى فصيحا «ومن لا يستشير أهل العلم والدين من الحكام فعزله واجب، ذاك مالا خلاف عليه ص ١٢٠».

ومن قبيل التهم المعرفة بالخروج على هذا المعلوم بالضرورة ما جاء عند الإخوانجى الأشهر السيد سابق فى كتابه فقه السنة، ألا وهى «إنكار رؤية الله يوم القيامة» لذلك فمن أراد أن يقرأ نصوص القرآن بتأويل يترفع بالله إلى مستوى كماله فلا ينزله منزلة الحس المرئى وينكر عليه التجسد لما فيه من نقص، يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة عند السدنة الكهنة. ويتضح هنا مدى الاتجار بالدين استقواء بالسياسة حيث فيها تبادل المنافع التحالفية مع السلطان، إذ إن الإصرار على تجسيد الله هو مذهب اهل السنة وحدهم خاصة فرعه الحنبلى وتجديده الوهابى. وهو ما تخالفهم فيه معظم فرق المسلمين طوال تاريخ المسلمين، ولكن لأن المذهب السنى هو كان رفيق السلطان فى دولة الإسلام وهو الذى انتصر على بقية المذاهب بانتصاره للسلطان ومنطق القوة، فقد قرر أن يجعل من رأيه فى شأن كهذا دينا وعقيدة مفروضة من ينكرها يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة.

انظر فى ذات الكتاب مثالا آخر لمثل تلك الإنكارات المؤدية إلى الذبح، أن ينكر المسلم الصراط الذى هو شعرة كالسيف، يتسع للمؤمن ويحتد لغيره فيسقط فى الجحيم. وهى قصة تنكرها كثير من الفرق والتفاسير

لعدم اتساقها مع باقى تفاصيل مواقف مشهد البعث والحساب حسب الرؤية الإسلامية. لكن إنكار هذا الشأن الفسيفسائى فى مشهد كبير من مشاهد لم تأت بعد، بل إنها من شئون الغيب المجهول، هذا الإنكار يؤدى بالمسلم إلى الموت. رغم أن المسلمين لم يتفقوا يوما على التسليم بهذه الروايات اللهم إلا السنة الحنبلية المنتصرة وحدها، والتى فرضت على المسلمين مفاهيمها دينا. ثم يظل السؤال يلح على الإصرار على حد رهيب كحد الردة وهو ليس من الدين فى شيء؟ بالطبع لابد من العودة هنا إلى زمن حرب دولة المسلمين فى الزمن البكرى للمعارضين الذين منعوا الزكاة عن العاصمة وتم وصمهم بالردة. ولأن أبا بكر أمر بقتالهم وقتلهم فكان الاستنتاج هو أن تكون عقوبة الردة هى القتل نسبة للفعل البكرى ومن الطبيعى أن يتساءل المسلم: هل كان أبو بكر شخصا مقدسا يمكن أن يضع للمسلمين شرائع جديدة وحدوداً جديدة؟ ألا يعنى ذلك أن الرسول قد قصر فى تبليغ كامل رسالته فجاء بعده من يستكملها، وهو مالا يستقيم مع مفهوم أى رساله، وبالطبع لا يستقيم بالمرة مع قرار القرآن بختم اتصال السماء بالأرض بوفاة النبى الخاتم.

هنا كانت مهمة فقهاء الحلف لتسويغ الفعل البكرى بعد أن أثبت فعاليته فى قمع المعارضة بالسيف، وضرورة التسويغ لهذا الفعل الكبير كانت ضرورة لازمة لتأكيد شرعية الخليفة فى الحكم رغم هذا الفعل الذى رفض فيه مشورة كبار الصحابة وعلى رأسهم ابن الخطاب، وحارب مسلمين لم يتنكروا لإسلامهم وقاتلهم وقتلهم ومثل بهم. هنا لم يكن باليد من حل سوى تقديس شخص الخليفة حتى تتقدس أفعاله ويصبح فعله شريعة إسلامية. وهنا يقول قرضاوى بحسبانه استمراراً لذات المدرسة السياسية الإسلامية «فما أجمله القرآن من أمور بينته السنة النبوية وأكدته سنة الراشدين المهديين، الذين اعتبرت مواقفهم فى فهم الإسلام وتطبيقه من السنن الواجب اتباعها لأنهم أقرب الناس إلى مدرسة النبوة ١٨، ١٩» وهو ما يعنى تقديس أشخاص الراشدين الأربعة، ومن ثم تقديس فعالهم التى تحولت إلى شرائع وحدود أضيفت للإسلام وتم تقديسها، ومن ثم تصبح مصادرالإسلام لدى حضرات الكهنة هى القرآن وسنة نبيه وسنة الراشدين المهديين؟! وليس هذا فقط بل سنة الكهنة بدورهم الذين قاموا باستثمار الوضع فى إمكانية الإضافة لدين المسلمين فأضافوا بدورهم وجعلوا من فهمهم وتفسيرهم الذى تراكم على مر الأزمان إسلاما آخر غير ما بدأ. فالمسكوت عنه هنا فى مصادر الإسلام مصدر رابع هو سنة الكهنة. وهكذا توطد الحلف عبر التاريخ ليعطى لدولة الإسلام

شروط قيامها الشرعية، وينعم الطرفان بنعيم الدنيا، وحسب تفاسيرهم أيضا هم أول من سينعم بنعيم الآخرة، أما نحن وباقى خلق الله من المسلمين فلنا الصبر فى الدنيا وربما فى الآخرة أيضا، ودون سلوان بالتأكيد.

وليس غريبا على خطابهم المخاتل مع علمهم بتاريخ دولتهم الإسلامية التى يتغنون بها ويريدون استعادتها، رغم كل ما حدث فيها من مظالم واهوال، أن يقول لنا قرضاوى عسى الغناء يعيدها «إن المسلمين التزموا بالشريعة قرونا طويلة، فاستطاعوا أن يقيموا دولة العدل والإحسان، وأن يشيدوا حضارة العلم والإيمان، وأن ينشروا الإسلام فى الآفاق فى فارس والروم ومصر/ ١٤٤».

ويشهد الله أن كل كلمة قالها فضيلته هنا هى زور وبهتان وتزوير على المسلمين الطيبين المصدقين لما يقوله الشيخ، فقط من أجل تجييش الناس طلبا لعودة هذه الدولة، فلاهى التزمت خلال تاريخها الطويل بالشريعة، بل ولا من فجرها مع حروب الردة، ولا هى أقامت دولة العدل والإحسان، ولا هى أقامت حضارة، فالحضارات لو سقطت تبقى منجزاتها مستمرة وفاعلة، لكنها فقط ومضت ومضة أو ومضتين فى زمن خلفاء مستنيرين كالمأمون وليس بسبب سادتنا الفقهاء ولا لأن الدولة كانت إسلامية، إنما لتفاعل ثقافات شعوب الحضارات المفتوحة، وهو ما تشهد عليه إضافات العرب لتلك العلوم التى كانت نقلاً وترجمة، أما الإضافات الحقيقية فكانت من غير بنى يعرب. ولم يحدث ذلك لأن الشريعة كانت مطبقة، لأنها لم تكن مطبقة، ولأن الدولة لم تكن دولة العدل والإحسان بل دولة الظلم والطغيان والقهر لآدمية الإنسان وإذلال كرامة الناس والشعوب المقهورة منذ بدء الفتوحات حتى سقوط آل عثمان.

فإن واجه قرضاوى هذه المعضلة صاغ اعترافه باللغة المراوغة القائلة: «وأنا لا أنكر أن هناك من أساء إلى الشريعة على امتداد التاريخ (لاحظ: على امتداد التاريخ هذا) فهما وعملا، لكن هذا ليس ذنب الشريعة فهى منه براء/ ١٤٥».

جميل... يعنى الشأن شأن بشر حكموا بشراً بالظلم والقهر باسم الشريعة، وهكذا كانت الشريعة مطبقة، وهكذا كانت الشريعة بريئة، فمن المسئول عما حدث للعباد فى دولة الإسلام الذهبية، يكرر قرضاوى: «إن اخطاء المسلمين وانحرافاتهم على مدار التاريخ (لاحظ مرة اخرى على مدار التاريخ) إثمها على أصحابها، ولا يحتمل الإسلام وزر شىء منها/ ٢٣».

جميل مرة أخرى، لكن هل هكذا تكون الدولة الإسلامية المطلوب استعادتها دولة العدل والإحسان؟ وهل هكذا تم رد الحقوق والمظالم لأصحابها؟ قرضاوى مشغول بالدفاع عن الشريعة وليس الناس ، لأن أسلافه فى الوظيفية كانوا هم القائمين عليها. أما لو كان الإخلاص هو المقصد فلابد أن يلحق قرضاوى اعترافه باعتراف آخر: بأنها كانت دولة الظلم والطغيان وليس العدل والإحسان، وأن عليه وعلى أمثاله لكى يجدوا احتراما بين الناس أن يعلنوا هذه الاخطاء ويعتذروا لكل الأبرياء فى تاريخنا وتاريخ من مسهم شرنا فى الدنيا، اعتذاراً تاريخيا يجمعون عليه، بدلا من خطابهم المراوغ المخاتل عن دولة العدل والإحسان التى امتلأت ظلما وجوراً بتعبير عمر بن عبد العزيز لأنها طبقت الشريعة.. لكن الشريعة من ذلك براء؟!!

ابدأوا بالاعتذار أولا كخطوة تقربكم من الصدق يا سادة عما حدث لبنى يربوع على يد خالد بن الوليد لعلكم ترحمون. اعتذروا يا سادة عما حدث من مجازر ومحارق فى فتوح العراق وفلسطين ومصر والشام مع ذل الرجال بهتك عرض النساء. لكن مال إخواننا مشايخ والإخوان وظلم العباد وقهر الرجال وذل النساء المذبوحات على موائد السبى بالاغتصاب العلنى مادام كل شىء بالنسبة للفقيه على ما يرام وكل أهدافه ومصالحه متحققة، أنظر ما يقوله إخوانجى آخر هو الشيخ محمد الغزالى فى كتابه مائة سؤال عن الإسلام: «إن الحلفاء والملوك الذين ولوا أمر المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا ولاءهم للإسلام.. واستأنفوا الجهاد الخارجى، وتركوا للفقهاء حرية الحركة.. وأن العلم الدينى مضى فى طريقه يوسع الآفاق ويربى الجماهير ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية «ج ٢ / ٣٥٢، ٣٥٣ (لاحظ مسألة: من الناحية النظرية تلك). وهكذا عند سادتنا لا مشكلة فى دولة المسلمين، لأنها وإن حكمها خلفاء غير شرعيين وبغير حتى شريعة الإسلام إلا أن هؤلاء الخلفاء قد أعلنوا ولاءهم للإسلام، أى ولاءهم لسنة الإسلام.. أى نسبة المذهب السنى، فماذا نريد أكثر من هذا؟ ثم إنهم أستأنفوا الجهاد الخارجى.. يعنى مزيدا من الذبح والقتل للمسلمين وغير المسلمين لكى يصب نهر الغنائم فى قصر الخليفة ذهبا وفضة.. فماذا نريد أكثر من ذلك مجداً وسؤددا بين الأمم؟ ثم إن هؤلاء الحكام الظلمة الفسقة الفجرة تركوا لرجال الدين حرية الحركة.. وهو بالطبع الغرض والمشتهى.. فهل بعد ذلك النظام السياسى الجميل نظام؟ لا، بل إن هذا النظام سمح للإسلام أن يمضى فى تربية الجماهير على يد رجال الدين ويقيم على الناس وصاية

دولة الظلم بكل التبريرات الدينية الممكنة. أما الدين فى ذاته فقد امكن تقرير حقائقه ولكن فقط من الناحية النظرية!!!

أبشروا يا مسلمين

هذه دولتكم المرتجاة المنتظرة وهذا مكانكم فيها ومكان دينكم فيها، فأنتم ودينكم موجودون نظريا فلا أحد يأمن على نفسه من الاختفاء من الوجود بدون سبب، فى دولة الإسلام والشريعة ويسمونها «الدولة الإسلامية» وما أكثر ما ظلمنا الإسلام.

أترون أين يريد سادتنا السدنة الكهنة أن يأخذونا؟

وهل ترون مدى صدقهم فى إعلان ديمقراطيتهم؟

المشكلة أنه إذا كان ذلك قد حدث وانتهى فى أزمنة مخيفة ماضية سلكت المسلمين فى سكة الندامة فانتهى بهم الحال إلى ما هم فيه، فإن التفكير، مجرد التفكير فى استعادة هذه الدولة غير المأسوف عليها، فهو ما يسلكنا حتما فى سكة (إللى يروح ما يرجعشى)!!

١٢- مدينة قرضاوى الفاضلة

قرضاوى تمكن من تأسيس مكان متميز له فى الفكر الإسلامى المعاصر بمجموعة ضخمة من الأعمال المكتوبة إضافة إلى نشاطه الكثيف فى الفضائيات العربية، ووجوده فى جميع المؤتمرات المحلية والدولية مرجعا أعلى، ومستشارا لبعض حكام الخليج وأثار القرضاوى أكثر من مرة جدلا وصخبا بسبب ما يطرح من فتاوى كما فى فتواه بشأن زواج المسيار وموقفه من مسألة الحجاب فى فرنسا واستمرار الزوجة المسلمة تحت زوجها المسيحى، إلى ما كان أكثر إثارة للصخب وهو إعلانه بعد ١١ سبتمبر وحضور القوة الأمريكية إلى منطقتنا بأهداف علنية إعلان الإيمان بالديمقراطية على التزامن والترافق مع مبادرة الإخوان بذات الخصوص فى مصر، إلى فتواه بقتل أى غربى عسكرى فى العراق دون قطر بالطبع حيث أكبر قاعدة أمريكية ثم فتواه بجواز جز رؤوس المدنيين عراقيين أو غير عراقيين أو تفجيرهم بغض النظر عمن يقتله التفجير من امرأة أو رجل أو طفل مسلم أو شيعى أو سنى، مسيحى أو بوذى أو أشورى أو كلدانى إنجليزى أو طليانى أو إسبانى أسود أو أبيض أو أصفر لافرق ماداموا من المتعاونين مع الاحتلال الأمريكى للعراق، كالسباك وكسائق الشاحنة والكهربائى أو الحمال الذين يطلبون لقمة العيش بالعمل والعرق

ويرى أن ذبحهم حلال زلال ثقة فى إيمان القصاب وقدرته على اصدار الاحكام العادلة بشأنهم لذلك لاشك فى إثم الضحية التى استحقت الذبح.. ألا ينظر قرضاوى إلى يديه، ألم يفزع مرة من دم الأبرياء يلطخها، ألم ير الدم على مائدته وهو يتناول طعامه السمين مرة؟ ألم يذكر مرة شبابناالذين غرر بهم ليذهبوا ويخسروا حياتهم ممزقين أشلاء فى عمليات انتحارية بينما هو مستمر على شاشات التلفزة يفتى.

ثم مؤخرافى حلقة الأسبوع الماضى على كرسيه المعتاد فى قناة الجزيرة قال فضيلته كلاما كثيرا يستحق المناقشة، ومما قال إن الأمريكان قد بدأوا حشدهم ضد الإسلام قبل أحداث ١١ سبتمبر «وأنهم رشحوا الإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفيتى عدوا بديلا يجب أن تتوجه إليه مشاعر التعبئة بالكره».

والعارف بمنظومة الحياة الغربية فى المجتمعات الحرة لابد أن يجد الشيخ بعيدا بعداً سحيقا عن فهم هذه المنظومة التى لاتعمل وفق عواطف الحب والكراهية، ولا تدفع جيوشها لقتل مواطنيها بدوافع الكراهية، ولا تدفع بهم أيضا حبا فى أحد، بل هى فلسفة المنفعة البحتة، المصلحة وحدها وفى المطلق، نحن يا شيخ من يفكر بعواطفه نحن اليوم وحدنا من لا يستخدم عقله بل يستخدم شيئا غامضا متقلبا اسمه العواطف، لازلنا نعيش الزمن الكلاسيكى ، زمن حرب داحس والغبراء، زمن تضحية حاتم الطائى بحبه لفرسه فذبحه لضيفه إعلاء لقيمة الكرم، زمن حرب قبائل بكر بن وائل ضد الفرس أنفمة وكبرياء لإهانة كسرى لابن النعمان ملك الحيرة، ذلك كان زمان واليوم زمن آخر، ذلك كان منهجا واليوم منهج أخر لايعرفه ولا يفهمه، أما نحن فنريد من زمن اليوم أن يتعامل معنا بقواعد زمن مضى فتنعدم لدينا الرؤية ونفقد لغة الكلام المفهومة فنتحدث ونحن بلا أى غطاء من أى قوة عن حقوقنا التى لن نتنازل عنها لأنها حقوق دينية وتاريخية، دون أن نفهم أن الحق بدون قوة تسنده هو الباطل نفسه، وأن قواعد اليوم ليست بما تملك من حق لكن بقدر ما تستحق، أصبحت القاعدة هى الاستحقاق لا الحقوق، وفى مركز التخلف نقبع بثقلنا بين العالمين ثم نعلن إصرارنا على الولاء والبراء بموالاة ومحبة المسلم وحده حتى لو كان محمد العبيط أو حسين الأكتع، وكراهية غير المسلم والتبرؤ منه حتى لو كان اينشتين أو إديسون.

إن أمريكا يا مولانا لم تقم قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بحملة تعبئة لكراهية الإسلام والمسلمين بل نحن من نكرههم منذ الزمن الناصرى المأسوف عليه إلى الزمن الإسلامى الذى يجود بآخر أنفاسه هذه الأيام، وطوال ذلك

الزمن وصلت الكراهية حدا جعلت من كراهية أمريكا دليلا على وطنية المواطن، دون أن تفهم كيف تمارس كل هذه الكراهية بينما أيدينا تمتد بأخذ المعونة من الأمريكان مليارات؟ أليس ذلك على المستوى الأخلاقى لونا من تدنى القيم، وعلى المستوى الدينى دناءة فى السلوك؟

مولانا يصرف المسلمين عن مواجهة الحقيقة المؤلمة وهى أنه هو وأمثاله متهمون بأنهم أساتذة مدرسة الإرهاب ضد الإنسانية، مولانايصرفنا عما ارتكبت أيدى السفهاء منا فى ١١ سبتمبر إلى فكرة كراهية أمريكا لنا قبل هذا التاريخ لذلك استحقت الفعل الكارثة عقوبة لها على كراهيتنا.

مولانا يصرفناعن ضرورة البدء بالتعامل العلمى مع نتائج ١١ سبتمبر، وأن العمل العلمى لايجيده مشايخنا ولا يعرفونه والمعنى هو خروجهم من الفعل المترتب على ١١ سبتمبر فى عالمنا. أولا لأنهم كانوا مدرسة تفريخ الإرهاب، وثانيا لأن نتائج ما حدث بدأت بالحدوث ومستمرة بالحدوث وستحدث وأنه لا مفر لنا كمواطنين صالحين من البدء بالتعامل مع هذه النتائج برؤية علمية صارمة لاعلاقة لها بالدين ولاحاجة لها بالمشايخ. وأن مخاطرعدم التعامل العلمى المدروس مع ما سيحدث ستكون الزوال من خريطة التاريخ، أو التحول لكائنات أدنى فى سلم التطور يمكن استخدامها فى العمل البدنى الرخيص. إن صرف النظر إلى الدين ورجاله يخرج بنا من سكة الندامة إلى سكة اللى يروح ما يرجعش ويجعل مساحة الفعل فى منطقتنا لأمريكا وإسرائيل وحدهما ليفعلا فى واقعنا ونحن حسبما يطلب منا قرضاوى فى دعاء قنوت يسمى «قنوت النوازل.. يعنى حينما تنزل بالمسلمين نازلة نقنت فى الصلوات وندعو على أعداء الإسلام وأن يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وأن ينصر الإخوة المجاهدين وأن يفك أسر المأسورين». ومن ثم لن يبقى فى واقع الفعل سوى أمريكا وإسرائيل بينما نحن فى دعاء القنوت.. وفوق هذا وبينما مولانا قانت يرفض أى تحرك إيجابى محلى للجدل مع نتائج سبتمبر محليا ودوليا لاحتواء نتائجه السلبية واستثمار نتائجه الايجابيةويهبط على الديمقراطية التى لم نعرفها إلا من الغرب هبوطاخاطفا ينتقى صندوق الاقتراع وحده دون أسس الديمقراطية ستارا واقيا لتاريخه وتاريخ رفاقه أساتذة مدرسة الإرهاب الدولى ومرجعية هذا الإرهاب الدينية والتى على فتاواها يتحرك الإرهاب ويذبح ويفجر ويقتل، يأخذ الديمقراطية ويرفض أهلها وأصحابها أن يكون لهم أى وجود.

ومن ثم يشن حملة على الليبراليين أو العلمانيين أو الحداثيين الجدد كماسار الاصطلاح فيتهمهم بأنهم عملاء للأمريكان. أنظر يا مؤمن

شيخك فى جوار وحمى أكبر قاعدة أمريكية فى الشرق لم يشر يوما إليها بكلمة ويتهم مفكرى الوطن بالعمالة لأمريكا... تأمل يا مسلم!!

ثم يقول إن الأمريكان «يريدون أن يعتمدوا على هؤلاء الحداثيين والعلمانيين وأن يولوهم قيادة الأمة، وأن يضخموهم وأن يفتحوا لهم المجالات فى الإعلام والتعليم.. ويريدون أن يصنعوا منهم شيئا».

ثم يوجه الخطاب لأمريكا شامتا «ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا بهؤلاء لأن هؤلاء مرفوضون من المجتمعات الإسلامية»، تعالوا نفهم، دعاة الديمقراطية الليبرالية الكاملة هم عملاء لأمريكا لأن قرضاوى لايريد الديمقراطية الكلية الليبرالية العلمانية أى بحقوقها وقوانينها، يريد فقط صندوق الاقتراع وحده لهذا لامانع لديه من تشويه شرفاء الوطن وتلويثهم الذين يؤكدون على الحقوق قبل الصندوق ويتهمهم بالعمالة ، بينما قرضاوى وبطانته هم عملاء تاريخيون للسلاطين وعملاء تاريخيون لمصالحهم حتى لو كانت ضد مصالح الشعوب وعملاء تاريخيون لتاريخ مضى وانقبر، وعملاء لكل ما هو ضد الحقوق و الحريات، قرضاوى يتعامل مع الليبرالية كما لو كانت جماعة أو فرقة دينية، بينماهم فرادى لايعرفون بعضهم بعضا لأن هكذا الليبرالية هى الحرية فى المطلق لاتعرف الفريق والجماعة، هى مجموعة قيم ومبادئ يمكنك أنت أن تعتنقها أو غيرك. والليبراليون لايطلبون التسلط على الناس فى حماية أمريكا إنما هم يريدون أسلم الطرق لمنع الصراع والوصول إلى صيغة يتفق حولها الجميع لشكل الدولة والحكم وتراعى كل تفاصيل المجتمع بأديانه ومذاهبه ومعتقداته دون تمييز، هم يطلبونها للناس لا لأنفسهم يطلبون أن يتمكن الشعب من الاختيار الحر عن وعى حقيقى وغير مزيف وغير وطنى بل قبلى مضحوك عليه من شيوخنا الذين لن يتخلواعن حلف السلطان أو عن تولى الحكم بأنفسهم وولاية الناس بينما الليبرالية تضع كل هذا بيد الناس ولاتريد حكمهم لا باسم الله ولا باسم الشيطان ولا باسم أى شعارات وادعاءات كانت. مشايخنا جلسوا فوق أكتافنا ألفا واربعمائة وخمسة وعشرين عاما ولا يريدون أن يتركوا لغيرهم المشاركة.

أنظر معى تعبيره أن الأمريكان يريدون «أن يفتحوا لهم المجالات فى الاعلام والتعليم» تعبير فصيح (فضيحة) يحمل اعترافا طالما أنكروه بأن الليبراليين وأنصار الحريات ممنوعون من الوصول إلى أجهزة الإعلام لأنه مادام الأمريكان سيفتحونها لهم، فإنها كانت قبل ذلك مغلقة أمامهم نعم كانت ولم تزل مغلقة بحلف الفقيه مع السلطان.

ثم يمضى فضيلته مطمئنا نفسه أن هذا الحلف الخائن مابين

الليبراليين العرب وبين الأمريكان لن ينجح «لأن هؤلاء مرفوضون من المجتمعات الإسلامية، ليس لهم شعبية وليس لهم جماهير».

لاحظوا قرضاوى لايرى فى نهاية الطريق سوى كرسى الحكم ويتصور أن العلمانيين يصارعون الإسلاميين عليه، لايريد أن يفهم أن العلمانية هى فتح باب المنافسة العادلة للجميع المسلم أو المسيحى أو الملحد، الرجل أو المرأة، أسود أو أبيض على التساوى الحقوقى الكامل كمواطنين فى الدولة الديمقراطية، المنافسة بما يملك كل منهم من مشاريع وبرامج علمية مدروسة من أجل كل مواطن، وهى منافسة سيخرج منها رجال الدين لأنهم إلى اليوم حتى فى أحزابهم الدينية لم يقدموا برنامجا واضحا لأنهم لايعرفون شيئا اسمه المنهج العلمى فى التفكير، لذلك يحارب قرضاوى هذه المنافسة ويعتبرها كفرا لإنه قبل أن يعجز عن المنافسة هو عاجز عن فهم المبدأ.

أما قول مولانا أن هؤلاء ليس لهم شعبية فهو إهانة لكل مواطن بشكل فج ومتعال، لأن معنى قوله أن كل المواطنين يرفضون الحريات ويرفضون حقوق الإنسان ويرفضون إخوانهم فى الوطن معنى ذلك أننا شعب عنصرى طائفى بل وشعب من العبيد بالفطرة.

أما عن لغته شديدة التعالى مع الاستصغار بشأن المفكرين الليبراليين العرب بقوله: «يريدون أن يصنعوا منهم شيئا» فبحسبانى من هؤلاء الليبراليين العلمانيين ولا فخر فليسمح لى قارئى بتقديم شهادتى هنا فأنا لم يصنعنى أحد إنما صنعت نفسى بنفسى يا مولانا ولم أتقاض يوما من أحد فى الداخل أو الخارج مسلما أو غير مسلم دولة أو أفرادا أو هيئات ومن ثم عشت هم هذا الوطن وكربه مع كرب فى الحياة والمعيشة واخترت الطريق إلى الحريات خلاصا لأبنائى من بعدى، وما كان أيسره تحصيل المال والسؤدد والجاه بتخديم ذات المادة العلمية وذات التحليلات للحصول على سعادة الدارين دنيا وآخرة. رفضت يامولانا أن أخون وطنى وقضيتى، رفضت أن أكون مرتزقا مقدسا!! ويطيب لى هنا أن أشعر بالزهو بما حققت فى أسوأ ظروف ممكنة فأراهن بشرفى وحدى كعلمانى محترم أمام شرفكم كل سادتى القرضاويين.

لماذا لا ترد سيدى قرضاوى على ما نسوق بوجهك من حجج وتحليل لعلك تستمتع به؟ لماذا لا تقبل لقائى على أى فضائية فى مبارزة تجمعنا معا فقط دون تدخل ودون فخاخ الجزيرة المعروفة، لنطرح الأمر على مائدة النقاش والباب مفتوح لك يا سيدى والكرة فى ملعبك، لعلك تهدينى. لمدرستك فأعود عما أنه فيه من غى وبغى وخيانة للوطن فى حضن

أمريكا؟ أو لعلك تأخذ الخطوة الأخيرة نحو العلمانية.

ثم العلمانيون ليسوا فقط عملاء لأمريكا، بل إنهم ضد الإسلام رغم اعترافه بأنهم مسلمين، لكنهم فى الوقت نفسه ليسوا بمسلمين لأنه «فيه فرق بين مسلم وإسلامى.. هناك تيار قومى وتيار إسلامى وتيار شيوعى»، مولانا يدقق هنا المصطلحات لأن هناك فرقا بين المسلم والإسلامى، وحسبما نفهم من عرضه للتيارات الأيديولوجية فالمعنى أن المسلم إن لم ينخرط فى تيار إسلامى سياسى فهو ليس بمسلم؟! باختصار كلنا غير مسلمين لأننا لسنا أعضاء فى تيار الإخوان،

ثم يتساءل: «كيف سيقود الأمة الإسلامية من لايؤمن بالإسلام مرجعا»؟ قرضاوى يحدثنا عن أمة إسلامية وهمية وشايل هم القائد الذى سيقودها إنه حديث زمن البعير والخيل والليل والسيف هو هو. إنه لا يلتفت إلى أن الأمة مناط الحديث اليوم هى الأمة المصرية، وأن هذه الأمة تتشكل من ضفائر مختلفة الأديان والمذاهب والعناصر وأن أى حديث يجب أن يراعى قوة هذه الضفائر ولا يحدثنا عن الأمة الإسلامية المأسوف على شبابها لأنها تكاد تكون أقصر الامبراطوريات عمرا فى التاريخ، قرضاوى يفصح عن أحلامه الأسطورية فيتحدث هنا عن صراع على قيادة أمة المسلمين «أمة كده وكده!!» وأن العلمانيين طرف فى هذا الصراع بينما العلمانيون لا تشغلهم الأمة المزعومة فى شىء إلا كما تشغلهم مصالح وطنهم الخارجية مع أى دولة أخرى، ولا يملكون عواطف جياشة تجاه حسناوات البوسنة، ولا صبايا الشيشان. نحن مشغولون فقط بمصر يا مولانا على الأقل فى المرحلة الحالية، وفى ظل المناخ العالمى المعلوم فإن أحلامنا متواضعة وبسيطة تتمثل فى مجموعة مبادئ وحقوق وحريات لايرفضها إلا المستفيد من تخلف الوطن وكل من هو ضد المواطنين أحلامنا حقوق إنسان كاملة حق الحياة الآمنة الحرة الكريمة، حق الاعتقاد والإعلان عنه وحمايته وصيانته مطلقا، حقوق كاملة، متساوية للمرأة والأقباط والمسلمين وكل الملل والنحل والأعراق، باختصار الحقوق التى أقرتها المواثيق الدولية وطبقتها الدول المتقدمة فتقدمت، نحن لا تشغلنا القيادة يا مولانا لأنه فى حال تطبيق مبادئنا السامية الرفيعة النبيلة الشريفة الوطنية المخلصة سنكون كأفراد قد خرجنا من مساحة التأسيس الفكري إلى مساحة المواطن الفرد كأى مواطن آخر يشكل وجوده فى ساحة الفعل بما يمكنه إثباته للجماهير كى يتأهل للقيادة فهو فكر لكل الناس بمن فيهم أنت يامولانا ومساحة منافسة لكل مواطن حتى لو كان هذا المواطن هو أنت يامولانا.



مشكلتنا كليبراليين عند سيدنا هى أن مجتمعنا يرفضنا لأننا ضد تطبيق العقوبات الجسدية باعتبار أن الزمن قد تجاوزهاولأنها ضد حقوق الإنسان التى نؤمن بها لأن المجتمع قد أصبح أشد تعقيدا من زمن تلك العقوبات وأصبح إثبات الجرم من عدمه مسألة أكثر تعقيدا، مما يمكن أن تقطع معه يد أحدهم لنكتشف براءته من بعد، يقول سيدنا :«إنهم ضد الجلد والبتر والرجم والحجاب ومع الاقليات وحقوق الإنسان، وده اللى بيجعلنا نقول إن المجتمع الإسلامى يرفض هؤلاء لأن هؤلاء يرفضون حدود الله» هى تهمة أصبحت ماسخة وبلا طعم لأن هذه الحدود لم تطبق عبر تاريخ الإمبراطورية الإسلامية إلا فى حالات فرادى نادرة لأنها لم تجد السبيل المؤسسى للتنفيذ السليم فلماذا ينزعج قرضاوى من رفضها اليوم؟

قرضاوى يقول إنهم عندما يركبون الكراسى «لا سمح الله» سيقيمون دولة الإسلام الديمقراطية، أما كيف ذلك، فهو ماجاء فى قوله: «عندنا فى الإسلام أهل الحل والعقد، ولم يفصلوا لنا كيف نصل إلى أهل الحل والعقد، الآن الديمقراطية وصلت.. بطريقة الانتخابات.. نحن لانقول بأن أول شىء نعمله هو إقامة الحدود على الناس ونقطع يد السارق فقبل أن نقطع يد السارق نطعم الجائع ونكسو العارى ونشغل العاطل ونعلم الجاهل ونداوى المريض ونكفل المحتاج ونؤوى المشرد ونكفل اليتيم..والزنا لايمكن أن يثبت بالبينة لأنه كيف يرى أربعة من الناس العملية الجنسية هذا عمره، ثبت فى التراث الإسلامى الأول عن طريق الشهود».

ها قد خلع قرضاوى قناع مستر هايد ولبس قناع مستر جيكل، ففى دولتهم عبر ألف وأربعمائةسنة لم تعثر الأمة كلها على طريق يعرفون به من هم أهل الحل والعقد ولا كيفية العثور عليهم ولا من هم هل هم الجند أم المشايخ أم الأعيان أم العائلة المالكة؟ حتى وصلت الديمقراطية الغربية بطريقتها فى الاقتراع بالانتخاب يتم إستعادتها من الكفار لتشكيل برلمان الدولة الإسلامية الديمقراطية، ولا تعرف ما أضاف هنا سوى تسميةالمنتخبين ديمقراطيا بأهل الحل والعقد؟! أللهم إلا إذا كانت دولة الإسلام الديمقراطية المرتقبة ستكون إسلامية بمعنى أنها تحت سيطرة التيار الإسلامى باعتبار أعضائه هم فقط المسلمون وفى هذا الحال سيتم انتخاب ٤٠٠ عضو للمجلس هم ٤٠٠ شيخ يعنى ٤٠٠ مفتى وكل مفتى وظروفه وكل مفتى وما يريد من الفتوى والفتوى كما نعلم تشريع يعنى سيكون عندنا مولد فتاوى هذاإضافة لفتاوى الفضائيات والصحف والجماعات المسلحة وخريجى الأزهر فيزدهر التشريع وتتضارب القوانين

ونعيش سمك لبن تمر هندى فى أمة الفتوى العظمى.

ثم لماذا كل هذا الجـهـد والتـرشـيـح والانتـخـابات والبـرلمان لوضع تشـريعات فمادامت الفتوى تشريعا يكفينا قرضاوى منفردا يفتى ويشـرع وحده، لكنه فى هـذا الحال لابد أن يثبت أنه ديمقراطى بأن يفسر لنا لماذا يفتى دون أن ننتخبه؟

والغريب مع سيدنا وهو ينعى علينا رفض العقوبات البدنية، أنه يفعل فعلنا ويسير على دربناويأخذ ما قلنا على صفحات هذه المجلة منذ ست سنوات وقبل سبتمبر ٢٠٠١ حلا لمشاكلنا بأيدينا قبل أن يأتينا عمرو، وهاقد أتى عمرو، فيأخذ قرضاوى ما سبق وقلناه كسبيل لتطوير فهمنا عن الإسـلام بما يسمح بقبول الحداثة والتغيير فى بلادنا، وهذه آفة مشـايخنا، أنهم يحتاجون لمن يفكر لهم!! وكـان ملخص ما طرحت هو الاقتداء بفعل بعض الصحابة الكبار فى التجرؤ على الحدود حسب مصلحة الزمن والمكان وبرأى بعض الفقهاء بهذا الشأن من باب تعطيل بعض الحدود المعطلة للحريات وبأخذ حتى تغيير بعض الجدود كما فى نصيب المرأة من الميراث وشهادتها أو ما إلى ذلك. لإيقاف هذه الأحكام نهـائيا بما لا يسىء لقناعات المسلمين فيأتى مولانا سائرا على درب الليبرالى المتواضع شخصى الضعيف ليحل مشاكل دولته الإسـلامية الديمقراطية بأن الخليفة عمر أوقف الحد وأنه يمكنا قياسا عليه إيقاف الحد حتى نطعم الجائع ونكسو العارى إلى آخر تفاصيل مدينته الفاضلة الكاملة وهكذا يعطل مولانا الحد إلى الأبد وأكون الفائز بالسبق لأن مدينة خيالية كهذه لن يكون فيها سارق نقيم عليه الحد، ويكون قرضاوى قد وقف فى خندقنا لإنقاذ دولته الديمقراطية الإسلامية بينما هو يكفرنا لهذه الأسباب تحديدا، ومعنى كلام مولانا هو تعطيل الحدود حتى نصل إلى زمن الوفرة. رغم أنه يعلم أنه زمن الخلفاء الراشدين وغير الراشدين بعد أن عادت الفتوحات على الصحابة بثروات عظيمة وتحولت حياتهم من ضنك وشدة إلى وفرة وثراء فقد سرق الصحابة بيت مال المسلمين أكثر من مرة «عبدالله بن عباس مثلا» ولم يقم عليه الحد زمن الوفرة والرخاء كما يطلب مولانا.

ومنذ فتح بدو الجزيرة بلادنا ونحن ننتظر هذا الحلم الذى لم يتحقق تحت تاريخ دولة الخلافة الطويل وتحت سلطان مشايخها حتى اليوم المقصود أن من سرق من كبار الصحابة لم يطبق عليه الحد المراد تطبيقه زمن الوفرة المقبل كما لم يطبق الحد على من سرقوا منا الوطن كله.

السؤال المهم هنا حتى متى ننتظر هذا الحلم الجميل عندما يعم

الرخـاء لنبـدأ فى تقطيع أوصـال المسلمـين كلون من ترف التسليـة زمن الوفرة لتعمنا السعادة ونعيش فى حبور؟

السـؤال الأهم هو: خـلال فـترة انتظار مـدينة القـرضـاوى الفـاضلة الكاملة مـاذا ستكون عقوبة السارق؟ هنا لامفر أمام قرضاوى من قانوننا الوضعى لضبط المجتمع المسلم حتى يتحقق حلم المجتمع المثالى.

ألا ترون أن قرضاوى يدعونا هنا بدعوى الجاهلين للنبى أن يعبد ربهم عـامـا ويعبـدوا ربه عـامـا؟ أن نطبق القـانون الوضـعى سنوات القـحط ويطبقواهم الشريعة سنوات الوفرة؟ وهنا هل ستقوم دار الافتاء باستطلاع هلال السنوات المقبلة: هل هى فقر دكر نعطل فيها الحدود أم هى سنوات وفرة وخير حتى نتهيأ لتوفير النكد للناس فى حياتهم السعيدة بالجلد والقطع.

وفى تأكيد الشيخ على استحالة إثبات الزنا وأن ذلك لم يحدث فى تاريخ دولة الإسـلام ما يمكن أن يؤدى إلى تصريح مبطن لجماعات محبى الزنا وجماعات الفسق والفجور لـلانطلاق والعمل باخلاص لأن تشريعات ديننا تعجز عن مواجهة جرائمهم لأنها لاتملك آليات إثبات الجريمة، بينما لدينا فى القوانين الوضعية التى يرفضها قرضاوى ما هو رادع وعادل.

لم يبق أمـام قـرضـاوى سـوى خطوة أخـيـرقبعـدمـا قـدم من تنازلات، وأخذه بحلولنا رغم أنه ألقاها مبتورة من سياقها البحثى الذى تعبنا عليه على أية حـال سـامحـه الله، لم يبق سـوى خطوة تضـعـه بين الليـبـراليين. الحق أقـول لكم أنه أبدا لن يـأخـذ هذه الخطوة لاهو ولاأى مـتكسب من الإسـلام ولا كل أصـحـاب المصلحـة فى تخلفنا المزرى لأنه هكذا الإنسـان سواء كان داعية أو داعرا.

إن قرضاوى فى النهاية ليس شخصا مثلنا يمكن أن يكون ليبراليا أو يكون شيوعيا، لأنه صاحب مهمة مقدسة، فقد أفصح القرضاوى أخيرا عن سره المقدس الباتع عندما قال بكل اجتراء أنه مبعوث العناية الربانية أو بنص مـا قـال : «ربنا كلفنى أن أدافع عن هذه الأمـة» ألا تفـصـح هذه العبارة عن لون من البارانويا، وأن هناك ذاتا مقدسة تسكن نفس قرضاوى دون أن يدرى؟ إن قـرضـاوى لن يجـد أمـامـه سـبـيـلا لإثبات صـدق هذا التكليف القدسى سوى شهادة رب العزة بنفسه وهى مـالا سبيل إليه.. ولو تركنا مثل هذا الشأن لضمير كل من يرى نفسه مبعوثا لسوق الناس إلى الجنة بالسيـاط، لامتـلأت الأرض بالأنبيـاء الكذبة، لايبـقى إلا أن يبـرز لنا قرضاوى لإثبات صدقه هذا التكليف مكتوبا وممهورا ومـختوما بالخاتم الرسمي أو أن يسحب ما قاله فقد انتهى زمنه كما انتهى زمن الأنبياء.

١- نظرية أن كل مسلم إرهابى!

بعض التقديرات تصل بعدد المتطرفين المسلمين إلى حوالى ٢٠٠ مليون مسلم وهو ما يشكل نسبة ١٥٪ من عدد مسلمى العالم،وهو رقم هائل ويثير الذعر، ويثير ذعرنا كمسلمين قبل غيرنا، فهو رقم مبالغ فيه بشدة فى ظل ما نعلمه نحن المسلمون فى بلادنا وسط ملايين المسلمين البسطاء الطيبين. لكنهم يحيلوننا إلى خريطة الإرهاب العالمى لنجده إسلاميا خالصا يغطى العالم من أقصاه إلى أقصاه، فمن القاهرة إلى الجزائر، ومن نيويورك وواشنطن إلى موسكو، ومن مدريد إلى الدار البيضاء، ومن الرياض إلى صنعاء، ومن دمشق إلى بغداد، ومن إندونيسيا إلى الهند، ومن كشمير إلى الشيشان، ومن الفلبين إلى كابول، ومن نيجيريا إلى بيشاور، ومن إسلام آباد إلى.. ، .. .

ويرى كثير من الباحثين الغربيين أن كل مسلم هو إرهابى بالضرورة ،ليس لأن الإرهاب رد فعل على ضغوط محلية أو إقليمية أو دولية، إنما بحسبان الإرهاب مكونا رئيسيا فى بنية دين الإسلام بحسب ظرفه التاريخى، وهى ليست فقط مجرد وجهة نظر غربية، بل هى وجهة نظر إسلامية، بل إن الإرهاب هو عقيدة إسلامية عند أهل الإرهاب الإسلامى دونهاالكفر، وهى ما يسمونه عقيدة «الولاء والبراء»، وهو الأمر الذى يجب أن يشغلنا وأن نقف معه، ليس بغرض الاثبات أو الإنكار، أو الرد بالانتقاء من الآيات المكية لنرد بها على الآيات المدنية؟! ولا بغرض تبييض وجه الإسلام، وإنما بقراءة متأنية فاحصة تحاول الفهم، وألا تكون مهمة هذه القراءة الرفض أو القبول، أو اكتشاف الوجه السمح للإسلام مقابل ذلك الوجه العنيف للتغطية عليه، لأننا لو أردنا قراءة صادقة حتى لو كانت صادمة فعلينا أن نقرأ النصوص وأحداث التاريخ الإسلامى المرتبطة بها قراءة محايدة نزيهة منصفة، وأن نعترف بالحقائق عندما تكون حقا حقائق لنواجه المشاكل بحلول حقيقية لا بمساحيق تجميلية لاتحل شيئا قدر ما تزيد من تفاقم مشاكلنا، فى عالم اختلفت وجهته وتغيرت معالمه وانقلبت فيه موازين القوى عن عالم القرن العشرين المنتهى فقط من أربع سنوات، فما بالنا بعالم انتهى وأصبح فى ذمة التاريخ منذ أكثر من ألف عام إلى الوراء. ومن ثم علينا أن نعترف بالخطأ أينما وجدناه، وأن نحاول له علاجا وإصلاحا بما يناسب عالم اليوم لاعالم الأمس البعيد، بل **والتخلى عن النصوص التى تجاوزها الزمن** بعد أن لم تعد صالحة لغير زمانها..إننا نحاول هنا العثور على مخرج من مأزق حالى سببته أحداث

حدثت منذ أربعة عشر قرنا، وساهمت فى صنعه ظروف ليست ظروفنا الآن وزمن مضى ولن يعود، ظروف تجادلت مع النص المقدس تأثيرا وتأثرا وأخذاً وعطاءً ورداً. كما أسهم فيه بباع واسع وهائل المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين،وهو الإسهام الأكبر والأعظم أثرافى تفكير المسملين ومناهجهم فى التفكير وفى السلوك حتى الآن. ويرفض المسلمون مناقشته أو إعادةقراءته باصرار على قدسية ذلك الزمن السالف كله نصوصا وشروحا وحديثا وبشرا وأحداثا، وهو الأمر الذى يجب أن نتطارح معا حوله ونتصارح لاصلاح الشأن، خاصة أن الباحثين الغربيين بل وإدارات تلك الدول قد أصبحت تعلم عن الإسلام الكثير مما لايمكن إخفاءه، كمايعرفون عن أساليبنا الهروبية والتجميلية الكثير أيضا، لذلك لابد من التخلى عن الاصرار والعناد على طريقة «الذب عن الإسلام» والتى تؤدى إلى تقديس كل شأن إسلامى حتى لو لم يكن مقدسا أصيلا فى قانون الإيمان الإسلامى، وأن نتخلى عما اعتدناه من ميل عجيب لإعادة إخراج الإسلام مع كل متغير جديد لتقديم صورة الدين المثالى الأصح من بين كل الأديان بل وكل العلوم، وأن تتوقف جماعات «الذب عن الإسلام» عن تكفير كل من حاول نقد الذات أو دراسة الإسلام بمافيه مصالح أيامنا، وعن الزعم بمؤامرة كونية يقودها الشيطان وحزبه ضد الإسلام، وعن تخوين الباحثين الناقدين بحجة أن واجب كل مسلم هو الذب عن الاسلام والذود عنه، وأن أحد أساليب مقاومة المؤامرة هو عدم كشف عوراته والتكتم على السلبيات، وأن كشفها لبحثها هو لون من التحالف مع أعداء الأمة ويصب مباشرة فى خانة الخيانة القومية والكفر الدينى، لأنه معونة للكافرين على المسلمين، وهو ما قاله يوما الاستاذ فهمى هويدى المشهور بأنه مفكر إسلامى مستنير «عندما يكون الوطن جريحا والأمة مهزومة فإن تشتيت الجهد فى الصراعات الداخلية الفكرية أو العرقية أو الطائفية لا يمكن أن يوصف إلا بأنه خيانة للأمة وجناية على الوطن والأمة - كتابه المفترون ١١٥»، وإذاكان هذا قول المفكر الإسلامى المستنير، فلاشك أن مهمة أى باحث ستكون شديدة الاستعصاء، لأنه سيتساءل أكثر من مرة عن موقف بقية المسلمين، ومع احتساب فارق المفكر من غير المفكر والمستنير من غير المستنير، ويظل معنى كلام الاستاذ فهمى أن نخضع لسيادة المنظومة الفكرية السائدة وهى واحدة من عدد عظيم من منظومات ووجهات نظر أخرى للاسلام، وهى ما آلت معها أحوالنا إلى ما نحن فيه من وهم وتخلف عظيم وهى بتخلفها ما أفرزت البحث عن جديد.

ويعتمد الرأى الذى يعتمد الاسلام كدين إرهاب سواء من الباحثين الغربيين أو من المسلمين المتطرفين على نصوص قرآنية وأحاديث نبوية تحض المسلمين صراحة على قتال غير المسلمين، وأن القتل فى هذه الحالة لايكون جريمة مادام بغرض إعلاء راية الدين، والمصطلح الدقيق هنا هو «الجهاد»، ومعنى الجهاد فيما يقول ابن تيمية فى السياسة الشرعية /ص١٧ : «إن كل من بلغته الدعوة إلى دين الله فلم يستجب لها فإنه يجب قتاله حتى لا تكون هناك فتنة ويكون الدين كله لله» مستشهداً بالحديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، فإن قالوها فقد عصموها منى دماءهم وأموالهم.. وأن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففى فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر وأشد من القتل، لهذا أوجبت الشريعة قتل الكفار المقاتلين - المصدر نفسه ص ١٢٤ ، ١٢٥».

وإعمالا لهذه المفاهيم فقد رأى الشيخ (المنيع) فى الرأى العام الكويتية فيما حدث فى ١١ ستبمبر ٢٠٠١ بأمريكا « أنها كانت لفتة إلهية لإقامة الحجة على من أطلع على هذا الدين» أن قتل الأبرياء فى الطائرات والأبراج بالألوف كان تعريفا للأمريكان وللعالم بدين الإسلام فى لفتة إلهية. وأنه بعد هذه اللفتة يجوز للمسلمين إعلان الحرب عليهم، لأن اللفتة أقامت عليهم الحجة وأطلعتهم على هذا الدين القيم، والغريب اللطيف عند الشيخ المنيع وأمثاله أنهم يؤكدون بلسانه «إن الإسلام برىء من تهمة الإرهاب (رغم اللفتة؟!).. فالاسلام جاء للدعوة ولم يأت للقتال.. فإذا وجد من يقف أمام الدعوة فيجب إزاحته بأى طريق ولو بالقتال.. وليس معنى ذلك أننا نريد استعمار العالم كمايريد الغرب، بل إننا ندعو العالم إلى ما من شأنه أن يسعدهم فى حياتهم وآخرتهم.. وأن المنصف الذى يريد أن يعرف سماحة الإسلام فعليه أن يرجع لمصادره فى القرآن والسنة».

فالشيخ المنيع يرى أن فرض الاسلام بالقوة ليس ارهابا حتى ولو سالت الدماء أنهارا، وهو بهذا يدعو العالم إلى السعادة كما لو كانت السعادة سمة بلاد المسلمين، وكما لو كانت الجهامة والقتامة والأيام السوداء الحالكة سمة بلاد الغرب الكافر؟! فماذا لو صدقنا فى زعمنا أن الغرب يشن علينا حربا صليبية، وأن بوش وحكومات الغرب كانوا كذلك حقا ،وأعلنوا علينا «تنصروا أو نحتل بلادكم وننهب أموالكم ونقتل رجالكم ونركب نساءكم ونستعبد أولادكم»؟! وما الذى يمنعهم لو أرادوا؟! وماذا عند الشيخ المنيع وبلاد المسلمين من حول أو قوة إلا بالله؟!

هذا إضافة إلى مشكلة أخرى تسببت فى ارتباط الاسلام بالعنف فى الاذهان، هو ارتباط الإسلام من فجره بالسياسة ارتباطا كاد يكون عقيدة ضمن عقائد المسلمين، لظرفه التاريخى الذى فرضه واقع جزيرة العرب، حيث كان الإسلام يقيم لعربها المشرذمين دولة مركزية مورست فيها كل ألوان السياسة الهادئة والعنيفة والحوارية والمقاتلة. ولأن السياسة عمل يومى عبر التاريخ فقد حضر الإسلام فى مواقف المسلمين اليومية منذ ذلك التاريخ البعيد فى الحجاز وحتى اليوم لكن باتساع العالم الذى يعيش فيه المسلمون، خاصة ما يعتقده المسلمون باعتبار الغرض النهائى من إسلامهم هو إقامة الدولة الإسلامية الكبرى، ونشرالإسلام فى الأرض بالاقناع والبرهان أو بالسيف والسنان.

والمعلوم أن الإسلام في فجره قد حل لأتباعه غنم الأموال وسبى النساء والاستيلاء على البلاد وتحويلها إلى دار اسلام باستيطانها، أو كما قال النبى : «أحلت لنا الغنائم ولم تحل لأحد من قبلنا» بعد أن مضت فترة تصل إلى ثلاثة عشر عاما والنبى يدعو فى مكة مؤجلا النعمة إلى يوم القيامة، فلم يؤمن به سوى نفر يصل إلى السبعين، لأن تأجيل النعمة إلى ما بعد الموت لم يكن مغريا بجذب الأتباع إلى الدين الجديد، بينما عندما أحلت الغنائم بعد الهجرة إلى يثرب فقد أصبح ذلك حافزا ودفاعا لدخول العرب فى الإسلام، وبعد أن أصبح تصريح النبى لاتباعه سبيلا إلى الثراء والنعمة المادية فى الدنيا، وهو التصريح المصرح «من قتل قتيلا فله سلبه، ومن أسر أسيرا فهو له» ومن ثم فقد لعبت الغنيمة دورا كبيرا فى قيام جيش إسلامى قوى توجه بعدأن وحد جزيرة العرب تحت قيادة قريش، إلى بلاد المحيط فاتحا، بدافع وترغيب من النبى بغنائم تلك البلاد الهائلة، إذ ينادى المؤمنين: «والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر» وهو ما حدث بالفعل بعد أن أقبل الجميع على الغنيمة من باب الجهاد، وهو ما أفصح عنه «أبوتمام» يخاطب المجاهد، فما جنة الفردوس تبتغى ولكن: دعاك الخبز احسب والتمر.

وفى زمن فراغ قوى دولى تاريخى كان له ظروفه التى لم تتكرر ولن تتكرر تمكن عرب الجزيرة بعد أن وحدهم الإسلام فى دولة مركزية من احتلال دول المحيط وتكوين امبراطورية قوية، أمكن لها أن تقوم بتطبيق منطق الجهاد الذى ينتهى إلى أحد أمرين: الخلود فى جنة النعيم الفردوسية، أو الحياة الرغيدة الثرية بعد الفقر والسيادة بعد التبعية، وكان يمكن لهذا المنطق أن يكون أبديا لو ظل التاريخ ساكنا على حاله، كان

ممكنا أن نظل اليد الباطشة لكن صروف الأيام وتقلبات الأزمان لاتعرف ثباتا شرعيا، فهى تفعل حسب منطقها لامنطقنا، ووفق قوانينها وليس حسب قوانين أى شريعة كانت.

ومع الواقع المزرى ومع الاعتقاد الجهادى كان لابد أن يظهر الارهاب وهو سلاح الشعوب عندما تعانى المهانة والضعف والمذلة، مطابقة مع حال المسلمين الأوائل الذين أقاموا قوتهم بالجهاد، ومن ثم أصبح التصور الغيبى أن استعادة هذه الفريضة التى غابت كفيل وحده بعودة الله لنصرة دينه وعباده الصالحين كما حدث للمسلمين الأوائل وهم قلة أذلة، دون أى اعتبار لمتغيرات الواقع الهائلة وموقع المسلمين المتميز فى قاع هذا الزمن.

وقد أسهم الفقه الإسلامى بدور عظيم فى ثبات الإسلام والمسلمين عند درجة حضارية فارقة فى تخلفها، بتثبيت قواعد التعامل مع النصوص المقدسة، وتحويل هذه القواعد إلى مقدسات بدورها رغم أنها انتاج البشر، فاختلط البشرى بالإلهى فى قواعد كبلت الإسلام وهزمت المسلمين هزيمة حضارية مروعة، وهى قواعد لم تكن عند وضعها بعيدة عن الشبهات لتناغمها مع تحولات القوى فى الدول الإسلامية وتقلباتها السياسية، والتحالف الواضح بين محترفى العمل الدينى وبين مراكز القوى السياسية، ومن نماذجها ثلاث قواعد أزعم أنه لم يوقف مسيرة تطور المسلمين مثلها ألا وهى «لا اجتهاد مع نص» و «العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب» و «تكفير كل من خالف معلوما من الدين بالضرورة»، بل أكاد أزعم أنها القواعد المصيبة التى ألحقت بالمسلمين كارثة تاريخية لاشبيه لها. مع ملاحظة أن رجال الدين عادة مالا تثور ثائرتهم ويقومون مكشرين عن كل أسلحتهم إلا عندما يتعرض أحد لقاعدة من هذه القواعد، مما يشير إلى تلامس فصيح بين المصالح وبين القواعد، وبسبب هذه القواعد الكارثية تحديداً لم يتصور تفسير النصوص ولم تلحق نصوص كتلك التى تتعلق بنظام الرق البائد، أو تلك التى تتعلق بالجهاد فى بلاد المسلمين أو بلاد الغرب لايقاف العمل بأحكامها تبعا لدوران العلة مع المعلول، وتبعا لدوران الأحكام بدوران المصالح، وأن المصالح اليوم تستدعى رؤية أخرى للدنيا ولغتها وقوانينها وطرائق عملها وأساليب التعامل معها.

وعن حق ذهب بعض الاتقياء من المسلمين العارفين إلى تفسير الجهاد اليوم بأنه جهاد النفس ضد شهواتها وأن ذلك هو الجهاد الصادق، وهو تفسير أقرب إلى روح الدين من القتال والدم والسبايا والنهب والسلب..

لكن يبدو أن صوت الرشاش كان هو الأعلى، وأنه الفريضة التى عادت بعد طول غياب، والتى وضعت المسلمين بعودتها فى مواجهة كل دول العالم، لأن دول العالم جميعا قد أصبحت تحت طائلة التخريب ما أمكن، وهو إرهاب مشروع ضد العدو (الذى هو الدنيا كلها) وحتى ولو لم يحقق المسلمون أى غنائم، وهو التفسير البسيط للسؤال الأمريكى الساذج.. ما هو الهدف؟!

إن الجهاد قائم إلى قيام الساعة وقتما استطاع المسلمون إليه سبيلا ،وأنه كما نحن ضعاف، فقد كان الأوائل ضعافا أيضا، لكنهم عندما نصروا الله بالجهاد نصرهم وأتى بأمره، ومن ثم علينا بالجهاد حتى يأتى الله بأمره مرة أخرى. ويؤكد أصحاب هذا الرأى من المسلمين أنهم بالجهاد اليوم يلزمون سنة النبى وأوامر القرآن وسيرة الصحابة الذين قاموا بعدد من الغزوات كان بعضها إرهابا للعدو ونكاية فيه فقط، لكنهم من بعدها قاموا بفتح البلاد واستيطانها وتحويلها إلى ديار إسلامية، وهو ما يتضح فى المصطلحات التى استخدمها الدكتور أيمن الظواهرى فى كتابه (الولاء والبراء) وهو يعقب على أحداث سبتمبر ٢٠٠١ قائلا: «تشهد هذه العقود من تاريخ الأمة المسلمة صراعا محتدما بين قوى الكفر والطغيان والاستكبار وبين الأمة المسلمة وطليعتها المجاهدة، وقد بلغ هذا الصراع ذروته بغزوتى نيويورك وواشنطن المباركتين، وما تلاهما من إعلان بوش عن حملته الصليبية. واتضح من هذه الحرب مدى الحاجة الماسة لإدراك خطورة عقيدة الولاء والبراء فى الإسلام.. «حتى لا يختلط الأعداء بالأولياء.. لأن أهم فتنة فى هذا العهد تهدد التوحيد والعقيدة الإسلامية هى فتنة الانحراف عن موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين».

ويبدو أن الدكتور الظواهرى وهو يشن حربه الدينية يريد أن يؤكد على أن الطرف الآخر يشن بدوره حربا دينية «صليبية» لكى يجد مشروعية قانونية على أساس المعاملة بالمثل، كما يبدو أنه من غير الواضح لدى الدكتور ظواهرى أن من حق الآخرين أن يردوا على العدوان، ولأن غزونا مبارك إسلامى، فلابد فى المقابل أن تكون حرب بوش حربا صليبية وغير مباركة، إن اللغة هنا والمصطلح يبعدان تماما عن عصرنا ولغته ومفاهيمه ومصطلحاته وطريقة التعامل فيه مع الذات ومع الآخر.

وتعتمد نظرية أن كل مسلم إرهابى على مثل هذه اللغة وتلك المفردات كما تعتمد على سلوكيات المسلمين العاديين فى حياتهم اليومية التى تقوم فلسفتها العامة على ما سماه الدكتور الظواهرى (عقيدة) الولاء والبراء.

فيلاحظون مثلا أن الجماهير العربية والاسلامية العريضة لم تخرج لتعبر عن مشاعرها المفترض أنها رافضة لمقتل الأبرياء فى أبراج التجارة، ولا تضامنا مع ضحايا مدريد وموسكو. بل إن ما حدث كان على العكس من المشاعر الإنسانية المفترضة فى حال كهذا، فقد خرج الناس يعبرون عن فرحهم مما أذهل العالم وليس أمريكا وحدها، كما لاشك أذهل عقلاء المسلمين.

وإذا كان المسلمون لم يخرجوا للتعبير عن وجع الإنسانية لما حدث فى نيويورك لأسباب تتعلق بالموقف الأمريكى من القضية الفلسطينية فماذا عن مدريد؟ وماذا عن موسكو حليفة العرب التاريخية؟.. بل ماذا عن دارفور فى جنوب السودان، حيث تتم عملية تطهير عرقى واسعة على أيدى الجيش السودانى، ووصفتها الأمم المتحدة (أو الهيئة الكفرية العالمية كما تسميها القاعدة) بأنها «أسوأ أزمة إنسانية فى العالم اليوم»، هذا فى الوقت الذى خرجت فيه المظاهرات المليونية فى نيويورك ومدريد وبرلين وغيرها تضامنا مع قضايا العرب والمسلمين فى فلسطين والعراق وأفغانستان. كذلك لاحظ هؤلاء بشدة أنه بينما يقدم الغربيون وكافة دول العالم غير المسلم المعونات والمنح والهبات لكل أرجاء العالم الإسلامى دون الأخذ فى الاعتبار أية مسائل عرقية أو طائفية، فإن العالم الإسلامى يجمع حصيلة أموال دائمة فى شكل تبرعات وهبات وأوقاف وصدقات وزكاة لكنها لاتوزع إلا على المسلمين وحدهم، إنها عقيدة الولاء والبراء التى أجمع عليها السلوك العام بشكل يكاد يكون لاوعيا، عقيدة الإرهاب الدولى والمحلى، عقيدة تعتمد على آيات قرآنية توقف تفسيرها عند هدف بعينه دون تفسير وأهداف أخرى، وتم سحب آيات من سياقها التاريخى لتطبيقها على سياق مغاير وفق قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب»، رغم أنى أعتقد أن الولاء والبراء ليس أبداً بعقيدة، وأعتقد أنى مع إنكارى هذا أنى مسلم تقى لايشوب إيمانى شك، وأنى عندما أنكر هذه العقيدة عندى من المسوغات الإسلامية ما هو جدير بالطرح لنتداوله بيننا .. فإلى الموضوع الآتى نختار معبرا عن هذه العقيدة كتاب الدكتور أيمن الظواهرى (الولاء والبراء).

٢- نظرية أن كل مسلم إرهابى
الظواهرى ومدرسة التطرف الدموى

فى كتابه (لولاء والبراء) حشد الدكتور أيمن الظواهرى أكبر عدد من الآيات التى يثبت بها أن هذا الولاء والبراء هو عقيدة إسلامية، وأن المسلم حتى يكون مسلما يفرض عليه عدم موالاة الكافرين/ الوثنيين أو أهل الكتاب، وأن يتبرأ من كل من ليس مسلما ويتخذه عدوا، كى يكون هذا إثباتا لولائه للمسلمين وحدهم. لذلك فأول مشكلة تواجه المختلف مع الظواهرى هى ما دعم به وجهة نظره من آيات قرآنية صريحة واضحة، والتى تبدو فيها كراهية واضحة لليهود والنصارى والحض على هذه الكراهية، على نفس الدرجة من الموقف من الوثنيين واختصارا لعرض الآيات سنكتفى بعرض نماذج لا تهمل ما يريد الوصول إليه، وتترى الآيات تقول بحق الوثنيين:.

● لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم/٢٢/المجادلة.

● يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأؤلئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجاكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمر، والله لا يهدى القوم الفاسقين/٣٢- ٢٤/ التوبة.

● لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة/٢٨/آل عمران.

أما أهل الكتاب فالموقف منهم تحدده آيات أخرى يحشدها الدكتور الظواهرى فى نماذجها:

● يا أيها الناس لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين/٥١/٥٢/ المائدة.. «قال الطبرى: ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، فإن تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم/ التفسير ج٦/٢٧٧».

● ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم/١٢٠/البقرة.

● يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين/١٠٠/آل عمران.

ويتوقف الدكتور الظواهرى مع أمور رآها جديرة بالتوضيح والشرح، كما فى قوله مثلا: «فرقت الشريعة بين موالاة الكافرين المنهى عنها وبين اتقاء شرهم، قال تعالى: إلا أن تتقوا منهم تقاه، أى من خاف فى بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، قال ابن عباس: ليس التقية بالعلم إنما التقية باللسان/ تفسير بن كثير/١/٣٥٨.. ولا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم.. وقال الحسن: التقية جائزة إلى يوم القيامة.. قال الطبرى: فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة/٣/٢٢٧». ولا يختلف منهج التعليم الدينى فى بعض بلاد المسلمين عن هذه الرؤية الكارهة، فيؤكد منهج التوحيد بالسعودية ١/ث/٩٤ أنه لا مانع من إقامة المسلم فى المجتمعات الغربية طلبا للمنافع لكن «يشترط لجواز الإقامة أن يكون المسلم مضمرا العداوة للكافرين وبغضهم» والمصيبة أن مناهج الأزهر تتخذ نفس الموقف، ونكتفى هنا بالإشارة لعل اللبيب يفهم. ويواجه الظواهرى مشكلة مع عقيدته فى الولاء والبراء لتصادمها مع الآيات القائلة: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون/٥-٩/ الممتحنة». لذلك يصر تنظيم القاعدة على تصوير حربهم ضد أمريكا حربا دينية على الطرفين، وأن الأمريكان يخوضون ضد المسلمين حربا صليبية، فهم بذلك يقاتلوننا فى الدين، ومن جانب آخر يرد الظواهرى مسألة عدم قتال من لم يقاتلنا فى الدين وبرهم والإقساط إليهم ، تفضيلا لتفسيره وتأييدا لعقيدته، وتفضيلا لنصه وأغراضه على النص القرآنى، وذلك فى باب يرد فيه هذا الأمر باعتباره شبهة تحت عنوان «رد شبهة».

يقول إن تلك الآيات لا تنقض عقيدته فى الولاء والبراء لأن «البر هو إيصال الخير والقسط هو العدل» ولا يدخلان فى الموالاة المحرمة التى تتضمن المحبة والتواد والنصرة باليد واللسان والمتابعة فى الاعتقاد والأفعال واتخاذ الأعداء بطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين، قال ابن كثير: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ولم يظاهروا أى يعاونوا على إخراجكم».

أما تطبيق عقيدته فى الولاء والبراء داخل بلاد المسلمين فتأخذ شكل

«النهى عن تولية الكفار فى المناصب المهمة.. عن أبى موسى الأشعرى قال: قلت لعمر إن لى كاتبا نصرانيا قال: قاتلك الله.. قلت: يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله/ ابن تيمية/ اقتضاء السراط المستقيم١/٥٠.. وقال ابن تيمية: ولا يستعان بأهل الذمة فى عمالة ولا كتابة يلزم منه مفاسد أو يفضى إليها، وإذا كان السلف قد سموا مانعى الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين، فكيف بمن صار مع أعداء الله/ الفتاوى الكبرى ٣٣٢/٤». هذا مع ملاحظة أن هذا هو ذات موقف الإخوان المسلمين من إخوانهم فى الوطن اعتمادا على أستاذهم ابن تيمية، بل إن الإخوان لا يعتمدون فقط كتاب الفتاوى الكبرى بهذا الصدد، بل أيضا كتابه الشروط العمرية، ويشمل أسوأ قواعد ممكنة ليتعامل بها مواطن مع مواطن، بل إنها هى ضياع الوطن كله لصالح الطائفة. حتى لا تكاد تجد فارقا واضحا بهذا الخصوص بين إخواننا الإخوان وبين إخواننا أهل القاعدة وجماعة التكفير والهجرة والجهاد والجماعة الإسلامية. مما يشير مع استشهادهم جميعا بذات الآيات والمواقف إلى خلل أصيل فى المنهج الإسلامى. لأنه لو كان القرآن الذى تم سرد آياته يحمل هذه المعانى حقا، فإنه لا يسعك إنكار الإرهاب والكراهية فى دين الإسلام، خاصة أن الأمر هنا أمر المقدس الأعظم وليس كلاما فى الفقه أو فى السنة. ولكن قبل الاعتراف بهذه النتيجة المفزعة خاصة للمسلمين البسطاء الطيبين هناك ملحوظات:

أولا: لا مناص من الإقرار بصحة الشهادات القرآنية المقدمة من قبل أنصار عقيدة الولاء والبراء، لأنها نصوص واضحة فصيحة لا تحتمل تأويلا، لكنها تحتمل تفسيرا ربما كان هو الأصدق مما يقدمه أنصار الكراهية والدم، وهو ما سنأتى عليه بعد قليل.

ثانيا: يلاحظ الجميع مسلمون وغير مسلمين ملاحظة شديدة الخطورة فى منهج التفكير الإسلامى، وهى استشهاد الخطابات الإسلامية المتنوعة على اختلافها مذهبيا وتعارضها أحيانا فى الأغراض، بآيات قرآنية لو رصصناها بجوار بعضها لأمكننا أن نرى تناقضا هائلا فى كتاب الله أو هو تناقض يصبه البشر بأغراضهم المتباعدة على كتاب الله.

مما يشير إلى انتهازية لا تليق بكل هذا الاحتفاء الإسلامى بنصهم المقدس وهو لون من فضيحة لضمير نفعى تجده لدى المسلمين على مختلف الدرجات حتى لتجد تاجرين يتنازعان الحقوق وكل منها يستشهد على شريكه بآيات الله وكلاهما نصاب وكلاهما مؤمن وكلاهما يعتقد أنه

على حق وكلاهما يعتقد أن الله ناصره. وهى حالة مستعصية فى العقل الإسلامى سببها تلك الانتهازية المبكرة بين الخصوم السياسيين فى دولة الخلافة الأولى منذ أبى بكر واستخدام كل طرف للمقدس مؤيدا ورفيقا، حتى كاد أن يكون الأمر تشغيلا لله عند الناس حسب مصالح ومكاسب وهوى كل طرف. وقد سمح بهذه الانتهازية طبيعة النص المقدس نفسه الذى تفاعل مع واقع زمن ثلاثة وعشرين عاما، واقع كان متحركا كأى واقع لا يعرف الثبات، فكان أن تغيرت الآيات وتبدلت ونسخت وأنسيت بحسب الظروف مما أتاح لكل صاحب مصلحة اليوم أن يجد فى النص ما يروق لمصالحه، وهى حالة ليست بدينية ولا روحية ولا تحترم النص ولا الله بقدر ما هى لون من العلمانية الفصيحة. لكنها للأسف أحط أنواع العلمانية طرا، حتى أن النصوص المؤولة حسب رأى كل فريق حلّت محل النص الأصلى وأصبح هى المعمول بها عند هذا الفريق أو ذاك على تناقض هائل لا يلتقى أبدا، بينما توارى كتاب الله وراء نص إنسانى يمثل مصالح كل فريق وفهمه ورأيه ليحل الإنسان محل الله لكن بعد أن تلبس بقدسه وتسربل بعباءته، لكن حتى يجد كل فريق مؤيداته من القرآن على اختلاف الأزمان والأمكنة والظروف السياسية والأهداف المطلوبة، اتفق الجميع على قاعدة أن العبرة فى النص القرآنى ليس بخصوص السبب الذى جاء النص بشأنه فى أحداث حدثت زمن الدعوة، إنما العبرة بعموم لفظ النص أى تطبيق النص و تفسيره مستقلا عن أحداث زمنه. وبذلك يكون صالحا لكل زمان وكل مكان ولكل انتهازية رخيصة ممكنة ولكل خصومات بحاجة لسند شرعى حتى أصبح صالحا للكراهية ولرغبات الدم والذبح والحرق، وللاشتراكية وللرأسمالية وللحرب وللسلام، ومبررا لكثير من المظالم الفادحة التى ارتكبت بحق المسلمين البسطاء عبر التاريخ. بقامع داخلى تم ترويضهم عليه بالدين، وأصبح المصحف بيد كل طاهر أو شرير أو قاتل أو تاجر أو مصلى تقى عارف بالله وسيلة لجعل النفس عبدة أو شريرة أو متمردة أو قاتلة أو متسامحة معطاءة. لقدأصبح النص وسيلة دائما لغرض دنيوى لا لذاته ولا لقدسيته وتبجيله بما يليق به من إجلال واحترام ورهبة روحية مفترضة فى المؤمن نحو مقدسه.

ثالثا: لابد أن يلفت النظر بشدة مأزق الدكتور الظواهرى من الآيات «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتسقطوا إليهم/ الممتحنة». وهو نص واضح فيه البر إلى من لم يقاتلنا والإقساط إليه فى صياغة لا تكاد تكون فقط سماحا بالبر والقسط، بل هى ترقى إلى درجة الأمر. فيقول الظواهرى سامحه الله

مفرقا فى التفسير «البر هو إيصال الخير والقسط هو العدل، ولا يدخلان فى الموالاة المحرمة التى تتضمن المحبة والتواد والنصيرة باليد أو اللسان والمتابعة فى الاعتقاد والأفعال، واتخاذ الأعداء بطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين».

إن الدكتور أيمن هنا يخلط الأمور كلها ببعضها رغم إدراكه الباطنى الفصيح من وهن حجته التى يساوى فيها بين «المحبة والتواد» بين المسلم وغير المسلم، وبين «المتابعة فى الاعتقاد والأفعال وإطلاعهم على أسرار المسلمين» فى تلفيق لا يليق بنفس ترى أنها تجاهد فى سبيل الله، وتزور على نفسها معانى كتاب الله لتحقيق شهوة القتل والانتقام ليس أكثر، بلا نفع يتأتى للمسلمين بل الحاصل هو مزيد من الانهيار والحصار والركوع.

وليس أدل على ما نقول من التفسيرات التى ألحقها الدكتور الظواهرى بآلآيات التى حشدها فى كتابه، كمثال تفسير «إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله» بأنها قد جاءت بشأن الصحابى أبى عبيدة بن الجراح عندما التقاه أبوه فى غزوة بدر وهو مشرك، فجعل أبوه ينصحه ويتقرب إليه ويحبب إليه آلهة مكة بينما يحيد عنه ابنه أبوعبيدة حتى قصده ابنه فقتله «برواية الحافظ البيهقى من حديث، بن شوذب».

ولعل أول اعتراض اليوم على التأسى بفعل أبى عبيدة وأن يقتل الابن أباه فى سبيل الدين، فهو أن ذلك لم يعد مقبولا إنسانيا أو قانونيا أو أخلاقيا. لقد كان الحدث يليق بزمانه وقيم زمانه وأحوال زمانه، وربما كان مطلوبا لإثبات الإخلاص للدين وللدولة حينذاك بموالاتها والتبرؤ من الأهل، لكنه فى أخلاقيات اليوم شىء نكير ومنكر ومستنكر وساء سبيلا.

خاصة أن أخلاق الإسلام نفسها تكره أن يبتدئ الرجل إباه من المشركين فيقتله لقوله تعالى: «وصاحبهما فى الدنيا معروفا ١٥/ لقمان (الهداية فى الفقه الحنفى ٢/١٣٩) وقال الشيرازى ويكره أن يقصد قتل ذى محرم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم منع أبا بكر من قتل ابنه فى غزوة أحد وعن أبى الزناد عن أبيه قال شهد حذيفة بدرا ودعاه أبوه إلى البراز «المبارزة» فمنعه رسول الله «المجموع للنووى ١٩/ ٢٩٥»، وهكذا يبدو لنا أن أخلاق الإسلام تأبى ما يريده الظواهرى بل وترفضه، والواضح فيها أن القرار كان قرار أبى عبيدة وليس قرار الإسلام، ولم يسأل فيه أبوعبيدة رسول الإسلام وإلا كان أبى عليه كما أبى على أبى بكر وأبى

حذيفة.. وهكذا.. وبتلفيق بسيط يمر على العقل البسيط أيضا يتم تحويل فعل أبى عبيدة إلى فعل إسلامى عظيم مبهر تم فى سبيل الدين، فقتل الابن أباه حبا فى الله، وتطبيقا لعقيدة الولاء والبراء بكل إخلاص وتفان والله ورسوله من تلك الأخلاق براء يا دكتور ظواهرى.

رابعا: إن ما قدمه الدكتور الظواهرى من آيات تؤكد عقيدته فى الولاء والبراء تتضح فيها سمات لا يمكن بحال تعميم معناها فى الزمان المطلق والمكان المطلق بحجة قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فالآيات تحدثنا عن زمن بعينه وظرف بعينه ترتبت عليه الأوامر والأحكام الخاصة به فى خصوصية تلازمية، فالنهى عن المودة والموالاة يتردد فيها النهى عن مودة الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة من غير المسلمين، لأن الظرف حينذاك فرق بين الأب والابن عندما اسلم أحدهما وهاجر إلى المدينة، وبين الأخ وأخيه وبين الفرد وسائر عشيرته فى بيئة تشكل العشيرة فيها لبنة أساسية فى بناء المجتمع.. ومنعا لوصول أسرار الدولة الناشئة عبر حالة عاطفية بين أخوين أو أى رحمين، فقد نهى القرآن عن موالاتهم نصا ولفظا ومعنى واضحا كل الوضوح تربط الآيات بزمنها وظروفها ومكانها وليس بعد ذلك أو قبله أبدا.

خاصة مع الإشارات إلى النوازع النفسية لدى المهاجرين من عطف على أهلهم غير المسلمين أو محبة، أو حنين إلى أموالهم التى تركوها فى مكة أو مساكنهم التى تركوها مهاجرين إلى بلد غريب ضيوفا على أهله والضيف ليس كالمالك.. «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشريتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره»، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ٣٢-٣٤ «التوبة» أى إن كان بينكم أى لون من هذا الحنين فانتظروا عندما يأتى الله بأمره ويقوى الإسلام كيف ستكون عقوبتكم خاصة مع وصفه لهم بالفاسقين «والله لا يهدى القوم الفاسقين».

وبشأن غير المسلمين لا تجد فى النهى عن الموالاة غير صنفين هم الكافرون أو المشركون، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى وهو أيضا ما يشير إلى ارتباط الآيات بزمنها وظرفها، حيث لم تعرف جزيرة العرب غير اليهود والنصارى من أصحاب الأديان الكبرى فى ذلك الزمان، رغم أن هناك أديانا كبرى أخرى كانت موجودة ولم تعرفها جزيرة العرب كالبوذية والشنتوية والكنفوشيوسية والهندوسية ولم يعرفها أيضا القرآن. ومن هنا ارتبطت الآيات ليس باليهود والنصارى فى المطلق، لأن التحديد هنا مؤطر

جغرافيا بمكانه فى الجزيرة، وأن يهود ونصارى شعوب أخرى خارج الجزيرة مثلهم مثل أصحاب الديانات الكبرى الأخرى التى لم يذكرها القرآن معبرا عن مكانية وظرفية خاصة بالجزيرة العربية وحدها وفى زمن الحدث لا بعده ولا قبله، ومما يؤكد ظرفية الآيات وجود آيات أخرى بالقرآن تناقضها تماما وتتحدث عن اليهود والنصارى والتوارة والإنجيل بكل مودة وموالاة بل وتبجيل، وما حدث من ظهور تناحر سياسى رفض بموجبه أهل الكتاب من أهل الجزيرة الانطواء فى الدين الجديد وإن قبلوا الانضواء فى الدولة بعقد الصحيفة، وتطور الأمر إلى حرب عسكرية تحول فيها الموقف من الود والموالاة إلى الكراهية والعنف والإقصاء.

خامسا: يلفت النظر بشدة أن هؤلاء الذين يزعمون التبحر فى الدين والرسوخ فى العلم عادة ما تحولت مواقفهم من النقيض إلى النقيض، وهو حال واضح فى بعض مشايخ السعودية، والجماعات التائبة فى مصر، والإخوان لأنهم يريدون أن يلعبوا السياسة بالدين، ومع تقلبات أحوال السياسة لابد أن يتقلب الدين. فكان القتل وسفك الدماء بإدعاء الرسوخ فى العلم وأن فهمهم لنصوص الدين هو الفهم الصح بإطلاق، وذبح الناس فى الطرقات والشوارع، وقتل الأبرياء من ضيوفنا داخل أعز حرماتنا التاريخية، حيث كانت تمارس العبادة فى قدس الأقداس. ثم وبالرسوخ فى العلم وأن فهمهم هو الصواب بإطلاق تراجعوا عن فهمهم الأول إلى فهم جديد يدين ما فعلوه من قبل، دون أن نجد أى تعويض لما خسرته البلاد من مال وعباد وهيبة واحترام من نظر العالم سوى أنهم تكرموا علينا فتابوا وقرروا عدم ذبحنا الآن على الأقل، لأنك لا تعلم كيف سيكون الرسوخ فى العلم غدا، ودون أن يواجه أحدهم نفسه مرة ويقول: إن الأمر ليس أمر الدين وشأنه بل هو أمرى وشأنى: وأين احترام الدين من ظاهرة الرسوخ هذه عند كل مدع راسخ؟

كيف نضمن دماءنا ومستقبل بلادنا ورسوخهم هكذا يوم وليس هكذا فى يوم آخر؟!! ألسنا بحاجة إلى احترام حقيقى لكتابنا المقدس ولربنا ولحرمة دمائنا ودماء الإنسانية؟!

أستاذنا العفيف الأخضر عندما واجهته هذه الآيات مع أيات السيف التى نسخت آيات السلم رأى أن الحل هو إعادة النظر فى القرآن بما يفى بمطالب زماننا مستخدمين أدوات النسخ التى سبق استخدامها فى زمن الدعوة عندما كانت تنسخ آية آية أخري لتغير الظروف والأحوال الأرضية ولكن بالعكس، أى أن ننسخ نحن آيات الحرب والقتال والكراهية، وأن نستبعد لفظ الكفار من حياتنا نهائيا، لكن ستواجه أستاذنا هنا عدة

مشاكل غير قابلة للحل بإطلاق، لأن النسخ حسب قرار آيات القرآن كان يتم بإرادة إلهية لا إنسانية، ومن ثم ليس بيد المسلم هنا القول بنسخ آيات، كذلك لا يمكن حذف أى لفظ فى القرآن بوضعه الحالى المتوافق عليه منذ الزمن العثمانى. ويبقى حل آخر هو ما طرحته هنا وهو ألا نركب الآيات بل أن نتعامل معها مجردين من أغراضنا فنجدها تفصح بغير حاجة لبرهان آخر عن ظرفيتها ومكانيتها، لكن يمكن القول بملء الفم لا لقواعد الفقه البشرية مثل قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا طبعا لقاعدة لا اجتهاد مع نص، ويقصدون بالنص تفسيرهم الذى غدا بديلا للنص، لأن النص واضح بذاته لو خلعنا عنه تفسيرهم الذى ساد عبر الأزمان، ويبقى الحل بالقراءة الزمنية المكانية (التاريخية) للآيات هو الأمثل لأنه لا يرد الآيات ولا ينسخها لأنها كانت صالحة فى زمانها متوافقة مع واقعها منسجمة مع محيطها، لكن تطبيقها اليوم يصبح عزفا نشازا يفتئت على الله وعلى قرآنه، ومن ثم تظل الآيات معبرة عن زمن قد سبق وحدث فى تاريخ المسلمين، فيه تاريخ، فيه عظات، فيه حكم، فيه بطولات،لكن ليس فيه ما يطلب منى اليوم كراهية أهلى فى الوطن لأنهم غير مسلمين. لأن لهم دينهم ولى دين، وأن الله لا ينهانا عن برهم والإقساط إليهم أبدا تعالى عن ذلك، أما كونهم كفروا أو لم يكفروا فنحن المسلمين فى نظر كل أديان العالم كفار، وهو أمر ليس محلا للفعل واتخاذ المواقف بسببه، وتدمير البلاد والعباد واستعداء العالم ضدنا ونحن فى الدرك الأسفل لسلم تطور الإنسانية، فهذه هى الجريمة، ويضاعف جرمها استخدام الله وسيلة وهو الغاية العظمى.

ملحوظة وأنا أكتب هذه السطور شعرت بمضض شديد من سادتى الأزاهرة الذين يعيشون فى نعيم البلهنية بضرائب من جيوبنا تمر إليهم عبر بنوك ربوية يكفرونها، أنعم عليهم الوطن نعيما عظيما ولانسمع لهم صوتا فى مثل هذه القضايا، وإن سمعنا فالركون إلى السهل البسيط، بالرجوع إلى الآيات المكية حيث التسامح والسلام دون بذل أى جهد لتناول القضايا تناولا باحثا محترما!! أين هم من الإخوان المسلمين؟

أم أنهم قد قرروا السكوت فى موطن الكلام الجهير الواضح؟

أم قد تركوا المهمة لغيرهم... هل أنتم معهم أم معنا؟ إذا كان ذلك ليس كذلك فإنى ابتهل إلى الله أن يلهمهم فضيلة الاستقالة .. استقيلوا يا سادة يرحمكم الله ويرحمنا.

٣- نظرية أن كل مسلم إرهابى

إنهم يعبثون برحم الوطن

يقول الباب الثاني من لائحة تنظيم جماعة الإخوان المحظورة «إن الإخوان هيئة إسلامية جامعة تعمل لإقامة دين الله فى الأرض.. وقيام الدولة الإسلامية التى تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عمليا، وتحرسها فى الداخل وتعمل على نشرها فى الخارج. وإعداد الأمة إعدادا جهاديا، لتقف جبهة واحدة فى وجه المتسلطين من أعداء الله تمهيدا لإقامة الدولة الإسلامية الراشدة».

وأول ما يند هنا من ملحوظات، هو تلك الحالة الشعورية التي تظهر واضحة فيما يقول الإخوان، وهو أنهم مختارون من العناية الإلهية، لإقامة دولة الإسلام على الكوكب الأرضى، بل ويسمون دولتهم المقبلة بالدولة الإسلامية «الراشدة» قياسا على زمن الخلافة الراشدة التي يتم تمييزها باللقب تنزيها وترفعا بها عن أى أنظمة حكم أخرى، حتى لو كانت عبر دولة إسلامية عاشت ألف وأربعمائة عام ولم تصل إلى ذلك السلف مرة أخري فى نظام حكمه، حتى اخترعوا أحاديث تقدس هؤلاء الراشدين وتنعتهم بالمهديين وتتنبأ بهم وتعتبرهم خير القرون بعد الرسول، إن الإخوان يرون أنهم المستأمنون على الأمة لأنهم الخلافة الراشدة العائدة!! رغم ما نرى لهم فى الواقع قبل أن يصلوا إلى الحكم من فعال غير راشدة ولا حتى قانونية بالمنطق الشرعى الإسلامى نفسه، لقد رشحوا أنفسهم للأمة بغض النظر عن رأى الأمة فهكذا كانت الخلافة طوال عصورها، أما حديثهم عن الديمقراطية فى مبادراتهم فقد ثبت أنه لون من فهلوة الثلاث ورقات السحرية وأنه ليس بديمقراطية بقدر ما هو لون ردئ من الانتهازية الرخيصة حيث قاموا بتحويل الظاهرة القدسية إلى رأسمال ومؤهلات للإخوان وحدهم. «ومن لديه مثل هذا الرأسمال وتلك المؤهلات؟ لكن مع ملاحظة أنهم يعيدون إنتاج هذه الرأسمال القدسى ليتم تداوله واستهلاكه فى جميع الأسواق ، من سوق المعاملات إلى سوق السياسة، وفقا لأهواء البشر وأمزجتهم وظروفهم وأحوال السياسة وتقلباتها التي تنعكس مع مواقف الإخوان السياسية على كل لون ممكن واستخدام الظاهرة القدسية كدليل دائم على صدق الإخوان عبر تناقضات واضحات فى المواقف والأحوال.

والهدف النهائى إقامة دولة الخلافة الراشدة فى الأرض بعد أن ينصر الله جهادهم بإجبار الحاضر على الركوع للماضى مع بعض التطويع

والتأويل لهذا الماضي، رغم عجز ألف واربعمائه عام عن إقامة هذه الدولة النموذجية الوهمية التى يعدون بها، ورغم أنها لم تقم إلا فى الخيال وحده. وغير مدركين أو حتى واعين بأن هناك مسلمين غيرهم يحترمون تاريخ الخلافة الراشدة نعم، لارتباطه بتاريخ النبوة، لكنهم أبعد ما يكونون عن تصور عودة هذا النموذج اليوم للحكم لأنه كان حكما ثيوقراطيا عسكريا، كان هو الديكتاتورية الكاملة خاصة لو أخذنا بالحسبان أيضا أن التجربة بعد تجربتها أربعة عشر قرنا، ظلت تسمى تجربة لأنها عجزت عن إقامة تصورها على الأرض، وكل ما فعلته ورأيناه عبر التاريخ كان هو الحكم الرافض لكل مختلف ، فلا أقليات لها حتى المواطنة المتكافئ مع الأكثرية ولا معارضة يحق لها الرأى والحوار أو حتى الاجتهاد حيث كان الاجتهاد، مروقا على الدين يحول أصحابه إلى رفض النظرية السائدة فيصبحون من «الرافضة» وهم كفار المسلمين من وجهة النظر الوهابية كالشيعة والجهمية والمعتزلة وغيرهم.

دولة لن تفسر لنا مشاكلنا وتضع الخطط لحلها بعد دراسات موضوعية، بل سترجع دوما إلى النصوص تحصل منها على إجابات جاهزة وحلول لحاضرنا من قبور الماضى، دولة تقوم على هدف ليس فى طاقة دول كبري هو توحيد العالم تحت راية الإسلام وحكم المسلمين، بينما الأهداف الإخوانية المعلنة هى تدمير الدولة الوطنية القطرية وإزالتها، فيما الوحدة تمر عبر تنمية وإنضاج الدولة القطرية وليس تدميرها، لذلك لا قيام ولا تطبيق للديمقراطية بلا كيان دولة متماسكة، ومن هنا نفهم سر تفتيت الوطني لصالح الإسلام الأممى، فلا ديمقراطية ولا هم يحزنون، كما يغنى الإخوان اليوم، لأن النهاية المرجوة هي سيادة المسلمين بغض النظر عن بقية المواطنين، النهاية قيام الدولة البدوية الوهم التي لا تعرف الوطن بل تعرف الحمى، دولة الحمى المحمية بوحدة القبيلة التي تسيطر على الناس بغض النظر عن تماسك هذه الأرض تحتها من عدمه،رغم درس التاريخ الذى أكد أن عدم تماسك الأرض تحت إمبراطورية طائفية عنصرية إسلامية كان مآل تمزقها ومآل تخلفها بغير نظير. ذلك التاريخ الذى يؤكد عبر كل تجاربه أنه كلما تأزمت الدولة القطرية الوطنية واهتزت، تأجلت قضية الديمقراطية إنهم يعملون دوما على الإجهاض المتكرر للديمقراطية بالعبث فى رحم الوطن القطر.

إن الدولة المتماسكة القوية هى ناتج إرادة الأفراد الحرة بالتراضى بينهم،وليست نموذجا هبط من السماء منذ أربعة عشر قرنا، وأن ما يفعله الإخوان هو تأجيل دائم لتمتع المواطنين بحقوقهم الإنسانية وكرامتهم فى

انتظار دولة مثالية لن نراها أبدا ولم يرها السلف بدورهم أبدا إنهم بما يفعلون فى مبادرتهم للإصلاح هو تأجيل قضية الديمقراطية الليبرالية «حتى يأتى الله بأمره»؟! أو التعجيل بديمقراطية صندوق الانتخابات فقط، وهنا لابد أن يأتى الله بأمره.

لكن لماذا الحديث عن الإخوان بعد أن كنا نتحدث عن الولاء والبراء عند أيمن الظواهرى والقاعدة؟ يبدو لى أنى لم أنتقل من موضوع إلى موضوع مختلف، بقدر ما أن الموضوع نفسه يفرض على الباحث وحدته ما بين الإخوة الإخوان والإخوة القاعدة، فلا تجد فرقا واضحا تشعر فيه بأنك تتحدث هنا عن الإخوان أو تتحدث هناك عن القاعدة وأظن أن من غفله المغفلين أيضا عدم الربط بين تاريخ قيام تنظيم الإخوان المسلمين العالمى وبين ظهور موجة الإرهاب الدولى بقيادة القاعدة كجناح عسكرى أو تيار جهادى للإسلام التنفيذى.

إن تصنيف الإخوان لأبناء الوطن الواحد وإبعاد غير المسلمين واقصاءهم كما رأينا فى أكثر من موقف لا ينسى، كفتاواهم بشأن بناء الكنائس أو فتاواهم بشأن الجزية والتجنيد بحق إخواننا وأهلنا المسيحيين فى هذا الوطن «الذين نزفوا دماءهم مع دمائنا ذودا عن حياضه ودفاعا عن قضايا عربية لا مصرية فقط رغم مصريتها التأسيسية» أو ما فعلوه بنقابة الأطباء أو نقابة الصحفيين ، وغيرها، وغيرها، يتطابق مع رأى القاعدة على المستوى العقيدى تطابقا تاما.

إن استثمار الرأى الجهادى بالولاء والبراء وتحويله إلى عقيدة كان بدوره وراء المواقف الإسلامية لرجل الشارع عن غير وعى حقيقى بدوافع هذه المواقف ومدى مصداقيتها في دين المسلمين. وهو بدوره ما يقف وراء دروس أزهرية يتلقاها أبناؤنا فى المدارس، وهو بدوره ما يقف وراء فتاوى شديدة الخطورة لمفتين كبار ولهم أثرهم، مثل فتوى لابن عثيمين تقول: «إن موالاة الكفار بالمودة والمناصرة واتخاذهم بطانة حرام منهيا عنها بنص القرآن الكريم.. ولا ينبغى أبدا أن يثق المؤمن بغير المؤمن مهما أظهر من المودة وأبدى من النصح / المجموع الثمين ١/ ١١٠» ومثل فتوى «ابن باز» القائلة: يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين وأن يحذروا مودتهم واتخاذهم أولياء كما أخبر الله فى كتابه المبين.. والآيات فى هذا المعنى كثيرة وتدل دلالة صريحة على وجوب بغض الكفار من اليهود والنصاري وسائر المشركين وعلي وجوب معاداتهم حتي يؤنوا بالله وحده.. وإن الحسنات التى تحصل لنا من الغزو والتمكين والنصر على الأعداء ونحو ذلك تسوءهم وأن ما يحصل لنامن السوء

كـالهـزيمة والأمـراض ونحـو ذلك يسـرهـم.. هذا مـا وقع من النصـارى وغيرهم من سائر الكفرة من الكيل للإسلام وإنفاق الأموال الضخمة على المبشرين بالنصرانية.. إن النبى لمابعث عبدالله بن رواحة الأنصاري إلى خيبر ليخرص «ليحصل» على اليهود ثمرة النخيل. وكان النبى قد عاملهم على نخيلها وأرضها بنصف ثمرة النخل فخرص عليهم عبدالله ثمرة النخل» أى حصل الثمر كله لا نصفه» فقالوا له: إن هذا الخرص فيه ظلم،فقال لهم عبدالله والذى نفسى بيده إنكم أبغض إلى من عدتكم من القردة والخنازير، وأنه ليحملنى بغض لكم وحبى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على **أن أظلمكم**.. فالواجب على جميع أهل الأرض من الجن والإنس.. أن يدخلوافى دين الله.. الإسلام الذى لا يقبل الله من أحد دينا سواه.. وفى الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: **نصرت بالرعب مسيرة شهر**، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا.. **وأحلت لى الغنائم** ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة «مجموع فتاوى بن باز ١٧٨/٢».

أولا: عن حديث بن باز عما حصل لنا من عز وتمكين ونصر وجعل النصاري يستاءون وينزعجون «لو كان ده حلم ياريته يطول، رحم الله عبدالحليم وزمن الهزائم الكبرى».

ثانيا: إن ما يحدث لنا من أمراض يسرهم، رغم أنهم هم من اختاروا مطاردة الأمراض والتعرض للموت بحثا عن الشفاء لكل إنسان واختراع العلاج دون قصره على النصارى وحدهم أو اليهود وحدهم إنه العلم، إنه الإنسانية.

ثالثا: إن الاستشهاد بحكاية عبدالله بن رواحة لا تشجع فقط على كراهية غير المسلمين، بل تدفع المسلم إلى ظلم الكتابى المعاهد رغم أن العهد كان مع النبى نفسه، أى أنه تستحسن المبالغة فى عدم العدل والإذلال لغير المسلمين فى دول الإسلام.

رابعا: إن الإنفاق على التبشير حق لكل صاحب دين ودليل إخلاص وليس تهمة، خاصة أن معظم المبشرين المسيحيين قد لجأوا إلى البدائيين فى قارات العالم سعيا وراء الدعوة الصادقة والثواب الأعظم بينما يقوم دعاتنا بالدعوة فى بلادنا بينما نحن قد أسلمنا منذ زمن بعيد، يعيشون فحش الثراء، ويدعوننا إلى حب الفقر لما فيه من السبع فوائد ناهيك عن كون قواعد البلاد الديمقراطية تسمح للمسلمين بالدعوة للإسلام فى

بلادهم وإقامة المساجد والمدارس الإسلامية وسد الشوارع يوم الجمعة فى صلاة تكسر القانون لاستفزاز أهل البلاد ليس أكثر، بينما أهل البلاد يرون فيه مشهدا فولكلوريا يأخذ بعضهم أولادهم للفرجة عليه كلون من الأنثربويولجيا والحفريات الحية.. هذا بينما غير مسموح فى بلادنا لأى صاحب دين غير الإسلام بالدعوة أو بالتبشير.

خامسا: إن حديث الرسول «إن الغنائم أحلت لناولم تحل لأحد من قبلنا» تحمل فى طياتها أن زمن الغزو والغنائم قد توارى فى مجتمع الجزيرة وأصبح قيمةمرفوضة بعد تطورها نحو التجارة بقيادة قريش. وانتفاع الجميع فى كل بقاع الجزيرة بهذه التجارة حتى قبل «كل عربى تاجر».. وهو يعنى أن الغنائم قد أصبحت قيمة مرفوضة بعد التطور الاقتصادى الذى غير بدوره الاجتماعى والقيمى، وأصبح الرأى فيها أنها لم تكن حلالا يوما حتى أحلها الله للمسلمين، لقد كانت شرا عربيا نتيجة للندرة والفقر اللذين كانا يدفعان العرب لغزو بعضهم البعض لكنه أصبح للمسلمين حلالا فى خطوة كان لابد منها فى زمانها لتحقيق الهدف الأسمى بتكوين جيش كبير يمكنه توحيد الجزيرة.

ولما كانت قيمة الغزو والغنم واستباحة العرض قيمة مرفوضة ومستهجنة فى قيمنا اليوم، ولا يمكن تفعيلها لأنها تحول أصحابها إلى مجرمى حرب يرتكبون جرائم ضد الإنسانية، يحاكم على مثلها رؤساء جمهوريات الآن، وأيضا لما كانت قيمة مرفوضة قبل قرار الإسلام فى تحليلها فالنتيجة النهائية أنها ترتبط بزمنها وحده شئنا أم أبينا، أحسنا التفسير أو أخطأنا ورغم ذلك فإن ابن لادن قد زود رجاله فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بأوامر بأن يسلب كل منهم شيئا ممن يقتلونهم فى عملية الاستيلاء على الطائرات، أى شىء ولو رمزى لتحقيق السنة؟!

هذا كله فى جانب، والآيات القرآنية تقول فى جانب آخر: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» «٤٨/المائدة» و«لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه/٦٧/الحج» وهو ما يعنى أن الاختلاف العقائدى قرار ربانى لا راد له، وآن من كبار الفقهاء الإمام الشاطبى كان يكرر على مريديه «إذا لم يحقق الحكم الشرعى المصلحة كان العمل غير شرعي وغير صحيح» بل إن حجة كل المتطرفين ومرجعهم ابن تيمية قد أكد وزاد أنه «إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات وتزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها، فإن الأمو النهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة أو دفع مفسدج فينظر فى المعارض له فإن كان الذى يفوت المصالح أو يحصل المفاسد أكثر، لم يكن مأمورا به بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر

من مصلحته» الفتاوى الكبرى «٤٨/٥» أما الإمام مالك فكان يجلجل بصوته منبها أن العدد فى الليمون أو كما قال: «إن الضعف فى القوة وليس فى العدد/ بداية المجتهد ٤٤٩/١».

ألا أنتقى بدورى أنا هنا؟! ألا أخالف منهج العلم عندما أختار آيتين تعبران عن الافتراق العقائدى بقرار من الله، إزاء رتل آيات يحرض علي البغض والقتل لغير المسلمين؟ هذا هو مقصدى بالضبط.. أنه ما أهون الانتقاء وما أهون رده وإسقاط حجته. وهى طريقة جميع المشتغلين بشئون الدين ينتقون من بين الآيات ناسخها أو منسوخها محكمها ومتشابهها ما يريدون تشغيله للوصول إلى الأغراض وهكذا هم اليوم،وغدا على الجهة الأخرى المقابلةأو المخالفةأو النقيضةلا يهم، فالقرآن مكمن الأسرار كلها وفيه حل المشكلات كلها لكل ذى هوى ولكل انتهازى رخيص كذلك الفقه بأبوابه وعلوم القرآن والشريعة وعلوم الأصول.. وفى كل منها طرق ونوافذ عديدة قد تتقابل أو تتعارض، فهى فى ذاتهاتراث لا ينطق بلسان ولا يفعل بنفسه إنما بالبشر الذين يقرأونه وهو فى ذاته ليس مسئولا عن تصرفات المسلمين فى ارتفاع أمرهم أو هوان شأنهم.

إن آيات الكراهية والحض عليها وعلى القتال آيات واضحات موجودة في كتاب الله وهى مستندات لا يمكن جحدها بيد كل متطرف ومقابلها آيات السماحة والمودة والرحمة أيضا آيات فى كتاب الله يستشهد بهامن يرفض الإرهاب، وهى بدورها مستندات لا يمكن جحدها وكلا النوعين من المستندات آيات مقدسة يغلب على المرهب منها ارتباطه بظروف زمن الدعوة فى المدينة «يثرب» بعد أن قوى شأن المسلمين وبدأوا فى توحيد الجزيرة بالقوة العسكرية بينما يغلب على آيات السماحة كونها قليلة جاءت زمن ضعف الدعوة فى بدايتها والمسلمون قلة بلا حيلة فى مكة قبل الهجرة.

المشكلة التى ستواجه المسلم غير المحترف هنا ارتباكه المنطقى الطبيعى وهو فيه معذور، وهو ما يؤدى إلى ارتباك فى العقيدة وفى اتخاذ المواقف ومنها مواقف مصيرية، ناهيك عن كون موقف أصحاب السماحة يبدو متغافلا عن آيات القتال والكراهية فى المرحلة المدنية ويبدو موقف الارهاب أكثر حجية لقيامه على أصول الدين فقها وعلى علوم القرآن علما، إذ تؤكد له هذه الأصول أن آيات الحرب قد نسخت آيات السلم، وأن آيات الإرهاب والكراهية قد نسخت الصفح والصبر والتواد والتراحم الجميل، وهنا لابد أن يخسر الانتقائيون من أهل السماح أى معركة فكرية طالما اعتمدوا الانتقاء بين النصوص، ومثل هذه الهزائم وإن لم تبد

واضحة مكشوفة، فإنها تكمن فى ضمائر الناس وقناعاتهم التي ستميل بالطبع مع صاحب الحجة الأقوى «أصحاب عقيدة الولاء والبراء» وهو ما ينعكس على سلوكهم سلبا وهو ما يؤثر فورا على الوطن وقضاياه، وتصبح نظرية أن كل مسلم إرهابى هى الفعالة.

ومن ثم إذا كنا نريد الوضوح مع الذات فعلينا عدم الهروب من الآيات المدنية إلى الآيات المكية، وبالعكس؟! مع كل جديد طارئ من إنزال الحديد من السماء إلى النعجة دوللي إلى حقوق الإنسان نبحث وننقب عن رأى الدين ومحاولات توفيقه مع ما أثبت تواجده من جديد العلم أو التحضر بخداع للذات وهروب من حل المشاكل على الأرض، ولأن العلم بكل فنونه والتحضر بكل رقيه ليس لنا فيه دور بل هو ليس من شيمنا فلا بأس من الاستمرار فى دور الغزو والغنائم فنسطو على كل جديد لنحيله إلى مقدسنا ينطق به قبل أن يعرفه العلم والحضارة بقرون طويلة. لنصبح نحن السابقين.

إن كلا النوعين من الآيات القرآنية، آيات الصفح والإعراض الجميل، وآيات الكراهية والتحريض على القتل، هى آيات قرآنية، وكلها مقدسات لنا معلقة فى رقابنا.. وهى الجزء الأعظم من ثقافة المسلمين وتكوينهم الفكرى ورؤيتهم للكون وللعالم ولرؤاهم حتى السياسية، لقد شكلت أداة الفهم الوحيدة للمسلمين على مر الأزمات منذ زمن العبودية إلى زمن حقوق الإنسان، لألف وأربعمائة عام والقرآن هو وسيلة المعرفة الوحيدة، وعليه تقاس كل الأشياء وهو معيار كل جديد لكن عبر قفز دائم من على الخط المكى إلى الخط المدنى الموازى، أو العكس أليس هذا امتهانا شديدا وغير محترم لكتاب الله؟! يرتكبه كل المسلمين فى حياتهم اليومية من السير فى الشوارع وأصوات القرآن فى كل مكان تتلى دون أن ينصتوا إليه أو يغلقوه حتى أصبح كالخلفية السحرية الفلكلورية التى تتميز بها شوارع المسلمين، إلى التحليل والتحريم حسب الطلب السياسى والمنافع الدنيوية، إلى منابذات الناس فى معاملاتهم اليومية حول مصالح شخصية تماما يجلس الله بينهما يشهد لهذا بحقه ويشهد للآخر بحق هو علي النقيض عبر استشهاد كل منهما بما يدعم موقفه من آيات.. هل يمكنك قارئى تخيل هذاالمشهد الذى لايليق برب جليل وكرم كريم.. طبعا لا يليق بمؤمن يزعم لنا الإيمان ويعلق على جسده ولغته الإعلانات التي تعرفنا بأخينا المؤمن.

يبقى ما يهرب الطرفان من مواجهته، أهل السماح وأهل الكراهية، وهو الاعتراف بأن قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وإن نفعت

زمانها أو حققت مصالح بعض الأحلاف خاصة حلف الشيخ والسلطان فإنها فى حساب المنافع والمصالح اليوم قد أصبحت تشكل مصيبة وعائقا دون قراءةالمقدس قراءة موضوعية توافق أهدافه، وتحترمه،ولا تنتهزه لمصالح بعينها، قراءة لاتجعله عائقا فى سبيل لحاقنا بقافلة الحداثة، ودون انتقاء مغلوط واضح التكلف والانتهازية، ودون تشغيل الله عند كل فريق من المتصارعين على التفاسير وقيادة المسلمين وهى القراءة التى ألح عليها بربط النص بزمنه وأحداثه ومكانه لنجده ينطق بالحقائق الواضحات، دون حاجة لقيامنا بنسخ آيات القتل بآيات العفو كما طلب استاذنا العفيف الأخضر، على الأقل لنتأكد من مدى التطابق القياسى بين حدث ماض وحدث حاضر حتى نعمم حكم بعض الآيات حسب مصالح الوطن والناس ونحيل أحكام آيات آخرى لزمنها ومكانها دون اعتبار لصلاحيتها المطلقة لكل زمن ومكان، بتجاوز غير حميد كما فى الحالة التى بين أيدينا «الولاء والبراء» وقد رأينا كل ماقدمه الظواهرى من آيات محشورا فى زمنه وأحداثه بارتباط عضوى لافكار منه إلى زمن آخر أو مكان آخر، إنها آيات زمنها ومكانها وليس قبل ذلك ولا بعد ذلك ولا فى مكان آخر. ولا يمكن تطبيقها إلا على حدث لعرب الجزيرة زمن الدعوة وأن موقفها الحاد كان من مشركى الجزيرة يهودها ونصاراها دون من هم خارجها من هندوس وبوذيين ويهود ومسيحيين أو أصحاب أى أديان أخرى وليس أدل على ترجيح وجهة نظرنا المطروحة هنا فى اقتصار آيات الكراهية ضد أصحاب الديانة اليهودية والمسيحية على سكان جزيرة العرب منهم دون غيرهم خارج الجزيرة أو خارج زمان الدعوة من وجود الصابئة فى جزيرة العرب، لكنهم كانوا قلة غير مؤثرة أو فعالة لذلك قلما أشارت الآيات إليهم ولم تتخذ منهم موقف العداء الذى اتخذته من يهود الجزيرة ومسيحييها لعدم توفر مناخ العداء الذى حدث إبان قيام الدولة الإسلامية ضد اليهود والنصارى العرب، فكانوا غير معطلين أو حجر عثرة أمام اندماج العرب فى دولتهم المركزية عبر الأيديولوجيا الإسلامية كما كان حال اليهود والنصارى. هذا علما بأن الصابئة كانت ديانة كبرى بل كانت أكبر ديانات الشرق حينذاك وامتدت من بادية الشام إلى العراق إلى بلاد فارس كلها إلى شمال الهند وهو ما يعنى أن الإسلام لم يتخذ موقف العداء من أصحاب أى ديانات خارج الجزيرة بموجب الآيات التى يستشهدون بها لاتخاذ مواقف عدائية من البشر وأديانهم خارج إطار الزمان وخارج المكان وخارج الظرف الذى صنع الموقف حينذاك.

د. سيد القمنى فى حديث غنى مع «شفاف الشرق الأوسط»

أجراه. أشرف عبدالقادر:

ذهبت للقاء د. سيد القمنى وأنا أتذكر رحلة المفكرين الليبراليين التنويريين، ابتداء من الشيخ على عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم» فى سنة ١٩٢٥، إلى طه حسين وكتابه «فى الشعر الجاهلى» سنة ١٩٢٦،مرورا بمحاكمة د. فرج فودة والحكم عليه بالإعدام، مرورا بقضية د. نصر حامد أبوزيد، ووصولا إلى طعن كاتبنا العالمى الكبير نجيب محفوظ من أجل روايته «أولاد حارتنا» ، انتهاء بدكتور سيد القمنى وكتابه «رب الزمان»، تذكرت كيف أن دعاة العقلانية الاعتزالية، يضطهدون فى زماننا، فلقد استنكر علماء الأزهر شجاعة وجرأة د. نصر حامد أبوزيد فى البحث العلمى فشنوا عليه حملتهم الشعواء والتى انتهت بالحكم الظالم بالردة والتفريق بينه وبين زوجته ابتهال يونس، وتذكرت شجاعة موقف د. سيد القمنى وهو يقف أمامهم فى المحكمة، ويسفه آراءهم ويخرج بالبراءة لكتابه «رب الزمان»، منتصرا للعقل ولحرية التفكير وتذكرت رد د. محمد عمارة على كتاب د. سيد القمنى فى لقاء مع إذاعة لندن قال فيه: «إن مشروعه الفكرى خارج الاجتهاد، لأنه يطعن فى صحيح الثوابت والعقائد، التى تجمع الأمة مما يستفز مشاعر المسلمين وأن هذا الاستفزاز يحدث فى مناخ عالمى يتخذ من الإسلام عدوا» وتذكرت أيضا كيف غضب دعاة غلق العقول ودعاة الفكر الرجعى لبراءة د. سيد لأنه تطاول فى كتابه على شيخين من شيخوهم هما الشيخ محمد الغزالى رمز الهزيمة النكراء فى ندوته بمعرض الكتاب الدولى أمام د. فرج فودة، وتذكرت أنه أفتى فى محاكمة من قتلوا الدكتور فرج، بأن أى مسلم يمكنه تنفيذ حدود الله بيديه، أى أنها دعوة لأى مسلم مهووس ليقتل وهو مرتاح البال والضمير، وتذكرت الشيخ الدكتور عبدالصبور شاهين، المسئول الأول عن الحكم الظالم على د. نصر حامد أبوزيد والذى قال عنه د. سيد «أنه مستشار بيوت هبش الأموال» لأنه كان يعمل مستشارا للبنوك الإسلامية التى نهبت أموال الغلابة والمساكين باسم الإسلام، وتعجبت من هالة القداسة التى يحيط بها شيوخ الأزهر أنفسهم، فهم فوق النقد وأى تجريح لهم هو تجريح للإسلام، ونحن نعرف أنه لا كهانة فى الإسلام وأن العصمة ليست إلا لله وللرسول، ثم تذكرت أيضا رد الكاتب الإسلامى فهمى هويدى على كتاب سيد القمنى الحزب الهاشمى» فى الأهرام حيث قال: «إن هذا الكلام لا يقال على الملأ لأن إشراك العامة فى مثل هذه الأمور يثير الفتن»! وخرجت من لقاء داعية الانفتاح والاجتهاد بعد أن ترك فى نفسى أثرا كبيرا لمرضه الذى يعانى منه، فهو يخشى أن يموت قبل أن يتم مشروعه الفكرى المسمى بإعادة ترتيب القرآن،

فهو يسعى لعمل «القرآن المرتب» لأنه يرى أن القرآن العثمانى لم يرتب كما أنزل من عند الله، بل كما أراده عثمان، أسأل الله أن يمد فى عمره وأن يعطيه الصحة والعافية ليتم مشروعه الفكرى الذى هو بصدد إعداده.

● ومتى وأين ولد سيد القمنى؟

ولدت فى ١٩٤٧/٣/١٣ بمدينة الواسطى من أعمال محافظة بنى سويف أولي محافظات صعيد مصر.

● كيف كانت طفولة سيد القمنى؟

نشأت فى بيت كبير متيسر الحال وإلى الثراء أقرب، تضم الأسرة عددا كبيرا من الأفراد وكثيرا من الخدم والضيوف بشكل يومى، مما جعلنى رغم هذه الكثرة أشعر بالوحدة، لأننى لم أكن محل اهتمام مع مشاغل الجميع بهذا البيت المفتوح للجميع. الأب أزهرى اشتغل بالتجارة وحقق نجاحا وضعه فى الصف الأمامى بالبلدة، وحقق تعويضه عن الأزهر بجلسات كبيرة فى بيته للاستماع إلى القرآن وطرح التفاسير والاختلاف حولها فكان البيت ناديا دينيا خاصة فى شهر رمضان حيث يستمر السهر حتى الفجر.

لذلك اصطبغت النشأة بالإسلام فى بيت شديد التدين، لكنه أيضا شديد التسامح، لاعتناق الأب آراء الشيخ محمد عبده وفكره مع التزامه القوى بالإسلام وإثبات أزهريته بارتداء الزى المشيخى التقليدى. لكن الطفولة عموما لم تكن سعيدة لملازمتى المرض مبكرا، ولوعى أصابنى بما يمكن تسميته «الاكتئاب الوطنى»، فى صباى بدأت الأمور تتحول إلى النقيض ومع تخرجى فى الجامعة كان على أن أحمل أعباء هذه الأسرة الكبيرة تخرجت من قسم الفلسفة بعين شمس وسافرت إلى الخارج لأتمكن من استكمال دراساتى العليا وتعليم أشقائى وشقيقاتى وعدت إلى الوطن فى ١٩٨٥ بقرار التفرغ التام والكامل للعمل الفكرى.

● ما هى العوامل التى أثرت فى فكر سيد القمنى؟

أنا ابن الهزيمة مثل كثيرين، لازالت وطأتها عليهم عظيمة من ١٩٦٧ وحتى الآن، وكانت الفاصلة فى فكرى وحياتى ودافعا للبحث عن أسباب الهزيمة، وهنا انصرفت عن قراءة الإبداع كالروايات العالمية أو المسرح أو القصص أو الشعر إلى قراءة البحوث العلمية والفكرية، خاصة ما تعلق منها بالأديان، وانكببت بالذات على مكتبة الدين الإسلامى الهائلة من علوم أصول إلى الفقه إلى الفلسفات إلى علم الكلام إلى علوم القرآن عند مختلف الفرق. لكننى لم أضع بحسبانى أن أكون كاتبا مشاركا إلا متأخرا فى عام ١٩٨٥. وقد تبنيت الطرح القومى مع موقفى النقدى من الإسلام والخطاب الإسلامى حتى حدث

احتلال الكويت وما تلاه، لأهتم قليلا بالقراءة السياسية حيث اهتزت قناعتى القومية أو بالتحديد العروبية المصبوغة بنماذج كالناصرية، لأتحول إلى الليبرالية مبدأ وعقيدة كنموذج أمثل لخلاص الوطن.

● ما هى الكتب التى أثرت فى فكرك؟

أثر فى فكرى ثلاثة كتب أساسية قرأتها وأنا طالب بليسانس الفلسفة جامعة عين شمس، الأول هو «اسبينوزا» للدكتور الجليل فؤاد زكريا، والثانى هو «نحو آفاق أوسع» للمرحومة العظيمة أبكار السقاف التى هى بحاجة إلى رد الاعتبار والتقدير لهذا العمل تحديدا ثم كتاب ثالث قرأته متأخرا كان سببا فى اهتمامى بالأساطير هو كتاب الباحث المحترم الأستاذ فراس السواح «مغامرة العقل الأولى»، إضافة إلى مجموعة كتب البحث العلمى التى درستها فى التمهيد للماجستير وكان لها فضل الضبط العلمى الدقيق فيما كتبت من أعمال.

● ما هى آخر مؤلفاتك؟

كتاب «شكرا ... بن لادن».

● ما هى الأفكار الأساسية فى مشروعك الفكرى؟

أنا أكثر تواضعا من الزعم بامتلاك مشروع فكرى متكامل المواصفات مترابط الخطوات، وإذا وجدت عبارة مشروع فكرى على أغلفة كتبى الخلفية فإنها تكون ضمن كلمة الناشر الذى يكتب ما يراه دون تدخل من جانبى. لكن يمكن إيجاز الخطوط التى تسير فيها محاور أعمالى وشاغلى بشأنها وأهدافها التى أرجوها منها.

● ما الذى يشغل فكر سيد القمنى؟

إن شاغلى الأساسى هو تخلف وطنى وهزيمته الحضارية الفادحة، و من ثم فإن أى بحث أقوم به يكمن وراءه الكشف عن مجهول أو شبه مجهول، أو قصد نقدى لفكرة أو مفهوم أو رؤية خاطئة تساهم فى تخلفنا أو تحجب عنا رؤية ما نحن فيه مقارنة بالأمم الراقية. وقد ارتسمت دراساتى بهذا الصدد عدة خطوط ومن بينها إعادة قراءة السيرة النبوية بمنهج سوسيوتاريخى يربط النص المقدس بواقع الدعوة وهو يتغير ويتطور ليقيم دولته السياسية، وذلك كما فى كتابى «الإسلاميات».

هناك خط قصد إلى دراسة جذور الأساطير، ومنابعها، والظروف التاريخية التى صيغت فيها أو من أجلها، ومقاصدها وكيف وصلت إلى الديانات الكبرى الشرق أوسطية وضمنها الإسلام لتصبح مقدسات، وذلك كما فى كتاب «الأسطورة والتراث»، وكتاب «قصة الخلق» ثم خط يعمد مباشرة

إلى نقد الحاضر العربى على مختلف مستوياته للكشف عن الأخطاء فى الفهم أو فى النظرية أو فى التطبيق أو فى القوانين أو فى السياسات، وأصول هذه الأخطاء فى خطنا النظرى دينيا، وكيفية التخلص من تلك الأخطاء دون إساءة للدين ولا خسارة للدنيا، وذلك كما فى كتاب «الفاشيون والوطن وكتاب «شكرا ... بن لادن» ثم خط يهتم بهذا جميعه، لكنه مساحة متعتى الخاصة، بالبحث عن حل لمشكلات غير محلولة فى التاريخ، أو الكشف عن غموض مستغلق، بمنهج أشرك فيه القارئ معى فى البحث وراء خيوط الغامض وحل المشكل، وأحمله معى بعض المشقة لتكوين كوادر جديدة عبر هذه المتعة العلمية التى هى تدريب على البحث العلمى واعتياد على منهجه، ويمثل هذا الخط كتاب «النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة» هذا كله إضافة إلى خط الاهتمام بقضية فلسطين واليهود كما فى كتاب «الإسرائيليات».

● تثار الآن نقاشات وجدل حول تجديد الخطاب الدينى، فما رأيك فى هذه القضية وهل المطلوب تجديد الخطاب الدينى أم تحديثه أم ماذا؟ وكيف

إن ذعر الاقتراب من الدين الإسلامى نقدا أو تفكيكا وتحليلا أو لمجرد تقديم قراءة وتفسير جديد، جعل الجميع يحذرون الاقتراب من جوهر المشكلة، رغم أن المشكلة الآن هى فى تركيب الدين نفسه وتكوينه الذى يتفرد به عن معظم الأديان الأخرى، والتى وسمته بخصائص جعلته يحمل كثيرا من التناقضات الداخلية فى المفاهيم والأحكام، سمحت بمحاولات تدخل لرأب الصدوع وإزالة التناقضات، لكنها سمحت من جانب آخر للمشتغلين بأمور الدين باستخدام أبعد خطاب ممكن عن أخلاقيات الأديان، فاتسم خطابهم بالخداع والانتهازية والتبرير والتجميل وبحسابات المصالح، وحلف العمائم مع السلطات، لم ينشغل هذا الخطاب بالناس بل بإثبات صدق وجهة نظر واحدة، دون وجهات نظر أخرى محتملة يفرضها شكل الإسلام وظروف نشأته وتطوره وتكوينه عبر ثلاث وعشرين سنة، هى عمر تفاعل الوحى وجدله مع واقع الأحداث حينذاك، وكان ممكنا أن تؤسس متغيرات الوحى وتبدل أحكامه لتعددية فكرية ناضجة فى ظل الإسلام، لكن الحلف المبكر الذى قرر استخدام الدين لمصالحه لم يترك على الساحة سوى وجهة نظر واحدة هى الصادقة وعداها هو الباطل، وأن أصحاب هذا الرأى الواحد هم «الفرقة الناجية» وما عداها من فرق إسلامية هالك.

ومع تثبيت المفاهيم والنصوص وتحرك الواقع وظهور التناقضات بين جديد الدين وقديمه لم ينشغل الخطاب الدينى بالناس ولا إصلاح الأخطاء أينما كان أصحابها، قدر ما شغله مفهوم العار البدوى الذى لا تؤلمه الهزائم والتخلف، قدر ما يؤلمه انكشاف هذا العار وذيوعه، ولأن رؤية واحدة كانت هى

السائدة عبر التاريخ، فقد ساد تصور أن هذه الرؤية هى الدين نفسه، لذلك فإن أى انتقاص منها أو عار يلحقها هو بالضرورة لاحق بالدين ذاته وهو الأمر غير المسموح به.

● ما المقصود بالتناقضات الداخلية؟

حتى أوضح المقصود بالتناقضات الداخلية سأضرب هنا مثلا واحدا وإن كان أكثرها حساسية لدى المؤمن وأبعده أثرا فى حياة المسلمين، أقصد تلك التناقضات الناشئة عن طريقة جمع المصحف العثمانى التى لم تراع فى تصنيفها وتبويبها قواعد التصنيف والتبويب المعروفة، كأن تجمع آيات التعبد معا والتشريعات معا وعلى الترتيب الزمنى والقصص الوعظى معا وقوانين الأخلاق معا، بل إنها لم تراع الترتيب الزمنى للآيات وارتباطها بأحداث الواقع وجدلها معه وتأثرها به، وتأثيرها فيه وتغيرها وتبدلها حسب متغيرات هذا الواقع و هى سمة فارقة تميز الإسلام عن بقية الأديان. الحكمة الوحيدة فى الترتيب العثمانى- إذا كانت حكمة- هى السير فى ترتيب النصوص من السور الأطول إلى السور الأقصر دون أى رابط موضوعى ولا زمنى. هذا بينما السور الأقصر كانت هى الأولى زمنا بحيث لو أردت قراءة القرآن قراءة شبه مرتبة فعليك البدء بآخر المصحف رجوعا إلى أوله.

● لماذا لا يقوم عالم مسلم فدائى بترتيب آيات القرآن حسب تاريخ نزولها ومعها هامش بأسباب نزولها؟

ربما لأن هذا العالم الفدائى غير موجود.

● ما المشكلة فى هذا الترتيب العكسى؟

نتيجة هذا الرتيب فى الجمع، تجاورت الآيات الناسخة مع الآيات المنسوخة، وسبق حكم حكما آخر تاليا له حسب الترتيب الزمنى، واختلطت آى السلم بآى الحرب، وآيات حرية الاعتقادات بآيات فرض الإسلام دينا وحيدا صحيحا ومن يعتقد بغيره فلن يقبل منه. ولا عبرة هنا بقول من يصرون على أن هذا الترتيب توقيفى أى كان وقفا على النبى وجبريل، وأنهما من رتباه على هيئته الحالية، لأنه لو كان الأمر كذلك ما ظلت مصاحف الصحابة الكبار على اختلافها بعد موت نبيهم وحتى زمن عثمان بن عفان، ولأنه حتى لو كان الأمر كذلك فإنه يظل بحاجة إلى إعادة نظر.

● هناك دراسة حديثة جدا تؤكد أن عبدالملك ابن مروان وليس عثمان ابن عفان هو الذى وضع اللمسات الأخيرة للمصحف وحذف ١١ آية على الأقل؟ ما تعليقك على ذلك؟

لم أطلع بعد على هذه الدراسة.

● ما مخاطر تجاور الآيات الناسخة والمنسوخة؟

مخاطر كبيرة جدا، لأنه بتجاور المتشابه والمحْكم والناسخ والمنسوخ، مع عدم ترتيب زمنى يوضح ما رفع وما بدل وما ثبت وما انسى وما فقد، أصبح المسلم فى حيرة من أمر دينه والتبست عليه أحكامه وتناقضت مواقفه، وهو ما أدى إلى بروز دور رجال الدين فى دين لا يعترف برجال الدين، وقد أصبح لهم مبرر وجود ضرورى كمتخصصين تكون مهمتهم التوسط بين الله وبين الناس لشرح كلمته لهم وإيصالها إليهم، ليحل المتوسط الشارح بفهمه وشرحه محل النص القرآنى ويتحول كلامه إلى نص جديد مقدس، بل وتلتبس القدسية بأصحاب الشروح من سدنة الدين عبر التاريخ، هذا رغم أن هذا التوسط مرفوض، بل مدان إسلاميا، لأن الإسلام لا يعترف بالكهانة ولا يقر بوجود رجال دين مسلمين، ومع ذلك لم يستح بعض المسلمين من استثمار وضع المصحف لصالح أنفسهم بالعمل كرجال دين محترفين، بل وصنفوا لكل طريقة «يونيفورم» كالزى الشيعى للملالى والأزهرى للمشايخ.. إلخ لإثبات تميزهم عن بقية المسلمين، وإثبات أنهم طبقة كهنوتية إسلامية من نوع خاص.

رجال الدين جعلوا كلام الله لغز الألغاز ليكونوا نواب الله لشرحها

وأصر هؤلاء على إيهام المسلمين بقدسية الحبر والأحرف والورق وترتيب المصحف فيها وبسبيل هذه القدسية وجد رجال الدين فرصا هائلة لتبرير هذا الوضع بعلوم اخترعوها ومفاهيم وضعوها وقواعد استنوها لا تسمح للمسلم العادى بمعرفتها، والتعاطى معها كأدوات لفهم دينه ـ رغم أنها أدوات لتعقيد هذا الفهم ـ وأصبح كلام الله هو لغز الألغاز وسر الأسرار المستغلق على الأفهام، بدلا من أن يكون واضحا بسيطا سهلا ساطعا للمؤمنين به.

● لكن هذا ما حدث فى جميع الأديان، فهى فى البداية كانت بسيطة ثم عمد رجال الكهنوت لتعقيدها لتصبح مغلقة على العامة ليكونوا هم الأوصياء على شرحها.

هذا هو ما حدث فى الإسلام أيضا فضمن تلك العلوم جاءت علوم القرآن، لتضع لنا الحكم البواهر فى استمرار وجود آيات تحمل أحكاما بطل العمل بها فى حياة النبى نفسه، وعن الأسرار الربانية فى وجود أكثر من حكم إزاء فعل واحد، ولماذا نأخذ بحكم منها ولا نأخذ بالآخر رغم وجوده فى آيات تتلى يتعبد بها المسلم. أو لماذا الإصرار على تفعيل أحكام ضاعت آياتها من المصحف العثمانى كحكم رجم الزانى المحصن، ولأن الله قال: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، فإنهم يأخذون دور الله هنا كنواب له فلا يعترفون بهذا الضياع الذى حدث، ويأخذون بأحكام السنة بدلا مما ضاع ويصرورن

على حكم رجم الزانى المحصن، وحتى يتم تبرير تفعيل حكم دون نص أو لوجود نص معطل الحكم أو لوجود الحالين مجتمعين.

● إذن رجال الدين وضعوا بذلك أسس الكهانة فى الإسلام؟!

إنهم يستغلون الدين أسوأ استغلال، ويضعون حكمتهم البالغة فى تقسيم النسخ أنواعا على ثلاثة أشكال، ولكل شكل ضروبه وينتقلون من المتشابه إلى المحكم وبالعكس، ويرصون على أرفف المكتبة العربية قواعد وقوانين ومفاهيم جعلت مكتبة الإسلام أكبر مكتبة فى التاريخ لدين من الأديان، كلها صياغات بشرية شابهتها شواغل المصالح والتحالفات وأفاعيل السياسة، ولبست ثوب القدسية دون مبرر واضح واحد، ويضع لنا الفخر الرازى مثلا تفسيره لسورة الفاتحة وهى بضعة أسطر فى مجلد من ثلاثمائة صفحة، رغم وجود إشارات فى علوم القرآن لا تعتبر الفاتحة قرآنا إنما هى من قبيل الافتتاح بأدعية وتسبيح وتقديس قبل قراءة القرآن.

● الباحث الليبى الصادق النيهوم أستاذ الدراسات القرآنية فى جامعة جنيف «سويسرا» يقول إن الرجم لا وجود له فى الإسلام وإنما أخذه الفقهاء من التوراه. ما تعليقك؟

فقهاء الإسلام طبقوا التوراة بدل القرآن فى حد الرجم. فلا وجود لحد الرجم فى القرآن.

● ما الذى يجب عمله للتخلص من ذلك؟

يجب تقديم النصوص للمسلمين مرتبطة بواقعها وزمانها مرتبة زمنيا، ذلك كفيل بحل كثير من التعقيدات التى تجعل المسلم بحاجة دائمة لمفسر ومفتى معا. وهى فى اعتقادى عملية يسيرة يمكن القيام بها، إلى جانب المصحف العثمانى لو اجتمع لها أهل الهمة، خاصة مع وجود المصادر الكافية المفصلة، التى تساعد على إتمام هذا العمل من كتب تأريخ إلى سير، إلى أخبار إلى حديث، ودون تدخل من علم الفقه أو اعتماده أصلا، لتقديمها فى شكل يسير سهل التناول، يصل بين المسلم ومقدسه ولا يفصل بينهما ليضع المشايخ فى الفراغ بينهما.

● هل هذا ما كنت تعنيه بقولك سابقا «التناقضات الداخلية»؟

هذا مثال يبرز المقصود بالتناقضات الداخلية، التى تستبعد المؤمن العادى وتضع مفاتيح الآخرة بيد السدنة وتسمح بانتهازية الدين واستخدامه بما هو ضد الدين والناس والله لصالح فئة واحدة هى حلف الحكام والفقيه التاريخى الرذيل.

● الإسلام وعلوم العصر، كل مخترع علمى يحاول المتأسلمون إيجاده فى القرآن. ما تعليقك على ذلك؟

القرآن ليس كتاب علم، بل هو كتاب دين روحى، وهناك تناقضات تتراكم كل يوم وليلة بينه وبين واقع الحياة المتغير المتبدل دوما، خاصة مع الإصرار على تغطية الدين لكل صغيرة وكبيرة فى حياتنا ولكل شأن عظيم أو تافه. ومع القفزات الهائلة التى حققها المنهج العلمى فى حياة البشرية، أصبح المسلمون يدينون بكل معاشهم وعمارتهم وعلاجهم وسعادتهم وترفهم لهذا المنهج وأصحابه فى بلاد الغرب، ومع الشعور الأكيد بالتخلف إزاء المتفوق وكيف أصبحت خير أمة أخرجت للناس فى قاع رتب الأمم، فقد زاد ذلك من الشعور بالعار وبطريقنا المعهود فى علاج العار، قام جهابذتنا يؤكدون أننا سبقنا الغرب فى كل المعارف، وأنها كانت مكنونة مصونة فى طيات ألفاظ مقدسنا ونحن لم نكن نعلم. دون أن تقدم تلك الجهود شيئا حقيقيا ملموسا فى حياتنا إلا المزيد من التخلف مع كل زيادة لمساحة المقدس فى حياتنا.

● الإسلام وحقوق الإنسان. كيف نوفق بينهما؟

مع التطور العلمى الإنسانى الذى رافقه تطور على المستوى الأخلاقى نحو مزيد من ضمان الحريات الفردانية وحقوق الإنسان. وانتهت كبرى وصمات العار فى التاريخ البشرى عندما كان الإنسان يسترق أخيه الإنسان، وأصبحت فترة قبيحة مدانة فى تاريخ الإنسان. ومع ذلك يصر حماة الإسلام وسدنته على تدريس أحكام أبواب فقه كامل للعبيد، وأحكام ثلاث وعشرين آية تشرع الرق والسبايا وملك اليمين. ورغم أننا تقدمنا بهذا الشأن بدراسات تبيح إلغاء أحكام تلك الآيات وبعض الآيات الأخرى عند الضرورة، مع مبررات هذا الإلغاء فقهيا وشرعيا ومصلحيا «أنظر مثال لذلك كتابنا الفاشيون والوطن»، فإن سادتنا المشايخ حملوا علينا حملة رجل واحد ودارت معركة ضارية ضروس لم ير فيها سادتنا المشايخ فيما نقول سوى أنه لون من الهذيان وردوا علينا بالتكفير الدينى والتخوين الوطنى بجمود معتاد لا يفعل أكثر من إقصاء المختلف ونفيه واستبعاده.

● مع أن نسخ الآيات القرآنية التى لم تعد صالحة لزمانها مشروع، فقد مارسه القرآن بالناسخ والمنسوخ ، ونسخ الصحابة مثل أبوبكر وعمرو وعلى رضى الله عنهم آية المؤلفة قلوبهم، وآية الفئ وغيرهما، كما بين ذلك د. محمد عابد الجابرى والأستاذ العفيف الأخضر. فما تعليقك؟

لا يجوز لمسلم نسخ آيات إنما يجوز له تعطيل أحكامها وهو أمر مشروع إسلاميا تمت ممارسته عدة مرات عندما تطلبت الضرورة ذلك. لكن مشايخنا أعماهم التعصب والجمود العقائدى والذهنى ويرفضون التفكير لأنه أشق عليهم من التكفير السهل، أنهم يعيشون فى تناقض لا أول له ولا آخر ويصرون

فى الوقت نفسه على أن الإسلام أول من وضع حقوقا للإنسان!! وأن تلك الحقوق جاءت كاملة نقية من كل شائبة، بينما حق الاعتقاد مثلا - وهو أس ولب وجوهر تلك الحقوق - حق مرفوض إسلاميا دونك ودونه حد الردة، رغم أنه بذلك يتدخل فى أشد المناطق خصوصية هى منطقة الضمير، حيث هناك الحرية المطلقة، وحيث لا يمكن الإطلاع على دواخله ولا التدخل فيه.

● ماذا نفعل لنخلص الإسلام من قيود وسلاسل الماضى ليلحق بحاضرنا وقيمه الراقية؟

لا أجد فى تأكيد سدنة العقيدة على تأكيد حقوق الإنسان فى الإسلام سوى مزيد من الشعور بالعار، يطلبون له مواد التجميل ومساحيق لا تخفى شيئا ولا تجمل شيئا. وأنهم لديهم يقين كامل برقى تلك المبادئ الحقوقية الإنسانية والحقوقية الحديثة، ويريدون للإسلام التحلى بها فيعلنون سبق الإسلام فى ميدان الحقوق رغم مبدأ كقتل المرتد أو نهاية الرق من التاريخ وبقائه بالإسلام ودون أى محاولة لإعادة النظر فيما بأيديهم من نصوص، فالرق كان موجودا قبل الإسلام، بل إن الإسلام طالب بعتق العبيد وبيع النساء المسترقات فى الأسواق ليتمتع بهن المسلمون بالغصب منهن، هذه الأفعال كانت مقبولة فى أخلاق تلك الفترة. لكن المشكلة الحقيقية فى نظرى المتواضع أن الفقهاء التقليديين وزعماء المتأسلمين - كما يسميهم د. رفعت السعيد - مازالوا مصرين على أن الرق و «ملك اليمين» أى الإماء، ويعتبررونه أمرا أخلاقيا ومشروعا اليوم أيضا، لمجرد أن القرآن أباحه فى حقبة تاريخية معينة.

● تعرف أن مصطفى مشهور شيخ المتأسلمين المصريين صرح لـ «الأهرام ويكلى» بطرد الأقباط من الجيش وتحويلهم إلى أهل ذمة كما جاء فى القرآن، إن ما ينقص هؤلاء بعد حسن النية هو فهم أنه لابد من قراءة النص الدينى قراءة تاريخية. د. محمد عابد الجابرى يقول إن الله بالناسخ والمنسوخ أراد أن يعلمنا كيف نقرأ القرآن بعد موت الرسول «صلى الله عليه وسلم».

كلام د. الجابرى صحيح تماما وأنا من أنصار القراءة التاريخية لنصنا الدينى لتطهيره من الأحكام التى فات أوانها وزمانها.

● لكن كيف نخلص الإسلام من سلاسل الماضى؟

لتخليص الإسلام من سلاسل الماضى ليلحق بحاضرنا وقيمه الراقية الفارقة حتى عن زمن النبوة، لأن الرقى التطورى طبيعى مفهوم فى ضوء تطور الإنسانية بتطور العلوم والفنون وتبدل أشكال الحضارة لكنهم يرون الرقى مقصورا فقط على زمن النبوة، وأن البشرية قد اكتمل نضجها علما ومعرفة وخلقا ورقيا وتحضرا فى زمن النبوة، وأن ما بعده انحطاط دائم وترد

وتخلف؟! بل ربما يكون قولنا هنا برقى البشرية بعد زمن الدعوة لونا من الكفر يضيفونه إلى لائحة اتهاماتهم، اعتمادا على الحديث القائل: «خير العصور عصرى ثم الذى يليه فالذى يليه» لكن رقينا المعاصر عن تلك الأزمان البدائية حقيقة ساطعة باهرة كالشمس لا ينكرها إلا فاقد الرشد والتمييز بالمرة، وما أكثر فاقدو الرشد بينهم.

● يا دكتور سيد، راشد الغنوشى يقول إن على المسلمين فى القرن الحادى والعشرين أن يعودوا إلى دولة الخلافة الراشدة. ما رأيك فيما يقول؟

«يضحك د. سيد ويقول»: كلهم يقولون.. دعهم يقولون.

● وماذا عن حقوق المرأة؟

لدينا مشكلة مستعصية فيما يتعلق بوضع المرأة فى الإسلام ووضعها الحقوقى اليوم، ففى الإسلام هى ناقصة دين فى العبادة، وناقصة عقل عن الولاية وهى نصف الذكر فى الميراث وفى الشهادة، وهى رفيق الشيطان من فجر الخليفة، وهى فتنة تسير على قدمين، لذلك يجب تغطيتها لحجب شرها عن المجتمع، ومع ذلك مطلوب منها أن تعطى المجتمع حقوقه كاملة، وإلا وقع عليها عقاب هو فى بعض الحالات أشد من العقوبة التى تقع على الرجل إزاء نفس الفعل.

ولأن حقوق المرأة فى إنسانية كاملة غير منقوصة قد فرضت نفسها على الدنيا، وأثبتت المرأة حضورها ووجودها، فى جميع مناشط العمل الإبداعى بجدارة لا تشير إلى نقص يعتريها، فقد قام سادتنا المشايخ يكتشفون سبق الإسلام لمعرفة هذه الحقوق وأنه أول من أعطى المرأة حقوقها غير منقوصة.

فالنساء شقائق الرجل لهن ما لهم وعليهن ما عليهم، فى خطاب خداعى لا يخجل من نفسه أبدا، ولا ينظر فى المسألة الحقوقية للمرأة فى الإسلام وعندما لا يمارس المشايخ وظيفتهم لخدمة الناس والوطن والدين فإنهم يستقيلون من وظائفهم ويتركون المهمة لغيرهم، الغريب أنهم أدوا شفويا حقوق المرأة دون أى نظر فى القانون، وعندما قدمنا هذا النظر مشفوعا بدراسات فقهية مطولة تعطى المرأة حقها وتحفظ للدين مكانه قامت السيدة الدكتورة الأزهرية تكفرنا ضمن جوقة المكفراتية لأننا أخطأنا الصواب وطالبنا لها بحق كحق الذكور، ولا تعرف كيف يلتئم الموقفان: الموقف الذى يؤكد حقوق المرأة فى الإسلام، والموقف الذى يكفر من يطلب لها تلك الحقوق فى الإسلام؟ إنه الشعور بالعار الذى يصيب بعدم الاتزان والتناقص وسوء الفهم والتقدير فيهرع إلى تجميل الإسلام بالأوسمية التى وصلت إليها الإنسانية درءا للعار. دون أن يفعل أى شىء حيال ما يستتبع تلك الأوسمة من متغيرات حقوقية لازمة، ومتغيرات فى الفهم أولا.

● اسمح لى د. سيد أن اختلف معك فى هذا الموضوع. رأيى المتواضع أن نشجع من يقول من المشايخ أو حتى من المتأسلمين أن حقوق الإنسان لا تتعارض مع الإسلام وهى فى نظرى المتواضع تتعارض مع نصوص القرآن وخاصة نصوص الحديث الذى اختلقته الفرق الإسلامية لأسباب سياسية ولكن حقوق الإنسان لا تتعارض مع روح القرآن، وروحه هى العدل.

الأستاذ العفيف الأخضر طالب بكتابة تفسير عبدالله ابن عباس رضى الله عنه لآية «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» (هود١١٧) على الصفحة الأولى من جميع كتب التربية الإسلامية فى جميع البلاد العربية وتفسير عبدالله ابن عباس الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو «حبر هذه الأمة» أنه قال: «إن الله لا يعذب على الشرك وإنما يعذب على الظلم» هذه هى روح القرآن كما فهمها من تخرجوا فى مدرسة النبوة مباشرة أليس عدم المساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق ظلما؟

أليس عدم المساواة بين المرأة والرجل فى الميراث اليوم ظلما؟ أليس عدم المساواة بين غير المسلم والمسلم اليوم ظلما؟ أليس رفض تدريس العلوم الحديثة التى بها تتقدم اليوم جميع الأمم ظلما لأمة الإسلام؟ أليست العمليات الانتحارية ضد المدنيين والمستأمنين ظلما؟!

إن القول فى الهواء الطلق شىء والاقتناع به وتأكيده للمسلمين وتفعيله حقوقيا شىء آخر لا خلاف معك يا أستاذ وأنا متفق مع ما قاله أستاذنا العفيف الأخضر، لكن كل ما أريد أن أقوله إنهم يقولون ذلك من طرف اللسان، هم يقولون إن القرآن سبق حقوق الإنسان فى الاعتراف للمرأة بحقوقها ليضيفوا بعد ذلك أن حقوق الانسان فى الإسلام لا تتعارض مع كون المرأة ناقصة دين فى العبادة وناقصة عقل فى الولاية وميراثها أنقص بالنصف من ميراث الرجل. هذا التناقض المخجل هو الذى أشجبه ولو كانوا صادقين فى ادعاءاتهم لكنت أول المؤيدين لهم فهدفنا هو خدمة أبناء وطننا وديننا ولا شىء غير ذلك.

● فلابد إذن من تطور المفاهيم العربية الإسلامية لتتناسب مع روح العصر؟

ما فى ذلك شك، فمع تطور قيم الإنسان برزت مفاهيم جديدة وأخلاق جديدة فيما يربط الإنسان بوطنه وبمفهوم المواطنة، ترتبت عليها مشاعر ومواقف إزاء استقواء دولة على أخرى، واستقلال الشعوب وإرادتها. وضمن هذه المعانى الجديدة أعادة الشعوب قراءة تاريخها وإصلاح شئونه والاعتراف بالأخطاء أينما وجدت، بل والاعتذار عن الأخطاء التاريخية التى تم ارتكابها

فى حق شعوب أخرى. بينما تصر الدول التى غزاها المسلمون الأوائل واحتلوها استيطانا وارتكبوا فى حق أهلها من المظالم فوادحها ومن التنكيل أفظعه ونزحوا خيراتها إلى عاصمة الخلافة، وقضوا على لغاتها الأصلية التى هى وعاء حضارتها وماضيها كله فانقطعت عن هذا الماضى ليصبح ماضى الاحتلال هو تاريخها المقدس، واسلموا سكانها بالجزية أو بالقوة، وجعلوا مسلميها موالى أى مملوكين للمالك العربى وأصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية فى وطنهم إزاء العرب الفاتحين الذين كانوا سادة البلاد المفتوحة ومواطنيها المتميزين، وبخطاب مخادع ردىء الصنعة والهدف عديم القيم تصر هذه الدول- حتى اليوم- عبر هيئاتها الدينية على الاحتفال السنوى بذكرى الفتح العربى لبلادها الذى أخرج أهلها من الظلمات إلى النور وهى الحالة الوحيدة فى تاريخ الدنيا التى يحتفل فيها وطن بذكرى احتلاله بكل تكريم وتبجيل.

وهكذا يتقدس كل شأن إسلامى حتى لو كان احتلالا للبلاد وهتكا للأعراض ونهبا للثروات بخلط بين الدين وبين الغزاة وإسباغ القدسية على الغزاة والتماهى بهم.

● لا شك د. سيد أنك تذكر ما قاله عثمان بن عفان عندما قال مؤنبا لعمرو ابن العاص الذى رفض زيادة الجزية على المصريين حتى لا يموتوا جوعا فعزله عثمان وقال: «درت اللقحة» «أى الناقة» بعدك يا عمرو، فأجابه عمرو ابن العاص ذو القلب الرحيم «ولكنكم جوعتم صغارها يا عثمان.

لذلك أقول إن ديننا الإسلامى بحاجة إلى الكثير ليتصالح مع زمننا ومفاهيمه وقيمه، وإلى خطاب جديد مختلف يستخدم أدوات جديدة لإجراء جراحات لكثير من العلل الكامنة التى اكتسبت قدسية ليست من الدين فى شىء، وهو الأمر الذى أزعم أنى أقوم ببعضه فى أبحاثى ودراساتى، بخطاب لا يخفى العورات بل يكشفها، لا يخشى العار قدر ما يخشى خروجنا من الوجود ذاته بعد أن خرجنا من دور الفعل فى التاريخ.

● فى الواقع د. سيد أنت أحد أهرامات مصر وأنت تقوم بعمل تاريخى لإصلاح الإسلام سوف يذكره التاريخ وأتمنى على وزير الثقافة فاروق حسنى أن تتولى وزارته ترجمة أعمالك إلى الإنجليزية والفرنسية ونشرها خارج مصر ليسفيد منها مسلمو العالم وليعرف مثقفو العالم أن مصر لا تنتج فقط الإرهابيين مثل المجرم أيمن الظواهرى بل تنتج أيضا أمثالك وأمثال المستشار العشماوى والمفكر جمال البنا ود. رفعت السعيد والأستاذة فريدة النقاش ود. زقزوق والإمام الأكبر شيخ الأزهر وغيرهم كثيرون.

شكرا لك، مصر قدمت كثيرا من المفكرين المتنورين والمصلحين على مر الأجيال والعصور.

● فى كتاب الحزب الهاشمى تبنيت تفسيرا سياسيا تاريخيا لنشأة الدعوة الإسلامية وأرجعتها إلى عبدالمطلب بن هاشم، فهل مازلت عند رأيك، أم أنك أصبحت ترى التاريخ يجب أن ينظر إليه من خلال معطياته هو وألا تسقط عليه مصطلحات معاصرة؟

فى هذا الكتاب قدمت قراءة جديدة لواقع جزيرة العرب والعالم راعيت فيه دقائق الجغرافيا ومعطيات حقل الأحداث من أشكال اجتماعية إلى تنظيمات اقتصادية إلى عادات وتقاليد ومعتقدات وتركيبة سكانية وتطور هذا جميعه متضافرا معا عشية الإسلام ليصوغ فى النهاية واقعا جديدا أفرز هذه الإيديولوجيا وأقام للعرب دولة سياسية مركزية وقد استكملته بكتاب «حروب دولة الرسول» لقراءة السيرة النبوية ونصوص القرآن مرتبطة بأحداث زمانها قراءة سوسيوتاريخية فى كتاب «الإسلاميات» وقد كانت هذه القراءة بابا دخلت منه من بعدى أقلام أخرى تبنت طرحى كمؤسس، كما فى كتاب الشيخ الجليل المرحوم خليل عبدالكريم «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية» وما أقامه بعد ذلك من بناء متميز كان مؤسسة ومعتمدة وجهة النظر التى طرحتها فى الحزب الهاشمى، كذلك تبنى ذات الطرح الأستاذ سعيد العشماوى فى الباب الأول من كتابه الخلافة الإسلامية، كذلك بعض الباحثين العرب المبتدئين بخطوات صلبة نتمنى أن يضيفوا للمكتبة العربية نواقصها.

● هذا يؤكد يا دكتور ما قلته لك منذ قليل من أنك رائد فى البحث الإسلامى لا وجود له، ولا تخشى فى الحق لومة لائم بل وغامرت بحياتك فى عصر القتلة المتأسلمين وفقهاء الإرهاب.

شكرا لك وأتمنى عليك ألا تخجل تواضعى بمثل هذا المديح فلدينا الكثير من المفكرين العمالقة ولهم أفضال غير منكورة وعلى رأسهم تلك الأسماء المحترمة المطروحة مثل العشماوى والبنا والسعيد وغيرهم، ولكنى لا أعتقد أنى قمت بأى إسقاط معاصر إلا فى لغة الكتابة دون إعمال تلك اللغة إلا بما يناسب زمن الحدث لكن لينطق هذا القديم بلغتنا اليوم عما حدث فى ذلك الماضى، ولم أرجع الأمر كله إلى عبدالمطلب بن هاشم قدر ما أعطيته حقه كشخصية تاريخية تركت أثرا عظيما فى محيطها، لكن كان إلى جواره عناصر وظروف هى التى أفرزت عبدالمطلب ونماذج الحنيفية الآخرين.

● أعلنت جماعات الإسلام السياسى أخيرا تخليها عن العنف وعن مضمون الإدانة والتكفير للسلطة والمجتمع، حتى أنهم اعترفوا بأن السادات

مات شهيدا. فهل ترى ذلك كافيا لقبولها فى الحياة الحزبية المعاصرة فى مصر؟

إن الأحزاب السياسية فى مصر بل الحياة السياسية كلها بل والاقتصادية والاجتماعية قائمة على أسس غير سليمة ليس هنا مجال مناقشتها. لكن المشترك بين الجميع حديثهم عن الديمقراطية السياسية «حرية صندوق الانتخاب»، دون جوانب الديمقراطية التأسيسية ودونها لا ديمقراطية، أقصد الجانب الحقوقى الذى يؤسس حقوق الاختلاف وحقوق المرأة وحقوق الأقليات وحق الاعتقاد الحر بإطلاق وحق تشريع البشر لأنفسهم بما يناسب مصالحهم ومعطيات واقعهم. وكلها حقوق مرفوضة من جميع التيارات الإسلامية بدون استثناء ولا أعتقد الأمر سوى مناورة أذكى فى منهجها من لغة القنابل والرصاص، بغرض الوصول إلى السلطة عبر صندوق الانتخابات وبعدها يكون لكل مقام مقال.

● هل تشترط للاعتراف بأى حزب قبوله الديمقراطية، أى التداول السلمي على الحكم حتى لا تتكرر فى مصرنا الحبيبة المأساة الإيرانية حيث الأقلية من رجال الدين التى لم تفز إلا بثلاثين فى المائة من الأصوات هى التى تحكم والأغلبية من الإصلاحيين التى فازت بسبعين فى المائة من الأصوات فى المعارضة والقبول الصريح لكل مواد حقوق الإنسان وبالقانون الوضعى المستمد منها؟

نعم اشترط ذلك لإبعاد الذئاب المتنكرة فى جلد الحملان من الحياة السياسية.

● كيف ترى العلاقة بين الأساطير القديمة خاصة فى مصر والشرق الأوسط وبين الدعوة الإسلامية على أساس أنها نشأت فى شبه الجزيرة العربية التى كانت بمعزل نسبى عن تلك المعتقدات؟

ليست الجغرافيا دائما هى العامل الحاسم، فرغم أن جغرافيا شبه الجزيرة تضعها فعلا بمعزل نسبى عن معتقدات الحضارات المحيطة بالجزيرة، إلا أن ظروف التاريخ كسرت القاعدة الجغرافية وتحولت الجزيرة إلى أكبر مستقبل وليس طاردا للهجرات فى بعض الأزمنة، فكانت الملجأ الآمن لكل الهاربين من الاضطهاد السياسى أو الدينى على ألوان فرقهم ومذاهبهم ومعارفهم وأفكارهم وأساطيرهم، وهم من أدوا إلى متغير ثقافى عظيم فى داخل الجزيرة بعد أن تعربت هذه الهجرات وأصبحت قبائل عربية، فأكبر منطقة فى عالم ذلك الزمان تضم يهودا ذوى شأن كانت هى جزيرة العرب، كذلك انتشرت ألوان مسيحية مذهبية على مختلف الأطياف إضافة إلى



الصابئة والمانويين ناهيك عن العبيد المستجلبين وتجار العالم الذين كانوا يمرون عبر الجزيرة بين الشام واليمن وكانت أكبر محطاتهم هى مكة. وكانت الأساطير آنذاك ملاحم وفنونا راقية تحمل خبرات المجتمع وحكمة الأجيال وتفسير الإنسان لما حوله فى الكون نشأة وتكوينا وحركة ووجودا وعدما، بلغة التعبير فى تلك الأزمان عن دور القوى الغيبية كفاعل فى الكون المشاهد، كمفسر للحدث الواقعى. وقد وجدت كثير من الأساطير المصرية فى الحياة والموت والفينيقية والبابلية «أساطير الخلق والطوفان مثلا» طريقها إلى التسجيل فى الكتب المقدسة كما فى التوراة «العهد القديم» والتلمود. وقد ساعد على تزايد الهجرات إلى الجزيرة ظهور أزمنة الاضطهاد العقدى والفكرى، عندما أصبح مذهب من المذاهب دينا رسميا لدولة ما تضطهد ما عداه وتتفية وقد تجلى ذلك فى الزمن الهللينى الرومانى حتى سماه التاريخ بعصر الآلام.

● لكن هل أثرت كل هذه الأساطير على الإسلام كدين؟

لقد حمل هؤلاء ثقافتهم معهم إلى الجزيرة لتؤثر بعد ذلك فى العقيدة الإسلامية وفى كتابى «النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة» شواهد وأدلة على انتقال كثير من عقائد مصر القديمة وعاداتها وطقوس عباداتها إلى الجزيرة، بل وانتقال مفردات اللغة المصرية ومعانيها المتعددة إلى حد التطابق، بل إن عقيدة المسلمين فى الآخرة تكاد تتطابق جملة وتفصيلا مع العقيدة المصرية بهذا الشأن من فكرة البعث إلى الحساب إلى الجنة والنار وإلى الصراط «كما فى كتاب: الطريقين» والميزان وشهادة الجوارح على الميت «كما فى كتاب الموتى»، مع قصور اليهودية والمسيحية عن هذا التطابق مما يشير إلى انتقال مباشر من مصر إلى الإسلام أو المحيط الذى ظهر فيه الإسلام دون وسيط، وهذا ما حاول الكتاب المشار إليه تحقيقه وبحثه، هذا إضافة إلى أن سراة العرب كانوا يرسلون أبناءهم لتلقى التعليم العالى فى مدرسة جنديسابور، ثم تلقى التعليم الجامعى فى جامعة الاسكندرية، وكان منهم من دخل مباريات معرفية وتحديات ثقافية تتعلق بمعارف تلك المعاهد مع النبى محمد مثل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط.

● العقيدة الإسلامية مليئة بالأساطير، كيف يمكن تنقيتها من كل هذه الشوائب؟

كل الأديان مليئة بالأساطير وليس الإسلام وحده، بل ربما كان الإسلام هو أقل الأديان احتواء على الأساطير، لكنه يعتمد كسر قوانين الطبيعة بالمعجزات كأدوات دالة على النبوة والاتصال بالقوى السماوية، فهو يعتمد كثيرا من

الأساطير عن الملك الإسرائيلى سليمان، ولمحمد معجزة خاصة فى الإسراء بالبراق الأسطورى ثم المعراج إلى السماء على سلم من نور، وأساطير عربية مثل ناقة صالح التى أنجبتها صخرة وغيرها. لكن لا أعتقد أن مهمتنا عصرنة الإسلام بهذا المعنى أو تنقيته من الشوائب كما تقول، لأنها لم تكن شوائب فى زمنه بل متوافقة مع منطق قائم فى أديان أخرى تصدقها أمم بكاملها على أنها حقائق، وقد قبل مسلمو عصر النبوة هذ المعجزات واعتبروها دلائل على صدق النبوة، لكن المشكلة أن مسلمى اليوم لم ينغرسوا فى مناهج عصرنا كما انغرس أهل الغرب، لذلك تحولت أساطير الكتاب المقدس إلى مايشبه الفولكلور اللطيف، وليس عن اقتناع بإمكان كسر قوانين الطبيعة اليوم كما هو حال الاعتقاد الإسلامى فى انتظار خلاص إعجازى أدى إلى تبلد عقلى طويل.

ومع التبلد تغيب الحقائق ومن ثم الإرادة والعقل والفعل انتظارا للحل الإعجازى.. لذلك علينا أن نقبل مأثورنا كما هو دون غربلة ولا تنقية إلا فيما هو ضرورى كإضافة للموجود فعلا وليس مزيحا له ولا مغيبا له، لأن فى قراءته فوائد جمة تضىء لنا ذلك الزمن وكيف كان يفكر وماذا كان منطقه فى القبول والرفض، إضافة إلى أنها تلقى ضوءا على أشكال المجتمع ونظمه لمن أراد درسها بغض النظر عن الإيمان بهذه الأساطير «الشوائب» من عدمه.

● ترفع الجماعات الإسلامية شعار الجهاد فى العراق وفلسطين فهل ترى أنه مازال بوسع هذا التيار تحريك الشارع؟ أم أنه شعار ينتمى إلى الماضى ولا يصلح للفكر المعاصر والقرن الحادى والعشرين؟

مسألة تحريك الشارع ليست وحدها الدافع الأمثل لاعتماد الجهاد من عدمه، لأن هذه الحركة قد يكون لها مضار أكثر من المنافع، لأن المطلوب هو الحركة الرشيدة المنتجة وليس الحركة العشوائية التى قد تأتى بكوارث، وإذا كان تطبيق هذا المفهوم فى زمنه مجديا فلأنه كان هناك فراغ قوى دولى يحتاج إلى من يملؤه وقد ملأه العرب، ولأن موازين الضعف والقوة تحولت إلى صالح العرب فقد أقاموا إمبراطورية فى حينها، وهى ذات القوانين التى تفعل فعلها اليوم لكن بعد أن انقلبت المعادلة لغير صالحنا وأصبحنا الطرف الأضعف، إزاء قوى تملك السيطرة على البر والبحر والجو وما تحت الأرض، بمناهج وفلسفات تختلف بالمرة عن زمن الجهاد. وإذا كان الجهاد قد حقق للمسلمين زمن ظهوره الغنائم، فإن تفعيله اليوم دون اعتبار للمتغيرات الكونية عبر أربعة عشر قرنا جعلنا نحن الغنائم.

واليوم هناك مفهوم الكفاح الوطنى الذى لا يكافح لا من أجل الله ولا من

أجل الجنة ولا من أجل الحور العين ولا لنصرة الدين ولا الدفاع عن مسجد له رب يحميه، ولكنه يكافح لتحرير وطنه وإرادته من الاحتلال، ويشارك فى هذا الكفاح أهل الوطن من كل ملة ودين وعنصر، ويكسب تعاطفا عالميا ودعما لابد أن يؤدى إلى انتصاره فى النهاية.

أما مفهوم الجهاد فهو مفهوم طائفى عنصرى، يقصى من العمل الوطنى كل أبناء الوطن من غير المسلمين، ويدافع من أجل الله ومقدساته قبل وطنه ويؤدى إلى نفور الضمير الدولى الذى تجاوز العنصرية والطائفية وأصبحت لغات مرفوضة بل ومرضية، ومع تقسيمه المواطنين واستبعاد بعضهم من الفعل ـ فيما يفعل مفهوم الجهاد ـ فإنه يشق الصف الوطنى شقا ويمزق وحدته أشلاءً.

ثم إن مفهوم الجهاد مفهوم واسع وضع فى زمن مفارق لزماننا على كل المستويات، لأنه استوعب ظرفه العالمى آنذاك ووضع على عاتق المسلمين فتح بلاد الدنيا وإخضاعها للمسلمين وإن ذلك واجب على كل مسلم وهو ما يحمل ضمنا العداء المسبق لكل شعوب الدنيا بسبب العقيدة وحدها وهى ما لايكفى اليوم مبررا، ويحتاج تفعيله إلى قوة عظيمة لا نملك منها شيئا، دون أى محاولة لفهم سياسى ناضج لأحوال عالم اليوم وضرورات عقد التحالفات أو فكها على أسس مصلحية دقيقة ليس فيها مجال للعنتريات الطائفية أو العنصرية.

وعلى المستوى الأخلاقى فإن مفهوم الجهاد يفترض ملاحق له تتمثل فى الإغارة والسلهب والنهب والسبى وركوب نساء العدو، لأن الغنائم أحلت لنا ولم تحل لأحد من قبلنا، كما قال النبى محمد فى حديثه الصحيح، وصادق عليه القرآن بآيات تقفو بعضها بهذا المعنى. وهذه الملاحق قد تجاوزتها الدنيا وأصبح للحروب قواعد أخلاقية مرعية، بوثائق دولية ترعى كرامة الإنسان حتى لو كان محاربا، كذلك يحمل مفهوم الجهاد قوة دفع استعمارية لحوحة لاحتلال البلاد الأخرى ونفل ثرواتها وتغيير ثقافتها.

لكن الجهاد عندنا مبرر بأخلاق دينية ترى المجاهد فى أرقى الدرجات حتى لو فتح البلاد وقتل الناس وانتهك الأعراض وسلب الأموال، بينما ترى المدافع عن بلاده وحياته وعرضه هو الآثم لأنه يمنع المجاهد من نشر دينه. وما أبشعه منطق إن صلح فى زمانه فهو لم يعد صالحا لزماننا بالمرة، بل إنه لم يعد مصدر فخر بأى معنى من المعانى بل إن ما فعله المجاهدون عبر تاريخنا غير الجميل يحتاج من العرب اعتذارا واضحا عما ارتكبوه من فوادح الآثام العظام فى حق الشعوب المفتوحة فى تلك الأزمان البربرية.

المحتويات

إصـدارات دار مـصــر المحــروســة

سوسيولوجيا الفكر الإسلامى		
طور الانهيار (٣) الفلسفة والتصوف	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
ور الانهيار (٤) الفكر التاريخى	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
المجلد العاشر محاولة تنظير	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
الخطاب الدينى المعاصر بين التقليد والتجديد	د. محمود إسماعيل	٢٠٠٥
مقاربات نقدية فى الفكر والأدب	أحمد صبرى السيد	٢٠٠٥
اخوان الصفا بين الفكر والسياسة	روبير بندكتى	٢٠٠٥
الشعائر بين الدين والسياسة فى الإسلام والمسيحية	الأب وليم سيدهم اليسوعى	٢٠٠٥
لاهوت التحرير رؤية عربية إسلامية مسيحية	د. أحمد راسم النفيس	٢٠٠٥
المصريون والتشيع الممنوع	د. أحمد عبد الله رزة	٢٠٠٥
قضية الأجيال تحدى الشباب المصرى عبر قرنين	د. منار الشوربجى	٢٠٠٥
الديمقراطية المقيدة إنتخابات الرئاسة الأمريكية	لينين الرملى ـ أريسطوفانيس	٢٠٠٥
سلام النساء ـ ليزيستراتى	أطفال ـ مترجم عن اليونانى	٢٠٠٥
الفراشة التى خلفت وعدها	مجيد طوبيا	٢٠٠٥
رواية ترميم قضية أحمس	ترجمة: ينى ميلاخرينودى	٢٠٠٥
نور الدين بومبه	منتصر الزيات	٢٠٠٥
الجماعات الاسلامية (رؤية من الداخل)	د.سيد القمنى	٢٠٠٥
شكراً ... بن لادن !!	د.عاطف أحمد	٢٠٠٤
الإسلام والعلمنه	د.وحيد عبد المجيد	٢٠٠٤
هيكل بين الجريده والكتاب	د.عبدالعاطى محمد	٢٠٠٤
شيوخ بلا خناجر	رضا هلال	٢٠٠٤
الأمركه والأسلمه	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
الإسلام بين الدوله الدينيه والدوله المدنيه	خليل عبد الكريم	٢٠٠٤
نحو فكر إسلامى جديد	د.حنان سالم	٢٠٠٤
جرائم الصفوه فى مصر	ترجمة: د. نعيم عطية	٢٠٠٤
إبن البلد	ترجمة: د. عبدالمحسن الخشاب	٢٠٠٤
تجار القطن	ترجمة: د. عادل أمين	٢٠٠٤
هوكوجكى (يوميات راهب يابانى)	توفيق خليل	٢٠٠٤
زنوبة اللهلوبة	خالد الفيشاوى	٢٠٠٤
مناهضو العولمه	لينين الرملى	٢٠٠٤
صعلوك يربح المليون	شهدى عطيه . عبد المعبود الجبيلى	٢٠٠٤
أهدافنا الوطنيه	د/ وحيد عبدالمجيد	٢٠٠٣
حروب أمريكابين بن لادن و صدام حسين	ترجمه/إسماعيل داود	٢٠٠٣
حكام العالم الجدد	رضا هلال	٢٠٠٣
تفكيك أمريكا	د/ عاطف كشك	٢٠٠٣
العداله البيئيه فى مصر	الاب / وليم سيدهم	٢٠٠٣
كلام فى الدين و السياسة	د / حنان سالم	٢٠٠٣
ثقافه الفساد فى مصر	د / حنان سالم	٢٠٠٣
الصحافه المصريه وقضايا الفساد		


سيد القمنى
أهل الدين ٠٠
والديمقراطية
دار مصر المحروسة